

الكسي تولستوي

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الاول

الشقيقتان



دار التقدم

موسكو

لذلك الزمن ، وكاتبة . (رواية «قلب قلق» وقصص بعنوان «مكان منسى» . وبعد ذلك جملة من كتب للاطفال واكثرها شعبية هو «الصديقة») . . .

انقضت طفولتى فى ضيعة زوج امى المسماة سوسنوفكا . بستان ، وبرك يحيط بها الصفصاف ، وينمو فيها القصب . والنهير السهبى تشاغرا . والرفقاء هم اولاد القرية . وخيول الركوب . والسهب المعشوشب ، حيث الربى وحدها كانت تكسر خط الافق الرتيب . . . وتعاقب فصول العام مثل احداث ضخمة وجديدة دائما . ان كل ذلك ولا سيما نشاتى وحيدا قد وسعت دائرة احلامى .

حين كان الشتاء يحل ، وتتراكم الثلوج فى البستان وحول البيت كان عواء الذئاب يرتفع فى الليل . وحين تغنى الريح فى مداخن المواقد ، يضاء مصباح معلق فوق مائدة مستديرة فى غرفة الطعام ، وهى حجرة مجصصة الجدران ومفروشة بشكل بائس ، ويقرأ زوج امى فى العادة نكراسوف ، وليف تولستوى وتورغينيف بصوت عال . . .

وكانت امى تصغى وهى تحيك الجوارب . وكنت ارسم او الوّن صورا . . . ولم تستطع اية حادثة ان تخرق صمت تلك الامسيات فى ذلك البيت الخشبى القديم حيث تفوح حرارة المواقد المجصصة ، المدفاة بالروث المجفف او القش ، وحيث لا بد من شمعة للتنقل من حجرة مظلمة الى اخرى . . .

لم اقرأ كتب اطفال غالبا ، فمن المحتمل انها لم تكن لدى . وكان كاتبى المفضل تورغينيف . وقد بدات اسمعه فى امسيات الشتاء وانا فى سن السابعة تقريبا . ثم ليف تولستوى ونكراسوف وبوشكين . (كان اهل البيت ينظرون الى دوستويفسكى بشىء من الرعب باعتباره كاتبا «قاسيا») .

وانا فى نحو العاشرة اخذت اكثر المطالعة ، كل ما لهؤلاء الكلاسيكيين . وبعد حوالى ثلاثة اعوام حين ادخلونى بصعوبة (لاننى حصلت فى امتحانات القبول على درجة سقوط تامة تقريبا) فى مدرسة ثانوية استطعت الحصول فى مكتبة المدينة على جيول فيرن وفينيمور كوبر وماين ريد والتهمتهم بتعطش ، رغم ان امى وزوجها كانا ينعيان على هذه الكتب تفاهتها .

وقبل دخولى الى المدرسة الثانوية كنت اتعلم فى البيت ، فقد استقدم زوج امى من سامارا معلما هو اركادى ايفانوفيتش سلوفواخوتوف وهو طالب مدرسة ثانوية دينية ، وكان مجدورا احمر كالنار وشخصا ممتازا انسجمنا معا ولكننا درسنا العلوم على مهل .

ذات شتاء ، وكنت فى نحو العاشرة ، نصحتنى امى بكتابة قصة . وكانت تود كثيرا ان اصبح كاتبا . وقد قضيت امسيات كثيرة منكبا على مغامرات الصبى ستيبكا . . . وانا لا اذكر شيئا من هذه القصة غير عبارة : كان الثلج يتلألأ تحت ضوء القمر كالالماس . وانا لم ار الالماس قط ، ولكن هذا التشبيه اعجبنى . ولم تكن قصة ستيبكا موفقة على ما يبدو ، فلم تكرهنى امى مرة اخرى على الابداع .

قبل الثالثة عشرة ، قبل دخولى الى المدرسة الثانوية عشت حياة تاملية حالمة . ولم يعفنى هذا بالطبع من ان اقضى اياما كاملة فى حصد العشب ومكان حصاد الحبوب ودراسها ، وعند النهر مع اولاد القرية ، والتردد شتاء الى المعارف من الفلاحين لاستمع الى الحكايات والحواديث والاغانى ، ولعب الورق والكعاب ، والعراك على اكوام الثلج بالقبضات ، والتقمص فى اعياد الميلاد ، وركوب الخيول غير المروضة بلا لجام ولا سرج ، والى غير ذلك .

تركت سنوات المجاعة الثلاث من عام ١٨٩١ حتى عام ١٨٩٣ اثرا عميقا فىّ ما زلت احسه حتى الآن . كانت الارض آنذاك مشققة ، والخضرة قد ذبلت قبل الاوان وتناثرت ، والحقول صفراء محروقة . وفى الافق عتمة كدرة احرقت كل شىء .

وفى القرى تعرت سطوح الاكواخ لان الناس استخدموا قشها علفا للمواشى ، وربطت المواشى النحيلة السليمة بالسيور الى الروافد . . . فى تلك السنوات نجت ضيعة زوج امى بالكاد من الخراب . . . ومع ذلك فقد اضطر بعد بضع سنوات الى بيعها . . . ان ولاية سامارا كلها اصبحت تعود الى كبير مالكى الاراضى شاخوبالوف الذى كان يشترى اراضى الاعيان كلها ويأخذ من الفلاحين اجور الاستئجار السنوى بالقدر الذى كان يشتهيه . . .

فى عام ١٩٠١ انهيت المدرسة الثانوية فى سامارا وسافرت الى بطرسبورغ للاستعداد لامتحانات القبول . واديت امتحان القبول الى المعهد التكنولوجى ودخلت فرع الميكانيك .

ارجع تجاربى الادبية الاولى الى سن السادسة عشرة ، وهى عبارة عن اشعار هى تقليد عاجز لنكراسوف ونادسون . وانا لا استطيع ان اتذكر السبب الذى حدانى الى كتابتها ، فقد يكون الحلم الطائش الذى لم يجد شكلا له . كانت الاشعار فجة فتركت العكوف عليها .

ولكننى كنت اشتاق مرة بعد اخرى الى عملية خلق لم تتبلور بعد . واحببت الدفتر والحبر والريشة . وعندما كنت طالبا كنت اعود بين الفينة والاخرى الى تجربة الكتابة ، ولكن ذلك كان بداية شىء ما لا يستطيع ان يتشكل ، ان يكتمل . . .

تزوجت فى وقت مبكر ، فى التاسعة عشرة ، طالبة فى معهد الطب ، وعشنا سوية عيشة طلابية عاملة اعتيادية حتى نهاية عام ١٩٠٦ . واشتركت مثل الجميع فى الاضطرابات والاضرابات الطلابية ، وانضممت الى كتلة الاشتراكيين الديموقراطيين ، والى لجنة مطعم المعهد التكنولوجى . وفى عام ١٩٠٣ كدت اقتل بحجارة طائرة اثناء مظاهرة عند كاتدرائية قازانسكى ، فانقذنى كتاب كنت قد حشرته تحت المعطف على صدرى .

وعندما اغلقت المعاهد التعليمية العالية سافرت فى عام ١٩٠٥ الى درزدن ، حيث قضيت سنة فى مدرسة تكنيكية . وهناك عدت الى كتابة الشعر مرة اخرى ، وكانت هذه تجارب ثورية وغنائية . فى صيف ١٩٠٦ عدت الى سامارا ، واطلعت والدتى عليها . فقالت فى اسى انها جميعا غثة جدا .ولم احتفظ بهذا الدفتر .

ان لكل عصر شكله الذى يصوغ به الافكار والمشاعر والعواطف . ولم يكن لدى هذا الشكل الجديد ولم اكن قادرا بعد على خلقه .

فى صيف ١٩٠٦ توفيت امى الكسندرا ليونتيفنا بالتهاب السحايا . فرحلت الى بطرسبورغ لاتابع دراستى فى المعهد التكنولوجى .

وبدأ عهد الرجعية ، ويطلع الرمزيون معها على اضواء المسرح .

عند ذاك ، فى ربيع ١٩٠٧ ، كتبت اول ديوان لى وهو اشعار «منحلة» . وكان ذلك كتيبا تقليديا ساذجا رديئا . ولكنه بالنسبة لى شققت به الطريق الى فهم الشكل الحديث للشعر . وبعد عام اصدرت الديوان الثانى : «وراء الانهار الزرقاء» . وانا لا اتبرأ منه حتى يومنا هذا . فان «وراء الانهار الزرقاء» حصيلة اول تعرف بالفولكلور الروسى ، بالابداع الشعبى الروسى .

حينذاك بدأت تجاربى الاولى فى النثر «حكايات القعقع» . وقد حاولت فيها ان اصف على شكل حكايات انطباعاتى فى الطفولة . ولكن استطعت بعد سنوات عديدة ان اوفق فى ذلك بقدر اكثر كمالا فى قصة «طفولة نيكيتا» .

وانا مدين ببداية عملى ككاتب قصى لصلتى بالشاعر والمترجم م . فولوشين . فى صيف ١٩٠٩ سمعت فولوشين وهو يقرا ترجماته من هنرى دو رينيه . وقد بهرنى سبك الصور . ان الرمزيين فى بحثهم عن الشكل والجماليين ، مثل رينيه ، اعطونى مبادىء الشىء الذى لم يكن لدى آنذاك ، ولا سبيل للابداع والشكل والتكنيك بدونه .

فى خريف ١٩٠٩ كتبت اول قصة طويلة لى هى «اسبوع فى ضيعة تورغينيفو» وهى احدى القصص التى دخلت فيما بعد فى كتاب «ما وراء الفولغا» وبعد ذلك فى المجلد الموسّع «تحت اشجار الزيزفون القديمة» وهو كتاب عن تقليدات حياة الاعيان من ذلك القسم من اصحاب الاطيان الذين طحنهم سلاطين الارض الجدد — آل شاخوبالوف . لم يمس كتابى الاعيان المترسخين على الارض الذين انتقلوا الى الاشكال المكثفة من الاقتصاد . فلم اكن اعرفهم . ثم تتبع ذلك روايتان «السيد الاعرج» و«غريبو الاطوار» . وبذلك ينتهى عهدى الاول فى الفن القصصى ، المرتبط بالبيئة التى كانت تحيطنى فى صباى .

استنفدت موضوع الذكريات ، واقتربت تماما من الواقع المعاصر . وهنا منيت بالفشل . فقد كانت قصص واقاصيص الواقع المعاصر فاشلة وغير نموذجية . والآن ادرك سبب ذلك . فقد واصلت العيش فى دائرة الرمزيين الذين لم يكن فنهم الرجعى يتقبل الواقع المعاصر الفائر بعنف وتهديد فى اتجاهه نحو الثورة .

ابتعد الرمزيون فى التجريد ، فى الغموض قابعين فى «الابراج العاجية» حيث كانوا ينوون انتظار انتهاء ما كان يزحف .

لقد احببت الحياة ، وكرهت بكل جوارحى التجريد والمذاهب المثالية . والذى كان نافعا لى فى عام ١٩١٠ اضرنى واعاقنى فى عام ١٩١٣ .

كنت ادرك جيدا ان من المستحيل الاستمرار فى ذلك . كنت اعمل كثيرا دائما ، والآن اعمل باصرار اشد ، ولكن النتائج كانت بائسة : فانا لم ار الحياة الحقيقية للبلاد والشعب .

وبدأت الحرب العالمية الاولى . وكنت فى جبهات القتال كمراسل حربى لجريدة «روسكيه فيدوموستى» ، وزرت انجلترا وفرنسا (عام ١٩١٦) . وانا منذ زمان بعيد لا اعيد اصدار كتاب اللوحات الادبية عن الحرب لان الرقابة القيصرية لم تسمح لى بكل قوة ان اقول ما رايته وما شعرت به . ولم تدخل غير بضع اقاصيص ذلك الوقت فى مجموعة مؤلفاتى .

ولكننى رايت الحياة الحقة ، وساهمت فيها بعد ان نزعت عنى رداء الرمزيين الاسود المسدل كليا . ورايت الشعب الروسى .

فى الاشهر الاولى من ثورة شباط تحولت الى موضوع بطرس الاكبر . ومن المرجح ان سليقة الفنان اكثر من الوعى هى التى جعلتنى ابحث فى هذا الموضوع عن مفاتيح لغز الشعب الروسى ، والدولة الروسية .

وانا ارجع بداية عملى المسرحى ككاتب مسرح الى الايام الاولى من الحرب . وقبل ذلك ، فى عام ١٩١٣ ، كتبت كوميديا «المغتصبون» وعرضتها على مسرح «مالى» فى موسكو .. وقد اثارت حماسة فى قسم من المشاهدين ، وسرعان ما منعت من قبل مدير المسارح الامبراطورية .

ما بين عام ١٩١٤ و١٩١٧ كتبت وعرضت خمس كوميديات : «الطلقة» و«الشيطان» و«السنونو» و«الصاروخ» و«اللون المر» .

ومع قيام ثورة اكتوبر عدت الى النشر مرة اخرى ، وانهى المسودة الاولى لـ«يوم بطرس» واكتب قصة «كونوا رحماء !» التى هى اول تجربة لنقد المثقفين الليبراليين الروس فى ضوء لهيب اكتوبر .

وفى خريف عام ١٩١٨ سافرت مع العائلة الى اوكرانيا ، وقضينا الشتاء فى اوديسا ، حيث كتبت كوميديا «الحب كتاب ذهبى» وقصة «كاليوسترو» . ومن اوديسا سافرت مع العائلة الى باريس ، وهناك بدات فى تموز عام ١٩١٩ بكتابة ملحمة «درب الآلام» .

كانت الحياة فى الهجرة اقسى فترة فى حياتى . هناك ادركت ما تعنى ان تكون منبوذا ، انسانا مقطوعا عن الوطن ، بلا وزن ولا ثمرة ، ولا حاجة لاحد بك فى كل الاحوال .

وكتبت بحماس رواية «درب الآلام» (الجزء الاول «الشقيقتان») وقصة «طفولة نيكيتا» و«مغامرات نيكيتا روتشين» وبدأت عملا كبيرا امتد عدة اعوام : اعدت من جديد عمل كل ما هو ثمين مما كتبته حتى ذلك الوقت . . .

وكان باكورة عملى بعد العودة الى الوطن مؤلفان : قصة «على العتبة» . وبذلك انقطعت فى الحال كل صلاتى بالكتاب المهاجرين . و«لبس الحداد على» اصدقائى السابقون . وفى ربيع ١٩٢٢ وصل من روسيا السوفييتية الكسى مكسيموفيتش بشكوف * . وانعقدت بيننا علاقات ودية .

فى فترة اقامتى فى برلين كتبت رواية «آيليتا» وقصص «الجمعة السوداء» ، و«مقتل انطوان ريفو» و«المخطوطة المكتشفة تحت السرير» وهى اكثر هذه الاعمال اهمية من حيث الموضوع . . .

فى ربيع ١٩٢٢ سافرت مع العائلة الى روسيا السوفييتية .

وكان باكورة عملى بعد العودة الى الوطن مؤلفان : قصة «ايبيكس» وقصة غير طويلة هى «المدن الزرق» . . .

فى عام ١٩٢٤ عدت الى المسرح : كوميديا «طرد الشيطان الضال» ومسرحيتا «مؤامرة الامبراطورة» و«آزيف» وكوميديا «اعاجيب فى المنخل» و«الشباب العائد» وتحويلات مسرحية «تمرد الآلات» و«انا كريستى» و«رجل اعمال» (حسب موضوعات مسرحيات الشاعر الالمانى غازينكليفر) .

---

* مكسيم هوركى .

وفى عام ١٩٢٦ كتبت رواية «هيبربولويد المهندس غارين» ، وبعد عام بدات بكتابة الجزء الثانى من رواية «درب الآلام» وهو «عام ١٩١٨» .

وفى نفس الوقت لم اكف عن تحوير وتنقيح كل ما كتبته من قبل . . .

فى عام ١٩٣٠ كتبت الجزء الاول من رواية «بطرس الاول» . وبعد عام ونصف العام الرواية الهجائية : «الذهب الاسود» التى اعدت صياغتها فى عام ١٩٣٨ ونشرتها تحت عنوان «المهاجرون» ، وانهيت الجزء الثانى من «بطرس الاول» فى عام ١٩٣٤ .

ان كلا الجزئين التى نشرتهما من «بطرس الاول» ما هما الا مدخل الى الرواية الثالثة ، الى العمل الذى بدات به (فى خريف ١٩٤٣) .

ما الذى ساقنى الى ملحمة «بطرس الاول» ؟ ليس صحيحا اننى اخترت ذلك العهد لتفسير الواقع المعاصر . لقد جذبنى الاحساس بكمال القوة الفوارة والابداعية للحياة التى تفتح فيها الخلق الروسى بنصوع فريد .

ان اربعة عهود تجذبنى الى التصوير لنفس هذه الاسباب : عهد ايفان الرهيب ، وعهد بطرس الاول ، والحرب الاهلية ١٩١٨-١٩٢٠ وعهدنا الحالى المنقطع النظير بسعة نطاقه واهميته . ولكن الكتابة عنه رهن بالمستقبل . ولفهم سر الشعب الروسى وعظمته يجب ان يُعرف ماضيه معرفة جيدة وعميقة : ان يُعرف تاريخنا ، وعقده الجذرية ، والعهود التراجيدية والابداعية التى تشكل فيها الخلق الروسى .

فى عام ١٩٣٥ بدات بكتابة قصة «الخبز» التى هى نَقْلة ضرورية بين رواية «عام ١٩١٨» ورواية «صباح غائم» التى كنت اعمل الفكر فيها فى ذلك الوقت . وانهيت «الخبز» فى خريف ١٩٣٧ . وقد سمعت الى العديد من الانتقادات لهذه القصة ، وهى فى غالبها تنحصر فى انها جافة و«عملية» . ولتبرير ذلك استطيع ان اقول شيئا واحدا هو ان «الخبز» كانت محاولة لتمثيل مادة تاريخية دقيقة بوسائل فنية . ومن هنا جاء جموح الخيال . ولكن من الممكن ان تنفع هذه المحاولة احدا من الناس فى وقت ما . وانا ادافع عن

الحق للكاتب فى التجربة وفى الاخطاء المرتبطة بها . ويجب احترام تجربة الكاتب ، فلا فن بلا جراة . والطريف ان «الخبز» شأنها شان «بطرس الاول» يمكن ان تترجم الى جميع لغات العالم تقريبا ، وربما فى اعداد كبيرة .

وسوية مع هذه الاعمال الادبية اقوم باعداد خمسة اجزاء من الفولكلور الروسى لدار النشر للاطفال . وانا ارفض تحوير وتنقيح الحكايات . وباحتفاظى بنقاء القصة الشفاهية اربط روايات الموضوع المروى فى موضوع واحد مع الاحتفاظ بجميع خصائص الكلام الشعبى ومع تنقية الموضوع من جميع التفاصيل والهوامش التى ادخلت اما بان يعمد الراوى على ادخال تفاصيل حكايات اخرى بشكل آلى ، واما بسبب عدم نضوج الراوى ، واما بسبب خصائص الكلام المحلية غير المميزة .

فى اليوم الذى بدات فيه الحرب الوطنية الكبرى ، يوم ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، فرغت من رواية «صباح غائم» . وعند اعدادى الثلاثية كلها للطبع قمت بتنقيح الكتابين الاولين من هذه الملحمة. وقد كتبت الثلاثية خلال اثنين وعشرين عاما . وموضوعها العودة الى البيت ، الطريق الى الوطن . والواقع ان كتابة السطور الاخيرة والصفحات الاخيرة من «صباح غائم» يوم كان وطننا فى نار الحرب تقنعنى بأن سبيل هذه الرواية صائب .

عندما اعود بنظرى الآن الى السنتين الرهيبتين المدمرتين من الحرب اجد ان الايمان بقوى شعبنا التى لا تنضب ، الايمان فى صحة طريقنا التاريخى ، الطريق الباهظ والصعب والمستقيم والانسانى نحو الحياة العظيمة ، وحب الوطن وحده ، والتألم الممض بعذاباته ، وكراهية العدو - كل هذا قد اعطى القوى للنضال والنصر . وقد آمنت بانتصارنا حتى فى اصعب الايام من تشرين الاول - تشرين الثانى عام ١٩٤١ . ويومذاك بدات فى زيمينكى (على مقربة من مدينة غوركى على شاطئ الفولغا) قصتى الدرامية «ايفان الرهيب» . فكانت ردا على المهانة التى عرض الالمان وطنى لها . فاخرجت من العدم الروح الروسية الملتهبة - ايفان الرهيب - لاسلح «ضميرى المضطرم» . وواصلت كتابتى المقالات ، وانا اعمل فى هذه المسرحية ، ومن بين اكثر هذه المقالات صدى :

«وايه ، ايتها الارض الروسية !...»
من قصيدة ملحمية قديمة بعنوان
«حديث عن فصيلة أيغور»

١

ان اى انسان غريب على بطرسبورغ يدخلها بعين مراقب من احد الشوارع الضيقة المعرشة بأشجار الزيزفون لأية بلدة نائية سينتابه ، فى لحظة الانتباه ، شعور معقـد من الانفعال الذهنى والانسحاق النفسى .

انه يجوب شوارع مستقيمة ضبابية ، ويمر ببيوت كئيبة ذات نوافذ داكنة ، على بواباتها حجاب ناعسون ، ويطيـل النظر الى انبساط نهر النيفا الغزيرة المياه العابسة ، والى الخطوط المزرقة للجسور ذات المصابيح التى تضاء قبل هبوط الظلام ، والقصور غير المريحة الخالية من البهجة المزينة واجهاتها بالاعمدة ، ويتطلع الى كتدرائية بطرس وبولس بارتفاعها الشاهق غير المالوف للهندسة الروسية والى القوارب البائسة المترائيـة فى الماء الداكن ، والى المراكب التى لا حصر لها مثقلة بالخشب الرطب ، وممتـدة على الشطئان الغرانيتية ، ثم ينقل بصره فى وجوه المارة الشاحبـة المهمومة ذات العيون الكدرة كدرة المدينة ذاتها ، ان هذا المراقب الدخيل بعد ان يمتلأ بصره وسمعه بكل ذلك سيخفى راسه عميقا فى ياقته ، اذا كان حسن النية ، اما اذا كان سيئ النية فانه سيتصور ان افضل شىء ان تُسدَّد ضربة قاضية على كل هذه الفتنة الجامدة وتمزق اربا .

ذات مرة فى عهد امبراطور بطرس الاول تملك الرعب الشديد شماسا من كنيسة ترويتسكايا القائمة حتى الآن على مقربة من جسر ترويتسكى ، حين راى فى الظلام ، وهو نازل من برج الجرس ، شبح ساحرة نحيلة حاسرة الراس ، وفيما بعد صرخ فى حانة :

كانت بطرسبورغ ، مثل اية مدينة اخرى ، تعيش حياتها الخاصة المتوترة المثقلة بالهموم . وكانت القوة المركزية فيها توجه هذه الحياة ، الا انها لم تكن مندمجة مع ما يمكن ان يدعى بروح المدينة : لقد كانت القوة المركزية تسعى الى استتباب النظام ، والهدوء ، والعقلانية ، بينما كانت روح المدينة تسعى الى تحطيم هذه القوة . وكانت روح التهديم منتشرة فى كل مكان تغذى بالسم الفتاك المضاربات الهائلة فى البورصة لساكيلمان الشهير ، والحنق القاتم فى نفس العامل فى مصنع الفولاذ ، والامنيات الشوهاء لشاعرة على الموضة جالسة حتى الساعة الخامسة صباحا فى قبو «الاجراس الحمراء» للفنانين . وحتى اولئك الذين كان عليهم ان يكافحوا هذا التهديم كانوا دون وعى منهم ياتون كل شىء لتسعيره وزيادة حدته .

ذلك زمن كان فيه الحب ، والمشاعر الطيبة والسليمة تعتبر ابتذالا ومن مخلفات الماضى ، وكان الناس فيه لا يحبون ، بل يشتهون الحب ، ويتهالكون ، كالمسمومين ، على كل ما هو حاد ومثير للالم فى بواطنهم .

كانت الفتيات يخفين بكارتهن ، والازواج وفاءهم . وكان التهديم يعتبر امارة على حسن الذوق ، والاعياء العصبى علامة على رهافة الحس . وكان المروجين لذلك كتاب على الموضة كانوا يبزغون من العدم خلال موسم واحد . وابتكر الناس لأنفسهم الموبقات والانحرافات لمجرد انهم لا يريدون ان يعتبروا عاديين .

تلك هى بطرسبورغ فى عام ١٩١٤ . كانت منهوكة بليالى السهر ، تغرق سامها بالخمور والذهب ، والحب الفارغ ، بانغام التانغو الممزقة لنياط القلب والحسية اللامتناهية – رقصة الموت – فكانها كانت تعيش على انتظار يوم مهلك رهيب . وكانت لذلك بوادره : فان شيئا جديدا غامضا كان يتسلل من كل الشقوق .

٢

– . . . نحن لا نريد ان نتذكر شيئا . نحن نقول : كفى ، ولندر ظهورنا الى الماضى ! ومن وراء ظهرى ؟ فينوس دو ميلو ؟ وهل هذه يمكن ان تؤكل ؟ ام تستطيع ان تطيل وتنمى شعرى ؟

انا لا افهم لماذا انا بحاجة الى هذا العملاق الرخامى ؟ ستقول انه الفن ، الفن . كفى ! اما تزال معجبا بدغدغة هذه الفكرة لك ؟ انظر الى يمينك وشمالك ، والى امامك ، وفى موضع قدميك . انك تحتذى حذاء امريكيا ! عاشت الاحذية الامريكية ! ان الفن هو سيارة حمراء ، واطارات من المطاط ، وصفيحة من البنزين ، وسبعون ميلا فى الساعة . فان ذلك يثير فى نفسى التهام المسافات . والفن ايضا اعلان مساحته ستون ذراعا يصور فتى انيقا عليه قبعة عالية مشعة كالشمس . والفن خياط فنان ، عبقرى يومنا هذا ! انا اريد ان التهم الحياة ، وانت تطعمنى ماء سكر يوصف لمن يعانون من الضعف الجنسى . . .

ارتفع ضحك وتصفيق من نهاية القاعة الضيقة وراء الكراسى ، حيث كان طلاب من الدورات الدراسية ومن الجامعة يقفون متزاحمين . عدّل المتحدث سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف من وضع نظارته الأنفية الناطة على أنفه الكبير ، متبسما من فم مبلل ، وهبط درجات المنبر البلوطى الكبير بحركة رشيقة .

كان اعضاء «جمعية الامسيات الفلسفية» يجلسون على جانب من القاعة وراء منضدة طويلة يضيؤها شمعدانان خماسيا الشموع وهؤلاء هم رئيس الجمعية انتونوفسكى الاستاذ فى اللاهوت ، ومحاضر اليوم المؤرخ فليامينوف ، والفيلسوف بورسكى ، والكاتب الماكر ساكونين .

وكانت «جمعية الامسيات الفلسفية» قد تعرضت فى هذا الشتاء الى هجوم شديد من جانب شبان مغمورين ولكنهم ذوو السنة لاذعة ، هاجموا الكتاب الموقرين ، والفلاسفة المحترمين بضراوة عنيفة ، وقالوا اشياء جريئة ومغرية جعلت الفيلا القديمة مقر الجمعية فى شارع فونتانكا تغص بالناس ايام السبوت ، حين تكون الدعوة مفتوحة للجميع .

وهذا ما حدث اليوم ايضا . عندما اختفى سابوجكوف فى الحشد وسط تصفيق صعد الى المنبر اكوندين ، وهو رجل قصير ذو جمجمة حليقة الشعر ناتئة ، ووجه فتى اصفر بارز الوجنتين . كان حديث العهد فى الحضور الى مثل هذه الامسيات ، وافر الحظ من النجاح ولا سيما فى الصفوف الخلفية من القاعة . وكان العارفون

يبتسمون بغموض حين يتساءل المتسائلون : مَن هذا ومن ايـن جاء ؟ وعلى اية حال لم يكن اكوندين اسمه الاصلى ، وقد جاء من خارج الحدود ، ولم يكن تحدثه فى هذه الأمسيات يخلو من غرض .

اجال اكوندين بصره فى القاعة التى خيم عليها السكون وهو يداعب لحيته الهزيلة الشعر ، واخذت شفتاه تنشقان عن بسمة خفيفة، وشرع يتحدث .

فى تلك الاثناء كانت فتاة شابة تجلس فى صف المقاعد الثالث عند الممر الاوسط تسند ذقنها بجمع يدها . كانت ترتدى فستانا اسود من الجوخ عاليا حتى العنق . وكان شعرها الناعم الرمادى مرفوعا فوق اذنيها ، ومعقوصا فى عقصة كبيرة ، يسندها مشط . كانت الفتاة تتمعن فى الجالسين وراء المنضـدة الخضراء دون ان تتحرك ولا تبتسم ، واحيانا كانت عيناها تستقران على الشموع .

وعندما ضرب اكوندين المنبر البلوطى ، وصاح : «الاقتصاد العالمى يوجه أول ضربة من قبضته الحديدية الى قبة الكنيسة» زفرت الفتاة زفرة خفيفة ، وانزلت قبضتها من تحت ذقنها المحمر قليلا فى اسفله ، ووضعت قطعة ملبس فى فمها .

وتكلم اكوندين :

— . . . وانتم ما تزالون تحلمون احلاما غامضة عن ملكوت الرب على الارض . بينما **هو** ماض فى سباته رغم كل جهودكم . ام لعلكم تاملون انه سيستيقظ فى آخر الأمر ، ويتكلم مثل اتـان بلعام * ؟ أجل ، **انه** سيستيقظ ، ولكن لا على اصوات شعرائكم المعسولة ، ولا على دخان المباخر . بل ان صافرات المصانـع وحدها قادرة على ايقاظ الشعب . انه سيستيقظ ، ويتكلم وسيكون صوته غير مريح لاسماعكم . ام لعلكم تعتمدون على سباتكـم وجهالتكم ؟ اذكر لكم انكم تستطيعون ان تسدروا فيهما نصف قرن آخر . ولكن اياكم ان تسموا ذلك الخلاص المنتظر . ان ذلك ليس هو المستقبل بل الماضى . هنا فى بطرسبورغ فى هذه القاعة الفاخرة اختلقوا الفلاح الروسى على اوهامهم ، وكتبوا عنه مئات المجلدات ،

*حسب الانجيل تكلمت اتان بلعام بصوت انسانى احتجاجا على ضربات انزلت عليها . (**المترجم**) .

والفوا الاوبرات . وانا اخشى ان تنتهى هذه التسليـة بدم كثير يراق . . .

الا ان رئيس الجمعية اوقف الخطيب فى هذه اللحظة . ابتسم اكوندين ابتسامة باهتة ، واخرج من جيب سترته منديلا كبيرا ، ومسح جمجمته ووجهه بحركة معتادة . وصدرت اصوات من اقصى القاعة :

— دعه يتكلم !

— من الفظاظة ان يغلق فم انسان .

— هذه سخرية !

— اسكتوا ، ايها الجالسون فى الخلف !

— اسكتوا انتم !

واستمر اكوندين يقول :

— . . . الفلاح الروسى نقطة تجذب افكار الكثيرين . اجل . ولكن اذا لم تكن هذه الافكار مرتبطة ارتباطا عضويا بمطامحـه العريقة ،وبمفهومه الفطرى عن العدالة وهو مفهوم الانسانية جمعاء ، فانها ستقع كما تقع البذور على الصخور . وطالمـا بقى الناس لاينظرون الى الفلاح الروسى كانسان ذى معدة خاوية ، وظهر موقر بالعمل ، ولا يجردونه من خصائصه المسيحية التى الصقها به بعض السادة فى حقبة من الزمن ، فسيبقى القطبان على وجودهما الماساوى : افكاركم الفخمة التى ولدت فى ظلام المكاتب ، والشعب الذى لا تريدون ان تعرفوا شيئا عنه . . . ونحن هنا لا نريد حتى ان نوجه نقدا حقيقيا لكم . فسيكون غريبا ان نضيع الوقت فى اعادة النظر فى هذه الكتلة الضخمة – هذه النزوات الانسانية . لا ، بل نقول لكم انقذوا انفسكم قبل فوات الاوان . لأن افكاركم وكنوزكم ستلقى فى مزبلة التاريخ دونما أسف . . .

لم تجد الفتاة ذات الفستان الاسود فى نفسها الرغبة لتفكر فيما قيل من على المنبر البلوطى . فقد كان يبدو لها ان جميع هذه الاقوال والمناقشات مهمة جدا بالطبع ، وكثيرة الدلالة ، الا ان الاكثر اهمية شيء آخر لم يتحدث عنه هؤلاء الناس . . .

وفى غضون ذلك ظهر رجل آخر وراء الطاولة الخضراء . جلس متمهلا الى جانب الرئيس ، واحنى رأسه يمينا وشمالا بالتحية ،

ثم مرّر يده المحمرة على شعره الكتانى المبلل من الثلج . وبعد ان اخفى يديه تحت الطاولة جلس منتصبا فى سترته السوداء الضيقة جدا . كان لهذا الرجل شعر طويل وكثيف مثل قبعة ، ووجه نحيل كامد له حاجبان مقوسان ، تحتهما عينان رماديتان وسيعتان محاطتان بظلين . بيسونوف كان نسخة طبق الاصل للصورة التى نشرتها له مجلة اسبوعية فى عددها الاخير .

والآن لم تعد الفتاة ترى غير هذا الوجه الجميل بشكل يبعث على النفور . كانت تتمعن بما يشبه الرعب فى تلك التقاطيع الغريبة التى كثيرا ما راودت احلامها فى ليالى بطرسبورغ العاصفة .

ها هو الآن قد قرب اذنه من جاوه ، وابتسم بسمة مشوبة بسذاجة ، ولكن الغرور والعجرفة ، وشيئا آخر لم تستطع ان تتبينه ، وان كان اشد ما يثير قلقها لاح فى منحنيات منخريه الدقيقين وحاجبيه المفرطين انوثة ، وفى تلك الجاذبية الناعمة الخاصة المطلة من وجهه .

وفى اثناء ذلك كان المحاضر فليامينوف ، وهو رجل احمر الوجه مرسل اللحية ، ذو نظارة مذهبة وخصلات ذهبية شائبة تحيط بجمجمته الكبيرة يرد على اكوندين قائلا :

— انت محق أحقية الانهيار الجليدى فى تدهوره من الجبال . ونحن ننتظر منذ زمن بعيد حلول العهد الرهيب ، ونتنبأ بانتصار حقيقتكم .

انتم ستتغلبون على عناصر الطبيعة ، لا نحن . ولكننا نعلم ان العدالة المثلى التى تصرخون لدعوتها بصفارات المصانع لن تكون الا كومة من حطام ، وفوضى يتيه فيها انسان مصعوق . ان هذا الانسان سيقول «انا عطشان» لأنه سيكون خلوا من اية قطرة من الفيض الآلهى . فحذار ، — وهنا رفع فليامينوف اصبعا طويلة كالقلم ، وراح ينظر الى صفوف المستمعين بحدة من خلال نظارته ، — انتم تريدون ان تحولوا الانسان فى الجنة التى تحلمون بها وباسم هذه الجنة الى آلة حية ، الى رقم كذا — الانسان الى رقم — وفى هذه الجنة الرهيبة يكمن خطر ثورة جديدة ، افظع كل الثورات ، ثورة الروح .

فقال اكوندين من مكانه ببرود :

— تحويل الانسان الى رقم هو مثالية ايضا .

مال فليامينوف على الطاولة ونشر ذراعيه فوقها فالقت الشموع لمعانا على صلعته . اخذ يتحدث عن الخطيئة التى سيتردى العالم فيها ، وعن القصاص الرهيب المقبل . وسرت نحنحة فى القاعة .

حلت فترة الاستراحة فخرجت الفتاة الى المشرب ، ووقفت فى بابه معبسة ومستقلة بنفسها . كان بعض المحامين وزوجاتهم يشربون الشاى ، ويتحدثون بأصوات اعلى من اصوات الآخرين . وكان الكاتب الشهير تشيرنوبيلين يأكل السمك بمرق التوت قرب الموقد مديرا عينيه الخبيثتين الثملتين على الرائحين والغادين بين لحظة واخرى . وعند منصة المشرب وقفت سيدتان فى منتصف العمر من المشتغلات فى الادب لهما عنقان قذران وعقدتان كبيرتان على راسيهما تلو كان الشطائر . وكان القساوسة يقفون فى منأى وبتقوى ولا يختلطون باهل الدنيا . بينما وقف تحت الثريا رجل وَخَط الشيبُ شعره المنفوش بافراط وقد طوى ذراعيه خلفه تحت سترته الطويلة مهتزا على كعبيه . انه الناقد تشيرفا ينتظر ان يتقدم احد من الناس اليه . دخل فليامينوف ، فاندفعت احدى السيدتين الاديبتين نحوه ، وتشبثت بكمه ، وكفت الاخرى عن مضغ الطعام ، ونفضت عنها الفتات ، واحنت راسها ، ووسعت عينيها . فقد تقدم بيسونوف منها موزعا الانحناءات المؤدبة من رأسه ذات اليمين وذات الشمال .

احست الفتاة ذات الفستان الاسود بكل جلدها ان الاديبة قد انكمشت بشدة داخل مشدها النسائى . قال بيسونوف شيئا لها ببسمة كسلى . فبسطت هذه ذراعيها الممتلئتين ، وضحكت مقلّبة عينيها .

هزت الفتاة كتفها ، وتركت المشرب . سمعت من يناديها . كان شاب اسمر نحيل فى سترة من المخمل يشق الجمع نحوها . انحنى لها فرحا ، وغضّن انفه امارة على الغبطة ، وامسك يدها . كانت كفه رطبة ، وعلى جبينه تدلّت خصلة مبللة من الشعر ، بينما كانت عيناه السوداوان الطويلتان تنظران اليها برقة طرية . ان هذا الفتى يدعى الكسندر ايفانوفيتش جيروف . قال لها :

— ما هذا ؟ ماذا تفعلين هنا ، يا داريا دميترييفنا ؟

— مثل ما تفعل انت .

ردت الفتاة عليه بذلك ، وحررت يدها منه ، ودستها فى الفراء الذى تدفىء فيه يديها ، ومسحتها بالمنديل الذى كان فى داخله .

قهقه الفتى ، وزادت نظرة عينيه رقة :

– عجيب اذا كان سابوجكوف لم يعجبك فى هذه المرة ايضا ! انه تكلم اليوم كنبى . وما يثيرك منه حدته وطريقته الفريـــدة فى التعبير . ولكن جوهر تفكيره ، أليس هو ما نريده فى سرنا ، ونخشى ان نبوح به ؟ بينما هو يملك الجراة على قوله . اسمعى :

كلنا شباب فى شباب
وفى المعدة جوع والتهاب
غدا سنلتهم السراب . . .

انه يا داريا دميترييفنا شىء غير اعتيادى . جديد ، وجرىء ليس من المعقول انك لا تحسين بذلك ! شىء جديـــد كل الجدة يشق طريقه ! انه منا ، جديد ، نهم ، جرىء . وكذلك اكوندين . حقا انه مفرط فى منطقيته ، لكنه جاد وجارح فى تعابيره . وما هو الا شتاء او شتاءان او ثلاثة من مثل شتائنـــا هذا حتى ينهـــار كل شىء ، ويتفتق ! عظيم جدا !

كان الشاب يتحدث بصوت خفيض ، مبتسما بحلاوة ونعومة .

واحست داشا * بان كل شىء فيه يرتعش ارتعاشا دقيقا ، وكأنه من انفعال رهيب . احنت له رأسها دون ان تدعه يكمل كلامـه ، وراحت تشق طريقها نحو مشجب المعاطف .

كان الحاجب الغاضب المزين صدره بالمداليات ، الموكل عن حفظ المعاطف مشغولا يتسلـــم المعاطف والكالوشات فلـــم يعر التفاتا الى داشا التى كانت تمد الفيشة له . كان عليها ان تنتظر طويلا ، وكان تيار من الهواء البارد يهب على قدميها من خلال باب دائما الانفتاح مفض الى رواق فارغ . وقف فيه حوذيـــة طوال فى قفاطين زرق مبللة يعرضون خدماتهم على الخارجين بمرح ووقاحة :

– على حصان سريع ، يا صاحب المقام !

---

* صيغة التحبب والتصغير لداريا ، وسترد هذه الصيغة كثيرا فيما بعد . (المترجم) .

– اركب معى ، الى منطقة بسكيه .

وفجاة صدر من وراء داشا صوت بيسونوف واضحا ، باردا :

– يا حاجب ، هات معطفى ، وقبعتى ، وعصاتى .

واحست داشا بمثل الأبر الدقيقة فى ظهرها . ادارت رأسها بسرعة ، وحدقت بعينى بيسونوف . قابل بيسونوف نظرتها بهدوء كشىء يستحقه ، الا ان جفنيه رفا ، وظهرت نداوة حية فى عينيه الرماديتين ، وكأنهما استسلمتا ، وشعرت داشا بخفقان قلبها .

قال بيسونوف وهو ينحنى لها :

– احسب اننا التقينا عند اختك ، ام انا مخطىء ؟

– نعم ، التقينا .

واختطفت معطفها من الحاجب ، وركضت الى المدخل الرئيسى .

وفى الخارج حركت الريح الرطبة الباردة ثوبها ، ورشقتها بقطرات صدئة . التفت داشا بياقتها الفرائية حتى عينيها . سبقها شخص ، وقال فى اذنيها : «يا للعينين !»

حثت داشا خطاها على الاسفلت المبلل ، عبر الاشرطة المهتزة من الضوء الكهربائى . وترامت الى سمعها انغام الكمان من بـــاب مطعم مفتوح . انها انغام للفالس جعلتهـــا تدندن مع نفسها من خلال موفة الفراء الشعثاء التى تدفىء فيها يديها :

– ليس بالأمر السهل ، لا ، ابدا ، ابدا !

٣

سالت داشا خادمتها لوشا ، وهى تفك ازرار معطفها الفرائى المبلل :

– لا احد فى البيت طبعا ؟

وكانت لوشا تلقب بالمغولى العظيم لوجهها العريض الوجنتين كوجه صنم ، والمغطى بطبقة كثيفة من البودرة . اجابت لوشا بصوت نحيل وهى تنظر الى المرآة ، بان السيدة غائبة حقا ، الا ان السيد بالبيت فى غرفة مكتبه ، وانه سيتناول العشاء بعد نصف ساعة .

ذهبت داشا الى غرفة الجلوس ، وجلست الى البيانو ، ووضعت ساقا على ساق ، وطوقت ركبتها بيديها .

ما دام نيقولاى ايفانوفيتش زوج اختها فى البيت ، فمعنى ذلك انه قد تشاجر مع زوجته ، وانه الآن وعق المزاج وسيشكو لها . والساعة الآن الحادية عشرة ، وليس لديها ما تفعله حتى الساعة الثالثة حين يراود النوم مقلتيها . فهل تزجى الوقت بالقراءة ؟ ولكن ماذا تقرأ وليس لها من رغبة فى القراءة ؟ ام تظل جالسة تفكر ، وذلك ابهظ على نفسها . حقا ، ما اتعب الحياة فى بعض الاحيان !

زفرت داشا ، وفتحت غطاء البيانو ، وجلست مولية جنبها الى المفاتيح ، وراحت تسترجع فى يد واحدة لحنا لسكريابين . ان الانسان ليجد عسرا فى الحياة اذا كان فى سن غير مريحة كأن يكون فى التاسعة عشرة ، ولا سيما اذا كان فتاة ، وذكية جدا ، وصارمة كثيرا ، بسبب من نقاء ابله ، مع اولئك الذين كانوا يبدون رغبتهم فى تبديد ضجر الفتاة ، وما اكثرهم !

فى العام الماضى وصلت داشا الى بطرسبورغ قادمة من سامارا لتدخل دورات الحقوق ، واقامت عند اختها الكبيرة يكاترينا دميتريفنا سموكوفنيكوفا التى كانت متزوجة من محام يتمتع بشهرة كبيرة ؛ فكانت حياتهما صاخبة ومرفهة .

كانت داشا اصغر من اختها بحوالى خمسة اعوام ، وكانت ما تزال صبية حين تزوجت اختها ، فكانت لقاءات الشقيقتين فى الاعوام الاخيرة قليلة ، والآن بدأت بينهما علاقات جديدة : علاقات محبة عند داشا ، وعلاقات حنان عند يكاترينا دميتريفنا .

كانت داشا فى البداية تحاكى شقيقتها فى كل شىء ، وتعجب بجمالها ، وذوقها ، وقدرتها على التصرف مع الناس . وكانت تخجل فى حضرة اصدقائها ، ولكن حياءها كان يجعل كلامها لاذعا مع بعضهم . كانت يكاترينا دميتريفنا تسعى الى ان تجعل بيتها نموذجا للذوق والجدة التى لم تصل بعد بين عامة الناس . وكانت لا تترك معرضا دون ان تشهده ، وتشترى اللوحات لرسامين مستقبليين . ومن جراء ذلك كانت لها مع زوجها احاديث شديدة فى السنة الاخيرة ، لأن الزوج كان يحب اللوحة التى تنم عن فكرة عميقة ، بينما كانت الزوجة بكل حماسها النسوى تفضل ان تعانى فى سبيل فن جديد على ان تعتبر متاخرة فى الذوق .

وكانت داشا ايضا معجبة بتلك اللوحات الغريبة المعلقة على جدران غرفة الجلوس ، الا انها كانت تقول لنفسها مفحومة : ان هذه الشخوص المربعة بوجوهها الهندسية وبعدد من الايدى والارجل اكثر من اللازم ، وتلك الالوان الباهتة كالصداع ما هى الا نوع ثقيل مازى من الشعر اعلى بكثير مما تستوعبه مخيلتها الخاملة .

جرت العادة ان تجتمع فى بيت آل سموكوفنيكوف كل ثلاثاء مجموعة من الضيوف صاخبة مرحة لتتناول العشاء فى غرفة الطعام المؤثثة برياش مصنوع من خشب القيقب . كان بينهم محامون من هواة الكلام ، وزيرة نساء ، ومتتبعون متحمسون للتيارات الادبية ؛ وصحفيان او ثلاثة علامون فهامون باصول ممارسة السياسة الداخلية والخارجية ؛ والناقد العصبى المزاج تشيرفا المبيّت ابدا لكارثة ادبية اخرى . وفى بعض الاحيان كان يأتى فى وقت مبكر شعراء شبان كانوا يتركون دفاتر اشعارهم فى جيوب معاطفهم فى رواق البيت . وقبيل بدء العشاء كانت تصل شخصية شهيرة ، وتتقدم من ربة البيت على مهل ، وتتخذ مجلسها فى مقعد وثير بعظمة ووقار . واحيانا ، والعشاء فى منتصفه كان الضيوف يسمعون خشخشة كالوشين جلديين يخلعان فى الرواق ، وصوتا مخمليا يقول :

«السلام عليك ، ايها المغولى العظيم !» وبعد ذلك كان وجه حليق ذو خيشومين متدليين ، وجه فنان يمثل على الدوام دور العاشق ينحنى على كرسى ربة البيت ، ويقول :

– يا عزيزتى كاتيوشا * ، هاتى يدك !

كانت داشا تعتبر اختها الشخص الرئيسى فى هذه الحفلات ، وتحنق على مَن كان لا يعيرها اهتماما كبيرا ، وهى العذبة ، الطيبة ، الصافية القلب ، وتغار ممن يفرط فى التودد اليها . فتحدجه بعينين غاضبتين .

ثم اخذت داشا تنفذ بالتدريج الى هذا العدد المذهل من الوجوه . فصارت الآن تزدرى مساعدى المحامين ، اذ لم تر شيئا مهما فيهم عدا سترهم الطويلة الوبراء ، واربطتهم البنفسجية ،

* او كاتيا صيغة التحبب والتصغير لاسم يكاترينا . **(المترجم)** .

ومفارقهم عبر رؤوسهم كلها . كما كرهت الفنان العاشق ، لانها لم تر له الحق فى ان يسمى اختها يكاترينا بـ«كاتيوشا» ولا ان يدعو المغولى العظيم بلقبها البيتى هذا ، ولا ان يقول وهو يضيق عينيه المرتخيتين صوب داشا ، ويجرع كأس الفودكا :

«اشرب نخب شجرة اللوز المتفتحة !»

وكانت داشا تتميز غيظا كلما اقدم الرجل على ذلك .

كانت وجنتاها متوردتين حقا ، ولكنها لم تستطع التخلص من لون زهر شجرة اللوز هذا ، اللون الملعون ، فكانت وهى وراء المائدة تحس وكانها دمية خشبية ملونة .

ولم تسافر داشا فى الصيف الى ابيها فى سامارا المغبرة القائظة ، وقبلت بفرح ان تظل عند اختها على ساحل البحر فى سيستروريتسك . فالتقت هنا بنفس الناس الذين التقت بهم فى الشتاء ، لكنهم كانوا يلتقون اكثر من قبل راكبين القوارب ، سابحين ، جالسين فى الغابة ياكلون الدوندرمه . وفى الاماسى كانوا يستمعون الى الموسيقى ، ويتناولون عشاءهم تحت النجوم ، فى شرفة الكازينو مضوضئين صاخبين .

وكانت يكاترينا دميتريفنا قد اوصت لداشا على ثوب ابيض مطرز بالساتان ، يتوسطه نطاق حريرى عريض ينتهى بعقدة كبيرة عند ظهرها ، وقبعة كبيرة من الكريشة البيضاء محاطة بشريط اسود . واذا بداشا تجد نفسها موضع حب نكانور يوريفيتش كوليتشيك مساعد زوج اختها ، وكانه فتحوا عينى هذا الرجل فجاة .

الا انه كان من «المحتقرين» . وتميزت داشا غيظا ، ودعته الى الغابة ، ودون ان تتركه يتفوه بكلمة واحدة فى الدفاع عن نفسه (كل ما استطاع هو ان مسح بمنديل يشد عليه قبضته) قالت له انها لن تسمح لأحد بان ينظر اليها كـ«انثى» ، وانها حانقة ، وتعتبر شخصا ذا مخيلة فاسقة ، وانها ستشكوه اليوم حالا الى زوج اختها .

وقد شكت الى زوج اختها فى ذلك المساء ذاته . اصغى نيقولاى ايفانوفيتش الى قصتها كلها ، وهو يمسد لحيته المعتنى بها جيدا ، ناظرا بدهشة الى وجنتيها المتوردتين من الغيظ ، والى

قبعتها الكبيرة المهتزة غيظا ، والى كل قوامها الرشيق فى ثوبها الابيض ، ثم جلس على الرمل عند الماء ، وراح يقهقه حتى اخرج منديله من جيبه ، ومسح به عينيه قائلا :

– اذهبى ، يا داريا ، اذهبى ، ستجعليننى اموت من الضحك !

فانصرفت داشا غير فاهمة شيئا ، فى حيرة وارتباك . ومنذ ذلك الحين لم يجرا كوليتشيك على ان يرفع عينيه الى داشا ، وقد نحل ومال الى الوحدة . وانقذ شرف داشا . الا ان هذه القصة كلها اثارت فجاة مشاعر كانت غافية فى اعماق عذريتها . واختل التوازن الرقيق ، وكان ذاتا اخرى خانقة ، حالمة ، عديمة الشكل ، كريهة قد نمت فى جسم داشا كله من الراس حتى اخمص القدم . فاستشعرته بكل جلدها ، وتعذبت وكانما من دنس ، واستولت عليها الرغبة فى ان تزيل عن نفسها نسيج العنكبوت غير المرئى هذا وتعود من جديد غضة ، متبردة ، خفيفة .

وصارت تقضى ساعات بكاملها فى لعب التنس ، وتسبح مرتين فى اليوم ، وتستيقظ فى الصباح الباكر حين تكون قطرات الندى الكبيرة ما تزال متلالئة على اوراق الشجر ، والبخار يتصاعد من البحر الليلكى ، الصقيل كالمرآة ، المقاعد الندية موزعة على الشرفة الفارغة ، والممرات الرملية الرطبة مكنوسة .

الا ان تلك الذات الثانية كانت ترتد حية بعد ان تتدفا فى الشمس ، او فى الفراش الناعم ليلا ، وتتسلل الى قلب داشا بحذر ، وتعصرها بيدها الطرية . وكان من المستحيل اقصاؤها عنها ، او ازالتها ، تماما مثل الدم على المفتاح المسحور فى حكاية اللحية الزرقاء .

وصار جميع المعارف ، واختها الاولى بينهم ، يرون داشا قد رقت محاسن فى هذا الصيف وهى تزداد حسنا كل يوم . وذات صباح جاءت يكاترينا دميتريفنا الى شقيقتها ، وقالت :

– ماذا سيكون علينا ان نفعل بعد الآن ؟

– ما الأمر ، يا كاتيا ؟

جلست داشا فى قميص النوم على السرير ، ولوت شعرها فى عقدة كبيرة .

– انت تزدادين حسنا ، فماذا سنفعل بعد هذا ؟

حدقت داشا الى شقيقتها بعينيها الصارمتين المظللتين برموش طويلة ، واعرضت عنها . ولون الدم وجنتيها واذنها .

– لا اريد ، يا كاتيا ، ان تتحدثى معى على هذا النحو . فان ذلك يضايقنى . أتفهمين ؟

جلست يكاترينا دميتربيفنا على السرير ، وضغطت خدها على ظهر داشا العارى ، وضحكت مقبلة شقيقتها ما بين دفتى كتفيها . وقالت :

–ما اسرع الغضب اليك ! من انت ؟ قنفذ او هرة برية ؟

ذات مرة ظهر فى ساحة التنس رجل انجليزى نحيل ، حليق ، بارز الذقن ، طفولى العينين ، فى قيافة لا شائبة فيها جعلت بعض الشبان من بطانة يكاترينا دميتربيفنا فى جزع من امرهم . دعا الانجليزى داشا الى اللعب ولعب معها كالآلة . وبدا للفتاة ان ملاعبها لم يلق نظرة عليها خلال اللعب كله . بل كان ينظر خلالها . وخسرت داشا اللعبة ، وعرضت عليه ان يلاعبها مرة اخرى . طوت داشا كمى بلوزتها البيضاء لتكون اخف حركة . وخلال اللعب تدلت خصلة شعر من تحت طاقيتها من البيكه ، ولكن داشا لم تعدها الى موضعها . وفكرت فى سرها وهى تصد الكرة بضربة قوية قرب الشبكة تماما :

«للفتاة الروسية البارعة رشاقة لا تلمع فى كل حركاتها ، وتورد الوجنتين يلائم محياها» .

وربح الانجليزى اللعبة الثانية ايضا ، وانحنى لداشا بمنتهى الجفاف . واشعل سيكارة شذية الرائحة ، وجلس على مقربة ، بعد ان طلب لنفسه قدحا من شراب الليمون .

ولعبت داشا اللعبة الثالثة مع طالب مدرسة مشهور ، فكانت اثناء اللعب تلقى من طرف عينيها نظرات على الانجليزى ، فتراه جالسا وراء طاولة صغيرة وقد وضع ساقا على ساق وطوق بيديه رسغ قدمه بجوربها الحريرى ، ودفع قبعة القش الى مؤخرة راسه ، وراح يحدق فى البحر دون التفات .

وفى الليل ، حين كانت داشا مضطجعة على سريرها استرجعت كل ذلك ، متصورة نفسها بوضوح وهى تقفز فى ساحة اللعب ،

محمرة الوجه ، متهدلة خصلة الشعر ، فاذا بها تبكى من كبريائها الجريحة ، ومن شىء آخر كان اقوى منها .

وكفت عن الخروج الى التنس منذ ذلك اليوم ، حتى قالت لها يكاترينا دميتربيفنا ذات مرة :

– يا داشا ، ان مستر بيلس يسال عنك كل يوم لماذا كففت عن اللعب ؟

فغرت داشا فاها من شدة الفزع . ثم قالت حانقة انها لا تريد ان تسمع «اقاويل حمقاء» ، وانها لا تعرف شخصا بهذا الاسم ، ولا تريد ان تعرف ، وهو ، بصراحة ، وقح اذا كان يتصور انها بسببه قد كفت عن الاشتراك فى «لعبة التنس الحمقاء هذه» .

ورفضت داشا الخروج الى الغداء ، ووضعت فى جيبها خبزا وحبات من عنب الثعلب ، وخرجت الى الغابة . وبينما كانت تتمشى فى ذلك الحرش الصنوبرى الفواح برائحة صمغ حار ، بين الاشجار الطويلة الحمراء الجذوع باعاليها المتمايلة مع حفيف الريح قررت مع نفسها ان اية امكانية لم تبق للتمادى فى اخفاء الحقيقة المؤسفة : غرامها بالانجليزى ، وتعاستها اليائسة .

وهكذا نما الشخص الثانى فى نفس داشا ، رافعا راسه شيئا فشيئا . فى بادىء الأمر كان وجوده كريها كالدنس ، مؤلما كالدمار . وبعد ذلك تعودت داشا هذه الحالة المعقدة ، مثلما تتعود النساء فى الشتاء على المشد والثياب السميكة بعد انتهاء الصيف والنسيم الطرى ، والماء المنعش ببرودته .

وقضت داشا اسبوعين فى حبها الأنوف للانجليزى . كانت تكره نفسها ، وتحنق على هذا الرجل . وقد رأته عدة مرات من بعيد يلعب التنس بتكاسل وبراعة ، ويتعشى مع البحارة الروس ، فكانت تقول لنفسها انه اكثر رجال الارض جاذبية على الاطلاق .

الا ان فتاة فارعة الطول نحيلة ترتدى لباسا من الفانيلة البيضاء ، ظهرت الى جانبه فجاة . انها خطيبته الانجليزية . واذا بهما يرحلان . وقضت داشا ليلة مؤرقة ، وبغضت نفسها بغضا مشوبا باشمئزاز ضار . وقبيل الصباح قالت لنفسها : لتكن هذه آخر غلطة فى حياتى .

وهدات بهذا التفكير ، بل وادهشها ، فيما بعد ، ان يزول

كل ذلك بمثل هذه السرعة والسهولة . ولكن لم يزل كل شيء . فقد اضحت تحس الآن وكان «الشخص الثاني» ذاك قد اندمج فيها ، وذاب في داخلها ، واختفى ، وهي الآن فتاة أخرى : انها كما كانت من قبل خفيفة ، غضة ، ولكن كيانها كله كأنما اضحى اطرى وأرق ، واكثر غموضا ، وبشرتها اضحت أشف ، حتى انها لم تتعرف على وجهها في المرآة . ثم ان عينيها بوجه خاص ، عينيها الرائعتين اضحتا عينين أخريين ، اذا نظر المرء فيهما صعد الدوار الى رأسه .

في اواسط آب انتقل آل سموكوفنيكوف مع داشا الى شقتهما الكبيرة في شارع بانتليمونوفسكايا بطرسبورغ . وعادت من جديد حفلات العشاء ايام الثلاثاء ، ومعارض الصور او حفلات العرض الاول الصاخبة في المسارح ، ودعاوى الفضائح في المحاكم ، وشراء اللوحات ، وتفخيم الماضي ، والرحلات الليلية الى الغجر في مطعم «سمرقند» . وظهر الفنان العاشق من جديد وقد القى عن جسمه في مصح المياه المعدنية ثلاثة وعشرين رطلا . واضيفت الى كل هذه المسرات اللاغبة شائعات مبهمة ، مثيرة وسارة عن حدوث تحول وشيك .

ولم يعد لداشا متسع من الوقت للتفكير ولا للشعور : في الصباح كانت تختلف الى المحاضرات ، وفي الساعة ، الرابعة تخرج للتنزه مع اختها ، وفي المساء للمسارح والحفلات الموسيقية ، والدعوات الى العشاء ، والناس ، ولا دقيقة واحدة تخلو فيها الى نفسها .

وفي امسية من امسيات الثلاثاء ، بعد ان فرغ الضيوف من العشاء ، وراحوا يحتسون خمرة «الليكور» دخل الكسي الكسييفيتش بيسونوف غرفة الجلوس ، ولما وقع بصر يكاترينا دميتربيفنا عليه قرب الباب صبغت وجهها حمرة قانية . وقطع الضيوف حديثهم المشترك . جلس بيسونوف على الأريكة ، وتناول فنجان القهوة من يد يكاترينا دميتربيفنا .

جلس بالقرب منه محاميان ، هما من المتضلعين في الادب ، الا ان بيسونوف ابتدر يقول على غرة ، وهو يرمق ربة البيت بنظرة طويلة غريبة ، ان الفن لا وجود له على الاطلاق ، بل هناك دجل ، وشعوذة حاو يجعل قردا يتسلق السماء على حبل .

«ولا يوجد شعر ، ان كل شيء قد انقرض منذ زمان قديم : الناس ، والفن . اما روسيا فهي فطيسة يحوم عليها سرب من الغربان في وليمة للغربان . وجميع الذين يكتبون الشعر سيدخلون جهنم» .

كان يتكلم بصوت واطئ النبرة خال من الرنين ، وتوردت بقعتان على وجهه الحانق الشاحب . وكانت ياقة قميصه مدعوكة ، ورماد السيكائر متناثرا على سترته . وكانت القهوة تنسكب على البساط من القدح الصغير الذي يمسكه .

كان متضلعا الادب يريدان اثارة جدال ، الا ان بيسونوف ظل يتابع يكاترينا دميتربيفنا بعينين غشتهما دكنة ، دون ان يعيرهما التفاتا . ثم نهض وتقدم نحوها ، وسمعت داشا قوله :

— انا لا اطيق مجتمع الناس ، فاسمحي لي بالانصراف .

طلبت اليه يكاترينا دميتربيفنا بوجل ان يقرأ شيئا . فهز رأسه . ووقف طويلا ضاغطا يدها الى شفتيه ، يودعها ، حتى احمر ظهرها احمرارا شديدا .

وبدأ النقاش بعد انصرافه . اجمع الرجال على ان : «هناك حدودا ، على اية حال ، ولا يجوز له ان يحتقر مجتمعنا بهذا الشكل السافر» . وتنقل الناقد تشيرفا من واحد الى آخر ، وهو يكرر : «ايها السادة ، انه سكران كليا» . واتفقت السيدات على ان «بيسونوف سواء أكان سكران ام منساقا مع مزاجه الخاص فانه رجل مثير على حد سواء ، وليكن ذلك معلوما للجميع» .

في اليوم التالي قالت داشا عند الغداء انها تعتبر بيسونوف واحدا من اولئك الاشخاص «الحقيقيين» تعيش حلقة يكاترينا دميتربيفنا باسرها على انفعالاته ، وآثامه ، وذوقه ، وكأنما على الضوء المنعكس منه . «انا افهم ، يا كاتيا ، ان مثل هذا الرجل يمكن ان يُفقد المرأة صوابها» .

ارتبك نيقولاي ايفانوفيتش وقال : «مجرد ان شهرته قد صعقتك ، يا داشا» . واعتصمت يكاترينا دميتربيفنا بالصمت . ومنذ ذلك الحين لم يزر بيسونوف آل سموكوفنيكوف . وشاع انه يطيل البقاء في غرفة الممثلة تشاراديفا وراء كواليس المسرح . وذهب كوليتشيك مع اصحابه ليروا تشاراديفا نفسها ، فاصيبوا

بخيبة ظن ، فقد كانت نحيلة كالهيكل العظمى مجرد تنورات مدنتلة .

ذات مرة التقت داشا ببيسونوف فى احد المعارض . كان واقفا عند النافذة يتصفح فهرس المعرض بلا مبالاة ، بينما وقفت امامه طالبتان قميئتان تنظران اليه بابتسامتين خامدتين ، وكأنهما امام تمثال فى متحف الشمع . مرت داشا به بطيئة الخطى ، ودخلت القاعة الأخرى وجلست على مقعد ، فقد شعرت بتعب فى قدميها ، وبكآبة .

وبعد هذا الحادث اشترت داشا تصوير بيسونوف ، ووضعته على الطاولة . وقصائده – المجموعة فى ثلاثة دواوين صغيرة بيضاء الغلاف – قد تركت فى نفسها بادئ الأمر شعورا بالتسمم : قضت ثلاثة ايام غير متمالكة شعورها ، وكأنها اضحت شريكة فى قضية سرية خبيثة . الا انها بعد ان اعادت قراءة قصائده صارت تجد متعة فى تلك الاحاسيس الموجعة بالذات وكان احدا يهمس لها داعيا اياها لان تفقد صوابها وترتخى ، وتنشر شيئا ما غاليا ، وتحن الى شىء لن يكون .

وبسبب بيسونوف اخذت تتردد على جمعية «الامسيات الفلسيفية» . وكان بيسونوف ياتى الى الجمعية فى وقت متاخر ، ويتحدث بندرة ، الا ان داشا كانت تعود الى البيت فى كل مرة مستثارة وكانت مسرورة اذا رات فى البيت ضيوفا . صمتت كبرياؤها المهانة .

واليوم كان عليها ان تسترجع الحان سكريابين فى وحدة . كانت الأصوات ، كالكرات الثلجية ، تتساقط ببطء فى داخل صدرها ، نافذة الى اعماق تلك البحيرة المظلمة التى لا قعر لها . وحين كانت تسقط كانت تغضن سطح الماء وتغرق . ويصير الماء بين مد وجزر ، وفى الظلمة الساخنة ، يدق القلب دقا اجوف مذعورا ، وكان شيئا مستحيلا سيحدث عاجلا ، الآن ، فى هذه اللحظة .

ارخت داشا ذراعيها على ركبتيها ، ورفعت راسها . فى الضوء الهادئ لظليلة المصباح البرتقالية كانت وجوه قرمزية ، منتفخة ، ذات عيون جاحظة تطل من الجدران ، وكأنها اشباح فوضى ما

قبل الطوفان ، المتشبثة بعطش بسياج جنة عدن فى اليوم الاول للخليقة .

قالت داشا لنفسها : «نعم ، يا مولاتى ، ان قضيتنا لخاسرة» . وتحركت اصابعها سريعة فى سلم موسيقى من اليسار الى اليمين ، ثم انزلت غطاء البيانو دون ان تحدث صوتا ، واخرجت سيكارة من علبة يابانية ، واشعلتها . وسعلت ، وسحقتها فى النفاضة .

صاحت داشا بصوت يمكن ان يسمع عبر اربع حجرات :

– يا نيقولاى ايفانوفيتش ، كم الساعة ؟

سقط شىء فى المكتب ، ولم تتلق داشا جوابا . ظهرت «المغولى العظيم» ، واعلنت ، وهى تتطلع الى نفسها فى المرآة ، ان العشاء جاهز .

جلست داشا فى غرفة الطعام امام زهرية فيها زهور ذابلة . واخذت تقطعها باصبعها فتتساقط اوراقها على مفرش المائدة . قدمت «المغولى العظيم» الشاى ، واللحم البارد ، والبيض المقلى ، واخيرا جاء نيقولاى ايفانوفيتش فى بدلة زرقاء جديدة ، ولكنها بدون ياقة . وكان شعره غير مصفف ، ولحيته مائلة الى اليسار ، وقد تعلقت فيها ريشة من وسادة الاريكة .

انحنى نيقولاى ايفانوفيتش لداشا عابسا ، وجلس فى طرف المائدة ، وقرب منه مقلاة البيض ، وشرع ياكل بنهم .

وبعد ذلك اسند مرفقه الى حافة المائدة ، ووضع خده على قبضته الكبيرة المشعرة ، وثبت عينيه غير الرائيتين الى كومة الوريقات المقطوعة ، وقال بصوت واطئ غير طبيعى تقريبا :

– فى الليلة الماضية خانتنى اختك .

٤

ان شقيقتها ، كاتيا ، اقترفت شيئا رهيبا ، غامضا ، اسود . فى الليلة الماضية استقر راسها على وسادة ، وقد اعرض عن كل شىء حى ، عزيز ، دافئ ، بينما انسحق جسدها ، وتشوه . على هذا

النحو فهمت داشا ، وهى ترتعش فزعا ، ما سماه نيقولاى ايفانوفيتش خيانة . وفوق كل ذلك لم تكن كاتيا فى البيت ، كأنما لم يعد لها وجود فى الدنيا .

فى الدقيقة الاولى كادت داشا تغيب عن الوجود ، واظلم بصرها . وانتظرت مكتومة الانفاس ان ينفجر نيقولاى ايفانوفيتش منتحبا ، او يصرخ بشىء مفزع . الا انه لم يضف كلمة اخرى الى ما اعلنه ، وراح يدير بين اصابعه حمالة الشوكات . ولم تجرؤ داشا على النظر فى وجهه .

وبعد فترة طويلة من الصمت دفع الكرسى عن المائدة بحركة حادة وذهب الى مكتبه . وقالت داشا لنفسها : «سيطلق النار على نفسه» . ولكن هذا ايضا لم يحدث . وتذكرت داشا بأسف حاد خاطف يده الكبيرة المشعرة على المائدة . ثم اختفى عن بصرها ، وظلت داشا تكرر : «ما العمل ؟ ما العمل ؟» ورن فى راسها : كل شىء ، كل شىء قد فسد وتحطم .

ظهرت «المغولى العظيم» من وراء ستارة الجوخ تحمل صينية : نظرت داشا اليها ، وادركت فى الحال ان «المغولى العظيم» لن تكون بعد الآن . فاضت دموعها من عينيها ، وصكت اسنانها بقوة ، وركضت الى غرفة الجلوس .

هنا ، كانت كل الاشياء ، حتى اصغر الدقائق ، قد رتبتها وصفتها يدا كاتيا فى رعاية وحب . الا ان روح كاتيا قد غادرت هذه الغرفة ، وانقلب كل شىء فيها حوشيا وخاليا من الحياة . جلست داشا على الأريكة ، واستقر بصرها بالتدريج على لوحة اشتريت منذ وقت قصير . ولأول مرة رات داشا وفهمت ما كان مرسوما فيها .

كانت اللوحة تصور امراة عارية رسمت بلون احمر متقيح ، وكان جلدها مسلوخ . فمها منحرف الى جانب ، وفى موضع انفها ثقب مثلث ، وراسها مربع ، وقد الصقت بها قطعة قماش . والساقان مثل خشبتين مستديرتين منفصلتين . وفى اليدين زهرة . وبقية التفاصيل فظيعة . وأفظع ما فى اللوحة الركن البنى الكدر الذى جلست فيه المراة منفرجة الساقين . وقد اطلق على اللوحة اسم «حب» . وكانت كاتيا تسميها فينوس الحديثة .

«لهذا السبب ، اذن ، كانت كاتيا معجبة كثيرا بهذه الأنثى الفاسقة . وهى الآن مثلها ، تحمل وردة فى ركن» . انبطحت داشا ، ووجهها الى الوسادة ، واخذت تبكى عاضة على شفتيها لتكتم صوت بكائها . وبعد برهة من الوقت دخل نيقولاى ايفانوفيتش غرفة الجلوس . باعد بين ساقيه ، وراح يضرب زناد قداحته فى غضب ، وتقدم من البيانو واخذ يدق على مفاتيحه . واذا بدقاته تتحول فجأة الى اغنية بسيطة . وشعرت داشا ببرودة تسرى فى أوصالها . صفق نيقولاى ايفانوفيتش غطاء البيانو ، وقال :

– كان يجب توقع ذلك .

اعادت داشا هذه الجملة فى سرها عدة مرات ، محاولة ان تفهم معناها . وفجاة رن الجرس رنة حادة فى الرواق . امسك نيقولاى ايفانوفيتش لحيته ، الا انه قال بصوت مكتوم : «او – او او !» ولم يفعل شيئا سوى انه اسرع فى الدخول الى مكتبه . وارسلت خطوات «المغولى العظيم» فى الدهليز صوتا مثل صوت الحوافر . ووثبت داشا من الاريكة . غامت الدنيا امام عينيها ، وقلبها يخفق بشدة ، وخرجت الى الرواق .

كانت يكاترينا دميتريفنا هناك تفك الاشرطة الليلقية لقلنسوتها الفرائية بأصابع خدرها البرد ، وكانت تغضن انفها . عرضت لأختها خدها المتورد البارد لتقبله ، الا انها لم تتلق القبلة المرجوة فنفضت راسها لتلقى القلنسوة عنه ، وتفرست عيناها الرماديتان بأختها . وسالت بصوتها الواطئ العميق العذب الفاتن ابدا :

– هل حدث شىء عندكم ؟ هل تشاجرتما ؟

اخذت داشا تنظر الى كالوش نيقولاى ايفانوفيتش الجلدى ، وكان يسمى فى البيت بـ«الكالوش المتحرك بذاته» . وكان فى تلك اللحظة يقبع مهملا . وارتعش ذقن داشا .

– لا ، لم يحدث شىء . مجرد مزاج .

فكت يكاترينا دميتريفنا ببطء الازرار الكبيرة على معطفها من فراء السنجاب ونضته عنها بحركة من كتفيها العاريتين ، وها هى بكليتها دافئة ، حنون ، تعبى . وانحنت بشدة لتفك حذاءها الطويل ، وقالت :

– تبللت قدماى ،وانا ابحث عن سيارة .

عندئذ سالت داشا بحدة ، وهى مستمرة فى النظر الى كالوش نيقولاى ايفانوفيتش :

– اين كنت ، يا كاتيا ؟

– فى عشاء ادبى ، يا عزيزتى ، تكريما لشخص لا اعرف حتى اسمه ، قسما بالله . نفس النمط . انا تعبة الى حد الاعياء ، واريد ان انام .

ودخلت غرفة الطعام . والقت حقيبتها الجلدية على المفرش ، ومسحت انفها الصغير بمنديلها ، وسالت :

– مَن قطع وريقات الزهور ؟ واين نيقولاى ايفانوفيتش ؟ اهو نائم ؟

وتملكت الحيرة داشا ، فان شقيقتها لا تشبه المرأة الفاسقة فى اللوحة مطلقا ، ولم تكن غريبة عليها ، بل وهى اليوم ، لسبب ما ، اقرب اليها من اى وقت مضى ، حتى لودّت لو تمسد عليها بكليتها .

ومع ذلك فقد قالت داشا بكل ما فى روحها من حضور ، واظفرها يخدش المفرش فى الموضع الذى تناول فيه نيقولاى ايفانوفيتش البيض المقلى قبل نصف ساعة :

– يا كاتيا !

– ماذا ، يا عزيزتى ؟

– انا اعرف كل شىء .

– ماذا تعرفين ؟ بالله ، ما الذى حصل ؟

وجلست يكاترينا دميترييفنا الى المائدة ، ماسة بركبتيها ساقى داشا ، متطلعة اليها بفضول من الاسفل الى الاعلى .

قالت داشا :

– كشف لى نيقولاى ايفانوفيتش كل شىء .

ولم تنظر الى وجه شقيقتها ، لترى ما يعصف فى داخلها .

وبعد صمت طويل جدا يكاد يفتك بالنفس قالت يكاترينا دميترييفنا بصوت حانق :

– اى خبر عاصف اعلن نيقولاى ايفانوفيتش ؟

– انت تعرفين ، يا كاتيا .

– لا ، لا اعرف .

وقد فاهت بـ«لا اعرف» هذه ، وكان كرة ثلجية تكورت من هذه الكلمة .

وفى الحال هوت داشا على قدميها :

– اذن ، فقد يكون ذلك غير صحيح ؟ كاتيا ، يا عزيزتى ، ويا مهجتى ، يا شقيقتى الجميلة ، قولى لى : كل ذلك غير صحيح ؟

وغطت داشا بالقبل السريعة يد كاتيا الرقيقة ، العابقة بالعطر ، ذات العروق الزرقاء كالجداول .

اجابت يكاترينا دميترييفنا ، مغمضة عينيها فى ونى :

– غير صحيح ، طبعا . وها انت تبكين فورا . وغدا ستصبح عيناك حمراوين ، وانفك منفوخا .

ورفعت داشا ، وظلت تطبق شفتيها على شعرها طويلا .

وهمست داشا فى صدرها :

– انا حمقاء !

وفى تلك اللحظة صدر صوت نيقولاى ايفانوفيتش العالى الواضح من وراء باب مكتبه :

– انها تكذب !

التفتت الشقيقتان فجاة ، الا ان باب المكتب كان مغلقا .

قالت يكاترينا دميترييفنا :

– اذهبى للنوم يا صغيرتى ، اما انا فذاهبة لأستوضح الأمر . يا له من امر ممتع ، وانا لا اكاد اقف على قدمى .

رافقت داشا الى غرفتها ، وقبلتها ساهمة ، ثم عادت الى غرفة الطعام ، فاختطفت محفظتها ، وعدلت من وضع المشط على راسها ، ودقت باب المكتب باصبعها بهدوء .

– افتح ، نيقولاى ، ارجوك .

الا انها لم تتلق جوابا . كان صمت منحوس ، اعقبه نخير من انف ، وقلقلة مفتاح ، ودخلت يكاترينا دميترييفنا ، فرأت ظهر زوجها العريض . لم يلتفت اليها ، بل سار نحو الطاولة ، وجلس فى المقعد الجلدى ، وتناول سكينا من عظم العاج ، ومرره بحدة على كتاب (هو رواية فاسيرمان «رجل الاربعين») .

فعل كل ذلك وكأن يكاترينا دميتريفنا لم تكن فى الغرفة .

جلست يكاترينا دميتريفنا على الأريكة ، وجذبت تنورتهـا على ساقيها ، واخفت منديلها فى المحفظة ، وسدت قفلها . وبتلك الحركة ارتجفت خصلة الشعر على هامة نيقولاى ايفانوفيتش . قالت يكاترينا دميتريفنا :

– شيء واحد لا افهمه . انت حر فى ان تظن ما تشاء من الظنون ، ولكنى ارجو الا تشرك داشا فى امزجتك .

عندئذ استدار على مقعده بحمية ، ومد رقبته ولحيته ، وقال من خلال اسنانه :

– اذن ، عندك الوقاحة الكافية لتسمى ذلك مزاجى ؟

– انا لا افهم .

– رائع ! لا تفهمين ؟ اما ان تتصرفى كامراة رخيصة ، فانت تفهمين ، كما يبدو ؟

فتحت يكاترينا دميتريفنا فمها قليلا عند سماعها هذه الكلمات . وقالت بهدوء وهى تنظر الى وجه زوجها المحمر بشدة حتى تفصد بالعرق ووجهه المشوه غيظا :

– قل لى : متى بدات تتحدث معى بهذه اللهجة المهينة ؟

– ارجو المعذرة ، يا مولاتى ! ولكننى لا اجيد التحدث بلهجة اخرى . وباختصار اود لو اعرف التفاصيل .

– اية تفاصيل ؟

– لا تكذبى على فى وجهى .

– هذا ما تعنيه اذن ، – قالت ذلك ، وتقلبت عيناها الوسيعتان وكان ذلك من منتهى التعب ، – اليوم قلت لك شيئا ما . . ونسيته مطلقا .

– اريد ان اعرف مع من حصل ذلك .

– انا لا اعرف .

– مرة اخرى ارجو الا تكذبى . . .

– انا لا اكذب . ولا داعى للكذب عليك . ولكننى قلت . وما اكثر ما اقول ساعة الغضب ! قلت ، ونسيت .

خلال هذا الكلام كان وجه نيقولاى ايفانوفيتش جامدا كالحجر ، الا ان قلبه غاص ووجب من الفرح : «حمدا لله ، كانت تكذب على

نفسها» . والآن كان من الممكن بأمان ان يتظاهر فى صخب بانه لا يصدق شيئا تنفيسا عن كرب قلبه .

نهض من مقعده ، وراح يتمشى على البساط ، متوقفا بين الحين والآخر ، شاقا الهواء بضربات من سكينه العاجية ، وهو يتحدث عن سقوط العائلة ، وفساد الخلق ، وعن الواجبات المقدسة المهملة الآن ، واجبات المراة – الزوجة ، ام اولادها ، ومساعدة زوجها . ولام يكاترينا دميتريفنا على خوائها الروحى ، وعلى تبذيرها الأهوج للنقود المكتسبة بالدم (صححت يكاترينا دميتريفنا : «ليس بالدم ، بل بتحريك اللسان») . لا ، بل واكثر من الدم ، بحرق الاعصاب . ووبخها على عدم عنايتها باختيار الاصحاب ، وانعدام الترتيب فى البيت ، وولعها بـ«تلك البلهاء المغولى العظيم ، وحتى بـ«اللوحات التى تثير قرفى فى غرفة جلوسك المبتذلة» .

وباختصار ، نفّس نيقولاى ايفانوفيتش عما فى صدره .

تجاوزت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . وعندما بح صوت الزوج وصمت ، قالت يكاترينا دميتريفنا :

– لا يمكن ان يكون هناك ابغض من رجل سمين وهستيرى .

ونهضت ، ودخلت مخدعها .

الا ان نيقولاى ايفانوفيتش لم يتكدر الآن حتى من هذه الكلمات . خلع ملابسه ببطء ، وعلقها على ظهر المقعد ، ودور الساعة ، واندس فى الفراش النظيف المفروش على الأريكة الجلدية ، وارسل زفرة خفيفة .

فكر وهو يفتح كتابا ليهدئ نفسه بالقراءة انتظارا للنوم : «اجل ، ان نمط حياتنا ردىء . ويجب ان نعيد تنظيم حياتنا كلها . مؤلم ، مؤلم» . الا انه انزل الكتاب فى اللحظة التالية ، وارهف سمعه . كان الهدوء يسود البيت . مخط شخص من انفه ، فوجب قلبه لهذا الصوت . وفكر مع نفسه : «انها تبكى ، اى ، اى . يبدو اننى تماديت فى القول» .

وعندما اخذ يسترجع كل حوارهما ، وتمثل كاتيا جالسة تصغى ، اخذه الاشفاق عليها . رفع جسمه على كوعه ، واستعد

للخروج من تحت الدثار ، الا انه شعر باسترخاء يدب فى جسمه كله ، وكانه من تعب ايام كثيرة ، فالقى رأسه على الوسادة ، وغفا .

خلعت داشا ملابسها فى غرفتها النظيفة المرتبة ، واخرجت المشط من شعرها ، وهزت رأسها حتى تطايرت دبابيس الشعر فورا ، وانسلت فى فراشها الأبيض ، وسحبت الغطاء حتى ذقنها ، وقلصت عينيها ، وقالت لنفسها : «شكرا لله ، كل شىء على ما يرام ! وليس لى الآن ما يشغل بالى ، فلأنم» . وتصورت امامها وجها صغيرا مضحكا . فابتسمت ، وعكفت ركبتيها قليلا ، وطوقت الوسادة . وغشتها سِنَة لذيذة مظلمة من النوم ، وفى الحال تردد فى ذاكرتها صوت كاتيا بوضوح : «غير صحيح ، طبعا» . فتحت داشا عينيها ، «لم اقل لكاتيا كلمة واحدة . سألتها فقط : صحيح ام غير صحيح . فاجابتنى وكانما كانت تفهم تماما مدار الحديث» . وكان الوعى يوخز جسمها كله وخز الأبر : «خدعتنى كاتيا !» ، وبعد ان تذكرت كل دقائق الحديث ، وكلمات كاتيا وحركاتها رأت بوضوح ان فى الأمر خدعة حقا . واحست داشا بصدمة . لقد خانت كاتيا زوجها ، ولكنها بعد اقتراف خيانتها ، واثمها ، وكذبها ، اضحت اكثر فتنة . والأعمى وحده لا يستطيع ان يلحظ فيها شيئا جديدا ، ورقة وافية ذات نكهة خاصة . وهى تكذب بطريقة تاخذ باللب ، تغرى بالحب . ولكنها جانية . انا لا افهم شيئا ، لا افهم .

وقلقت داشا وتحيرت . شربت ماء ، واشعلت المصباح ، ثم اطفأته ثانية ، وظلت تتقلب على الفراش حتى الصباح شاعرة بأنها لا تستطيع ان تدين كاتيا ، ولا تدرك ما اقترفته .

ولم تستطع يكاترينا دميترييفنا ايضا ان تغفو فى تلك الليلة . انطرحت على ظهرها خائرة القوى ، ملقية ذراعيها فوق الدثار الحريرى ، وبكت ، دون ان تمسح دموعها ، على احساس مبهم فى نفسها سيىء ، وغير نظيف ، ولكونها غير قادرة على ان تغير من الأمر شيئا ، ولأنها لن تكون مثل داشا ابدا متقدة العاطفة وقوية الخلق ، كما بكت لأن نيقولاى ايفانوفيتش نعتها بالمرأة الرخيصة ، ووصف غرفة الجلوس بالابتذال . وبكت مر البكاء لأن الكسى الكسييفيتش بيسونوف اخذها فى منتصف الليلة الماضية على عربة سريعة الخيول الى فندق خارج المدينة ،

وهناك امتلكها غير عارف ، ولا محب ، ولا شاعر بكل ما كان قريبا اليها ، عزيزا عليها ، امتلكها بتماهل وقرف وكانها دمية وردية ، من تلك الدمى الموضوعة فى مخزن مدام دوكليه للازياء الباريسية فى شارع مورسكايا .

٥

اتخذت جمعية اطلقت على نفسها اسم «المجمع المركزى لمكافحة العرف السائد» مقرا لها فى شقة المهندس ايفان ايليتش تليغين فى الطابق الخامس من بيت حديث البناء فى الشارع التاسع عشر فى جزيرة فاسيليفسكى .

وكان تليغين قد استأجر هذه الشقة «للسكن» لمدة عام ، بسعر مخفض . فخصص له غرفة واحدة . اما سائر الغرف المؤثثة باسرة حديدية ومناضد ومقاعد من خشب الصنوبر فقد خصصت للمستاجرين من «العزاب ايضا ، وعشاق المرح حتما» . ولم يجد صديقه وزميل صفه السابق سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف كبير عناء فى ان يوفر هؤلاء له .

فسكن الشقة طالب كلية الحقوق الكسندر ايفانوفيتش جيروف ، والمخبر الصحفى انتوشكا ارنولدوف ، والرسام فاليت ، والآنسة الشابة يلزافيتا راستورغوييفا ، التى لم تجد حتى الآن مشاغل على ذوقها .

كان نزلاء الشقة يستيقظون فى وقت متاخر – ساعة عودة تليغين من المصنع لتناول فطوره ، وكان كل واحد منهم يقبل على عمله متماهلا . كان انتوشكا ارنولدوف يستقل الترام الى مقهى فى جادة نيفسكى ، ليعرف آخر الأخبار ، ثم يذهب الى مقر جريدته . ويجلس فاليت فى العادة ليرسم صورة شخصية له . ويغلق سابوجكوف عليه الباب ليعد خطبا ومقالات عن الفن الجديد . وكان جيروف ينسل الى غرفة يلزافيتا كييفنا ، ويناقش معها امور الحياة بصوت ناعم كالمواء . وكان يكتب اشعارا ، ولكن كبرياءه تابى عليه ان يطلع احدا عليها . وكانت يلزافيتا كييفنا تعتبره نابغة .

كانت يلزافيتا كيبفنا ، الى جانب احاديثها مع جيروف والنزلاء الآخرين تحوك من صوف متعدد الالوان اشرطة طويلة لا تنفع لأغراض محددة ، وتغنى بصوت عميق قوى زائف اغانى اوكرانية ، او تبتكر لنفسها تصفيفات شعر غير مالوفة ، او تكف عن الغناء ، وتفل شعرها ، وتستلقى على السرير تطالع كتابا ، وتنغمر فى المطالعة حتى تصاب بصداع . ويلزافيتا كيبفنا جميلة فارعة موردة الخدين ، تبدو عيناها القصيرتا النظر وكانهما مرسومتان على صفحة وجهها ، وملابسها لا تنم عن ذوق ، فكانت موضع نقد حتى من نزلاء شقة تليغين .

حين كان يظهر شخص جديد فى البيت كانت تدعوه الى غرفتها ، ويبدا حديث يدير الراس ، قائم بكليته على التطرف فى الحدود ، وبعد ذلك كانت تستدرج محدثها لتعرف هل هو متعطش الى الجريمة ؟ وهل هو مقتدر على القتل ، مثلا ؟ وهل يستشعر فى نفسه «التحريض الذاتى» ؟ فقد كانت تعتبر هذه الخاصية علامة على روعة الانسان .

بل ان نزلاء شقة تليغين علقوا هذه الاسئلة على باب غرفتها . لقد كانت يلزافيتا كيبفنا ، عموما ، فتاة غير راضية ، وكانت دائما تتوقع «تحولات» و«احداثا مروعة» تجعل الحياة جذابة تعاش بكل كيان الانسان ، بدلا من الملل قرب نافذة صغيرة اعتمها المطر .

وكان تليغين نفسه يجد غير قليل من التسلية فى مراقبة نزلائه ، ويعتبرهم جماعة من الممتازين وذوى الصَبَوات ، الا انه لم يشترك فى ملاهيهم الا قليلا ، بسبب قلة الوقت .

وذات يوم فى عيد الميلاد جمع سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف نزلاء الشقة ، والقى عليهم الخطبة التالية :

– ايها الرفقاء ، ان اوان العمل قد حان . نحن كثيرون ، ولكننا مبعثرون . واعمالنا حتى الآن تتسم بطابع التشتت والتهيب . وعلينا ان نؤلف فصيلة ، ونسدد ضربة الى المجتمع البرجوازى . ولهذا الغرض ينبغى اول الأمر ان نكون من بيننا الجماعة المبادرة ، وبعد ذلك نذيع هذا البيان ، وفيه نقول : «نحن الكولومبسيون الجدد ! نحن الدعاة النوابغ ! نحن بذور الانسانية الجديدة ! نحن نطالب المجتمع البرجوازى السابح فى الدسم ان ينبذ

كل الخرافات . منذ الآن لن يكون هناك وجود للفضائل . تلغى العائلة والاعراف الاجتماعية ، وعقود الزواج . اننا نطالب بذلك . يجب على الانسان ، امراة كان او رجلا ، ان يكون عاريا طليقا . والعلاقات الجنسية ملك للمجتمع . ايها الشبان والشابات ، ايها الرجال والنساء اخرجوا من جحوركم ، واطلعوا عراة سعداء الى الرقص تحت شمس الحيوان المتوحش ! ..»

وبعد ذلك قال سابوجكوف ان الضرورة تستدعى اصدار مجلة مستقبلية باسم «طبق الآلهة» سيقدم تليغين قسما من المال المصروف عليها ، والقسم الآخر يجب ان ينتزع من فكوك البرجوازيين – والمجموع ثلاثة آلاف روبل .

وعلى هذا النحو اسس «المجمع المركزى لمكافحة العرف السائد» ، والاسم من ابتكار تليغين الذى ضحك بشدة من مشروع سابوجكوف ، حين عاد من المصنع . وجرى فى الحال الاعداد لاصدار العدد الاول من «طبق الآلهة» . قدم بعض رعاة الفنون الاغنياء ، والمحامين ، وحتى ساشكا ساكيلمان نفسه المبلغ المطلوب – ثلاثة آلاف روبل . واوصى بطبع استمارات على اوراق للف تحمل اسما غريبا هو «المركز النابذ» ، وبدات الدعوات توجه الى المحررين اللازمين ، وصارت المواد تجمع للمجلة . واقترح الرسام فاليت ان تشوه جدران حجرة سابوجكوف التى حولت الى مقر لهيئة التحرير ، بالرسوم الماجنة . فرسم على الجدران اثنتى عشرة صورة شخصية له ، ونوقشت مسالة تاثيث الغرفة مناقشة طويلة ، واخيرا اخليت الغرفة الا من طاولة كبيرة الصقت عليها اوراق مذهبة .

وبعد صدور العدد الاول من المجلة بدا الناس فى المدينة يتحدثون عن «طبق الآلهة» . فاعلن البعض عن سخطه ، واكد آخرون على ان الأمر ليس بالبساطة الذى يبدو فيها ، وفى المستقبل القريب قد تودع اعمال بوشكين فى الارشيف . واصيب الناقد تشيرفا بالذهول ، فقد نعت فى«طبق الآلهة» بالوغد . واسرعت يكاترينا دميتريييفنا بالاشتراك فى المجلة لسنة كاملة ، وعزمت على ان تنظم عشاء يوم ثلاثاء مع المستقبليين .

اوفد «المجمع المركزى» سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف للعشاء فى بيت سموكوفنيكوف . فجاء مرتديا سترة طويلة قذرة

من الفستيان الأخضر اخذها بالاستعارة من حلاقة المسرح ، وكانت قد استعملت فى مسرحية «مانون ليسكو» . واكل بافراط مبالغ فيه فى العشاء ، وضحك ضحكا مجلجلا بغيضا حتى لسمعه هو ، وسمى النقاد ، وهو ينظر الى تشيرفا ، بـ«بنات آوى اكلة الفطائس» . بعد ذلك استرخى ، وراح يدخن آ معدلا نظارته الانفية على انفه المبلل . وبشكل عام كان الحضور يتوقعون اكثر من ذلك .

بعد صدور العدد الثانى تقرر اقامة حفلات عشاء تحت اسم «التدنيسات الرائعة» . وقد شهدت داشا احدى هذه التدنيسات . فتح جيروف الباب الامامى لها ، وانشغل بها فى الحال . اخذ منها كالوشها ، ومعطفها الفرائى ، بل ورفع خيطا صغيرا كان عالقا بثوبها من الجوخ . ودهشت داشا لرائحة الكرنب فى الرواق . سار جيروف وراءها فى الممر جنبا الى مكان التدنيس ، وسالها :

– خبرينى باى العطور تتعطرين ؟ عطر رائع الشذى .

ثم ادهش داشا رخص كل هذه الجسارة المعلن عنها بضوضاء . حقا لقد كانت تتناثر على الجدران عيون ، وانوف وايد ، وشخوص مستهجنة ، وناطحات سحاب متهاوية ، وباختصار ، كل ما يؤلف اجزاء صورة فاسيلى فاليت الذى كان واقفا هناك صامتا ، وعلى خديه رسم خطان منكسران . وكان المضيفون والضيوف – ومن بينهم الشعراء الشبان الذين كانوا يحضرون عشاءات الثلاثاء فى منزل سموكوفنيكوف بمجموعهم تقريبا – يجلسون على الواح غير مسحوجة وموضوعة على كتل خشبية (هبة من تليغين) ، وكانوا يقراون الشعر باصوات مبالغ فى وقاحتها عن سيارات تدب على قبو السماء ، وعن «بصقة على المصاب بالزهرى السمارى» ، وعن فكين فتيين كسر بهما الشاعر قباب الكنائس ، كما يكسر الجوز ، وعن جندب غير مفهوم ابدا لابس معطفا غاليا يقفز من النافذة الى الرصيف وهو ممسك بمنظار مكبر ودليل سياحة . الا ان كل هذه البشائع بدت لداشا شوهاء . ولم يعجبها بصدق الا تليغين . تقدم منها اثناء الحديث ، وسالها بابتسامة حيية عما اذا كانت تريد شايا وشطائر .

– الشاى والسجق عندنا اعتياديان ، يعنى جيدان .

كان وجهه ملوحا ، حليقا ، عليه مسحة من السذاجة ، اما عيناه الزرقاوان الطيبتان فيبدو انهما ذكيتان وقاسيتان عند الضرورة .

وفكرت داشا بانها ستسره اذا قبلت بعرضه ، فنهضت ، ودخلت غرفة الطعام ، حيث رأت مائدة عليها صحن الشطائر ، وسماور مبعوج . اسرع تليغين فى جمع الصحون المستعملة ، ووضعها على الارض فى احد اركان الغرفة ، والتفت باحثا بعينيه عن خرقة ، ومسح المائدة بمنديله ، وصب لداشا قدح شاى ، وانتقى لها «ألذ» شطيرة . وقد قام بكل ذلك على مهل بيديه الكبيرتين القويتين ، وتكلم ، وكأنما يجهد نفسه بشكل خاص لتكون داشا مرتاحة وسط هذه القذارة :

– شؤوننا البيتية فوضى لا نظام لها . هذا صحيح ، ولكن الشاى والشطائر من الدرجة الفاخرة ، مشتراة من مخزن يليسييف الشهير . وكانت هناك حلويات الا انها التهمت ، ولكن . . . – وهنا اطبق شفتيه ، ونظر الى داشا ، ولاح فى عينيه الزرقاوين خوف ، ثم تصميم ، وقال – هلا سمحت لى ؟ – واخرج من جيب صداره ملبستين ملفوفتين بورقتيهما .

وفكرت داشا مع نفسها «مع مثل هذا الرجل لا يتردى الانسان» ، ولكى تسره ايضا قالت :

– هذا النوع الذى افضله من الملبس .

ثم جلس تليغين مقابل داشا بانحراف ، واخذ يحدق فى علبة الخردل بانتباه . ونضح العرق على جبينه العريض الكبير من التوتر . اخرج منديله بحذر ، ومسح جبينه .

وافترت شفتا داشا عن ابتسامة لا ارادية : ذلك لان هذا الرجل الكبير الجميل كان على درجة من انعدام الثقة بالنفس تجعله يود لو يتوارى وراء علبة الخردل تلك . وتخيلت داشا ان امه العجوز النظيفة الملابس تعيش فى مدينة ارزاماس ، كما بدا لها ، وتكتب له من هناك رسائل حادة حول «عادته المستأصلة فى تسليف نقوده لمختلف الحمقى» ، وتعظه بأن «احترام الناس ، يا ابنى العزيز ، لا يمكن ان تكسبه الا بالتواضع والمثابرة» . وهو ، على ما يبدو ، يتأفف من هذه

الرسائل ، مدركا كم هو بعيد عن الكمال . واستشعرت داشا رقة تجاه هذا الرجل . سألته :

– اين تشتغل ؟

رفع تليغين عينيه فى الحال ، ورأى ابتسامتها ، فابتسم هو الآخر ابتسامة عريضة .

– فى مصنع البلطيق .

– وهل عملك ممتع ؟

– لا اعرف . اعتقد ان كل عمل ممتع .

– اظن ان العمال يحبونك كثيرا .

– لم افكر فى ذلك قط . ولكن لا اظن انهم يحبوننى . ولماذا عليهم ان يحبونى ؟ فانا شديد معهم . رغم ان علاقاتنا طيبة بالطبع ، علاقات رفاقية .

– قل لى هل اعجبك عن صدق كل ما جرى فى تلك الغرفة ، اليوم ؟

زالت غضون من على جبين ايفان ايليتش ، وانفجر ضاحكا بصوت عال .

– صبيان . اشقياء طائشون . فتية رائعون . انا راض عن نزلاء شقتى ، يا داريا دميتريفنا . فى بعض الاحيان تحدث منغصات فى عملنا ، واعود الى البيت منزعجا ، فأجدهم هنا قد ابتكروا هراء من هراءاتهم . . . وفى اليوم التالى حين اتذكر ما حصل اضحك وابتهج .

قالت داشا بلهجة حازمة :

– اما انا فلا تعجبنى هذه التدنيسات ابدا . انها سفاهة محض .

نظر فى عينيها بدهشة . فأكدت قولها : «لا تعجبنى ابدا» .

قال ايفان ايليتش مفكرا :

– انا المذنب فى ذلك بالطبع . فانا الذى شجعتهم عليه . حقا ، ان تدعى ضيوفا ، وتقضى المساء كله فى قول سفاسف امر . . . من المؤلم جدا ان كل هذا لم يعجبك على هذا النحو .

حدقت داشا فى وجهه مبتسمة ، واحست بانها تستطيع ان تقول ما تشاء لهذا الرجل الغريب عليها تقريبا .

– اتصور ، يا ايفان ايليتش ، انك لا بد ان تهوى شيئا مختلفا تماما . يبدو لى انك رجل طيب ، احسن بكثير من تصورك انت لنفسك ، حقا ، حقا .

وركزت داشا كوعها على المائدة ، ووسدت حنكها على كفها ، ومست شفتيها بخنصرها . كانت عيناها تبتسمان ، الا انهما بدتا له مخيفتين ، جميلتين الى حد مذهل ، عينين رماديتين واسعتين باردتين قليلا . ولذهو له الشديد لوى ملعقة شاى ثم عدلها .

ولحسن حظه دخلت الغرفة يلزافيتا كييفنا ، كانت تلقى على كتفيها شالا تركيا ، وقد ضفرت شعرها فوق اذنيها بضفيرتين كقرنى الخروف . مدت لداشا يدا طويلة مقدمة نفسها باسم «راستورغويفا» وجلست وقالت :

– تحدث جيروف عنك كثيرا جدا . واليوم درست وجهك . وارى انك قد شعرت بالسأم ، وهذا شىء جيد .

اسرع ايفان ايليتش يسألها :

– يا ليزا ، اتريدين شايا باردا ؟

– لا ، يا تليغين . انت تعرف اننى لا اشرب الشاى ابدا . . . اذن قد تسائلين نفسك ، بالطبع ، اى مخلوق غريب هذا الذى يتحدث معك ؟ انا لا احد . شخص حقير . انا فاسدة وبليدة .

كان ايفان ايليتش واقفا عند المائدة ، فأشاح بوجهه يائسا . وغضت داشا من بصرها . فامعنت يلزافيتا كييفنا فيها النظر مبتسمة .

– انت انيقة ، مرفهة وبارعة الجمال . لا تنكرى ، فانت تعرفين ذلك بنفسك . انت موضع حب عشرات الرجال ، بالطبع . ومن المؤلم ان كل هذا سينتهى بغاية من البساطة . سيأتى الذكر ، فتلدين له اولادا ، ثم تموتين . فما اضجر ذلك !

ارتعشت شفتا داشا تكدرا . واجابت :

– انا لا اريد ان اكون خارجة عن المألوف . ولا ادرى لماذا يقلقك مستقبلى الى هذا الحد .

ابتسمت يلزافيتا كييفنا بمرح اشد ، وبقيت عيناها حزينتين وديعتين .

– لقد حذرتك باننى حقيرة كانسان ، ومقززة كامرأة .

والذين يتحملونني قليلون جدا ، وعن شفقة فقط كما يفعل تليغين مثلا . فتمتم تليغين دون ان يرفع رأسه :

– اى هراء هذا الذى تتحدثين به ، يا ليزا .

– انا لا اطالبك بشيء ، يا تليغين ، فهدئ من روعك . –

والتفتت الى داشا مرة اخرى : – هل عانيت عاصفة ذات مرة ؟ اما انا فقد عانيت واحدة . كان هناك رجل ، وكنت احبه ، وكان يكرهني بالطبع . وكنت آنذاك اعيش على البحر الاسود . وثارت عاصفة . وقلت لذلك الرجل : «لنخرج الى البحر . . .» فخرج معي موجدة وحنقا . وحُملنا الى عرض البحر . . . ما اروعها من تسلية . . . وخلعت عني ثوبي ، وقلت له . . . .

قال تليغين مغضّنا شفتيه وانفه :

– اسمعى ، يا ليزا . انت تكذبين . لم يحدث ذلك . انا اعرف .

عندئذ نظرت يلزافيتا كييفنا اليه بابتسامة مبهمة ، واخذت تضحك فجاة . وضعت كوعيها على المائدة ، واخفت وجهها بينهما ، وضحكت ، واهتزت كتفاها الممتلئتان . نهضت داشا ، وقالت لتليغين انها تريد ان تذهب الى البيت ، وتنصرف دون ان تودع احدا ، اذا امكن ذلك .

وقدم ايفان ايليتش لداشا معطفها بحذر شديد ، وكان المعطف جزء من كيانها ايضا . ونزل الى الاسفل على السلم المظلم ، مشعلا طوال الوقت اعواد الثقاب ، متكدرا من حلكة الظلام وهبوب الريح ، وزلق الارض ، واوصل داشا الى ركن الشارع ، واجلسها فى عربة زلاجة . كان الحوذى عجوزا ، والثلج يغمر حصانه . ظل ايفان ايليتش وقتا طويلا واقفا فى البرد حاسر الراس ، وبلا معطف ، ينظر الى الزلاقة الواطئة وهى تتلاشى وتذوب فى الضباب الأصفر ، ومعها يتلاشى ويذوب شبح الفتاة الجالسة فيها . وبعد ذلك عاد الى البيت متمهلا ، ودخل غرفة الطعام . فرأى يلزافيتا كييفنا فى جلستها تلك ، ووجهها بين يديها . حك تليغين ذقنه ، وقال عابس الاسارير :

– ليزا .

عندئذ رفعت ليزا راسها بسرعة شديدة .

– ليزا ، لأى سبب ، وارجو المعذرة ، تخوضين دائما فى حديث يجعل الجميع فى حرج وخجل ؟

قالت يلزافيتا كييفنا بصوت خافت وهى لا تفتأ تحدق فيه بعينيها الحزينتين ، القصيرتى النظر ، اللتين تبدوان مرسومتين على صفحة وجهها :

– احببتَ . رأيت ذلك من الوهلة الاولى . اوه ، يا للضجر.

قال تليغين وقد صعد الدم الى وجهه :

– هذا غير صحيح البتة . غير صحيح .

– اذن ، فانا متاسفة .

ونهضت بتكاسل ، وخرجت ، ساحبة وراءها على الارض شالها التركى المغبر .

سار ايفان ايليتش بعض الوقت مغمورا فى افكاره ، شرب شايا باردا ، ثم رفع المقعد الذى جلست عليه داريا دميترييفنا ، وحمله الى غرفته . وهناك تروّى ، ووضعه فى احد الاركان ، واحتوى كل انفه براحته ، وقال ، وكأنما قد صعق صعقة هائلة :

– هراء . . . سخافة !

كان هذا اللقاء بالنسبة لداشا مجرد لقاء من لقاءات عديدة . التقت برجل طيب ، وانتهى الأمر . كانت داشا فى سن لا يرى فيها المرء ، ولا يسمع بشكل جيد : فان سمعه موقر بضجيج الدم فى عروقه ، وعيناه فى كل مكان – وحتى فى وجه انسان امامه – لا تريان الا صورته هو ، وكأنها انعكاسه فى مرآة . والقبح وحده فى مثل هذه السن يثير الخيال ، اما جمال الناس ، ومناظر الطبيعة الخلابة ، وجمال الفن المتواضع فان كل ذلك يعتبر حاشية الحياة اليومية لملكة فى التاسعة عشرة من العمر .

ولم يكن الأمر كذلك مع ايفان ايليتش . والآن ، وقد انقضى اكثر من اسبوع على زيارة داشا ، فقد اخذ يتعجب من ان تظهر فى شقتهم هذه الفتاة ذات البشرة الوردية الرقيقة ، والثوب الاسود من الجوخ ، والشعر الاشقر الشاحب المرتفع فوق راسها ، والفم الطفولى المتكبر ، وتظهر دون ان تلحظ (حتى انه لم يسلم عليها راسا) تظهر ببساطة (فقد دخلت ، وجلست ، ووضعت على ركبتها موفة الفراء التى تدفئ بها يديها) . ولم يكن مفهوما كيف وافته

العزيمة ليتحدث معها ببساطة عن السجق المشترى من مخازن يليسييف .

والملبستان الدافئتان اللتان اخرجهما من جيبه ، وعرض عليها ان تأكلهما ؟ فيا له من نحس !

كان ايفان ايليتش خلال حياته (تخطى التاسعة والعشرين قبل حين) قد احب ست مرات : عندما كان تلميذ فى المدرسة الثانوية فى قازان احب فتاة ناضجة ، هى ماروسيا خفويفا ، ابنة طبيب بيطرى ، كانت تجوب الشارع الرئيسى فى الساعة الرابعة ، ولزمن طويل ، دون فائدة ، وهى فى معطف واحد لا يتغير مصنوع من قماش البلش ، الا ان ماروسيا خفويفا لم تكن فى وضع يقبل التمازح ، فنبذته ، وانصرف هو عنها ، دون مرحلة انتقالية ، الى آدا تيليه الفنانة المتجولة التى انتزعت دهشة اهل المدينة بظهورها فى جميع الاوبريتات ، من كل العصور ، على قدر الامكان بثوب سباحة ، وهو امر ابرزته ادارة المسرح فى اعلاناتها : «آدا تيليه الحائزة على المدالية الذهبية لجمال ساقيها» .

وتجرأ ايفان ايليتش حتى على ان ينفذ الى بيت الفنانة ، ويحمل اليها باقة من الزهور ، المقطوعة من حديقة البلدية . الا ان آدا تيليه اعطت هذه الزهور لتشمها كلبتها الصغيرة الغزيرة الشعر ، وقالت لايفان ايليتش ان معدتها قد مرضت تماما من الطعام المحلى ، وطلبت اليه ان يهرع الى الصيدلية . وبهذا انتهى الأمر .

وبعد ذلك ، حين صار طالبا فى بطرسبورغ مال الى طالبة الطب فيلبوشيفيتش ، بل وكانت له مواعيد معها فى مسرح التشريح ، الا ان ذلك بحد ذاته لم يأت بنتيجة مرجوة ، وغادرت فيلبوشيفيتش لتعمل فى مستشفى احد الاقضية .

وذات مرة أغرمت به فتاة تدعى زينوتشكا تعمل فى مخزن كبير للقبعات ، غراما شديدا اسلمها الى اليأس . واستجاب ايفان ايليتش لكل ما رغبت فيه ، لارتباكه ورقة قلبه . الا انه تنفس الصعداء حين رحلت الفتاة الى موسكو مع الفرع الذى تعمل فيه من الشركة ، فقد مضى معها شعور كان يراوده دائما بان ثمة واجبات لم يقم بها .

ويرجع تاريخ آخر عاطفة حب مست قلبه الى حزيران قبل

عامين . فقد كانت هناك فتاة نحيلة شاحبة تظهر كل يوم قبيل الغروب فى النافذة المقابلة لنافذته المطلة على الفناء وتفتح النافذة ، وتنظف بالفرشاة ، وبحرص شديد ، ثوبها البنى الذى لا يتغير ، ثم ترتديه ، وتخرج لتجلس قليلا فى المنتزه .

وفى المنتزه ، فى اوائل الغسق ، تحدث معها ايفان ايليتش ، ومنذ ذلك الحين اخذا يتنزهان سوية كل مساء ، ويبديان اعجابهما بلحظات الغروب فى بطرسبورغ ، ويتجاذبان اطراف الحديث .

كانت هذه الفتاة ، واسمها اوليا كوماروفا ، تعمل فى مكتب كاتب عدل ، وكانت وحيدة دائمة المرض والسعال . وقد تحادثا عن هذا السعال ، والمرض ، وعن الوحشة التى تهبط على صدر الانسان الوحيد عند المساء ، وعن صاحبة لها تسمى كيرا ، احبت رجلا طيبا ، ورحلت معه الى القرم . وكانت احاديثهما كئيبة . وكانت اوليا كوماروفا يائسة من أمرها حتى انها لم تخجل ان تبوح لايفان ايليتش بافكارها المكنونة وهى متوقعة احيانا ان يقع فى غرامها فجأة ، ويتزوجها ويأخذها الى القرم .

وكان ايفان ايليتش يشفق عليها كثيرا ، ويكن لها الاحترام ، الا انه لم يقدر ان يحبها ، ولو انه بعد احاديثهما احيانا كان يفكر وهو مستلق على الاريكة فى الظلمة بأنه انسان انانى ، سيئ ، وبلا قلب .

وفى الخريف اصيبت اوليا كوماروفا بنزلة صدرية ووقعت طريحة الفراش . وقد اخذها الى المستشفى ، ومن هناك الى المقبرة . وقبيل موتها قالت له : «هل ستتزوجنى اذا شفيت ؟» فاجابها ايفان ايليتش : «كلمة شرف ، سأتزوجك» .

ولم يكن شعوره نحو داشا يشبه مشاعره السابقة . لقد قالت له يلزافيتا كييفنا «احببتَ» . ولكن الانسان يمكن ان يحب مَن يفترض ان يناله ، وليس من الممكن ان يحب تمثالا او غيمة .

وقد شعر نحو داشا بعاطفة فريدة ، جديدة عليه ، ومشوبة بالغموض ، لأن الاسباب الداعية لها قليلة – بضع دقائق من الحديث ، ومقعد فى ركن من الغرفة .

كما ان هذه العاطفة لم تكن على قدر كبير من الحدة ، الا ان ايفان ايليتش صار الآن يحس فى نفسه بالرغبة فى ان يكون

فريدا ، ويبدا بالاهتمام بنفسه كثيرا . وكان غالبا ما يقول لنفسه : «قريبا سأبلغ الثلاثين ، وانا ما ازال اعيش لنفسى وبلا غاية . خواء رهيب . انانية ولا مبالاة ازاء الناس . يجب ان اتماسك قبل فوات الاوان» .

فى اواخر اذار ، وفى يوم من ايام بواكير الربيع ، الطالعة بغتة على المدينة البيضاء من الثلج ، المتدثرة طلبا للدفء ، حين تلمع قطرات الجمد منذ الصباح وتقطر من الافاريز السطوح ويشرشر الماء فى انابيب تصريف المياه من اعالى البنايات ، ويطفح فى البراميل الخضراء الموضوعة تحتها ، ويهش الثلج فى الطرقات ، ويتصاعد البخار من الاسفلت ، وتجف بقع منه ، ويحس المرء بثقل المعطف الشتائى على كتفيه ، وبين الحين والآخر تقع العين على رجل ذى لحية مدببة يسير بدون معطف ، واذا بالناس كلهم ينظرون اليه ويبتسمون ، وحين يرفع المرء رأسه يرى السماء لا يسبر لها عمق ، زرقاء كأنها غسلت بالماء ، فى يوم كهذا اليوم ، وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر خرج ايفان ايليتش من الدائرة الهندسية فى جادة نيفسكى ، وفك معطفه ذا الحاشية الفرائية ، وقلص عينيه اتقاء الشمس .

«الحياة رائعة على اية حال» .

وفى تلك اللحظة وقع بصره على داشا . كانت تسير على حافة الرصيف وئيدة الخطى ، ترتدى معطفا ربيعيا ازرق ، وقبعة زرقاء شدت عليها زهورا اصطناعية بيضاء . وكانت تؤرجح طردا بيدها اليسرى فكانت الزهور على قبعتها تتمايل . وكان التأمل والحزن يطفحان من محياها . ومن ورائها كانت الشمس الهائلة الشعثاء النور ، المتوهجة بوهج ربيعى فى السماء الزرقاء النائية تنعكس على برك الماء ، وخطوط الترام ، والزجاج ، وظهور السابلة ، وتحت اقدامهم ، وعلى محاور عجلات العربات .

بدا وكأن داشا قد خرجت من هذه الزرقة والنور ، وتراءت لحظة ، لتختفى بعدها فى جمهور الناس . نظر ايفان ايليتش طويلا فى تلك الناحية . وسمع قلبه يدق فى صدره ببطء . كان الهواء كثيفا ، لاذعا ، يدير الرأس .

سار ايفان ايليتش ببطء الى الناصية ، ووضع يديه وراء

ظهره ، ووقف طويلا امام اسطوانة الاعلانات . وقرأ : «مغامرات جاك الجديدة الطريفة ، منتزع الاحشاء» ، وفكر بأنه لا يفهم شيئا ، وبأنه سعيد سعادة لم يذقها فى حياته كلها .

ولما ابتعد عن اسطوانة الاعلانات رأى داشا ثانية . عادت على هيئتها تلك : الزهور البيضاء على قبعتها ، والطرد فى يدها ، وقدماها تسيران على حافة الرصيف . تقدم منها ، وخلع قبعته .

— داريا دميتريفنا ، ما أروع هذا اليوم ...

جفلت داشا قليلا . ثم رفعت اليه عينين باردتين قليلا لمعت فيهما من جراء النور نقاط خضر . وابتسمت برقة ، ومدت له يدها المقفزة فى قفاز ابيض من جلد الجدى ، وصافحته بقوة ومودة :

— لطيف ان التقى بك . بل وفكرت اليوم فيك ... صدقنى ، لقد فكرت ، — وهزت رأسها ، واهتزت الزهور البيضاء على قبعتها .

— كانت لدى مهمة فى جادة نيفسكى ، وانا الآن حر طوال اليوم ، يا داريا دميتريفنا . ما اروع الطقس اليوم ... — وغضن شفتيه محاولا بكل طاقته الا تنفرجا عن ابتسامة .

سألت داشا :

— يا ايفلن ايليتش هل تستطيع ان توصلنى الى البيت ؟

وانعطفا فى شارع جانبى ، وسارا الآن فى الظل .

— ايفان ايليتش ، هل سيبدو لك غريبا لو اسألك عن شىء ؟ لا ، بالطبع ، انا استطيع ان اتحدث معك . شرط ان تجيبنى راسا . اجبنى دون تردد ، وعلى الفور . اجبنى فى اللحظة التى اسألك فيها .

ولاح الهم على وجهها ، وقطبت حاجبيها . وقالت ، وهى تشق الهواء بذراعها :

— من قبل كنت اتصور ان هناك لصوصا ، وكذابين وقتلة ... وهم موجودون فى مكان ما ، مثل الثعابين ، والعناكب ، والفئران . ولكن البشر ، كل البشر — وقد تكون لهم مواطن ضعف ، ونزوات ، الا انهم جميعا طيبون ، واضحون ... انظر الى تلك الفتاة القادمة . انها كما تراها وباطنا . وكان العالم كله يبدو لى وكأنه ملون بألوان فاتنة . هل أنت تفهمنى ؟

– ذلك شىء رائع ، يا داريا دميتريبفنا . . .

– على مهلك . اما الآن فكاننى اغوص فى هذه الصورة ، الى الظلام واحتباس الهواء . . . انا اعرف ، قد يكون الانسان جذابا ، بل لطيفا ، حلوا حلاوة يمكن ان تتلمسها ، ولكنه فى نفس الوقت يذنب ذنوبا فظيعة . وانا لا اقصد انه يسرق الفطائر من الدولاب ، بل يأثم اثما حقيقيا : يكذب ،– واشاحت داشا بوجهها ، وارتعش حنكها – ان هذا الرجل فاسق بامرأة متزوجة . وانا اريد ان اسالك : هل يجوز هذا يا ايفان ايليتش ؟

– لا ، لا يجوز .

– ولماذا لا يجوز ؟

– لا استطيع ان اقول ذلك الآن ، ولكننى اشعر بانه لا يجوز .

– وهل تظن اننى لا اشعر بذلك ؟ منذ الساعة الثانية وانا اهيم حزينة . الجو اليوم صاف منعش ، بينما انا اتصور ان فى هذه البيوت ، وراء الستائر ، يختفى اناس سود القلوب . وعلى انا ان اعيش معهم . هل تفهم ؟

اجاب بسرعة :

– لا ، لا افهم .

– كلا ، على ان اعيش معهم . آه ، ما اعمق الحزن فى قلبى . اذن فانا مجرد فتاة صغيرة . وهذه المدينة لم تشيد للفتيات الصغيرات ، بل للكبار .

وتوقفت داشا عند مدخل البيت ، وراحت تدفع على الاسفلت ، براس حذائها العالى ، جيئة وذهوبا ، علبة سيكارة فارغة رسمت عليها سيدة باللون الاخضر تنفث الدخان من فمها .

واحس ايفان ايليتش ، وهو ينظر الى راس حذائها الصقيل ، وكان داشا تذوب ، وتتلاشى كالضباب . وكان يود لو يبقيها معه ، ولكن باى قوة ؟ وكان يعرف ان هناك مثل هذه القوة ، ويشعر انها تعصر قلبه ، وتاخذ بخناقه . ولكن كل شعوره بالنسبة لداشا مجرد ظل على حائط ، لأنه هو نفسه ليس الا «ايفان ايليتش الطيب واللطيف» .

– والآن ، مع السلامة ، وشكرا لك ، يا ايفان ايليتش . انت لطيف وطيب جدا . انا لم اشعر باى ترويح ، ولكننى شاكرة لك جزيل الشكر ، على اية حال . لقد فهمتنى ، اليس كذلك ؟ تلك هى امور الدنيا . يجب ان اصبح راشدة ، ولا مفر من ذلك . زرنا فى وقت فراغك ، ارجوك .

وابتسمت ، وهزت يده ، ودخلت البيت ، وغيبها الظلام .

٦

فتحت داشا باب غرفتها ، ووقفت مذهولة . فقد شمت فى الغرفة رائحة زهور رطبة ، وفى اللحظة التالية وقعت عيناها على سلة زهور عالية المقبض ، مزينة بشريط ازرق ، موضوعة على منضدة الزينة الصغيرة . ركضت نحوها ، وغمرت وجهها فيها . انها زهور بنفسج مسحوقة مبللة .

وانفعلت داشا . كانت منذ الصباح تريد شيئا لا تعرف ما هو بالضبط ، اما الآن فقد ادركت انها كانت تريد زهر البنفسج . ولكن مَن ارسل هذه الزهور ؟ ومَن فكر فيها هذا اليوم باهتمام شديد حتى حزر ما كانت هى نفسها لا تعرف ما هو ؟ الا ان الشريط وحده لم يعجبها ، فقد كان فى غير محله . وفكرت داشا ، وهى تفكه :

«فتاة لا باس بها ، ولو كانت منفعلة . ستسير فى طريقها الخاص ، مهما اقترفتم من ذنوب ، ايها الآثمون . وربما تظنون انها تشمخ بانفها اكثر من اللازم ؟ ولكن هناك اناسا سوف يفهمون الانف الشامخ ، بل ويقدرونه .»

وتبين ان ورقة سميكة قد حشرت فى الشريط كتب عليها : «احبى الحب» . وفى الوجه الآخر من الورقة : «تربية زهور فى نيس» . اذن ، فقد كتب شخص فى محل بيع الزهور هذه جملة «احبى الحب» . وخرجت داشا الى الدهليز وسلة الزهور فى يديها ، وهتفت :

– يا مغولى ، من جلب لى هذه الزهور ؟

نظرت«المغولى العظيم» الى سلة الزهور ، وتنهدت بصدق . فان هذه الاشياء لم تكن تعنيها على الاطلاق .

– جلبها صبى من محل الزهور ليكاترينا دميتربيفنا . ولكن السيدة امرتنى ان احملها لك .

– الم يقل ممن ؟

– لم يقل سوى : سلميها الى السيدة .

عادت داشا الى غرفتها ، ووقفت عند النافذة . كان الغروب يلوح من خلال زجاج النافذة ، غمر السماء من اليسار ، من وراء الحائط الآجرى للبيت المجاور ، ثم اخضوضر ، ونحل . وظهرت نجمة فى ذلك الخلاء الأخضر ، وتوامضت ، ولمعت وكأنها قد غسلت لتوها . وفى الاسفل ، فى الشارع الضيق ، الذى اخذ الضباب يملاء ارجاءه ، انيرت المصابيح الكهربائية مرة واحدة على امتداده كله ، الا انها لم تكن ساطعة النور بعد ، ولا متالقة . وزعقت سيارة فى مكان قريب ، ورات داشا انها كانت تسير عبر الشارع مختفية فى ظلمة المساء .

تلبد الظلام فى الغرفة تماما ، وفاحت زهور البنفسج رائحة ناعمة . لقد ارسلها ذلك الرجل الذى اثمت كاتيا معه . كان ذلك واضحا . وقفت داشا تفكر بانها كذبابة وقعت فى شىء مثل نسيج العنكبوت ، رقيق ، ومغو . ان هذا «الشىء» كان فى رائحة الزهور الرطبة ، وفى الكلمتين المصطنعتين ، المثيرتين : «احبى الحب» ، وفى السحر الربيعى لهذا المساء .

وفجأة خفق قلبها خفقانا سريعا قويا . وشعرت داشا وكان اصابعها تمس شيئا محرما ، سريا ، لاذع الحلاوة وتراه ، وتسمعه ، وتحسه . واذا بها تطلق العنان لعواطفها ، وكأنما قد صممت على ذلك بكل كيانها . وكان من المستحيل ان تفهم كيف وجدت نفسها فى تلك اللحظة فى الجانب الآخر . ذابت الصرامة ، ذلك الجدار الجليدى ، وتحولت الى ضباب ، مثل ذلك الضباب فى نهاية الشارع ، حيث انطلقت السيارة بلا صوت حاملة سيدتين فى قبعتين بيضاوين .

لم تشعر الا بخفقان قلبها ، وبدوار خفيف فى رأسها ، بينما

رنت فى جسمها كله موسيقى تلقائية مثل موجة برودة بهيجة : «انا احيا ، احب . البهجة ، الحياة ، كل الدنيا لى ، لى ، لى !»

فتحت داشا عينيها ، وقالت بصوت مسموع :

– اسمعى ، يا عزيزتى . انت ما تزالين فى نقاب عذرتك ، وخلقك وعق لا يحتمل ...

ومشت الى ركن الغرفة البعيد ، وجلست فى مقعد وثير كبير ، وراحت تسترجع كل ما حدث فى الاسبوعين ، وهى تفض الورقة عن قطعة شوكولاته بتأن وبطء .

لم يتغير شىء فى البيت . بل واصبحت كاتيا تعامل نيقولاى ايفانوفيتش بمزيد من الرقة . وكان مرح الاعطاف ، وينوى بناء بيت ريفى فى فنلنده . وكانت داشا وحدها تعانى صامتة هذه «الماساة» لانسانينْ اصيبا بالعمى . لم تجرا ان تفاتح اختها فى الحديث . واختها التى كانت دائما شديدة الالتفات الى تقلب امزجة داشا ، لم تفطن هذه المرة الى شىء . اوصت يكاترينا دميتربيفنا على بدلتين لها ولاختها بمناسبة عيد الفصح ، فكانت تقضى ساعات عند محل الخياطة وصناعة القبعات ، وتشترك فى اسواق البر والاحسان ، وتنظم برجاء من نيقولاى ايفانوفيتش ، امسية ادبية لغرض سرى ، هو جمع المال لمنفعة لجنة الجناح اليسارى للحزب الاشتراكى الديموقراطى – او من يسمون بالبلاشفة – وتجمع الضيوف فى ايام الخميس فضلا عن ايام الثلاثاء ، وباختصار لم تكن لديها دقيقة فراغ واحدة .

وخاطبت داشا نفسها : «وانت قد جبنت فى هذا الوقت ، ولم تستقرى على شىء ، ورحت تفكرين فى اشياء انت فيها كالنعجة ، لم تفهميها ولن تفهميها حتى تحرقى جناحيك» ، وضحكت داشا بخفوت . ومن تلك البحيرة المظلمة التى كانت تتساقط فيها كرات الجليد الصغيرة ، والتى لم يكن من الممكن ان يرجى منها خير ، نهضت صورة بيسونوف اللاذعة الخانقة ، كما كان يحدث كثيرا فى هذه الأيام . اباحت هى نفسها ، فاستولى هو على افكارها . وهدأت داشا ، وتكتكت الساعة فى الغرفة المظلمة .

ثم صُفِق باب فى مكان بعيد فى البيت ، وسمعت داشا صوت اختها وهى تسأل :

– هل عادت منذ وقت طويل ؟

نهضت داشا من المقعد ، وخرجت الى الدهليز . واذا بيكاترينا دميتربيفنا تقول فى الحال :

– لماذا أنت محمرة ؟

كان نيقولاى ايفانوفيتش يخلع معطفه السميك وهو يروى ملحة لاذعة من مُلَّح عاشق المسرح . نظرت داشا نظرة كره الى شفتيه الكبيرتين الرخوتين ، وتبعت كاتيا الى مخدعها . وجلست هناك الى منضدة الزينة الأنيقة الرقيقة كأى شىء فى هذه الحجرة ، وراحت تسمع كلام اختها الطويل عن المعارف الذين التقت بهم اثناء النزهة .

وكانت يكاترينا دميتربيفنا اثناء الحديث ترتب الاشياء فى دولابها ذى المرآة ، الحافل بالقفازات ، وقطع الدنتلا ، والبراقع ، والاحذية الحريرية – مجموعة كبيرة من الاشياء التافهة العابقة بالعطور التى تستخدمها : «يظهر ان كرينسكى خسر القضية مرة اخرى ، وهو الآن بلا نقود . التقيت بزوجته . انها تتشكى ، وتقول الحياة اضحت صعبة . وفى بيت تيميريازيف حصبة . وشينبرغ عاد الى امراته الهستيرية مرة اخرى ، بل ويقال انها اطلقت النار على نفسها فى شقة . هذا هو الربيع ! وما اجمل الطقس اليوم ! جميع الناس يتجولون فى الشوارع كالسكارى . عندى خبر آخر . التقيت باكوندين ، وهو يؤكد بان الثورة ستندلع عندنا فى القريب العاجل . الهيجان فى المصانع ، والقرى ، وفى كل مكان . ليتها تقع فى اقرب وقت . فرح نيقولاى ايفانوفيتش فرحا شديدا حتى انه اخذنى الى مطعم «بيفاتو» ، فشربنا هناك زجاجة شمبانيا ، نخب الثورة المقبلة ، هكذا ، رأسا» .

كانت داشا تستمع الى اختها صامتة ، وهى ترفع وتنزل غطاءات القوارير البلورية . ثم قالت فجاة :

– كاتيا لا حاجة لأحد بى كما انا خُلِقت .

فالتفتت يكاترينا دميتربيفنا وجوربها الحريرى فى يدها ، وتفرست فى اختها . فتابعت هذه قولها :

– والشىء المهم اننى انا ايضا ، لست بحاجة لنفسى وانا

على طبيعتى هذه . انا كمَن قرر ان يعيش على الجزر النى ، واعتبر نفسه ارفع بكثير من الآخرين .

قالت يكاترينا دميتربيفنا :

– انا لا افهمك .

نظرت داشا الى ظهرها ، وتنهدت .

– جميع الناس ، حسب رأيى ، سيئون . وانا ادينهم . بعضهم حمقى ، وبعضهم مقرفون ، والبعض الآخر قذرون . وانا وحدى الفاضلة . انا هنا غريبة ، وذلك يرهقنى كثيرا . انا أدينك انت ايضا ، يا كاتيا .

فسالته يكاترينا دميتربيفنا بهدوء ، دون ان تلتفت اليها :

– لأى شىء ؟

– ارجو ان تفهمينى . انا اسيرة شامخة الانف ، وهذا كل ما لدى .ان ذلك حماقة صرف ، وقد ضجرت من غربتى بين الناس . وباختصار ، انا معجبة كثيرا برجل ما .

كانت داشا تتحدث بذلك منكسة الراس ، فقد دست اصبعها فى فم قارورة بلورية ، ولم تستطع ان تخرجها منه .

– حمدا لله ، يا فتاتى ، على انك معجبة برجل . ستكونين سعيدة ، فان لم يسعدك الله فمن يسعد ؟

وارسلت يكاترينا دميتربيفنا تنهيدة خفيفة .

– ولكن ذلك ليس بهذه البساطة . اظن اننى لا احبه .

– اذا كان يعجبك فسوف تحبينه .

– تلك هى المسالة . انه لا يعجبنى .

عند ذاك سدت يكاترينا دميتربيفنا باب الدولاب ، وتوقفت عند داشا .

– قبل لحظة قلت انك معجبة ... يا للغرابة ...

– ارجوك ، يا كاتيا ، ألا تتسرعى فى لومى . انت تذكرين الانجليزى الذى كان فى سيستروورتسك . لقد اعجبت به ، بل احببته . ولكننى كنت آنذاك على طبيعتى . حنقت ، وتواريت ، وبكيت فى الليالى . اما هذا الرجل :.. انا لا اعرف هل هو الذى ... نعم ، هو ، هو ... هز سكينة نفسى ... وانا الآن فتاة اخرى كلية ،

كانني شممت مبخرة ... لو دخل الى غرفتى الآن لاستطاع ان يفعل كل ما شاء دون اى اعتراض من جانبى ...

– ما هذا الذى تقولينه ، يا داشا ؟

وجلست يكاترينا دميتريبفنا على مقعد الى جانب اختها ، وجذبتها نحوها ، وامسكت يدها الحارة ، وقبلت باطن كفها ، الا ان داشا تحررت من طوقها ببطء ، وزفرت ، واسندت رأسها على يدها ، وحدقت طويلا فى النافذة ، المصطبغة بالزرقة ، والى النجوم .

– داشا ، ما اسمه ؟

– الكسى الكسيفيتش بيسونوف

عندئذ انتقلت كاتيا الى مقعد مجاور ، ووضعت يدها على حنجرتها ، وجمدت فى جلستها . لم تر داشا وجهها ، فقد كان كله فى الظل ، ولكنها شعرت بانها فاهت لها بشىء مريع .

«هذا افضل» فكرت داشا مع نفسها ، وهى تستدير بجسمها . واشعرت بعد هذه الجملة بخفة وخواء .

– قولى لى ارجوك ، لماذا يستطيع الآخرون كل شىء ، وانا لا استطيع ؟ منذ عامين وانا اسمع عن الف اغراء واغراء وطوال حياتى لم اذق طعم القبل الا مرة واحدة ، قبلنى فيها تلميذ فى المدرسة الثانوية فى حلبة التزحلق .

وتنهدت بقوة ، وصممت . وكانت يكاترينا دميتريبفنا فى تلك اللحظة تجلس منحنية الظهر ، ويداها على ركبتيها . قالت :

– بيسونوف شخص سيىء جدا . انه فظيع ، يا داشا . هل تسمعيننى ؟

– نعم .

– انه سيحطمك كليا .

– وما العمل الآن ؟

– انا لا اريد ذلك . دعى الأخريات ... لا انت ، لا انت ، يا عزيزتى .

قالت داشا :

– يقولون ان الغراب الصغير سيىء لأنه اسود جسدا وروحا . قولى لى : بم بيسونوف سيىء ؟

– لا استطيع ان اقول ... لا اعرف ... ولكن الرجفة تسرى فى جسدى ، حين افكر فيه .

– ولكنك ، انت ايضا كنت معجبة به بعض الشىء ؟

– ابدا ... انا اكرهه !.. فليحفظك الله منه .

– اذن ساقع فى شراكه لا محالة . ساقع فى حبائله .

– ما هذا الحديث ؟ .. لقد جننا ، كلتانا .

الا ان داشا راق لها هذا الحديث بالذات ، وكانها كانت تسير على لوحة ضيقة على اطراف اصابعها . التذت بانفعال اختها . ولم تفكر فى بيسونوف تقريبا ، الا انها تعمدت اظهار عواطفها نحوه ، ووصفت لقاءاتهما ، ووجهه . وضخمت كل ذلك ، وبدا وكانها تقضى الليالى بطولها مؤرقة تفكر فيه ، وهى الآن مستعدة للارتماء فى احضانه . واخيرا بدا الأمر مضحكا لها نفسها ، وودت ان تمسك كاتيا من كتفيها ، وتقبلها قبلا كثيرة قائلة لها : «اذا كانت ثمة حمقاء ، فهى انت ، يا كاتيا» . الا ان يكاترينا دميتريبفنا انزلقت فجاة من المقعد الى البساط ، وطوقت داشا ، ووضعت وجهها على ركبتيها ، وصرخت بصوت مفزع ، وجسمها كله يرتعش :

– اعذرينى ، اعذرينى ... داشا اعذرينى !

وهلعت داشا . انحنت نحو اختها ، ومن الفزع والشفقة اخذت تبكى هى ايضا مجهشة بالبكاء ، وراحت تتساءل : عم تتحدث ، وعلى اى شىء اعذرها ؟ الا ان يكاترينا دميتريبفنا كزت على اسنانها ، واكتفت بملاطفة اختها ، وتقبيل يديها .

اثناء الغداء نقل نيقولاى ايفانوفيتش بصره من واحدة الى اخرى، وقال :

– طيب . وانا ايضا الا يجوز ان اعرف سبب تلك الدموع ؟

ردت داشا فى الحال :

– سبب الدموع هو مزاجى المتعكر . فاطمئن ، ارجوك ، فانا اعرف بنفسى ، دون معونتك ، اننى لا اساوى خنصر زوجتك .

وجاء ضيوف فى وقت احتساء القهوة ، بعد الغداء . فقرر نيقولاى ايفانوفيتش ان من الضرورى الذهاب الى احد المطاعم بسبب حالة العائلة النفسية . واخذ كوليتشيك يتلفن الى الكراج ،

وطلبوا من كاتيا وداشا الذهاب لتتهيأ للخروج . وجاء تشيرقا ، ولما عرف انهم ينوون الذهاب الى مطعم اعتراه غضب مفاجيء .

– مَن المتضرر فى نهاية الأمر بنتيجة المنادمات التى لا تنتهى ؟ الادب الروسى ، بالطبع . .

الا انهم اخذوه هو ايضا فى السيارة مع الآخرين .

كان مطعم «بلميرا الشمالية» غاصا بالناس وصاخبا . وكانت قاعته الهائلة فى الطابق الارضى مترعة بالضوء الساطع المشع من الثريات البلورية . وكانت المرايا – الجدران تضاعف بانعكاستها الثريات ، ودخان السيكائر ، المتصاعد من الأسفل ، والموائد المصفوفة بعضها قرب بعض ، والرجال فى بذلات الفراك ، واكتاف النساء العارية ، والباروكات الملونة على رؤوسهن – خضراء ، وليلقية ، وشائبة ، والزركشة الناصعة البياض على قبعاتهن ، والاحجار الكريمة ، المتلألئة على نحورهن وآذانهن ، بلألاء برتقالى ، وازرق ، وياقوتى ، والندل المارقين فى الظلام ، وشخصا مهزولا رافعا ذراعيه ، وعصاه السحرية تشق الهواء امام ستارة المخمل القرمزى ، والتماع ادوات الموسيقى النحاسية ، كل ذلك قد ضاعفته المرايا اضعافا مضاعفة ، حتى بدا وكان البشرية كلها ، والعالم اجمع يجلس فى منظورات لا نهائية .

كانت داشا تراقب الموائد وهى تمتص الشمبانيا من خلال قصبة . ها هو رجل حليق مبودر الخدين يجلس امام جردل شمبانيا مثلج ، وقشور سراطين البحر . عيناه نصف مغمضتين ، وفمه مزموم بازدراء . والظاهر انه فى جلسته هذه يفكر بأن الكهرباء ستنطفئ آخر المطاف ، ويموت جميع الناس ، ولا يستحق ان يفرح الانسان بشيء .

وها هى الستارة قد اهتزت ، وانفرجت الى الجانبين . وقفز الى المسرح يابانى صغير ذو غضون مفزعة ، ولاحت فى الهواء حوله كرات زاهية الالوان ، وصحون ، ومشاعل . وفكرت داشا مع نفسه : «لماذا قالت كاتيا : اعذرينى ، اعذرينى ؟» وفجأة شعرت وكان راسها يضغط ، وقلبها يتوقف عن الخفقان . «معقول ؟» غير انها هزت رأسها طاردة الافكار ، وتنهدت بعمق ، واجبرت نفسها على الا تفكر بهذه الـ«معقول» . ونظرت الى اختها .

كانت يكاترينا دميتربيفنا تجلس فى الطرف الآخر من المائدة ، متعبة ، حزينة ، وجميلة الى درجة جعلت عينى داشا تمتلئان بالدموع . رفعت اصبعا الى شفتيها ، ونفخت فيها خلسة . وكانت هذه اشارة متفق عليها . وقد رأتها كاتيا وفهمتها ، فابتسمت ببطء ابتسامة عذبة .

وحوالى الساعة الثانية بدأ الجدل حول المكان الذى سيذهبون اليه . طلبت يكاترينا دميتربيفنا ان تستأذن بالعودة الى البيت . وقال نيقولاى ايفانوفيتش انه يلتزم بقرار الجميع . وقرر «الجميع» الاستمرار فى السهرة .

وعندئذ وقع بصر داشا على بيسونوف من خلال جمع الناس المتضائل . كان يجلس الى مائدة وقد وضع كوعه عليها فى بقعة بعيدة ، وهو يصغى باهتمام الى اكونديين الذى كان يحدثه عن شيء ما بحدة ، مخططا بظفره على غطاء المائدة ، وفى فمه سيكارة نصف ممضوغة . وكان بيسونوف ينظر الى ذلك الظفر المتحرك . كان وجهه شاحبا بادى الاستغراق . وبدا لداشا انها سمعت من خلال الصخب : «نهاية ، نهاية لكل شيء» . ولكن نادلا تتريا عظيم البطن حجبهما كليهما عن بصرها فى اللحظة التالية . نهضت كاتيا ونيقولاى ايفانوفيتش ، ونادَيا على داشا ، والفضول والانفعال ما برحا يعذبانها .

خرجوا الى الشارع فاذا بالقرس يباغتهم برائحة منعشة حلوة . كانت النجوم تتلألأ فى السماء السوداء الليلقية . وسمعت داشا من ورائها شخصا يقول بضحكة مقتضبة : «يالها من ليلة فاخرة على نحو شيطانى !» وتقدمت السيارة من الرصيف ، وطلع من وراء ، من غمامة البنزين المحروق رجل رث الثياب ، واختطف طاقيته ، وبحركة راقصة فتح باب السيارة امام داشا . القت داشا نظرة عليه ، وهى تدخل ، فرأته رجلا نحيلا ، وجهه غير حليق ، وفمه معوج ، وجسمه كله يرتعش ، وكوعاه مضغوطان على جبينه .

– تهانى على الامسية السعيدة فى معبد الترف وملذات الحواس !

هتف الرجل بصوت اجش وبحيوية ، ولقف بحذق قطعة نقود

صغيرة القيت له ، وادى التحية بطاقيته الممزقة . وشعرت داشا وكان عينيه السوداوين الغاضبتين تخدشانها بنظراتهما .

وصلوا الى البيت فى ساعة متاخرة . استلقت داشا فى السرير على ظهرها ، ولكنها لم تنم ، بل هومت ما بين اليقظة والنوم ، وكان جسمها كله قد تخدر تعبا شديدا .

وفجاة ازاحت الدثار عن صدرها بأنة ، وقعدت ، وفتحت عينيها . كانت الشمس تسطع من النافذة على ارض الغرفة . . . «يا الهى اى رعب كان منذ لحظة ؟!» وكادت تبكى من شدة الفزع ، ولكن حين استجمعت شتات نفسها كانت قد نسيت كل شيء . ولم يبق الا الم فى القلب من حلم رهيب كريه .

خرجت داشا ، بعد الفطور ، الى الدراسة ، وسجلت اسمها لتقدم امتحانا ، واشترت بعض الكتب ، وانغمرت فى حياة عملية صارمة حقا حتى وقت الغداء . ولكنها فى المساء اضطرت مرة اخرى ان تلبس جوربا حريريا (فى الصباح كانت قد قررت ان تلبس جوارب قطنية فقط) ، وتبودر يديها وكتفيها ، وتعيد تصفيف شعرها . «جميل لو استطيع ان ارتب عقدة من الشعر فى قفاى ذلك لان الجميع يصيحون : اعملى تصفيفة شعر عصرية ، وكيف اعملها والشعر يتهافت تلقائيا» . وباختصار عذاب فى عذاب . والتقطت عيناها بقعة من اثر الشمبانيا فى مقدمة ثوبها الحريرى الازرق الجديد .

وفجاة شعرت باسف شديد على هذا الثوب ، بل وعلى حياتها الضائعة ، حتى انها جلست وفى يدها تنورتها التالفة ، وراحت تنتحب . مد نيقولاى ايفانوفيتش رأسه من الباب ، غير انه راى داشا فى قميصها الداخلى تجلس باكية ، فاستدعى زوجته . جاءت كاتيا راكضة ، واختطفت الثوب وقالت «لا تفزعى ، ستزول اللطخة فى الحال» . ونادت المغولى العظيم ، فجاءت هذه ببنزين وماء ساخن .

ونظف الثوب ، وارتدته داشا . وزعق نيقولاى ايفانوفيتش من الرواق غاضبا : «انه العرض الاول ، ولا يجوز التاخر» . ولكنهم تاخروا عن بداية المسرحية ، بالطبع .

جلست داشا فى المقصورة الى جانب يكاترينا دميتريفنا . فشاهدت على المسرح رجلا ضخما ذا لحية مستعارة ، وعينين

متسعتين على نحو غير طبيعى يقف تحت شجرة مسطحة يقول لفتاة فى رداء وردى زاه :

«احبك ، احبك» وامسك الرجل يدها . ورغم ان المسرحية لم تكن شجية ، الا ان داشا كانت تغالبها العبرة طوال العرض ، مشفقة على الفتاة ذات الرداء الوردى الزاهى ، وكان يؤلمها ان سير المسرحية لا يجرى هذا المجرى . فقد اتضح من سياقها ان الفتاة قد تحبه ولا تحبه . كانت تجابه عناقه بضحكة حورية الماء ، وتهرب الى وغد كان بنطلونه الأبيض يلوح فى آخر المسرح . امسك الرجل براسه ، وقال انه سيحرق مخطوطة ما ، عمل العمر كله ، وينتهى الفصل الاول من المسرحية .

جاء معارف الى المقصورة ، وبدا حديث مالوف ، سريع ومنشط .

وصف شينبرغ المسرحية بانها مشوقة . وشينبرغ رجل ضئيل الجسم اصلع الجمجمة ، ذو وجه حليق متغضن يبدو وكانه يوشك طوال الوقت ان ينط من ياقته المنشاة .

ـ مشكلة الجنس مرة اخرى ، ولكنها مطروحة بحدة . والبشرية يجب ان تتخلص من هذه المسالة اللعينة فى نهاية الأمر .

فرد عليه بوروف ، المحقق فى القضايا الهامة جدا ، وهو رجل ضخم جهم ، ليبرالى النزعة ، هربت زوجته فى عيد الميلاد مع صاحب اسطبل لخيول السباق :

ـ ذلك يتوقف على الاشخاص . فالمسالة بالنسبة لى محلولة . المراة تكذب بجوهر وجودها ذاته ، والرجل يكذب بمعونة الفن . المسالة الجنسية حقارة محض ، والفن هو احد انواع الجُرم الجنائى .

قهقه نيقولاى ايفانوفيتش ، وهو ينظر الى زوجته . فتابع بوروف حديثه بكآبة :

ـ حين يحين الوقت يصنع الطائر بيضة ويزدهى الذكر بذيل زاه . وهذا كذب ، لأن ذيله الطبيعى رمادى وليس زاهيا . وعلى الشجرة تتفتح زهرة ، وهذا كذب ايضا ، خداع ، والحقيقة هناك فى الجذور الشوهاء تحت الارض . والانسان اكثر المخلوقات كذبا . فالزهور لا تنمو عليه ، وليس له ذيل يزدهى به ، فيضطر الى ان

يستخدم لسانه : ما يسمى بالحب كذب مضاعف ومقرف ، وكذلك كل ما لف حوله . انها اشياء محاطة بالغموض فقط للفتيات فى سن غضة – ورمق داشا بطرف عينه – وفى زماننا المثقل بالحماقة ينشغل الجديون من الناس بهذه السخافة . اجل ، ان الدولة الروسية تعانى من فساد المعدة .

وانكب على علبة الحلويات بتقطيبة مرضية ، وحشر بأصبعه فيها ، ولم يقع اختياره على قطعة ، ورفع الى عينيه منظارا بحريا كان متعلقا بسير من رقبته .

وتحول الحديث الى الركود فى السياسة والرجعية . وقص كوليتشيك بهمس منفعل آخر فضيحة فى البلاط .

فقال شينبرغ بسرعة :

– فظاعة ، فظاعة .

ولطم نيقولاى ايفانوفيتش ركبته ، وقال :

– نحن بحاجة الى ثورة ، ايها السادة ، الى ثورة فورا . وإلا فسنختنق كليا . وعندى معلومات – وخفض هنا صوته – فى المصانع اضطراب شديد .

طارت اصابع شينبرغ العشر كلها فى الهواء من شدة الانفعال .

– ولكن متى ، متى ؟ من المستحيل ان ينتظر الانسان الى ما لا نهاية .

فقال نيقولاى ايفانوفيتش بمرح :

– سنرى حتما ، يعقوب الكسندروفيتش ، وسنعهد لك وزارة العدل يا صاحب المعالى .

سئمت داشا من الاستماع الى هذه القضايا ، والثورات ، والمناصب الوزارية . وضعت كوعا على مخمل المقصورة ، وطوقت باليد الأخرى خصر كاتيا ، وحدقت فى قاعة المسرح ، هازة رأسها لمعارفها بابتسامة بين الحين والآخر . كانت داشا تعرف وترى انها واختها موضع اعجاب الناس ، فكانت تلك النظرات المندهشة بين جمع الناس – نظرات الرجال الرقيقة ، ونظرات النساء الحانقة – ونتف العبارات ، والابتسامات تخلف فى نفسها ما يخلفه هواء الربيع من احساس بالسكر . وزايلها مزاجها الباكى . ودغدغت خصلة من شعر كاتيا خدها قرب اذنها .

همست داشا :

– كاتيا ، انا احبك .

– وانا ايضا .

– هل انت مسرورة لأننى اعيش معك ؟

– جدا .

وفكرت داشا بشىء آخر لطيف تقوله لكاتيا . وفجأة وقع بصرها على تليغين فى الأسفل . كان واقفا يرتدى سترة سوداء ، ويحمل فى يديه قبعته ، وبرنامج الحفلة ، وكان منذ وقت طويل يختلس النظر الى مقصورة آل سموكوفنيكوف ، دون ان يرفع راسه مخافة ان يلحظ . وكان وجهه الملوح القوى يبرز واضحا بين الوجوه الأخرى اما لشدة بياضها ، او هزالها . وكان شعره اكثر شقرة مما كانت تتصوره ، فقد كان بلون الشوفان .

التقت عيناه بعينى داشا فانحنى تحية لها فى الحال ، ثم استدار ، الا ان قبعته سقطت منه . ولما انحنى ليرفعها ، اصطدم بسيدة بدينة جالسة فى مقعد وثير ، فاخذ يعتذر ، وصعد الدم الى وجهه ، وتراجع وداس على قدم محرر المجلة الجمالية «جوقة الموزيات» . قالت داشا لاختها :

– هذا هو تليغين .

– اراه ، انه لطيف جدا .

– من لطفه وددت لو اقبله . ليتك تعرفين اى ذكاء له ، يا كاتيا .

– داشا ، هذا . . .

– ماذا ؟

الا ان اختها صمتت . وفهمت داشا فصمتت ايضا . وعاد قلبها الى انقباضه ، وسرى الاضطراب داخل قوقعتها . سرحت هنيهة ، وبعد ان نظرت من جديد الى تلك الاعماق ، رأت الظلام والرهبة هناك .

وحين انطفأت الانوار ، وانفرجت الستارة على الجانبين ، تنهدت داشا ، وكسرت كسرة من شوكولاته ، ووضعتها فى فمها ، واخذت تصغى بانتباه .

مازال الرجل ذو اللحية المستعارة يهدد بحرق المخطوطة ،

والفتاة تسخر منه ، وهى جالسة الى البيانو . وكان واضحا ان من الضرورى ان تتزوج هذه الفتاة باقصى سرعة ممكنة ، لكى لا يجرجر الحبل خلال ثلاثة فصول .

رفعت داشا عينيها الى سقف القاعة ، فرات عليه صورة امراة حسناء نصف عارية تطير بين السحب ، وعلى ثغرها ابتسامة صافية . وقالت لنفسها : «يا آلهى ، ما اشبهها بى !» وفى الحال رأت نفسها بعين اخرى : مخلوقة فى مقصورة تاكل الشوكولاته ، وتكذب ، وتتورط ، وتنتظر ذلك الشىء غير المالوف يحدث من تلقاء نفسه . ولكن لا شىء يحدث «ولا حياة لى حتى اذهب اليه ، واسمع صوته ، واحس بكل كيانه . اما سائر الاشياء فكذب . المهم ان يكون المرء نزيها» .

ومنذ ذلك المساء كفت داشا عن التردد . لقد عرفت الآن انها لا بد ذاهبة الى بيسونوف ، وخشيت تلك الساعة . عزمت مرة ان تسافر الى ابيها فى سامارا ، الا ان فكرت بان الالف والخمسمائة كيلومتر ، لا تحميها من الغواية ، فهزت يدها ، وكأنها تقول وليكن ما يكون .

وحنقت انوثتها العذراء الناضجة بالعافية ، ولكن ما كان فى وسعها ان تفعل شيئا ازاء «الشخص الثانى» فى داخلها اذا كان العالم كله يعينه عليها . واخيرا كان مهينا على نحو لا يطاق ، ان تتعذب وتفكر طويلا جدا ببيسونوف هذا ، الذى لا يريد حتى ان يعرفها ، ويعيش خالى البال مستمتعا بحياته فى مكان قرب جادة كامينواوستروفسكى ، وينظم الاشعار عن فتاة ترتدى تنورات مدنتلة . بينما هى ، داشا ، قد امتلأت به الى آخر قطرة ، وذابت فيه .

واخذت داشا ، الآن ، تتعمد تصفيف شعرها مبسطا ، وتلفه كالعقدة على علياتها ، وتلبس ثوبا قديما – مدرسيا – جلبته من سامارا ، وتستظهر القانون الرومانى حزينة جهماء ، ولا تخرج الى الضيوف ، وتمتنع عن التسليات . ولكن التمسك بالنزاهة لم يكن بالأمر الهين كما تبين . فقد جبنت داشا فى الواقع .

فى مساء منعش البرودة فى بداية نيسان ، سارت داشا من الجزر الى البيت ماشية ، وكان الغروب قد خفت ، وشعت السماء

الليلقية الضارية الى الخضرة ، بنور فسفورى ، دون ان تلقى ظلالا .

فى البيت قالت داشا انها ذاهبة للدراسة ، وفى الحقيقة انها ركبت الترام الى جسر يلاغين ، وقضت المساء كله تجوب الممرات الجرداء الاشجار ، وتعبر القناطر ، وتنظر فى الماء ، وفى الاغصان الليلقية المتسطحة فى وهج الغروب البرتقالى ، والى وجوه المارة ، والى اضواء العربات ، ووراء جذوع الاشجار المطحلبة . وكان فكرها خاليا ، وخطواتها متئدة .

كانت السكينة ترين على نفسها ، وهواء البحر الربيعى المالح قليلا يتغلغل فى كل كيانها . تعبت قدماها ، ولكنها لم ترد ان تعود الى البيت . كانت العربات تنطلق عدوا فى جادة كامينواوستروفسكى ، وتمرق السيارات مروقا ، ويتمشى المتنزهون جماعات متبادلين النكات والضحكات . وانعطفت داشا فى شارع جانبى .

كان الشارع هادئا تماما وخاليا . وكانت السماء فوق سقوف البيوت خضراء . وكانت الموسيقى تتسرب من خلال الستائر المسدلة فى كل بيت . فى هذا البيت يتعلم احد عزف سوناتة ، ومن ذاك تاتى موسيقى فالس مالوفة اليفة ، ومن تلك النافذة للعلية المصطبغة بحمرة الغروب الكامدة يصدح كمان .

وشعرت داشا ، وقد افعمت الاصوات قلبها ، بان كيانها كله يترنم ايضا ، ويحن . وبدا وكان جسدها قد امسى خفيفا نقيا . استدارت فى منعطف ، وقرات رقم دار على الحائط ، وتبسمت . وتقدمت من بابه الامامى الذى دقت عليه تحت راس اسد برونزى بطاقة زيارة كتب عليها «أ . بيسونوف» . وقرعت الجرس بقوة .

٧

كان الحاجب فى مطعم «فينا» يساعد بيسونوف على خلع معطفه ، فقال له بلهجة ذات معنى :

– يا الكسى الكسييفتش ، ان شخصا ينتظرك .

– من ؟
– انثى .
– من هى ؟
– لا تعرفها .

سار بيسونوف الى الركن القصى من قاعة المطعم ، وهو ينظر فوق الرؤوس بعينين فارغتين . احنى لسكوتكين رئيس الندل سبلتيه الجانبيتين الشيباوين على كتفى بيسونوف ، وقال ان طبق اليوم الممتاز هو من لحم الضأن . فقال له بيسونوف :

– لا اريد ان آكل . قدم لى نبيذى الابيض المفضل .

وجلس بادى الوقار ، مرفوع الصدر ، واضعا يديه على الخوان . فى هذه الساعة ، وفى هذا المكان كانت تنتابه فى العادة حالة متكررة من الالهام الكئيب . كانت جميع انطباعات اليوم تندمج فى شكل منسق مدرك ، وفى داخله ، فى الأعماق المتأججة بعزف الكمانات الرومانية ، وروائح العطور النسائية ، واحتباس الهواء فى قاعة المطعم المكتظة بالناس كان يظهر ظل لهذا الشكل الآتى من الخارج ، وهذا الظل هو الالهام . وكان يشعر بانه يتوصل الى المعنى الخفى للاشياء والكلمات بحاسة تلمس داخلية عمياء .

رفع بيسونوف قدح النبيذ ورشف منه دون ان يباعد بين اسنانه . كان قلبه يخفق ببطء . وكان يخامره شعور بالراحة لا يوصف متغلغلا فى كامل كيانه المتشبع باصوات الموسيقى والناس .

وعلى مائدة مقابلة قرب المرآة كان يتعشى سابوجكوف ، وانتوشكا ارنولدوف ، ويلزافيتا كييفنا . وكانت هذه قد ارسلت الى بيسونوف بالأمس رسالة طويلة ، وحددت له موعدا للقاء هنا ، وهى الآن جالسة محمرة منفعلة . كانت ترتدى ثوبا من قماش مخطط بالاسود والاصفر ، وتضع فى شعرها عقدة بهذا اللون . وحين دخل بيسونوف احست بضيق فى تَنَفّسها .

– كونى على حذر ، انه هجر الفنانة ، وهو الآن من غير امرأة ، وخطر ، كالنمر ، – همس لها ارنولدوف كاشفا راسا عن اسنانه الذهبية والمسوسة .

وضحكت يلزافيتا كييفنا ، واهتزت عقدتها المخططة ، وسارت بين الموائد الى بيسونوف ، تحت نظرات الناس وتكشيراتهم .

اضحت حياة يلزافيتا كييفا فى المدة الأخيرة مضجرة للغاية ، كانت الايام تتابع دون ما عمل تنغمر به ، ودون امل فى حال افضل . وبكلمة واحدة سأم محض . وكان واضحا ان تليغين ينفر منها . كان يعاملها بلطف ، ولكنه كان يتجنب ان يتحدث اليها او يلتقى بها على انفراد . بينما كانت هى تشعر بانها بحاجة اليه بالذات . فكانت ، اذا تردد صوته فى الرواق ، تحدق فى الباب تحديقة نافذة . وكان يسير فى الممر على اطراف اصابعه دائما . بينما كانت هى تنتظر ، واجمة القلب ، والباب يتراءى ذائبا امام بصرها ، الا انه كان يمر بها ، شأنه كل مرة ، دون ان يتوقف ليطرق الباب على الاقل ويطلب عود ثقاب .

قبل بضعة ايام اشترت احد كتب بيسونوف ، مناكدة جيروف الذى كان يعيب كل شىء فى هذه الدنيا بحذر قط ، قطعت اوراق الكتاب بمكواة الشعر وقراته عدة مرات متتابعة ، ودلقت عليه القهوة ، وجعدته وهى تقرأ فى السرير ، واخيرا اعلنت ، عند الغداء انه عبقرى . . . انفعل نزلاء شقة تليغين . ووصف سابوجكوف بيسونوفَ بانه دملة فى جسم البرجوازية المتفسخ . ونضح عرق على جبين جيروف . وكسر الرسام فاليت صحنا . وبقى تليغين وحده غير مبد اهتماما . وعند ذاك حدث فى نفسها ما يسمى بـ«لحظة استفزاز النفس» . فراحت تقهقه ، وذهبت الى غرفتها ، وهناك كتبت الى بيسونوف رسالة متحمسة سخيفة ، تطلب فيها ان تلتقى به ، وعادت الى غرفة الطعام ، والقت الرسالة على المائدة ، صامتة . قرأ النزلاء الرسالة بصوت عال ، وتناقشوا طويلا . وقال تليغين :

– رسالة جريئة جدا .

عندئذ سلمت يلزافيتا كييفنا الرسالة الى الطباخة ، لترميها فى صندوق البريد فى الحال . وشعرت بأنها تندفع فى هاوية .

والآن ، وهى تتقدم من بيسونوف ، بادرته قائلة بخفة :

– كتبت لك ، فجئت . شكرا .

وجلست قبالته فى الحال ، مديرة جنبها الى المائدة ، واضعة ساقا على ساق ، مركزة كوعها على الخوان ، مسندة ذقنها على راحة يدها ، وانشأت تنظر الى بيسونوف بعينيها المرسومتين على ما تبدوان . لزم بيسونوف الصمت . جلب النادل قدحا ثانيا ، وصب فيه النبيذ ليلزافيتا كييفنا . قالت الفتاة :

— ستسأل ، طبعا ، لماذا اردت ان اراك .

— لا ، لن اطرح هذا السؤال . اشربى نبيذك .

— انت محق ، فليس عندى ما اقوله . انت تحيا ، يا بيسونوف ، وانا لا . مجرد اننى ضجرة .

— ماذا تمارسين ؟

— لا شىء . — وضحكت ، وصعد الدم الى وجهها فى الحال . — يضجرنى ان اصبح محظية . انا لا اعمل شيئا . انا فى انتظار ان تصدح الابواق ، ويندلع الوهج . . . ايبدو ذلك غريبا لك ؟

— ومن انت ؟

لم تجب ، واطرقت براسها ، وازداد احمرار وجهها ، ثم همست :

— انا طيف .

ابتسم بيسونوف ابتسامة متكلفة ، وفكر مع نفسه : «بلهاء انها بلهاء» . الا ان لشعرها الذهبى مفرقا محببا للنفس ، مفرق آنسة ، وبدت كتفاها الممتلئتان المكشوفتان بشدة نقيتين حتى ان بيسونوف ابتسم مرة اخرى اكثر طيبة ، ومص قدح النبيذ من خلال اسنانه ، وتولدت فى نفسه رغبة مفاجأة فى ان ينفث على هذه الفتاة الساذجة دخان خياله . فذكر لها ان ليل العقاب الرهيب فى سبيله الى ان يخيم على روسيا ، وانه يتحسس ذلك ، بامارات خفية منحوسة .

— لا بد انك قد شاهدت فى المدينة اعلانا ملصقا على الجدران يصور شيطانا مقهقها يندفع هابطا سلما هائلا على اطار سيارة . . . اتفهمين ما يعنى هذا ؟

نظرت يلزافيتا كييفنا الى عينيه الثلجيتين وفمه الانثوى ، وحاجبيه النحيلين المرفوعين ، والى ارتجاف اصابعه الخفيف وهى تحمل القدح ، والى احتسائه النبيذ بنهم وبطء . ودار راسها

دورانا ممتعا . وعلى مسافة بعيدة بدا سابوجكوف يرسل الايماءات لها . وفجأة التفت بيسونوف ، وسأل عبوسا :

— من هؤلاء الناس ؟

— انهم اصدقائى .

— لم تعجبنى ايماءاتهم .

عندئذ قالت يلزافيتا كييفنا دون ترو :

— لنذهب الى مكان آخر ، الا ترغب ؟

تفرس بيسونوف فيها . كانت عيناها محولتين قليلا ، وفمها يفتر عن بسمة خفيفة ، وقد ظهرت حبات عرق صغيرة على صدغيها . وفجأة احس بلهفة الى هذه الفتاة القوية والمعافاة القصيرة النظر ، فامسك بيدها الكبيرة الحارة التى كانت مستقرة على المائدة ، وقال :

— اما ان تنصرفى الآن . . . واما ان تلزمى الصمت . تعالى — من الضرورى التصرف على هذا النحو .

اكتفت يلزافيتا كييفنا بان ارسلت زفرة قصيرة ، وغاض الدم من وجنتيها . ولم تشعر كيف نهضت ، وامسكت بيسونوف بيدها ، وسار الاثنان بين الموائد . وحين جلسا فى العربة لم تستطع الريح نفسها ان تبرد جلدها الملتهب . قرقعت العربة على بلاط الشارع . استند بيسونوف على مقبض عصاه بكلتا يديه ، ووضع حنكه عليهما ، وقال :

— عمرى خمسة وثلاثون عاما ، ولكن الحياة انتهت ولن يخدعنى الحب بعد الآن . اى شىء اكأب من ان يكتشف المرء فجأة بان جواد الفارس ما هو الا حصان من خشب ؟ وما يزال الى الامام وقت طويل جدا — اجرجر نفسى فى هذه الحياة كالجثة — والتفت وانفرجت شفتاه عن بسمة هازئة — يبدو ان على ايضا ان انتظر مثلك حتى تصدح ابواق اريحا . حسنا ، جميل لو يرتفع فجأة من هذه المقبرة صداح الابواق ! وينتشر الوهج فى ارجاء السماء . . . نعم ، يبدو انك على حق . . .

وصلا الى فندق خارج المدينة . قادهما النادل الناعس عبر دهليز طويل الى الغرفة الوحيدة التى بقيت شاغرة . وهى غرفة واطئة السقف اوراق جدرانها حمراء ، مشققة ، مبقعة . وكان ثمة

سرير كبير قد وضع عند الجدار تحت ظليلة حائلة اللون ، وعند قدمي السرير مغسلة قصديرية . وكانت الحجرة تفوح برطوبة محبوسة ، وعطن تبغ . سالت يلزافيتا كييفنا ، وهى عند الباب ، بصوت لا يكاد يسمع :

– لماذا جئت بى الى هنا ؟

سارع بيسونوف يجيب :

– لا ، لا ، سنرتاح هنا .

خلع معطفها وقبعتها ، ووضعهما على مقعد مخلوع . جلب النادل زجاجة شمبانيا ، وتفاحات صغيرة ، وعنقود عنب معفر بالنشارة الفلينية ، ونظر الى المغسلة ، واختفى عبوسا كما كان .

ازاحت يلزافيتا كييفنا الستارة عن النافذة ، فرات مصباحا غازيا يضئ وسط العراء الرطب ، وصهاريج ضخمة يسوقها أناس متكورون تحت ظليلات الخيش . ابتسمت بكآبة واقبلت على المرآة ، واخذت تسوى شعرها بحركات جديدة غير مالوفة اليها نفسها . وفكرت مع نفسها هادئة : «غدا حين اثوب الى رشدى ، اجن» وعدلت العقدة المخططة . سال بيسونوف :

– اتريدين نبيذا ؟

– نعم ، اريد .

جلست على الاريكة ، واقعى هو عند قدميها على البساط ، وقال فى تامل :

– ان لك لعينين مخيفتين : وحشيتين وبديعتين . عينان روسيتان . اتحبينني ؟

وعاودها الذهول مرة اخرى ، الا انها حدثت نفسها فى اللحظة التالية : «لا ، ذلك هو الجنون بعينه» . تناولت القدح من يديه ، مترعا بالنبيذ ، وشربت ، وفى الحال دار راسها ببطء ، وكانها تنهار . قالت وهى تتسمع كلماتها وكانها ليست كلماتها وكانها تتردد من بعيد :

– اننى اخاف منك ، وساكرهك لا بد لا تنظر الى هكذا ، تخجلنى .

– انت فتاة غريبة .

– بيسونوف ، انت رجل خطير جدا . انا من عائلة على

المذهب الدينى القديم ، وانا اؤمن بوجود الشيطان . . . اوه ، يا آلهى ، لا تحدق بى هكذا . انا اعرف ، لماذا اردتنى . . . انا اخشاك .

وضحكت بصوت عال ، وارتج كل جسدها من ضحكها ، وطرطش النبيذ من القدح فى يدها . وانزل بيسونوف وجهه على ركبتها . وقال بصوت يائس ، وكان خلاصه كله الآن فى يديها :

– احبينى . . . اتوسل اليك ان تحبينى . . . انا مرهق . . . واحس بالرهبة . . . رهبة الوحدة . . . احبينى . . . احبينى . . .

وضعت يلزافيتا كييفنا يدها على راسه ، واغمضت عينيها . قال انه فى كل ليلة تتملكه رهبة الموت . ويجب ان يستشعر وجود انسان قريبا منه ، الى جانبه ، يأسو له ، ويدفؤه ، ويهب نفسه له . ذلك عقاب ، عذابات . . . «نعم ، نعم ، اعرف . . . ولكننى قد فقدت الحس بسبب البرد . وقلبى قد توقف . ادفئينى . انا بحاجة الى القليل . واشفقى على ، فانا اموت . لا تتركينى وحيدا ، ايتها الفتاة الطيبة ، الطيبة . . .»

صمتت يلزافيتا كييفنا رعبا واضطرابا . بينما راح بيسونوف يقبل راحتيها بقبلات تزداد طولا . وصار يقبل ساقيها الكبيرتين القويتين . شدت الفتاة على نفسها اقوى ، وبدا وكان قلبها قد توقف من الخجل الشديد .

وفجاة لفت نار صغيرة كل كيانها . فقد صار بيسونوف يبدو قريبا الى النفس ، بائسا . . . رفعت راسه قليلا ، وقبلت شفتيها بقوة وبنهم . وبعد ذلك وقد زايلها الخجل خلعت ثيابها بعجالة ، واضطجعت على السرير .

وحين غفا بيسونوف ، واضعا راسه على كتفها العارية ، ظلت تحدق طويلا بعينيها قصيرتى النظر فى وجهه الشاحب المصفر الذى انتشرت تجاعيد التعب عليه كله ، على الصدغين ، وتحت الجفنين وعند الفم المطبق . وجه غريب ، ولكنه الآن حبيب الى الأبد .

كان النظر الى النائم متعبا جدا حتى ان يلزافيتا كييفنا اخذت تبكى .

تصورت ان بيسونوف ، اذا ما استيقظ ، ورآها فى السرير ، ممتلئة ، غير جميلة ، ذات عينين منتفختين من البكاء ، فانه سيسعى الى التخلص منها فى الحال ، ولا يمكن ان يحبها شخص

بعد الآن ، وسيتيقن الجميع من انها امراة متحللـــة ، بلهاء ، رخيصة ، وانها ستتعمد ان تفعل كل ما من شانه ان يحملهم الى التفكير بانها تحب رجلا واحدا ، بينما منحت نفسها لرجل آخر ، وهكذا ستكون حياتها دائما مملوءة بالكدر والقذارة والاهانـــات الموجعة . اخذت يلزافيتا كييفنا تنتحب بحذر ، وتمسح عينيها بطرف المفرش . حتى غلبها النوم ، على هذه الحال ، والدموع فى عينيها .

استنشق بيسونوف الهواء من انفـــه بعمق ، واستدار الى ظهره ، وفتح عينيه . كان جسمه كله يئن تحت وطاة انقباض لا يوصف من خمار البارحـــة . وكان من المقرف التفكير بضرورة الشروع فى يوم جديد . امعن النظر طويلا فى كرة السرير المعدنية ، ثم تجرا على النظـــــر الى يساره . كانت امراة تنبطح الى جانبه على ظهرها ايضا مغطية وجهها بكوعها العارى .

«من هى ؟» وشحذ ذاكرته المضطربة ، غير انـــه لم يتذكر شيئا . سحب علبة سيكائره من تحت الوسادة بحذر ، واشعل سيكارة «اوه ، يا للشيطان ! نسيت ، نسيت ، فو ، فظاعة» .

قال بصوت متلطف :

– يبدو انك قد استيقظت . صباح الخير .

لزمت المراة الصمت ، ولم ترفع كوعها . فتابع يقول :

– بالأمس كنا غريبين . ونحن اليوم مربوطان بالعرى الخفية لهذه الليلة .

وتعبس . كان كل ذلك نوعا من الابتذال . والشىء الرئيسى انه لا يعرف ماذا ستفعل الفتـــاة الآن . اتبدى ندما وتبكى ، ام يستولى عليها فيض من مشاعر القربى ؟ مس كوعهـــا بحذر وتنحى . يبدو ان اسمها مارغريت . قال مهموما :

– هل انت غاضبة ، يا مارغريت ؟

عندئذ جلست مستندة على الوسائد ، واخذت ترمقه بعينيها الجاحظتين القصيرتى النظر ، وهى تمسك على صدرها قميصهـــا الليلى الساقط . كان جفناها منتفخين ، وفمها الممتلىء معوجا فى ابتسامة هازئة . وتذكر كل شىء واحس برقة كرقة اخ . قالت :

– لست مارغريت ، بل يلزافيتا كييفنا . انا امقتك . انزل من السرير .

انسل بيسونوف من تحت الغطاء فورا ، واخذ يرتدى ملابسه ، على نحو ما ، وراء سدل السرير ، قرب المغسلة العفنة ، ثم ازاح الستارة عن النافذة ، واطفأ المصباح الكهربائى . وتمتم :

– هناك لحظات لا تنسى .

ظلت يلزفيتا كييفنا تتابعه بعينيها الداكنتين . وحين جلس على الاريكة يدخن سيكارة ، قالت ببطء :

– ساذهب الى البيت ، وساسمم نفسى .

– انا لا افهم مزاجك ، يا يلزافيتا كييفنا .

– لا احتاج الى ان تفهمنى . اخرج من الغرفة ، فانا اريد ان ارتدى ثيابى .

خرج بيسونوف الى الدهليز حيث كان يسرى تيار قوى مـــن الهواء ، وتفوح رائحة غاز الكاربون . واضطر الى الانتظار طويلا . فجلس على افريز النافذة يدخن . ثم سار الى نهاية الدهليز ، حيث تناهت اليه من مطبخ صغير اصوات واطئة لنادل وخادمتين يتبادلون الحديث ، وهم يحتسون الشاى ؛ قال النادل :

– ملات اسماعنا بقريتك . انها ليست روسيا . انت لا تفهمين شيئا ! تجولى ليلا فى الغرف ، وسترين روسيا امامك . الجميع اوغاد . اوغاد واوباش .

– كن ارق فى تعابيرك ، يا كوزما ايفانيتش .

– اذا كنت اعمل فى هذه الغرف ثمانيـــة عشر عاما ، فمعنى ذلك ان لى حقا فى ان اتكلم هكذا .

قفل بيسونوف عائدا ، فراى باب غرفته مفتوحا ، والغرفـــة فارغة . وكانت قبعته ملقاة على الارض .

وفكر : «وليكن . هذا افضل» ، وتثاءب ، وتمطـــى معدلا عظامه .

وهكذا بدا يوم جديد . وكان يختلف عن اليوم الفائت بان ريحا قوية منذ الصباح بددت السحب الممطرة ، وساقتها نحو الشمال ، فتلبدت هناك كتلا بيضاء واسعة . كانت المدينة المبللة تغمر بسيول باكرة من نور الشمس وكانت الغيلان الهلامية الخفية

عن العين – نزلات البرد والسعال ، والعلل الخبيثة ، وعصيات السل السوداوية تتكور على نفسها ، وتشوى ، وتغيب عن الوعى ، وحتى الميكروبات شبه الغامضة للنيورستنيا السوداء لاذت وراء الستائر ، فى ظلام الغرف والاقبية الرطبة . وكانت ريح خفيفة تهب على الشوارع . وفى البيوت كانت النوافذ تنظف وتفتح . وكان البوابون فى قمصانهم الزرق يكنسون الارصفة . وفى جادة نيفسكى كانت فتيات الشوارع ذوات الوجوه المخضرة يعرضن للسابلة باقات من زهور الثلجية المعطرة بانواع رخيصة من ماء الكولونيا . وفى المخازن كان يرفع ما هو شتوى على عجل ، وتظهر فى الواجهات الاشياء الربيعية البهيجة مثل الازهار الاولى .

طلعت صحف ما بعد الظهر كلها تحمل العناوين : «مرحبا بالربيع الروسى» . وكانت بعض القصائد ازدواجية المعنى بشكل بالغ . وباختصار استهبلت الرقابة .

وفى آخر الأمر سار فى شوارع المدينة المستقبليون من جماعة «المجمع المركزى» وسط صفير الاولاد وصيحاتهم . وكانوا ثلاثة : جيروف ، والرسام فاليت ، واركادى سيميسفيتوف الذى لم يكن معروفا لاحد آنذاك ، وهو شاب طويل القامة له وجه حصان .

كان هؤلاء المستقبليون يرتدون بلوزات قصيرة بلا احزمة من المخمل البرتقالى اللون المخطط بخطوط ملتوية سوداء ، وقد حمل كل واحد منهم منظارا احادى العدسة ، ورسم على خده سمكة ، وسهما ، وحرف «ر» . وفى حوالى الساعة الخامسة اعتقلهم مفتش الشرطة فى منطقة ليتينايا ، وحملهم فى عربة الى مركز الشرطة للتحقيق فى هوياتهم .

كانت المدينة كلها قد خرجت الى الشوارع . سارت العربات اللامعة وسيول الناس فى شارع مورسكايا ، والكورنيش ، وجادة كامينواوستروفسكى . وكانت كثرة كاثرة من الناس تتصور ان شيئا غير اعتيادى لا بد سيحصل اليوم : اما ان يوقع على بيان فى قصر الشتاء ، او ينسف مجلس الوزراء بقنبلة ، او عموما «سيبدأ» فى مكان ما . . .

الا ان الغسق قد خيم على المدينة ، واضيئت الانوار على طول

الشوارع والقنوات عاكسة على الماء الاسود ابرا متعرجة من الضوء ، ولاح غروب هائل ، داخن غائم ، من على جسور النيفا وراء مداخن مصانع انشاء السفن . ولم يحصل شىء . وومضت آخر لمعة على اشبيل قلعة بطرس وبولس ، وانتهى النهار .

عمل بيسونوف فى هذا النهار كثيرا وبشكل طيب . انعشته الاغفاءة بعد الفطور ، فاخذ يطالع جوته طويلا ، وقد اثارته المطالعة واقلقته .

سار بين رفوف الكتب ، وفكر بصوت مسموع ، وجلس بين الحين والآخر الى مكتبه يسجل الكلمات والابيات . جلبت مدبرة البيت العجوز التى كانت تعيش معه فى شقة العزوبة ابريقا من الصينى يتصاعد منه بخار قهوة الموكا .

كان بيسونوف فى لحظات من التجلى . فقد كتب ان الليل يخيم على روسيا ، وتنفرج ستارة المأساة ، والشعب الذى يعبد الله يتحول بمعجزة شأن القوزاقى فى قصة غوغول «الانتقام الرهيب» الى متمرد على الله ، ويرتدى قناعا رهيبا . ويجرى الاعداد للاحتفال بالقداس الاسود على نطاق الشعب كله . وتنفتح الهاوية . وما من خلاص .

اغمض عينيه وتصور حقولا مقفرة ، وصلبانا على المدافن ، وسقوفا بددتها الريح ، وفى المدى البعيد ، وراء التلال ، هالة نيران الحرائق . امسك راسه بكلتا يديه ، وفكر بانه على هذه الصورة بالذات يحب تلك البلاد التى عرفها عن طريق الكتب والصور فقط . تغطى جبينه بالغضون العميقة ، وامتلأ قلبه برعب التنبؤ . وبعد ذلك وضع السيكارة المشتعلة بين اصبعيه وكتب ورقات مخشخشة بخطه الكبير .

وعند هبوط الظلام استلقى بيسونوف على الاريكة دون ان يشعل الضوء ، والقلق ما يزال يستولى على كيانه ، وراسه ملتهب ، ويداه نديتان . وبهذا انتهى عمله اليومى .

انتظمت دقات قلبه شيئا فشيئا ، وصارت اكثر هدوءا . والآن كان عليه ان يفكر كيف يمضى هذا المساء والليلة . اوف . . . لا احد تلفن له ، ولا زاره . يتعين عليه ان يصارع شيطان السأم وحده . ومن الطابق العلوى ، حيث كانت تعيش عائلة انجليزية ،

كان يتناهى الى سمعه عزف بيانو ، وقد بعثت هذه الموسيقى فى نفسه رغائب غامضة مستحيلة .

وفجاة رن جرس الباب الخارجى فى صمت البيت . وسمع بيسونوف خفق خطوات نعال مدبرة البيت على الارض . وصوتا نسائيا معقدا :

— اود ان اراه .

ثم توقفت خطوات خفيفة دؤوب عند الباب . ابتسم بيسونوف هازئا ، ودون ان يتحرك . انفتح الباب قبل ان يطرق ، ودخلت الغرفة فتاة هيفاء نحيلة اضاءها من الخلف ضوء الدهليز ، كانت تضع على راسها قبعة كبيرة غرزت فيها زهور بيضاء ناتئة .

توقفت وسط الغرفة ، وهى لا تميز شيئا من الضوء ، وحين نهض بيسونوف من الاريكة صامتا ، تراجعت قليلا ، الا انها هزت راسها بعزيمة ، وقالت بنفس النبرة العالية :

— اتيت اليك فى أمر مهم جدا .

تقدم بيسونوف من المكتب ، واضاء المصباح . تنورت ظليلة المصباح الزرقاء بين الكتب والمخطوطات ، وملات الغرفة كلها بضوء خافت هادئ .

— ما الذى استطيع ان افعله لك ؟

قال الكسى الكسييفيتش ذلك ، وهو يشير للقادمة الى مقعد ، وجلس هو على كرسى مكتبه بهدوء ، واضعا يديه على مرفقى الكرسى . كان وجهه شديد الشحوب ، وتحت جفنيه ازرقاق . رفع عينيه الى زائرته على مهل ، وجفل ، وارتجفت اصابعه . وقال بخافت الصوت :

— داريا دميتريفنا ، لم اعرفك فى اللحظة الاولى .

جلست داشا على المقعد بنفس الحزم الذى دخلت به ، ووضعت على ركبتيها يديها المقفزتين بقفازين من جلد الحمل ، وقطبت حاجبيها :

— انا سعيد فى زيارتك ، يا داريا دميتريفنا . انها هدية كبيرة جدا .

قالت داشا دون ان تسمعه :

— لا تتصور ، ارجوك ، اننى من المعجبات بك . ان بعض قصائدك تعجبنى ، وبعضها الآخر لا يعجبنى ، انا لا افهمها ، ولا احبها ابدا . وانا لم اجىء مطلقا لأتحدث عن الأشعار . . . بل جئت لأنك قد عذبتنى .

وخفضت رأسها كثيرا ، فلاحظ بيسونوف ان عنقها قد احمر ، وكذلك معصماها ما بين نهاية القفازين وكمى الثوب الاسود . لزم بيسونوف الصمت ، ولم يبد حراكا .

— وبالطبع ان ذلك الامر لا يعنيك . وكم اود انا ايضا ان لا يعنينى . ولكننى اضطر الى ان اعانى ، كما ترى ، لحظات مؤلمة جدا . . .

ورفعت رأسها بسرعة ، وحدقت فى عينيه بعينيها الصارمتين الصافيتين . فأسبل بيسونوف جفنيه ببطء .

— لقد ولجت علىّ كالمرض . انا دائما اجد نفسى افكر فيك وذلك ، فى آخر الأمر ، فوق مستوى طاقتى . كان من الافضل ان اجىء ، واقول لك بصراحة . واليوم قد وطدت عزمى على ذلك . وها انا قد جئت لاعلن لك عن حبى . . .

وارتعشت شفتاها ، واسرعت فاشاحت بوجهها ، وراحت تنظر الى الجدار ، حيث علق قناع بطرس الاول مضاء من الاسفل بجفنيه المطبقين وبابتسامة ترف على فمه المطبق ، وكان محبوبا لدى جميع الشعراء فى ذلك الحين . وفى الطابق العلوى كانت عائلة الكاهن الانجليزى تغنى رباعية : «نموت» . «لا ، نطير» . «فى السماء البلورية» . «فى الفرح الخالد المخلد» .

وتكلمت داشا بسرعة وحرارة :

— وان اخذت تؤكد لى بانك تحمل مشاعر ما نحوى فاننى سأغادر على التو . انك لا تستطيع حتى ان تضمر لى الاحترام ، هذا شىء واضح . فان النساء لا يتصرفن تصرفى هذا . ولكننى لا اريد شيئا ، ولا اطلب شيئا . كنت اريد فقط ان اقول اننى احبك حبا مبرحا وعنيفا جدا . . . وقد هد هذا الحب كيانى . . . ولم يُبق حتى على كبريائى . . .

وقالت لنفسها : «والآن جميل لو انهض واحيى بهزة ابية من راسى ، واخرج» . الا انها ظلت جالسة تحدق فى القناع الباسم .

وتملكها تعب طاغ يشلها حتى عن رفع يدها ، واحست فى تلك اللحظة بكل جسمها ، وبوقره ودفئه . وقالت فى سرها ، وكأنها فى حلم : «اجب ، اجب الآن» . غطى بيسونوف وجهه بكفه ، واخذ يتحدث بصوت خافت مكتوم كما يتحدثون فى الكنيسة .

– لا استطيع الا ان اشكرك بكل روحى على هذا الشعور . ان مثل هذه اللحظات ، مثل هذا الشذى الذى غمرتنى به ، لا ينسى ابدا . . .

قالت داشا من خلال اسنانها :

– لا يراد منك ان تتذكرها .

صمت بيسونوف ، ونهض ، وابتعد ساندا ظهره على خزانة الكتب .

– لا يسعنى الا ان انحنى لك اجلالا ، يا داريا دميتريفنا . انا لا استحق ان اصغى اليك . ولعلى لم العن نفسى من قبل ، مثلما العنها فى هذه اللحظة . لقد بددتها ، وبذرتها ، واعتصرت نفسى كلها . بم ارد عليك ؟ ادعوك الى فندق خارج المدينة ؟ ساكون نزيها معك ، يا داريا دميتريفنا . ليس لى ما احب به . قبل بضعة اعوام كنت واثقا من اننى ما ازال قادرا على ان انهل من الشباب الابدى ، وما كنت لا سمح لك بان تغادرينى .

احست داشا ، وكأنه يغرز فيها ابرا . فقد كان فى كلماته عذاب مستطيل . . .

– الآن ابدد الشراب الغالى ليس الا . ولا بد انك تدركين ما يكلفنى ذلك . ان امد يدى واتناوله . . .

همست داشا على عجل :

– لا ، لا .

– بلى . وانت تعرفين ذلك . ليس هناك احلى من اثم التبذير . والتبديد حتمى . وهذا ما جئت الىَّ من اجله . من اجل تبديد كأس العفاف . . وقد قدمتها لى . . .

وقلص عينيه ببطء . نظرت داشا الى وجهه مرعوبة مكتومة الانفاس .

– اسمحى لى بان اكون صريحا معك ، يا داريا دميتريفنا . انت شديدة الشبه باختك ، حتى من الوهلة الاولى . . .

صرخت داشا :

– ماذا ؟ ماذا قلت ؟

ووثبت من المقعد ، وتوقفت امامه . لم يدرك بيسونوف انفعالها ، ولم يحسن تأويله . شعر بانه فاقد صوابه لا محالة . استنشق منخراه طيب عطرها ، وتلك الرائحة غير المحسوسة تقريبا ، والقاهرة فى الوقت ذاته ، رائحة بشرة انثى تختلف من شخص لآخر .

– هذا جنون . . . انا اعرف . . لا استطيع صبرا . . .

همس بذلك باحثا عن يدها . الا ان داشا انتزعت نفسها ، وركضت . وعند العتبة نظرت بعينين وحشيتين ، واختفت . وصفقت الباب الخارجى بقوة . تقدم بيسونوف من مكتبه بخطوات بطيئة ، ونقر باظافره على علبة بلورية ، وتناول سيكارة . وبعد ذلك ضغط كفه على عينيه واحس بكل قوة خياله المخيفة بان الراهب الابيض المهيىء للمعركة الحاسمة قد بعث له هذه الفتاة العاطفية ، الرقيقة ، المغرية ، ليجذبه ، ويحوله ، وينقذه . الا انه واقع فى قبضة الراهب الاسود على نحو ميئوس منه ، ولا خلاص له الآن . فقد كان الجشع الذى لا يشبع والندم يحرقانه ببطء ، كسم يجرى فى دمه .

٨

– أهذا انت ، يا داشا ؟ ممكن ، ادخلى .

كانت يكاترينا دميتريفنا واقفة امام مرآة الصوان ، تشد عليها المشد . ابتسمت لداشا بسهوم ، وتابعت الدوران بجد واطئة البساط بنعليها الضيقين . كانت فى ملابسها الداخلية الرشيقة بالشرائط والمخرمات ، وذراعاها الجميلتان وكتفاها مبودرة ، وشعرها مصفف على شكل تاج فاخر . وعلى منضدة واطئة الى جانبها وضع قدح ماء حار ؛ وهنا وهناك مقصات للاظافر ومبارد ، واصابع احمر الشفاه وكحل الجفون ، وحقق البودرة . واليوم كان المساء بلا منهاج ، ويكاترينا دميتريفنا انشغلت «فى تنظيف ريشها» كما تعود اهل البيت ان يسموا ذلك .

قال وهى تشد جوربها :
– تصورى ان المشدات ذات الصفيحة المعدنية المستقيمة يبطل استعمالها الآن . انظرى الى هذا المشد الجديد من مدام ديوكليه . البطن اكثر تحررا بمقدار كبير ، بـــل وبارز بعض الشىء . ايعجبك هذا ؟

اجابت داشا : «لا ، لا يعجبنى» . وتوقفت عند الجوار ، ووضعت يديها وراء ظهرها . رفعت يكاترينا دميتربيفنا حاجبيها مندهشة .

– احقا لا يعجبك ؟ يا للاسف . ان لبسه مريح .

– ما هو المريح ، يا كاتيا ؟

– لعل المخرمات لا تعجبك ؟ يمكن استبدالها باخرى . عجيب ، على اية حال . لماذا لا يعجبك ؟

وادارت مرة اخرى جنبها الايمن ثم الايسر الى المرآة . قالت داشا :

– ارجوك ، اسالى غيرى هل تعجبه مشداتك .

– ولكن نيقولاى إيفانوفيتش لا يفهم شيئا فى هذا الأمر .

– لا يخص الأمر نيقولاى ايفانوفيتش ايضا .

– ما الخبر ، يا داشا ؟

بل وفغرت يكاترينا دميتربيفنا فاها اندهاشا . لاحظت الآن فقط ان داشا لا تكاد تتمالك نفسها ، وتتكلم من خلال اسنانها ، وعلى خديها بقع ملتهبة .

– يبدو لى ، يا كاتيا ، ان من الاحرى بك ان تكفى عـــن الدوران امام المرآة .

– ولكن ينبغى علىّ ان اكون فى مظهر لائق .

– لمن ؟

– ما هذا الذى تقولينه ! . .

– تكذبين .

وبعد ذلك لزمت كلتا الشقيقتين الصمت وقتا طويلا . رفعت يكاترينا دميتربيفنا من المقعد مبذلا من وبر الجمل له بطانة حريرية زرقاء ، وارتدته ، وربطت حزامه ببطء . راقبت داشا حركاتها باهتمام ، ثم قالت :

– اذهبى الى نيقولاى ايفانوفيتش ، واخبريه بكل شىء فى صدق .

ظلت يكاترينا دميتربيفنـــا واقفة تتحسس حزامها . وكان واضحا ان غصصا قد تصاعدت الى حلقومها عدة مرات ، فكانت تبلع ريقها وكانها تبتلع طعاما . وسال بخفوت :

– داشا ، هل عرفت شيئا ؟

– كنت لتوى عند بيسونوف (وهنا نظرت يكاترينا دميتربيفنا بعينين غير مبصرتين ، وشحبت فجاة شحوبا مرعبا ، وهزت كتفيها) يمكنك ان تطمئننى . لم يحصل معى شىء . لقد اعلن لى فى اللحظـة المناسبة . . .

رفعت داشا قدما ، ووضعت اخرى .

– منذ وقت طويل حدست انك . . . معه بالذات . . . الا ان ذلك كلــه مقرف جدا بحيث لا يصدق . . . لقد جبنت وكذبت . وانا لا استطيع ان اعيش فى هذه الوضاعة . . . اذهبى الى زوجك ، واخبريه بكل شىء .

ولم تستطع داشا ان تواصل كلامها ، فقد كانت شقيقتها تقف امامها مطاطاة الراس . وكانت داشا تنتظر كل شىء الا طاطاة الراس المستغفرة الطائعة هذه .

سالت كاتيا :

– هل اذهب الآن اليه ؟

– نعم ، هذه اللحظة . . . يجب ان تفهمى بنفسك . . .

ارسلت يكاترينا دميتربيفنا تنهيدة قصيرة ، وسارت نحو الباب ، وهناك ابطات خطاها ، وقالت :

– لا استطيع ، يا داشا . – الا ان داشا لزمت الصمت – حسنا ، ساخبره .

كان نيقولاى ايفانوفيتش يجلس فى غرفة الاستقبال يطالع ، وهو يحك لحيته بسكين عاجى ، مقالة اكوندين المنشورة فى العدد الجديد لمجلة «روسكيه زابسكى» («المذكرات الروسية») .

كانت المقالة مخصصة لذكرى وفاة باكونين . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يستمتع بها . وحين دخلت زوجته هتف :

– كاتيوشا ، اجلسى . واسمعى ماذا يكتب . هذه هـــى

الفقرة . . . «ان سحر هذا الرجل (يقصد باكونين) * لا يكمن فى طراز تفكيره ولا فى اخلاصه لقضيته فى النهاية ، بل فى الحماس الذى طبق افكاره فى الحياة العملية ، والذى تشبعت به كل حركة من حركاته ، والمناقشات المساهرة مع برودون ** ، والشجاعة الذى تقحم بها لهيب النضال ، وحتى هذا العمل الجميل الذى صوب به ، وهو الرجل الخارجى ، مدافع المنتفضين النمساويين ، قبل ان يعرف جيدا ضد من ولأجل اى شىء يناضلون . ان حماس باكونين هو رمز لتلك القوة الجبارة التى تنزل بها الطبقات الجديدة الى حلبة النضال . ومهمة العصر الطالع هى تجسيد الافكار ، لا انتزاعها من تحت اكوام الحقائق الخاضعة لزخم الحياة الاعمى ، ولا سحبها الى عالم مثالى ، بل عملية عكسية هى امتلاك العالم المادى بعالم الافكار . ان الواقع هو كومة من الوقود ، والافكار شرارات . وهذان العالمان المنفصلان والمتعاديان يجب ان يتحدا فى لهب الانقلاب العالمى . . .» فكرُى بذلك ، يا كاتيوشا . . . انه واضح كبياض على سواد : عاشت الثورة . مرحى ، يا اكوندين ! انه الواقع الذى نعيشه ، بلا افكار كبيرة ولا عواطف كبيرة . الحكومة منساقة بشىء واحد فقط : الخوف الجنونى على المستقبل . والمثقفون متهالكون على الطعام والشراب . ونحن نقضى اوقاتنا بالثرثرة ، ولا شىء غير الثرثرة ، يا كاتيوشا ، بينما نحن غائصون بالحماة الى آذاننا . والشعب يتعفن حيا . وروسيا جمعاء قد تآكلها السفلس والفودكا . روسيا متهرئة ، ستتحول الى ركام من نفخة واحدة . والعيش على هذا النحو غير ممكن . . . نحن نحتاج الى نوع من حرق النفس ، التطهير بالنار . . .

كان نيقولاى ايفانوفيتش يتكلم بصوت منفعل رخيم ، شاقا الهواء بالسكين ، وعيناه قد استدارتا . وقفت يكاترينا دميتربيفنا

* باكونين مخائيل الكسندروفيتش (١٨١٤ـ١٨٧٦) منظر الفوضوية وعدو لدود للماركسية . **(المترجم)** .

** برودون بيير جوزيف (١٨٠٩ـ١٨٦٥) . اشتراكى فوضوى فرنسى من البرجوازية الصغيرة **(المترجم)** .

على مقربة ممسكة بظهر مقعد . وحين فرغ من كلامه ، وعاد يشق صفحات المجلة بالسكين تقدمت منه زوجته ووضعت يدها على شعره :

– نيقولاى ، سيؤلمك كثيرا ما ساخبرك به الآن . اردت ان اخفيه ، ولكن اقتضى الأمر ان اخبرك به . . .

اطلق نيقولاى ايفانوفيتش راسه من يدها ، وامعن النظر فيها .

– نعم ، انا مصغ ، يا كاتيا .

– انت تذكر اننى قلت لك فى ساعة غضب حين تخاصمنا ذات مرة بانك يجب الا تثق بى كثيرا . . . ولكنى عدت فنفيت ذلك .

– نعم ، اتذكر .

ووضع الملجة ، واستدار فى مقعده استدارة كاملة . وتقلبت عيناه ذعرا وهى تلتقيان بنظرة كاتيا البسيطة المطمئنة .

– حسنا . . . لقد كذبت عليك آنذاك . . لم اكن مخلصة معك آنئذ . . .

غضّن وجهه بشكل يثير الرثاء ، محاولا ان يبتسم . وشعر بجفاف فى حلقه . وحين لم يعد المضى فى الصمت ممكنا ، قال بصوت لا رنة فيه :

– حسنا فعلت حين قلت لى . . . شكرا ، يا كاتيا . . .

عندئذ امسكت يده ، مستها بشفتيها ، وضغطتها على صدرها ، الا ان اليد انسلت منها ، ولم تعمد هى الى الاحتفاظ بها . وبعد ذلك قعدت يكاترينا دميتربيفنا على البساط بهدوء ، ووضعت راسها على ذراع المقعد الجلدية وقالت :

– الا تريد ان افضى اليك باكثر من ذلك ؟

– لا ، اذهبى ، يا كاتيا .

نهضت ، وخرجت ، وعند باب غرفة الطعام اندفعت داشا اليها على غرة ، وتشبثت بها ، وعصرتها ، وهمست مقبلة شعرها ، وجيدها ، واذنيها :

– اعذرينى ، اعذرينى . . . انت رائعة ، مدهشة ! . . سمعت كل شىء . . . اتصفحين عنى ، يا كاتيا ، تعذرينني ؟ كاتيا ؟

تحررت يكاترينا دميترييفنا منها بحذر ، وتقدمت من المائدة ، وعدلت ثنية كانت على المفرش ، وقالت :

– نفذت امرك ، يا داشا .

– كاتيا ، اتصفحين عنى يوما ما ؟

– كنت على حق ، يا داشا . فان ذلك افضل .

– لم اكن على حق فى شىء ! فعلت ذلك عن حقد . . . عن حقد . . . والآن ادرك ان ما من احد يجرؤ على ادانتك . لا يهم اننا جميعا نتعذب ، واننا سنتالم ، لكنك على حق ، وانا اشعر بانك على حق فى كل شىء . . . اعذرينى ، يا كاتيا .

وسالت على خدى داشا دموع كبيرة كحبات الحمص . كانت تقف الى الخلف ، على بعد خطوة من شقيقتها ، وتتكلم بصوت عال :

– اذا لم تصفحى عنى ، فاننى لا اريد ان اواصل الحياة .

التفتت يكاترينا دميترييفنا اليها بسرعة .

– ماذا تريدين منى ايضا ؟ انت تريدين ان يعود الصفاء والمودة الى كل شىء . . . ساقول لك اذن . . . لقد كذبت وكتمت لانه بذلك فقط كان من الممكن اطالة حياتى مع نيقولاى ايفانوفيتش قليلا . . . اما الآن ، فقد انتهى كل شىء . هل فهمت ؟ مضى زمن طويل وانا لا احب نيقولاى ايفانوفيتش ، ولا اخلص له . وانا لا اعرف ان كان يحبنى او لا يحبنى ، ولكن لا قرابة بيننا . هل فهمت ؟ اما انت فكالشرشر تخفين راسك تحت ابطك دائما لكيلا ترى الاشياء الفظيعة . بينما رأيتها وعرفتها ، ولكننى عشت فى هذا القذر ، لاننى امراة ضعيفة . ورأيت كيف تبتلعك هذه الحياة ، انت الأخرى . وقد حاولت ان اصونك ، ومنعت بيسونوف من زيارتنا ... كان ذلك حتى قبل انه . . . ولكن لا اهمية لذلك . . . الآن انتهى كل شىء . . .

ورفعت يكاترينا دميترييفنا راسها فجاة ، مرهفة السمع . شعرت داشا بالبرودة تسرى فى ظهرها من الذعر . فقد ظهر نيقولاى ايفانوفيتش عند الباب خارجا بجنبه وراء الستارة . كان يخفى يديه وراء ظهره .

– بيسونوف ؟

سال ذلك هازا راسه بابتسام . ودخل غرفة الطعام .

لم تجب يكاترينا دميترييفنا . تبقع خداها ، ويبست عيناها ، وانطبق فمها .

– يبدو انك تظنين ، يا كاتيا ، ان حديثنا قد انتهى . انه ظن خاطىء .

وتابع يقول مبتسما :

– داشا ، اتركينا وحدنا ، ارجوك .

– لا ، لا اخرج .

وبقيت داشا الى جانب اختها .

– لا ، ستخرجين ، اذا طلبت منك ذلك .

– لا ، لن اخرج .

– فى هذه الحال ، سيتعين على ان اغادر البيت .

اجابت داشا ناظرة اليه نظرة ضارية :

– غادر .

احمر نيقولاى ايفانوفيتش ، ولكن فى اللحظة التالية عاد الى عينيه التعبير السابق – الجنون المرح .

– هذا افضل ، ابقى . المسالة على هذا النحو ، يا كاتيا . . . قبل برهة كنت جالسا فى المكان الذى تركتنى فيه ، واذا اردت الحق ، فاننى خلال بضع دقائق عانيت ما تصعب معاناته . . . وانتهيت الى استنتاج وهو ان علىّ ان اقتلك . . . نعم ، نعم .

حين سمعت داشا هذه الكلمات اسرعت فالتصقت بشقيقتها مطوقة اياها بذراعيها ، بينما راحت شفتا يكاترينا دميترييفنا ترتجفان ازدراء .

– انت فى هستيريا . . . انت بحاجة الى ان تتناول قطرات الناردين ، يا نيقولاى ايفانوفيتش . . .

– لا ، يا كاتيا ، فى هذه المرة ليست هستيريا . . .

صرخت يكاترينا دميترييفنا ودفعت داشا عنها ، واقتربت من نيقولاى ايفانوفيتش تماما صائحة :

– اذن ، افعل ما جئت من اجله . هيا ، افعل . ها انا اقول لك فى وجهك : انا لا احبك .

تراجع خطوة ، واخرج من وراء ظهره مسدســـا «نسائيا» صغيرا ، ووضعه على الخوان ، ودس اطراف اصابعه فى فمـــه ، وعضها ، واستدار وسار نحو الباب . راقبته كاتيـــا ببصرها ، وسمعته يقول دون ان يلتفت :

– انا متالم . . . متالم . . .

عند ذاك اندفعت نحوه ، وامسكت كتفيه ، وادارت وجهه اليها :

– انت تكذب . . . تكذب . . وتكذب الآن ايضا . . .

غير انه هز راسه ، وخرج . جلست يكاترينا دميتربيفنا عند المائدة .

– ذلك ، يا داشا ، مشهد من الفصل الثالث ، وفيه طلقة مسدس . ساتركه .

– الله معك . . . كاتيوشا .

– اتركه ، لا اريد ان اعيش بهذا الشكل . بعد خمسة اعوام سيدركنى الكِبَر ، ويفوت الاوان . لا اريد ان اعيش هكذا . . . قذارة !

وغطت وجهها بيديها ، وانزلته من بين مرفقيها المستندين الى المائدة . جلست داشا على مقربة منها ، وقبلتها من كتفهـــا قبلات سريعة حذرة . رفعت يكاترينا دميتربيفنا راسها :

– اتظنين اننى لا اشفق عليه ؟ انا اشفق عليه دائمـا . ولكن تصورى ، اذا ذهبت اليه الآن ، فسيجرى بيننا حديث طويل ، زائف كليا . . . كان شيطانا يتدخل بيننا ، ويزيف . الحديث مع نيقولاى ايفانوفيتش مثل العزف على بيانو مختل . . . لا ، ساترك البيت . . . آه ، يا داشا ، داشا ، ليتك تعرفين اى شقـــاء اعانى ! . .

ومع ذلك فى آخر المساء ذهبت يكاترينـــا دميتربيفنا الى زوجها فى مكتبه .

كان الحديث مع زوجها طويلا ، وقد تحدث كلاهما بصوت خافت ، وبشجى ، وحاولا ان يكونا نزيهين ، ولم يرحم احدهمـــا الآخر ، ومع ذلك فقد شعر كلاهما بانهما بهذا الحديث لم يتوصلا الى شىء ، ولم يتفاهما على شىء ، ولم يقترب احدهما من الآخر .

وبعد ان ترك نيقولاى ايفانوفيتش وحده لبث جالسا الى مكتبه حتى الفجر متاوها . وقد عرفت كاتيا فيما بعد انه فى خلال هذه الساعات فكر واستعرض كل حياته . وكانت نتيجة هذا رسالة مطولة الى زوجته ختمها بالآتى : «اجل ، يا كاتيا ، كلنا فى زقاق خلقى مسدود . فى الاعوام الخمسة الماضية لم اشعر بشعور قوى واحد ، ولم اقم بخطوة كبيرة واحدة . وحتى حبى لك وزواجنا مرا وكانما فى عجالة عاجلـة . كيان تافـه نصف هستيرى ، تحت فعل مخدر مستمر . وهناك مخرجان : اما قتل نفسى ، واما تمزيق هذا الغشاء الروحى المُثقل على افكارى ، وعلى مشاعرى ، وعلى وعى . ولست انا فى وضع اقوى فيه على ان افعل هذا او ذاك . . .»

وقد حدثت الكارثة العائلية بمباغتة شديدة ، وانهار العالم البيتى بسهولة يسيرة وبشكل كلى انصعقت داشا به ، ولم يخطر ببالها ان تفكر فى نفسها ، واهواؤها كفتاة بدت لها تفاهة ، شبحا رهيبا على الحائط ، كذلك الذى كانت المربية تخيفها وكاتيا به فى الزمن البعيد .

كانت داشا تقترب عدة مرات فى اليوم من باب حجرة كاتيا ، وتنقر عليها باصبعها نقرا خفيفا فتجيبها كاتيا :

– عزيزتى داشا ، لو سمحت ان تتركينى وحدى ، ارجوك .

وفى تلك الايام كان على نيقولاى ايفانوفيتش ان يترافع فى المحكمة . فكان يخرج فى الصباح الباكر ، ويتناول فطوره وغداءه فى المطعم ، ويعود الى البيت ليلا . وقد هزت مرافعته القضاة وقاعة المحكمة كلها . كان يترافع مدافعا عن زويا ايفانوفنا زوجة موظف مصلحة الضرائب لادنيكوف التى ذبحت عشيقها الطالب شليبه ابن صاحب عقارات فى بطرسبورغ ، وقد جرى الحادث ليلا فى السرير فى بيت فى شارع غوروخوفايا . بكت النساء ، وضربت المتهمـــة زويا ايفانوفنا متكأ المقعد براسها ، وافرج عنها .

احاط جمع من النساء بنيقولاى ايفانوفيتش لدى خروجه من المحكمة شاحب الوجه غائر العينين ، والقين الزهور عليه ، وهتفن ، وقبلن يديه . اتجه نيقولاى ايفانوفيتش من المحكمة الى البيت ، وتحدث مع كاتيا فى ارتخاء نفسى تام .

وكانت يكاترينا دميتربيفنا قد هيات الحقائب للسفـــر ،

فنصحها مخلصا بان تسافر الى جنوب فرنسا ، واعطاها اثنى عشر الف روبل لسد نفقات الرحلة . وكان هو قد قرر اثناء الحديث معها ايضا ، ان يسلم القضايا الى مساعده ، ويسافر الى القرم للاستراحة والتروى .

وفى واقع الأمر لم يكن واضحا ولا محددا ما اذا كان فراقهما لفترة من الزمن ام الى الأبد ، ومن منهما يهجر الآخر ؟ فان هذين الامرين الحادين قد حجبهما لغب السفر بعناية .

ونسيا داشا . وقد خطرت على بال يكاترينا دميترييفنا فى اللحظة الاخيرة فقط ، وكانت قد ارتدت بدلة السفر الرمادية ، وقبعة انيقة مبرقعة ، وبدت نحيلة ، حزينة ، رقيقة . وقع بصرها على داشا وهى جالسة على صندوق فى الرواق . كانت داشا تؤرجح ساقيها ، وتاكل خبزا ومربى لانهم نسوا ان يوصوا على غداء اليوم . قالت يكاترينا دميترييفنا ، وهى تقبلها من خلال البرقع :

– داشا ، يا حبيبتى . ماذا سيكون الأمر معك ؟ اترغبين فى السفر معى ؟

غير ان داشا قالت انها ستظل وحدها فى الشقة مع «المغولى العظيم» ، وانها ستؤدى الامتحانات ، وتسافر فى نهاية ايار الى ابيها لتقضى الصيف كله هناك .

٩

بقيت داشا وحدها فى البيت . الآن بدت لها الغرف الكبيرة غيرمريحة ، والاشياء فيها زائدة . وحتى اللوحات التكعيبية فى غرفة الجلوس فقدت برحيل سيد البيت وسيدته قدرتها على اثارة الرعب ، وبهت رواؤها . وتدلت الستائر بثنيات ميتة . ورغم ان «المغولى العظيم» كانت تطوف الحجرات كل صباح صامتة كالشبح ، نافضة الغبار بمنفضة من ريش الديك فقد كان يبدو وكان غبارا آخر غير منظور يغطى البيت متزايدا فى كثافته .

كان من الممكن ان تقرا فى غرفة شقيقتها ، وكانما فى كتاب ، كل ما عاشت به يكاتيرينا دميترييفنا . فى احد الاركان حمالة عليها مشروع لوحة – فتاة تضع اكليلا ابيض على راسها ، وعيناها تملآن نصف وجهها . كانت يكاترينا دميترييفنا تتشبث بهذه

الحمالة كطريقة لتخلص نفسها باية وسيلة من الهرج المجنون حولها ، الا انها لم تصمد بالطبع . وهذه منضدة قديمة مملوءة بالاشياء غير الكاملة وقطع قماشية زاهية مبعثرة على غير نظام ، وكلها غير كاملة ومهملة ، وهى محاولة اخرى للهروب . ومثل هذه الفوضى تشيع فى خزانة الكتب ايضا ، والظاهر ان يدا قد بدات فى ترتيبها ثم اهملتها . وفى كل مكان كتب مرمية ، ومحشورة ، ومقطوعة نصف اوراقها . كتب عن رياضة اليوغا ، ومحاضرات مبسطة عن التصوف ، وقصائد وروايات . الا كم من المحاولات والجهود الضائعة للبدء فى حياة طيبة ! وجدت داشا على منضدة الزينة مفكرة فضية الغلاف سجل فيها : «٢٤ قميصا داخليا ، ٨ حمالات صدر ، ٦ حمالات صدر مدنتلة ... تذاكر لآل كرينسكى الى مسرحية «العم فانيا» ...» ثم بخط كبير كخط طفل : «شراء كعكة تفاح لداشا» .

وتذكرت داشا ان كعكة التفاح هذه لم يكتب لها ان تشترى . ورثت لشقيقتها رثاء أسال دموعها . ان هذه الشقيقة العاطفية الطيبة الرهيفة الحس لتتحمل حياة كهذه كانت تتشبث بالاشياء والتوافه ، محاولة ان تثبت ، وتقى نفسها من التشتت والتحطم ، ولكن لم يسعفها شىء ولم يساعدها احد .

استيقظت داشا فى الصباح الباكر ، وجلست الى الكتب ، وادت الامتحانات ، فكانت متفوقة فى كل مادة تقريبا . كانت ترسل «المغولى العظيم» لترد على التلفون الذى كان يدق فى المكتب بلا انقطاع ، فكانت هذه تجيب جوابا واحدا لا يتغير «سافر السيد والسيدة ، والآنسة لا تستطيع ان تاتى لترد» .

كانت داشا تقضى اماسى بكاملها تضرب على البيانو . ولم تثر الموسيقى مشاعرها كما كانت تفعل من قبل ، ولم تجعلها تريد شيئا غير محدد ، ولم تجمد قلبها الحالم . الآن ، حين كانت تجلس وادعة رصينة امام دفتر النوتات مضاءة من الجانبين بشمعتين ، كانت وكانها تطهر نفسها بالاصوات المهيبة القوية التى كانت تملأ جنبات هذا البيت الخالى حتى آخر زاوية فيه .

واحيانا كانت يظهر وسط الموسيقى اعداء صغار – الذكريات غير مدعوة . فكانت داشا ترخى يديها ، وتتعبس . وعندئذ كان

يرين على البيت سكون مطبق حتى ليسمع هسيس الشمعة . وبعد ذلك ترسل داشا زفرة صاخبة ، ومن جديد تمس يداها المفاتيح الباردة بقوة ، فيتطاير الاعداء الصغار من الغرفة الكبيرة الى الدهليز المظلم ، ووراء الدواليب والعلب الكارتونية ، مثل الغبار والاوراق اليابسة المتطايرة بالريح ... لقد اختفت الى الأبد داشا التي دقت الجرس على باب بيسونوف ، وقالت لكاتيا المجردة من الحماية كلمات حانقة . ان تلك الفتاة الهوجاء كادت تجلب الكوارث . يا له من أمر عجيب ! وكان الحب كل شيء في هذه الدنيا ، رغم انه لم يكن هناك اي حب .

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة كانت داشا تغلق البيانو ، وتطفئ الشمعتين ، وتاوي الى فراشها . وكان كل ذلك يجري دون تردد ، وبجدية . وخلال تلك الفترة وطدت العزم على ان تبدأ باقصى سرعة ممكنة حياة مستقلة – ان تكسب رزقها بنفسها ، وتضم كاتيا اليها .

ما كادت داشا تفرغ من الامتحانات في اواخر ايار حتى سافرت الى ابيها عن طريق الفولغا عبر مدينة ريبينسك . في المساء خرجت من القطار لتستقل على التو سفينة بيضاء ساطعة الاضاءة وسط الليل والماء الداكن ، وفكت امتعتها في المقصورة النظيفة ، وضفرت شعرها ، وفكرت في ان الحياة المستقلة تبدأ بداية طيبة ، وابتسمت سعادة وقد وسّدت راسها كوعها ، وغفت على هدهدة السفينة الوادعة .

وايقظتها خطوات ثقيلة وركض على ظهر السفينة . كان ضوء الشمس ينسكب عبر مضلع النافذة ، متماوجا على خشب المغسلة الماهوغاني شعاعات ضعيفة . وكانت الريح التي تلاعب الستارة الحريرية تفوح بشذى زهر العسل . فتحت داشا المضلع قليلا . كانت السفينة راسية على شاطئ قفر وقفت تحت جرفه الواطئ المنهار عربات محملة بصناديق من خشب الصنوبر . وكان مهر اصهب يتردد عند حافة الماء وقد افرج قوائمه النحيلة ذات الركب السميكة . وعلى الجرف صوة منار تبرز على شكل صليب احمر .

قفزت داشا من السرير ، ووضعت حوض الاستحمام على الارض ، اشبعت الاسفنجة بالماء ، ثم عصرتها على نفسها ، وشعرت

بانتعاش ورهبة عظيمين حتى اخذت تضغط ركبتيها على بطنها ضاحكة . ثم ارتدت جوربين ابيضين وفستانا ابيض ، وقبعة بيضاء ، وكانت قد اعدت ذلك كله منذ المساء . وقد انسجم عليها كل شيء ، واذ شعرت داشا باستقلالها ، خرجت الى ظهر السفينة رصينة ، ولكنها طافحة بالسعادة .

كان اللألاء الخفيف لانعكاس اشعة الشمس يلمع على السفينة البيضاء كلها ، وكان النظر الى الماء يزغلل البصر ، فقد كان النهر يتلألأ ويومض . وعلى الشاطئ الآخر المرتفع يلوح برج جرس ابيض قديم مختف الى النصف بين اشجار البتولا .

وحين غادرت السفينة الشاطئ ، استدارت نصف استدارة ، وسارت نازلة مع مجرى النهر ، وبدت الضفتان وكانهما تندفعان نحوها . وكانت اسقف الاكواخ القشية المعتمة تلوح هنا وهناك من وراء الاكمات ، وكانها تتداعى . وكانت السحب تتراكم في السماء مزرقة في اسافلها ، تلقى ظلالا بيضاء في اعماق النهر الزرقاء المصفرة .

جلست داشا في مقعد من الخوص المضفور ، واضعة ساقا على ساق ، مطوقة ركبتها ، وشعرت بأن منعطفات النهر اللامعة ، والسحب وظلالها البيضاء ، والتلال باشجار البتولا ، والمروج ، وتيارات الهواء الفواحة تارة بعشب المستنقعات ، وتارة بجفاف الارض المحروثة والبرسيم العسلي ، والافسنتين تنفذ خلال كيانها ، ويمتلئ قلبها ببهجة هادئة .

اقترب رجل بطيء الخطى ، وتوقف عند الحاجز مديرا له جنبه ، وراح يتطلع اليها ، كما يبدو . نسيته داشا عدة مرات ، الا انه بقى واقفا في مكانه لا يريم . عندئذ عزمت عزما ثابتا على الا تلتفت اليه ، الا ان ما جبلت عليه من طبع ملتهب جدا جعلها لا تتحمل هذه المعاينة بهدوء أعصاب . تورد وجهها ، والتفتت بسرعة وغيظ . فاذا بها ترى تليغين يقف امامها ، ممسكا بعمود مترددا بين التقدم والحديث وبين الاختفاء . وجدت داشا نفسها تضحك فجاة ، فقد ذكرها بشيء مرح طيب على نحو غير محدد . كما ان ايفان ايليتش (تليغين) كله العريض المنكبين ، القوى ، الخجول ،

فى سترته البيضاء بدا وكأنه نتيجة ضرورية لكل هذه السكينة النهرية . مدت يدها له ، فقال تليغين :

– رايتك وانت تستقلين السفينة . فى الواقع نحن سافرنا سوية من بطرسبورغ فى عربة قطار واحدة . ولكننى ترددت فى التقدم منك ، فقد كنت غارقة فى افكارك كثيرا . . . الا اضايقك ؟

– اجلس – وقدمت منه مقعدا من الخوص المضفور قائلة : انا مسافرة الى ابى ، وانت الى اين ؟

– انا ، اذا اردت الصراحة ، حتى الآن لا اعرف الى اين . ساذهب فى المرحلة الاولى الى اقربائى فى كينيشما .

جلس تليغين الى جوارها ، وخلع قبعته . وانعقد حاجباه ، وظهرت غضون على جبهته . وراح ينظر بعينين متقلصتين الى الماء الذى كان يخرج من تحت السفينة مثل درب مقعر مزبد . كانت طيور النورس باجنحتها الحادة تطير فوقه فى مؤخرة السفينة ، وتسقط عليه ، وتقلع مرسلة صيحات جشاء شاكية ، وبعد ان تتخلف بعيدا ، تدور ، وتتخاصم على كسرة خبز طائفة .

– انه يوم جميل ، يا داريا دميتريفنا .

– انه يوم رائع ، يا ايفان ايليتش ، يوم رائع ! فى جلستى هذه فكرت بأننى قد انتزعت نفسى من الجحيم الى الحرية ! انت تذكر حديثنا فى الشارع ؟

– اتذكره الى آخر كلمة ، يا داريا دميتريفنا .

– بعد ذلك الحديث حصلت اشياء اعاذنا الله منها ! ساحدثك عنها ذات يوم . – وهزت راسها مستغرقة الفكر . – كنتَ الانسانَ الوحيد الذى لم يفقد صوابه فى بطرسبورغ ، حسب ما اتصور . – وهنا ابتسمت ، ووضعت يدها على كم سترته . رف جفنا ايفان ايليتش رهبة ، وانطبقت شفتاه . وتابعت داشا قولها : انا شديدة الثقة بك ، يا ايفان ايليتش . انت قوى جدا ؟ صحيح ؟

– هذا ظنك .

– وانسان موثوق .

واحست داشا بان كل افكارها طيبة واضحة اريحية ، مثلما ان افكار ايفان ايليتش طيبة ، صادقة ، وقوية . وكان يسرها بشكل خاص ان تقول كلامها ليعبر بالذات عن هذه الدفقات المشرقة

من المشاعر القريبة الى فؤادها ، وقالت : اتصور ، يا ايفان ايليتش ، لو انك احببت فانك ستحب برجولة وثقة ، وانك اذا اردت شيئا ، فلن تحيد عنه .

ادخل ايفان ايليتش يده فى جيبه بحركة بطيئة ، دون ان يرد عليها ، واخرج قطعة خبز ، واخذ يلقيها الى الطيور . اندفع سرب من طيور النورس البيضاء يلتقط فتات الخبز وهو تتصايح مستثارة . نهضت داشا وايفان ايليتش ، واتجها نحو حاجز السفينة . قالت داشا :

– ارم لهذا الطائر ، فانه يبدو شديد الجوع .

قذف تليغين بقية قطعة الخبز بعيدا فى الهواء . انزلق نورس شحيم كبير الراس على جناحين ساكنين مسطحين كسكينين ، وانقض ، ولكنه اخطأ هدفه ، وفى الحال انطلق زهاء عشرة من الطيور على قطعة الخبز الساقطة حتى سطح الماء المطرطش بزبد دافىء من اسفل السفينة . قالت داشا :

– اتعرف اية امراة اود ان اكون ؟ سانهى الدراسة فى العام المقبل ، وابدأ بكسب فلوس كثيرة ، وآخذ كاتيا لتعيش معى . سترى ، يا ايفان ايليتش .

غضّن تليغين وجهه حين كانت تتكلم مجاهدا ليضبط نفسه ، واخيرا فتح فمه ، عن صف قوى نظيف من الاسنان الكبيرة وضحك ضحكا مرحا حتى تندّت رموش عينيه . احمر وجه داشا ، الا ان حنكها ارتعش ، وضحكت ، دون ارادتها ، كما ضحك تليغين ، دون ان تدرى سببا لذلك .

واخيرا قال تليغين :

– انت رائعة ، يا داريا دميتريفنا . . . كنت اخاف منك خوف الموت . . . ولكنك رائعة تماما !

فقالت داشا غاضبة :

– هكذا اذن . . . تعال نتناول فطورنا .

– بكل سرور .

طلب ايفان ايليتش اخراج طاولة الى سطح السفينة ، واخذ يحك بسهوم ذقنه الحليق حلاقة ممتازة ، وهو ينظر فى قائمة الطعام .

– ما رايك ، يا داريا دميتريبفنا ، فى زجاجة من النبيذ الأبيض الخفيف ؟

– ساشرب قليلا بسرور .

– ابيض ام احمر ؟

اجابت داشا محاكية لهجته الجدية :

– هذا او ذاك .

– فى هذه الحال لنشرب نبيذا فوارا .

مرت السفينة بضفة تلالية فيها شرائط خضراء لامعة من القمح ، وزرقاء خضراء من الجودار ، ووردية من الحنطة السوداء المزهرة . وراء منعطف النهر ، كانت الشمس تنعكس على زجاج نوافذ بيوت منخفضة ذات سقوف من القش قائمة على اكوام من الروث فوق مرتفع صلصالى . وابعد من ذلك لاح عدد من صلبان مقبرة القرية ، وطاحونة صغيرة كاللعبة ذات ستة اذرع مهدمة الجانب . وكان جمع من الاطفال يركض على طول الضفة المرتفعة من وراء السفينة ، قاذفا بحجارة لم تكن تصل حتى الى الماء . واستدارت السفينة ، وظهرت على الضفة الخالية اجمة منخفضة تحوم الغربان فوقها .

هبت نسمة دافئة تحت مفرش المائدة ، وفستان داشا . وبدا النبيذ الذهبى فى القدحين الكبيرين المضلعين هبة آلهية . قالت داشا انها تغبط ايفان ايليتش لأن له عمله ، ووثوقه فى الحياة ، بينما سيكون عليها ان تقضى عاما ونصف عام منكبة على الكتب ، فضلا عن تعاسة اخرى تقع من نصيبها ، وهى كونها خلقت امرأة . ضحك تليغين ، واجاب :

– ولكننى طردت من العمل فى المصنع .

– احقا ؟

– طلبوا منى ان اتخلى عن العمل خلال اربع وعشرين ساعة ، ولو لا ذاك لما كنت على هذه السفينة الآن . احقا لم تسمعى اى احداث حدثت عندنا ؟

– لا ، لا .

– لقد انفصلت ببساطة ، نعم . . . – وصمت واضعا كوعيه على الخوان . – انظرى الى اى حد من الحماقة والهرجلة تجرى

الامور عندنا . شيء لا يصدقه العقل . والشيطان يعلم اى صيت سيكون لنا ، نحن الروس . شيء معيب ومخز . فكرى فى الأمر : شعب موهوب ، وبلاد فى غاية الثراء . ولكن ماذا ترى العين مقابل ذلك ؟ ترى مجموعة من الكتبة المتغطرسين . استعضنا عن الحياة بورق وحبر . لا يمكنك ان تتصورى كم نستهلك من الورق والحبر . منذ ان بدانا هذه البروقراطية فى عهد بطرس الاول ونحن لا نستطيع ان نتوقف حتى الآن . ولكن الحبر قد يكون شيئا ميتا . فتصورى ذلك .

ابعد ايفان ايليتش قدح النبيذ ، واشعل سيكارة . وكان من الواضح انه لم يكن مريحا له الاستمرار فى مثل هذا الحديث .

– لا داعى الى اثارة الذكرى . يجب ان نفترض بأن الامور عندنا ايضا ستكون حسنة يوما ما ، ليس اسوا مما لدى الآخرين .

قضت داشا وايفان ايليتش هذا النهار كله على سطح السفينة . كان من الممكن ان يبدو حديثهما الى المستمع الغريب ضربا من الهراء ، ولكن ذلك راجع الى انهما كانا يتحدثان حديث شفرة . فقد كانت الكلمات ، واكثرها اعتيادية ، تتخذ مدلولا مزدوجا بشكل غامض غير مفهوم ، فاذا اشارت داشا بعينيها الى فتاة ممتلئة الجسم قليلا ينتفخ وراء ظهرها لفاعها الليلكى ، والى مساعد القبطان الثانى الذى كان يسير الى جانبها مركزا كل انتباهه وقالت : «انظر ، يا ايفان ايليتش يبدو ان امورهما ماشية» . فمن الضرورى ان يفهم من ذلك : «لو حصل بيننا شيء ما ، فلن يكون بهذا الشكل» . وما كان فى مقدور احد منهما ان يتذكر باخلاص ما قاله ، الا انه بدا لايفان ايليتش ان داشا اذكى منه بكثير ، وأرق وادق فى ملاحظتها ، بينما بدا لداشا ان ايفان ايليتش اطيب قلبا منها ، وافضل ، واذكى بالف مرة .

جمعت داشا شجاعتها اكثر من مرة لتحدثه عن بيسونوف ، الا انها كانت تحجم عن ذلك . كانت الشمس تدفىء ركبتيها ، والنسيم يمس وجنتها ، وكتفيها ، وجيدها ، مثل اصبع حنون مدورة . وفكرت داشا مع نفسها : «لا ، ساحدثه غدا ، سيسقط مطر ، وساحدثه» .

وفى آخر النهار عرفت داشا – وكانت تهوى مراقبة الناس ،

ولها عين مدققة مثل سائر النساء – كل شيء تقريبا عن جميع المسافرين على السفينة ، الأمر الذى بدا لايفان ايليتش اعجوبة تقريبا .

ولسبب ما قررت داشا ان مدير جامعة بطرسبورغ – وهو رجل عبوس يضع نظارة شمسية ويرتدى لباس «الانفرناسية» – غشاش كبير فى الورق على ظهور السفن . ورغم ان ايفان ايليتش كان يعرف ان هذا الرجل هو عميد الجامعة بالفعل ، الا ان الشك اخذ يساوره الآن فى ان يكون غشاشا فى الورق فعلا . وبشكل عام لقد اهتز تصور ايفان ايليتش للواقع خلال هذا اليوم . احس بما يشبه دوار الراس ، او حلم اليقظة ، وكان عاجزا تقريبا عن ان يتحمل من حين لآخر موجة عارمة من الحب لكل ما يرى ويسمع ، ففكر بان من الممتع حقا لو يلقى نفسه فى الماء ، مثلا ، لينقذ تلك الفتاة المقصوصة الشعر ، لو انها سقطت من فوق الحاجز . فليتها تسقط !

وفى منتصف الليل داهم داشا نعاس مفاجىء لذيذ ما كادت تصل معه الى مقصورتها ، وعند الباب قالت مودعة ، وهى تتثاءب :

– ليلة سعيدة . عاين وراقب غشاش الورق ذاك .

اتجه ايفان ايليتش الى الدرجة الاولى من ظهر السفينة فى الحال ، حيث كان عميد الجامعة المؤرق يقرأ مؤلفات ديماس الأب . نظر ايفان ايليتش اليه بعض الوقت ، وفكر مع نفسه بأنه رجل رائع ، رغم انه غشاش ، ثم عاد الى الممر الساطع الاضاءة ، الذى كان يفوح بزيت المحركات ، والخشب المطلى باللاك ، وبعطر داشا ، ومر ببابها على اطراف اصابعه ، ودخل مقصورته ، واستلقى فى سريره على ظهره ، واغمض عينيه ، واحس بأن كيانه كله منصعق ، وبأنه مفعم كلية بالاصوات والروائح ، وحرارة الشمس ، وبفرح حاد ، كالألم فى القلب .

ايقظه صفير السفينة بعد الساعة السادسة صباحا . كانوا يقتربون من كينيشما . ارتدى ايفان ايليتش ملابسه بسرعة ، ونظر فى الممشى . كانت الابواب كلها مغلقة ، والجميع ما زالوا نياما . وداشا نائمة ايضا . وفكر ايفان ايليتش : «يجب ان انزل هنا ، والا فسيكون سلوكى غريبا» ، وخرج الى ظهر السفينة

ناظرا الى كينيشما هذه التى لاحت الى الانظار فى وقت غير مناسب كليا ، قابعة على ضفة عالية شديدة الانحدار ، بسلالمها الخشبية ، وبيوتها الخشبية المتراكمة كيفما اتفق ، واشجار الزيزفون الخضراء الصفراء الساطعة فى شمس الصباح فى منتزه البلدية ، وبغمامة الغبار الساكنة المعلقة فوق العربات الجارية على منحدر المدينة . ظهر ملاح يحمل حقيبة تليغين ، وهو يطأ بقوة ظهر السفينة بكعبى قدميه الحافيتين . قال له ايفان ايليتش بلهجة منفعلة :

– لا ، لا . غيَّرت فكري . ارجعها الى مكانها . قررت ان اسافر الى نيجنى . ليس لى حاجة للنزول فى كينيشما . ضعها هنا ، تحت السرير . شكرا لك ، يا عزيزى .

لبث ايفان ايليتش جالسا فى المقصورة زهاء ثلاث ساعات ، مفكرا بالطريقة التى سيفسر فيها لداشا تصرفه المبتذل والمتطفل ، حسب رايه ، وبدا واضحا ان التفسير غير ممكن : ليس بوسعه ان يلجأ الى الكذب ، او يقول الحقيقة .

وبعد الساعة العاشرة خرج الى ظهر السفينة نادما ، كارها لنفسه مزدريا لها ، وقد وضع يديه وراء ظهره ، وسار فى مشية غائصة ، وعلا وجهه تعبير زائف ، وباختصار ، صورة للابتذال . الا ان القلق اخذ يساوره بعد ان دار دورة فى السفينة ، ولم يقع بصره على داشا . لم تكن داشا موجودة فى اى مكان . واحس ايفان ايليتش بجفاف فى حلقه . الظاهر ان شيئا ما قد حدث . وفجأة وقع عليها وقوعا . كانت جالسة على الكرسى المضفور فى المكان الذى جلست فيه امس ، بادية الحزن ساكنة . وكانت تضع على ركبتيها كتابا وكمثرى . ادارت راسها الى ايفان ايليتش ببطء ، واتسعت عيناها ، وكأنما ذلك عن فزع ، وامتلأتا بهجة ، وعلا خديها تورد ، وتدحرجت الكمثرى من ركبتيها . قالت خافضة الصوت :

– انت هنا ؟ لم تنزل ؟

ابتلع ايفان ايليتش غصته ، وجلس الى جوارها ، وقال بصوت لا رنة فيه :

— لا اعرف كيف ستنظرين الى تصرفى ، ولكننى لم انزل فى كينيشما عن عمد .

— كيف سانظر الى تصرفك ؟ لن اقول ذلك .

وضحكت داشا ، وفجاة وضعت يدها فى كفه ببساطة وحنان ، حتى ان راسه عاد يدور طوال اليوم اشد مما دار يوم امس .

١٠

وفى حقيقة الأمر حدث فى المصنع الميكانيكى ما يلى : فى مساء ماطر سرت فى سمائه الفسفورية غيوم تسوقها الريح ، ظهر رجل غريب يرتدى ممطرا مطاطيا مرفوع القلنسوة يسير بين جمع من العمال العائدين الى بيوتهم بعد العمل ، فى زقاق ضيق نتن موحل بوحل الفحم والحديد الخاص الذى يكثر عادة فى الشوارع الملتصقة بالمصانع الكبيرة .

سار بعض الوقت فى اثر الجميع ، ثم توقف وراح يوزع المنشورات ذات اليمين وذات الشمال ، قائلا بصوت خفيض :

— من اللجنة المركزية . . . ، اقراوه ، يا رفاق .

تناول العمال المنشورات اثناء سيرهم ، واخفوها فى جيوبهم ، وتحت قبعاتهم .

وحين وزع الرجل ذو الممطر المطاطى جميع المنشورات تقريبا ظهر احد الحراس بالقرب منه شاقا طريقه بكتفه خلال حشد العمال بقوة ، وقال على عجل «انتظر» وامسك ممطره من الخلف . الا ان الرجل ، وهو المبلل الزلق المتمسك ، خلص نفسه ، وركض . وصدرت صفارة حادة ، ردت عليها صفارة اخرى من بعيد . وسرت دمدمة خافتة بين الجمع المتضائل . الا ان المهمة قد تمت ، واختفى الرجل .

وبعد يوم او يومين من الحادث ، لم تبدأ ورشة البرادة العمل منذ الصباح ، مفاجئة بذلك ادارة المصنع الميكانيكى ، وقدمت مطاليب ليست خطيرة جدا ، ولكنها حازمة .

وسرت عبارات غير محددة ، وملاحظات وكلمات غاضبة متطايرة كالشرر فى مبانى المصنع الطويلة المتسرب اليها ضوء ضعيف من خلال النوافذ القذرة والسقوف الزجاجية المسخمة . وراح

العمال الواقفون عند المخارط ينظرون نظرات غريبة الى رؤسائهم وهم يمرون بهم ، وينتظرون بتاثر مكظوم التعليمات اللاحقة .

وبينما كان الاوسطة الأقدم بافلوف ، وهو واش ، يدور قرب مكبس يشتغل على القوة المائية ، سقطت مصادفة سبيكة حمراء متقدة على قدمه وسحقتها سحقا ، فارسل صرخات وحشية . وعندئذ شاع فى المصنع ان شخصا قد قُتِل . وفى الساعة التاسعة اندفعت سيارة الليموزين الهائلة العائدة لكبير المهندسين داخلة فناء المصنع كالصاعقة .

وصل ايفان ايليتش تليغين فى الساعة المعتادة الى ورشة الصهر ، وهى عبارة عن مبنى هائل دائرى ارضها طينية ، وافرانها مبنية عند الجدران ، وقد تحطم الزجاج فى بعض نوافذها ، وتدلت سلاسل من اذرع الرافعات . وتوقف تليغين عند الباب ، وحرك كتفيه من برودة الصباح ، وصافح الاوسطة بونكو بمرح ، وكان قد تقدم منه .

كانت ورشة الصهر قد تلقت طلبا مستعجلا لصنع قواعد متحركة للآلات ، فاخذ ايفان ايليتش يتحدث مع بونكو عن العمل القادم متشاورا معه باستغراق وبطريقة جدية حول اشياء ليست موضع شك عند اى واحد منهما . وقد ادت هذه الحيلة الصغرة الى ان يخرج بونكو مطمئنا من المحاورة تماما ، وقد ارخى اعتزازه بنفسه لانه قد بدا العمل فى ورشة الصهر منذ خمسة عشر عاما كعامل بسيط ، وهو الآن اوسطة اقدم يعتز بمعارفه وخبرته اعتزازا كبيرا جدا ، بينما كان تليغين موقنا بان بونكو اذا اطمان الى عمل فان هذا العمل سيسير سيرا سريعا وجيدا .

تجول ايفان ايليتش فى ورشة الصهر متحدثا الى عمال الصهر والقولبة بلهجة رفاقية شبه مازحة كانت تفصح اكبر الافصاح عن العلاقات المتبادلة بينه وبين كل واحد منهم . وكانه يقول له : انا وانت نقوم بعمل واحد ، فمعنى ذلك اننا رفيقان . الا اننى مهندس وانت عامل ، اذن ، فنحن فى الواقع عدوان ، ولكن ما دام احدنا يحترم الآخر فلن يبقى امامنا الا ان ينكت الواحد على الآخر .

اتجهت رافعة الى احد المصاهر مخففة سلسلتها المصلصلة . واستقبلها عاملان ضليعان ضخمان هما فيليب شوبين ذو الشعر

الذى وخطه الشيب ، والنظارة المدورة ، وايفان اوريشنيكـــوف القوى ذو الجسم الرياضى واللحية الجعداء والشعر الفاتح اللـــون المشدود بنطاق ، والعينين الزرقاوين . واخذ الاول يزيح بالعتلــة الغطاء الحجرى عن واجهة الفرن ، بينما شد الثانى كلابة الرافعة الى البوتقة الطويلة المبيضة من الحرارة . قرقعت السلسلـــة ، وتارجحت البوتقة ، وطافت فى الهواء الى وسط الورشة موشوشة ، متوهجة ، ناثرة قشرة من الخبث .

قال اوريشنيكوف :

– قف . اخفض .

ومرة اخرى قعقعت الرافعة ، ونزلت البوتقة ، وانصب على الارض سيل باهر اللون من البرنز ، قاذفا بنجيمات خضر متفجرة ، مضيئا سقف الورشة المقوس بوهج برتقالى . وفاحت رائحـــة النحاس الحلوة المقززة ، ورائحة احتراقه .

وفى اثناء ذلك انفتح مصراعا الباب المزدوج المؤدى الى المبنى المجاور ، ودخل الى ورشة الصهر عامل شاب بخطى سريعة حازمة وقد ارتسم الشحوب والغيظ على وجهـه . وصـاح بصوت حـاد خشن :

– اوقفوا العمل . . . اخرجوا !

وحدج تليغين بنظرة جانبية ، وقال :

– هل سمعتمونى ، ام لا ؟

اجاب اوريشنيكوف بهدوء :

– سمعنا ، سمعنا . لا تصرخ – ورفع راسه الى الرافعة ، وقال : دميترى ، لا تنم ، تحرك .

وقال العامل حاشرا يديه فى جيبيه :

– حسنا ، اذا سمعتمونى فافعلوا ما ترونه صائبا . لن نطلب اليكم مرة اخرى .

واستدار بحركة شديدة ، وخرج .

كان ايفان ايليتش قد جلس الى قطعة مصبوبة حديثا وراح يكشط فى عناية التراب بقطعة سلك . اما بونكو الجالس على مقعد عال الى منضدة عالية عند الباب فقد اخذ يحك بسرعة لحيته الشيباء الصغيرة الشبيهة بلحية العنز . وقال مديرا عينيه :

– اتـرك العمل سواء اردت ام لـم تـرد . ولكن هل يفكر هؤلاء بم ستطعـم الاطفـال اذا طردوك من المصنـع ، ام تراهم لا يفكرون ؟

اجاب اوريشنيكوف بصوت كثيف :

– الافضل ألا تمس هذه الأمور ، يا فاسيلى ستيبانوفيتش .

– وكيف لا امسها ؟

– لأن ذلك أمر يخصنا . فانت ستلجأ الى الرؤساء وتحابيهم . فما عليك الا ان تصمت .

سأل تليغين اخيرا ، ونظر الى اريشنيكوف :

– ما سبب الاضراب ؟ ما هى المطاليب ؟

اشاح اوريشنيكوف بصره . فأجاب بونكو :

– اضرب عمال ورشة البرادة . فى الاسبوع الماضى حوّل ستون من مخارطهـم الى العمل بالقطعة على سبيل التجربـــة . وفى النتيجة يظهر انهم لا يكسبون ما كانوا يكسبونه من قبل ، ويتعين عليهم ان يشتغلوا اوقاتا اضافية . وها هم قد علقوا قائمة كاملة عند الباب فى المبنى السادس بمطاليب مختلفة ، وليس كبيرة .

وغمس الريشة فى الدواة غاضبا ، وشرع فى تسجيل القائمة .

وضع تليغين يديه وراء ظهره ، وسار خلال الافران ، ثم قال ، وهو يعاين من خلال فتحة مستديرة يتراقص وراءها البرنز المذاب متلويا كالافاعى فى النار البيضاء التى لا تحتمل :

– يا اوريشنيكوف ، اظن ان هذه القطعة ظلت هناك وقتا اطول مما يجب . اليس كذلك ؟

خلع اوريشنيكوف مئزره الجلدى دون ان يجيب ، وعلقه على مسمار ، ولبس قبعة من جلد الخروف ، وسترة طويلة حسنة النوع ، وقال بصوت عميق كثيف تردد فى الورشة كلها :

– اوقفوا العمل ، يا رفاق . وتعالوا الى المبنى السادس ، الباب الاوسط .

وسار نحو باب الخروج . القى العمال الادوات صامتين . بعضهم نزل من الرافعة ، والبعض الآخر طلع من حفرة فى الأرض ، وسار الجميع فى حشد وراء اوريشنيكوف . وفجأة حدث شىء عند الباب . ارتفع صوت جنونى متحول الى زعيق :

– تكتب ؟ ... تكتب ، يا ابن الكلبة ؟ سجل اسمى ، واخبر الرؤساء ! . .

وكان ذلك صوت عامل القولبة الكسى نوسوف يصرخ ببونكو . وكان وجهه المتعب غير المحلوق منذ فترة طويلة بعينيه الكدرتين الغائرتين يختلج ويتلوى ، وقد انتفخ ودج فى رقبته النحيلة ، وكان ، يضرب حافة المنضدة بجمع يده الأسود صارخا :

– مصاصو دماء ! . . معذبون ! . . سنجد لكم ما يسكتكم ايضا ! . .

عند ذاك مسك اوريشنيكوف بنوسوف من جذعه ، وابعده من المنضدة العالية بيسر ، وسار به الى الباب . فهدأ هذا حالا ، وفرغ الورشة .

وعند الظهر كان المصنع كله مضربا . وسرت شائعات بان ثمة قلاقل فى مصنعى اوبوخوفسكى ونيفسكى للآلات . وكان العمال يقفون فى باحة المصنع بجماعات كبيرة منتظرين نتيجة مفاوضات الادارة مع لجنة الاضراب .

وكان الاجتماع معقودا فى دائرة المصنع . وقد فزعت الادارة ، وقامت بتنازلات ، ولم تبق الا عقبة واحدة ، هى مطلب العمال فى فتح الباب الموجود فى السياج المصنوع من الالواح الخشبية لئلا يضطروا الى الدوران وشق طريقهم خلال الوحل مسافة ربع فرسخ . ولم يكن هذا الباب يهم احدا فى الحقيقة ، الا ان الأمر تحول الى نوع من الاعتداد لكل من الطرفين ، واصرت الادارة فجاة على رأيها ، وبدات نقاشات طويلة . وفى تلك الاثناء جاء فى التلفون أمر من وزارة الداخلية : رفض جميع مطاليب لجنة الاضراب ، والامتناع عن اجراء اية مفاوضات معها حتى اشعار آخر .

وقد افسد هذا الأمر القضية كلها افسادا كبيرا حتى ان كبير المهندسين انطلق الى المدينة على الفور لتوضيح الأمر . وذُهِل العمال ، وكان الشعور السائد مسالما بالاحرى . دخل بعض المهندسين فى الحشد شارحين باسطين اذرعهم . بل وصدر ضحك فى مكان ما . واخيرا ظهر على مدخل الدائرة المهندس بولبين الضخم الركين الاشيب ، وصرخ بصوت تردد فى الفناء كله بان المفاوضات ارجات الى الغد .

بقى ايفان ايليتش فى ورشة الصهر حتى المساء ، ولما راى الافران ستنطفئ على اية حال ، حك علباءه ، وذهب الى بيته . كان المستقبليون جالسين فى غرفة الطعام ، وقد ابدوا جميعا اهتماما شديدا بما يحدث فى المصنع . الا ان ايفان ايليتش لم يحدثهم بشىء ، وراح وهو مستغرق فى افكاره يمضغ الشطائر التى قدمتها له يلزافيتا كييفنا ، ثم انصرف الى غرفته ، واغلقها عليه بالمفتاح ، واستلقى لينام .

لدى اقترابه من المصنع فى اليوم التالى رأى وهو ما يزال على مسافة بعيدة ، ان فى الأمر سوءا . كانت جماعات العمال تقف فى كل الزقاق تتشاور . وقد احتشد قرب بوابة المصنع جمهور غفير يقدر بعدة مئات ، يطن طنين خلية نحل مستثارة .

كان ايفان ايليتش يرتدى قبعة ناعمة ومعطفا مدنيا ، فلم يسترع انتباه احد . تسمع الى جماعات من المتجادلين فعرف ان اعضاء لجنة الاضراب جميعا قد اعتقلوا ليلا ، وان الاعتقال ما يزال جاريا بين العمال ، وان لجنة جديدة قد انتخبت ، والمطاليب التى اعلنوها الآن مطاليب سياسية ، وان فناء المصنع الآن مملوء بالقوزاق ، ويقال ان امرا قد صدر بتفريق الجمهور ، الا ان القوزاق قد رفضوا كما زُعِم ، واخيرا ان عمال مصنع اوبوخوفسكى ، ومصنع نيفسكى لبناء السفن وبعض المصانع الصغيرة قد انضموا الى الاضراب .

عزم ايفان ايليتش على ان يشق طريقه الى الدائرة ليطلع على الاخبار ، الا انه بعد جهد جهيد لم يستطع الا ان ينفذ حتى البوابة . وهناك كان قوزاقيان جسيمان انزلقت قبعتاهما على جانب وانفرجت لحيتاهما الى الجانبين يقفان الى جانب الحارس بابكين المعروف المتعبس فى فروته الضخمة . وكانا ينظران بمرح ووقاحة الى وجوه العمال المؤرقة السقيمة ، وكلاهما متورد الوجنتين ، مشبعا غذاء ذا مظهر مشاكس وهازىء .

فكر ايفان ايليتش «اجل ، ان هذين القوزاقيين لن يرعويا عن شىء» وهمّ بالدخول الى الفناء ، الا ان اقرب القوزاقيين اليه سد طريق الدخول عليه ، وتفرس فيه بعينين وقحتين ، وقال :

– الى اين ؟ ابتعد !

– عليّ ان اذهب الى الدائرة . انا مهندس .
– قلت لك : ابتعد !
عندئذ ترددت اصوات من المحتشدين :
– كفرة ! جلاوزة !
– لم يكفكم ما سفكتم من دمائنا !
– شياطين متخمون ! محتكرو اطيان !

وفى تلك البرهة شق شاب قصير ابثر الوجه ذو انف كبير معكوف طريقه الى الصفوف الامامية . كان يرتدى معطفا ضخما لا يناسب حجمه ، ويضع على شعره الأجعد قبعة عالية فى وضع اهوج . وتكلم متعتعا هازا ذراعه الواهنة :

– ايها الرفاق القوزاق ! السنا روسا جميعا ؟ على من تشهرون السلاح ؟ على اخوتكم . وهل نحن اعداؤكم لتطلقوا النار علينا ؟ ماذا نحن نريد ؟ نحن نريد السعادة للروس جميعا . نريد ان يكون كل انسان حرا . نريد ان نقضى على التعسف . . .

زم احد القوزاقين شفتيه ، وتفحص الشاب بازدراء من راسه حتى قدميه ، واستدار ، واخذ يخطو على طول البوابة . بينما اجاب الثانى بصوت رسمى مهيب :

– لن نستطيع السماح باية تمردات ، لاننا اقسمنا اليمين .

وعندئذ صاح الاول بالشاب الأجعد الشعر ، بعد ان فكر بالجواب على ما يبدو :

– اخوان ، اخوان . . . شد بنطلونك ، فقد تفقده .

وضحك القوزاقيان كلاهما .

ابتعد ايفان ايليتش عند البوابة ، فان موجة الحشد كانت تدفعه جانبا ، نحو السياج ، حيث تكومت كومة حدائد صدئة . وبينما كان يحاول ان يصعد كومة الحدائد ، وقع بصره على اوريشنيكوف الذى كان يمضغ قطعة خبز بهدوء ، وقد سرح قبعته من فراء الخروف على مؤخرة راسه . غمز اوريشنيكوف لتليغين بحاجبيه ، وقال بصوت عميق :

– نعم الاحوال ، يا ايفان ايليتش .
– مرحبا ، يا اوريشنيكوف . بم سينتهى كل هذا ؟
– ونحن نهتف قليلا ، ثم نخلع قبعاتنا طائعين . وهذا كل

ما تبقى من التمردات . انهم ارسلوا القوزاق الينا . فبم سنحاربهم ؟ ااقذفهم بهذه البصلة فاقتل اثنين منهم ؟

وفى تلك الاثناء حدثت دمدمة فى الجمع ثم تلاشت . وفى السكون صدر عند البوابة صوت آمر حاد :

– يا سادة ، ارجوا ان تتفرقوا الى بيوتكم . وسينظرون فى رجاواتكم . ارجوكم ان تتفرقوا بهدوء .

اضطرب الجمع ، واندفع الى الوراء ثم الى ناحية . ابتعد فريق ، وتقدم آخر . واشتد لغط الكلام . وقال اوريشنيكوف :

– للمرة الثالثة يرجون دون تهديد .
– من يقول هذا ؟
– ضابط قوزاقى .
– يا رفاق ، يا رفاق ، لا تتفرقوا .

تردد صوت منفعل ، وقفز على كومة الحدائد الى الخلف من ايفان ايليتش رجل شاحب منفعل ذو قبعة كبيرة ، ولحية سوداء شعثاء كانت سترته الانيقة مزررة تحتها بدبوس انجليزى .

وقال الرجل بصوت جهير بعد ان مد يدين ضم قبضتيها :

– يا رفاق ، لا تتفرقوا مهما كلف الأمر . لقد عرفنا من مصدر مو ثوق ان القوزاق رفضوا اطلاق النار علينا . والادارة تجرى مفاوضات مع لجنة الاضراب عن طريق وسيط . وفضلا عن ذلك يناقش عمال السكك الحديد الآن اعلان اضراب عام . والحكومة فى ذعر .

زعق صوت جنونى :

– برافو !

وسرى طنين فى الحشد ، وغاص الخطيب فيه ، وغاب . وكان الناس يتوافدون ركضا الى الزقاق .

بحث ايفان ايليتش ببصره عن اوريشنيكوف ، الا ان هذا كان فى تلك اللحظة واقفا بعيدا عنه وقرب البوابة . وترددت كلمة «ثورة ، ثورة» غير مرة .

شعر ايفان ايليتش بان انفعالا بالخوف والفرح يملأ كيانه كله . ارتقى كومة الحدائد واجال بصره فى الحشد الذى صار الآن ضخما ، وفجأة رأى اكوندين على بعد خطوتين منه . كان يضع على

عينيه نظارة ، وعلى رأسه كيبيه لها طرف كبير ، ويلبس عباءة سوداء . شق طريقه اليه رجل فى قبعة مستديرة وشفتاه ترتجفان . وسمع تليغين ما قال الرجل لأكوندين :

– اذهب ، يا ايفان افاكوموفيتش ، انهم ينتظرونك .

رد اكوندين باقتضاب وغيظ :

– لا اذهب .

– اجتمعت اللجنة كلها . وهم لا يريدون ان يتخذوا قرارا بدونك ، يا ايفان افاكوموفيتش .

– انا باق على رأيى ، وهذا معروف .

– لقد فقدت صوابك . . . ها انت ترى ماذا يجرى . وانا اقول لك ان اطلاق النار سيبدأ بين لحظة وأخرى . . .

واخذت شفتا الرجل ذى القبعة المستديرة ترتعشان .

قال اكوندين :

– قبل كل شىء لا ترفع صوتك . اذهب واتخذ قرارا مساوما . انا لا اشترك فى استفزاز . . .

– اللعنة ، اللعنة . جنون محض !

قال الرجل ذو القبعة المستديرة ، وشق طريقه فى الحشد . وتقدم جنبا من اكوندين العامل الذى دعا بالأمس عمال ورشة تليغين الى الاضراب ، فقال له اكوندين شيئا . اومأ له العامل برأسه ، واختفى . ثم حصل الشىء نفسه – عبارة قصيرة وهزة رأس – مع عامل آخر .

ولكن صيحات تحذيرية ترددت بين الحشد فى تلك اللحظة . وفجأة صدرت ثلاث طلقات جافة قصيرة . وخيم سكون على الفور . وسُمع صوت مكتوم ممطوط وكأنه عن قصد «آ – آ – آ –» . وتحرك الحشد ، وتراجع عن البوابة . كان احد القوزاق يرقد فى الوحل الذى عجنته الاقدام ، ووجهه الى الارض ، وركبتاه معكوفتان على بطنه . وفى الحال سرت صيحة فى كتلة الناس كلها : «لا حاجة ، لا حاجة» . فقد فتحت البوابة . الا ان طلقة رابعة من مسدس صدرت من جانب ، وتطايرت بعض الحجارة ، فارتطمت فى الحديد . وفى تلك اللحظة راى تليغين اوريشنيكوف واقفا حاسر الرأس ، فاغر الفم ، وحيدا امام الحشد المتراكض فى فوضى . بدا وكأنه

قد انغرس فى الارض من الرعب بحذائيه الطويلين . وفى ذات الوقت رنت كضربات سوط طلقات طويلة من بندقية – واحدة وثانية واخرى ، واذا باوريشنيكوف يركع على ركبتيه برفق ، وينطرح على الارض .

بعد اسبوع انتهى التحقيق فيما حدث فى المصنع . فكان ايفان ايليتش فى قائمة الاشخاص الذين اشتبه فى عطفهم على العمال . وعندما استدعى الى الدائرة تحدث مع الادارة بحدة ، على غير توقع من الجميع ، وقدم استقالته .

١١

كان الدكتور دميترى ستيبانوفيتش بولافين والد داشا ، جالسا فى غرفة الطعام قرب سماور كبير متصاعد البخار يطالع الصحيفة المحلية «نشرة سامارا» وكان كلما احترقت سيكارته حتى عقبها القطنى يتناول سيكارة اخرى من علبة سيكائر سميكة مملوءة ، ويشعلها من عقب السيكارة . سعل ، وصعد الدم الى وجهه ، وحك صدره المشعر تحت قميصه المفتوح . كان يطالع ويرشف الشاى الخفيف من صحن الفنجان ناثرا الرماد على الصحيفة ، والقميص ، ومفرش المائدة .

ترامى صريف سرير من وراء الباب ، ووقع اقدام ، ودخلت داشا الغرفة وقد القت روبها على قميص النوم ، وهى ما تزال متوردة ناعسة . نظر دميترى ستيبانوفيتش الى ابنته من فوق نظارته الانيقة المصدوعة بعينين ساخرتين باردتين كعينى داشا ، وقرب خده لتقبله . قبلته داشا وجلست قبالته مقربة منها الخبز والزبدة . وقالت :

– الريح مرة أخرى .

والواقع ان ريحا قوية حارة ما تزالت تهب لليوم الثانى . كانت سحابة من الغبار الكلسى تجثم على المدينة ، وتبرقع الشمس . وكانت سحب كثيفة واخزة تجرى دفقات عبر الشارع ، وكان السابلة القلائل يديرون لها ظهورهم . وكان الغبار ينفذ فى كل شق ، وفى اطر النوافذ ، ويستقر بطبقة رقيقة على افاريز النوافذ ، ويهص بين الاسنان . وكانت الريح تهز زجاج الشبابيك ،

وتقعقع بالسقف الحديدى . وفى الوقت ذاته كان الجو حارا وغرا ، بل وان رائحة الشارع نفذت الى الغرف .

قال دميترى ستيبانوفيتش :

– وباء من امراض العيون . شيء لطيف .

وتنهدت داشا .

قبل اسبوعين توادعت مع تليغين على سلم السفينة وقد رافقتها فى آخر الأمر حتى سامارا ، ومنذ ذلك الحين وهى تعيش مع ابيها بدون عمل فى شقة جديدة فارغة غير مالوفة لها ، حيث كانت صناديق الكتب المغلقة تقف فى الصالة ، ولم تكن الستائر قد علقت بعد ، وكان من المتعذر العثور على شيء فيها ، كما لم يكن فيها مكان يستريح المرء فيه ، ان العيش فيها يشبه العيش فى حانة .

راحت داشا تقلب الشاى فى القدح ، وتنظر مكتئبة الى سحائب الغبار الرمادى تتطاير وراء النافذة من تحت الى فوق . كان يخيل اليها ان عامين قد انقضيا كالحلم ، وها هى قد عادت الى البيت ثانية ، ولم يبق من كل الأمانى والانفعالات وضروب الناس ، من بطرسبورغ الصاخبة غير هذه السحائب من الغبار .

قال دميترى ستيبانوفيتش ، وهو يقلب الصحيفة :

– قتلوا الارشيدوق .

– ايهم ؟

– كيف ايهم ؟ ارشيدوق النمسا اغتيل فى ساريفو .

– هل كان شابا ؟

– لا اعرف . صبى لى قدحا آخر .

القى دميترى ستيبانوفيتش قطعة سكر صغيرة فى فمه – وكان يحتسى الشاى دائما خلال قطعة سكر فى الفم – ونظر الى داشا نظرة هازئة . وسال وهو يرفع صحن الفنجان .

– خبرينى ارجوك ، هل انفصلت يكاترينا عن زوجها نهائيا .

– لقد اخبرتك ، يا بابا .

– حسنا ، حسنا . . .

وتناول الصحيفة من جديد . مشت داشا الى النافذة . يا للسأم ! وتذكرت السفينة البيضاء ، والشيء الرئيسى ان الشمس

كانت تملأ الرحب : السماء الزرقاء ، والنهر ، وسطح السفينة النظيف ، وكل شيء ، كل شيء مغمور بالشمس ، والنداوة ، والطراوة . عندئذ بدا ان ذلك الطريق المتلألىء ، اى النهر العريض الملتوى ببطء ، والسفينة «فيودور دوستويفسكى» وعليها داشا وتليغين ، كل ذلك ينصب ويتداخل فى خضم من الضياء والبهجة ازرق بلا ساحل ويتحول الى نعيم .

آنذاك لم تتعجل داشا ، رغم انها كانت تدرك ان تليغين كان يعانى ، ولم تكن هى تعترض على هذه المعاناة . ولكن لم العجلة ، وكل لحظة من لحظات تلك السفرة كانت طيبة رغم ذلك ، وهما سيصلان الى السعادة على اية حال .

اصبح ايفان ايليتش لدى اقترابهما من سامارا شاحب الوجه ، وكف عن المزاح . حدثت داشا نفسها : نحن مبحران نحو السعادة ، وشعرت بنظرته اليها ، وكانها نظرة رجل قوى مرح مرت عليه عجلة . كانت مشفقة عليه ، ولكن ماذا كان بوسعها ان تفعل ، وكيف تدعه يقترب منها ، ولو قليلا ، وقد كانت تدرك ان ذلك لو حدث لبدا فى الحال ما كان يجب ان يحدث فى آخر الرحلة . انهما ، عندئذ ، لن يصلا الى السعادة ، بل ستسرق منهما بجزع فى منتصف الطريق . ولهذا السبب اكتفت بان تكون حنونة معه فقط . اما هو ، فقد خيل اليه انه سيهين داشا اذا لمح ، ولو بكلمة واحدة ، الى ما كان السبب فى سهاده اربع ليالى ، احس بنفسه فى ذلك العالم الفريد نصف الشفاف ، حيث جميع المظاهر قد انزلقت عنه مثل ظلال فى ضباب ازرق ، وحيث كانت عينا داشا الرماديتان تشعان وعيدا وقلقا ، وحيث لا واقع غير الروائح ، وضوء الشمس ، والم فى القلب لا يفتر .

فى سامارا استقل ايفان ايليتش سفينة اخرى ، وعاد بها . واختفى بحر داشا المتلألئ الذى كانت تبحر عليه بهدوء غامر وتشتت ، وارتفعت سحائب من الغبار وراء زجاج النافذة المرتج .

قال دميترى ستيبانوفيتش :

– سيجر النمساويون آذان الصربيين هؤلاء – ثم خلع نظارته من انفه ووضعها على الصحيفة ، واكمل : – اما انت ، فما هو رايك فى المسالة السلافية ، يا قطيطة ؟

هزت داشا كتفيها ، وهى واقفة عند النافذة ، وسالت مغمومة :

– هل ستأتى للغداء ؟

– لا ، على الاطلاق . عندى حالة حمى قرمزية فى بيت بوستنيكوف .

تناول دميترى ستيبانوفيتش صدر قميصه الشكلى من على المنضدة بحركة بطيئة ، وارتداه ، وزرر سترته من قماش الشنتونغ ، وتفحص جيوبه ليطمئن الى ان كل شىء فى مكانه ، وشرع يمشط شعره الاشيب الأجعد على جبينه بمشط مثلوم .

– على كل حال ، ماذا بخصوص المسالة السلافية ؟

– أوه ، يا الهى . لا اعرف ، يا بابا . لماذا تلح علىّ ؟

– اما انا فلى رائى الشخصى ، يا داريا دميترييفنا .

كان يكره كثيرا ، كما يبدو ، ان يذهب الى بيت بوستنيكوف كما انه ، بوجه عام ، يهوى الكلام فى السياسة فى الصباح ، وهو وراء السماور . تابع قوله :

– المسالة السلافية – هل انت مصغية ؟ – مسمار السياسة العالمية . وكثير من الناس يفشلون فى هذه المسالة . ولهذا السبب فان البلقان موطن السلاف الأصلى انما هو الزائدة الدودية لاوربا ، ربما تريدين ان تسالينى : لماذا ؟ فاجيبك . – وهنا اخذ يطوى اصابعه السميكة : اولا ، ان السلاف اكثر من مائتى مليون ، وهم يتوالدون كالارانب ، ثانيا انهم استطاعوا ان يخلقوا دولة عسكرية جبارة كالامبراطورية الروسية ، وثالثا ان الجماعات السلافية الصغيرة ، رغم الاندماج ، تنظم نفسها فى كيانات مستقلة ، وتطمح الى ما يسمى بالتحالف السلافى العام ، رابعا – وهذا الأهم – ان السلاف يكونون طرازا من «الباحث عن الله» جديدا كليا من الناحية الخلقية ، وخطرا للغاية فى بعض الوجوه على الحضارة الاوربية . ان «البحث عن الله» – هل انت تسمعينى ، يا قطيطة ؟ هو رفض وتهديم للحضارة الحديثة كلها . وانا ابحث عن الله ، اى عن الحقيقة فى نفسى انا . ولأجل ذلك يجب ان اكون حرا بشكل مطلق ، وانا اهدم الأسس الخلقية التى دُفنت تحتها ، اهدم الدولة التى تصفدنى بالاغلال .

قالت داشا جزعة :

– اذهب الى بيت بوستنيكوف ، يا بابا .

– لا ، ابحثى عن الحقيقة هناك .

ونقر باصبعه ، وكأنه يشير الى باطن الأرض ، الا انه صمت فجاة ، واستدار نحو الباب . كان الجرس يرن فى الرواق .

– داشا ، اذهبى لفتح الباب .

– لا استطيع ، فانا لم ارتد ثيابى .

صاح دميترى ستيبانوفيتش :

– ماتريونا ! آه ، امراة لعينة . – وذهب بنفسه ليفتح الباب ، وعاد فى الحال يحمل فى يده رسالة . وقال :

– انها من كاتيا . انتظرى ، ولا تلتقطيها من يدى ، ساكمل حديثى اولا . . . اذن ، ف «البحث عن الله» يبدأ ، قبل كل شىء ، من التهديم ، وهذه المرحلة خطرة جدا ، ومعدية . وروسيا الآن مصابة بهذه المرحلة من المرض بالذات . . . اخرجى مساء الى الشارع الرئيسى وستسمعين الناس يزعقون : «النجدة» . فى الشارع يتسكع قطاع الطريق . انها شقاوة فاحشة وقد عجز البوليس عن السيطرة عليها . ان اولئك الفتيان الذين لا خلاق لهم هم «باحثون عن الله» . هل فهمت ، يا قطيطة ؟ وهم اليوم يستهترون فى الشارع الرئيسى ، وغدا سيبداون بالاستهتار فى ارجاء الدولة الروسية كلها . والشعب قاطبة يعانى من المرحلة الاولى من «البحث عن الله» مرحلة هدم الاسس .

وتنشق دميترى ستيبانوفيتش ، واشعل سيكارة . اختطفت داشا من اصابعه رسالة كاتيا ، وذهبت الى غرفتها . بينما مضى فى اثبات شىء ما بعض الوقت ، وسار صافقا الابواب فى الشقة الواسعة نصف الفارغة المغبرة بارضيتها المطلية ، ثم ذهب الى وجهته .

كتبت كاتيا فى رسالتها :

«عزيزتى داشا . انا لا اعرف حتى الآن شيئا عنك ولا عن نيقولاى . انا الآن فى باريس . والموسم هنا فى ذروته . والنساء يلبسن فساتين ضيقة جدا فى الاسفل . والشيفون فى الموضة . باريس جميلة جدا . ليتك ترين ذلك : وكل الناس فى

باريس بلا استثناء يرقصون التانغو . وفى الافطار فى الفترة بين تقديم صحن وصحن ينهض الناس ، ويرقصون ، وفى الساعة الخامسة ايضا ، واثناء الغداء وهكذا دواليك حتى الصباح . ولا مكان لى اتحاشى فيه الموسيقى . وفيها شىء من الحزن والعذاب والحلاوة . ويخيل الىّ دائما اننى اشيع شبابى ، وشيئا لا يمكن ان يرد حين انظر الى تلك النسوة بفساتينهن ذات الفتحات الواطئة ، وعيونهن المؤطرة بالازرق ، والى فرسانهن . وبشكل عام انا احس بضجر . واتصور دائما ان شخصا ما لا بد ان يموت . وانا اخاف على ابى كثيرا . فقد تخطى سن الشباب منذ زمان . الروس هنا يملأون كل مكان ، وجميعهم من معارفنا . وفى كل يوم نجتمع فى مكان ما ، وكأننا لم نغادر بطرسبورغ . وبالمناسبة حدثونى هنا عن نيقولاى ، وزعموا انه كان على علاقة قريبة جدا من امرأة هى ارملة ولها ولدان وثالث طفل صغير . هل تفهمين ؟ وقد تألمت كثيرا جدا فى بادىء الامر . وفيما بعد شعرت ، لسبب ما ، بالشفقة على ذلك الطفل الصغير . . . آه يا عزيزتى داشا ، اود احيانا لو يكون لى طفل . ولكن ذلك ممكن فقط اذا كان من رجل احبه . اذا تزوجت انجبى طفلا . ليكن ذلك فى بالك» .

اعادت داشا قراءة الرسالة عدة مرات ، ودمعت عيناه لا سيما على ذلك الطفل البرىء من كل ذنب ، وجلست تكتب جوابا ، وفرغت منه قبل الغداء ، وتغدت وحدها – لم تمس من الطعام الا قليلا – ثم ذهبت الى غرفة المكتب واخذت تنبش فى المجلات القديمة ، ووجدت رواية طويلة جدا ، واستلقت على الأريكة وسط الكتب المبعثرة ، وطالعت حتى المساء . وجاء والدها اخيرا مغبرا تعبا ، وجلس الاثنان للعشاء ، وكان الوالد يرد على جميع اسئلتها بـ«آهـا» . الا ان داشا استخلصت منه ان الطفل فى ربيعه الثالث ، والمصاب بالحمى القرمزية قد مات . وتنشق دميترى ستيبانوفيتش ، بعد ان نطق بهذا النبأ ، ووضع نظارته الانفية فى محفظتها ، وذهب لينام . استلقت داشا فى السرير ، وتغطت بالمفرش حتى راسها . وافرغت ما فى صدرها باكية على مختلف الانباء الحزينة .

انقضى يومان . وانتهت زوبعة الغبار برعود ومطر مدرار

ظل يقرع السقف طوال الليل ، وطلع صباح الأحد هادئا رطبا مغسولا .

ما كادت داشا تنهض فى الصباح حتى جاء لزيارتها صاحب للعائلة قديم هو سيمين سيمينوفيتش غفيادين موظف الاحصاء فى البلدية ، وهو رجل نحيل محدودب ، بادى الشحوب دائما ذو لحية شقراء ، وشعر مصفوف وراء اذنيه . وكانت تفوح منه رائحة قشدة . ولم يكن يعاقر الخمرة ، ولا يدخن ، ولا يأكل اللحم ، وكان تحت رقابة البوليس . سلّم على داشا ، وقال دون اية مناسبة بصوت هازىء : – لقد جئت اليك لنذهب الى الفولغا ، يا امرأة .

قالت داشا لنفسها : «وهكذا انتهى كل شىء بموظف الاحصاء غفيادين» . وتناولت مظلة بيضاء ، وسارت وراء سيمين سيمينوفيتش هبوطا الى الفولغا ، الى الرصيف الذى كانت الزوارق تقف عنده .

كان الحمالون والعتالون ، وهم رجال وشبان عراض المناكب واسعو الصدور حفاة حاسرو الرؤوس ، عراة الرقاب ، يطوفون بين عنابر الحبوب الخشبية الطويلة ، واكوام الأخشاب وبالات الصوف والقطن . كان بعضهم يلعب لعبة قذف النقود ، والبعض الأخر ينام على الاكياس والالواح . وعلى مسافة بعيدة كان زهاء ثلاثين رجلا يركضون على سلم المركب المهتزة حاملين الصناديق على اكتافهم . وكان ثمة رجل سكران يقف بين العربات وقد كساه الوحل والغبار ، وتضرجت وجنته بالدم وكان يشتم بتكاسل وفحش رافعا بنطلونه بكلتا يديه .

قال سيمين سيمينوفيتش بلهجة تهذيبية : – ان هذا الصنف من الناس لا يعرف اعيادا ولا استراحة ، اما انا وانت فذاهبان الى الاستمتاع بالطبيعة فى وقت الفراغ كانسانين ذكيين مثقفين .

وطفر رجلين حافيتين ضخمتين تعودان لشاب واسع الصدر ضخم الشفتين كان مبطوحا على الأرض ، بينما جلس شخص آخر على جذع ، وراح يمضغ خبزا . وسمعت داشا قول الشاب المبطوح فى اثرها :

– فيليب ليت لنا مثلها .

فاجاب الآخر من فم ممتلئ :

– مفرطة النظافة . تتطلب متاعب كثيرة .

كانت اشباح القوارب الصغيرة تتحرك فى النهر المصفر العريض على انعكاسات الشمس الرجراجة متجهة الى الشاطئ الرملي البعيد . وقد استأجر غفيادين واحدا من مثل هذه القوارب ، وطلب الى داشا ان تهتم بتدوير الدفة ، بينما جلس هو الى المجذافين ، واخذ يجذف بعكس التيار . وسرعان ما تفصد العرق على وجهه الشاحب .

– الرياضة شيء عظيم .

قال سيمين سيمينوفيتش ذلك ، واخذ يخلع عنه سترته ، وحلّ حمالة البنطلون بشيء من الحياء ، وحشرها بعيدا فى مقدمة القارب . كانت له ذراعان نحيلتان ضعيفتان عليهما شعر طويل ، وكان طرفا ردنيه مصنوعين من السيليوليد . فتحت داشا مظلتها ، وحدقت فى الماء مقلصة عينيها .

– اعذريني على سؤال غير متواضع ، ياداريا دميترييفنا . يقال فى المدينة انك موشكة على الزواج ، أهذا صحيح ؟

– لا ، غير صحيح .

عندئذ رسم تكشيرة عريضة كانت غير ملائمة لاسارير وجهه المفكرة الساهمة ، وحاول بصوت ضعيف ان يغني «آه ، نحن منحدرون مع الفولغا الأم» الا ان الخجل ركبه ، وراح يجذف بكل قوته .

قابلهما من الاتجاه الآخر قارب مملوء بالناس . كانت ثلاث نساء من طبقة متوسطة فى فساتين خضراء وقرمزية من الكشمير يقضمن حب عباد الشمس ، ويلفظن القشور فى احضانهن . وقد جلس قبالتهن رجل له وجه سفاح ، فى غاية السكر ، اجعد الشعر ، اسود الشاربين ، يقلب عينيه ، وكأنه يحتضر ، ويعزف «البولكا» على الاكورديون . وكان شخص آخر يجذف بجنون ، مرنحا القارب بينما لوح ثالث بمجذاف احتياطي ، وصاح على سيمين سيمينوفيتش :

– تنح عن الطريق ، يا رمة .

ومروا على قرب شديد صائحين لاعنين .

واخيرا انزلق القارب على القاع الرملي قرب شاطئ . قفزت داشا الى الشاطئ . اعاد سيمين سيمينوفيتش ارتداء حمالة البنطلون والسترة . وقال مقلصا عينيه :

– رغم انى من سكان المدن ، الا اننى اعشق الطبيعة دائما ، لاسيما اذا انضاف اليها قوام فتاة ، وفى ذلك اجد شيئا من تورغنيف . لنذهب الى الغابة .

وسارا على الرمل الحار ، غائصين فيه حتى الكاحل . وكان غفيادين يتوقف بين لحظة واخرى ويمسح وجهه بمنديله ، ويقول :

– انظرى ، اية بقعة فاتنة .

واخيرا انتهى الرمل ، وكان يجب ارتقاء عدوة قليلة الارتفاع تبدأ بعدها مروج قطع العشب فى بعض اماكنها ، وتفشى الذبول فى صفوفه . كانت زهور العسل تعبق برائحة حارة هناك ، وكانت شجيرة جوز كثيفة الاوراق تحنو فوق الماء على شفا خندق ضيق . وكان جدول ماء يترقرق فى منخفض ريان العشب ليصب فى بركة اخرى مستديرة . وقد نمت على ضفتيها اشجار زيزفون معمرة ، وشجرة صنوبر وعرة انبسط فرعها الوحيد كاليد . وعلى مسافة ابعد نما حرش من الزهور البرية البيضاء على تلعة ضيقة من الارض . كان هذا المكان بقعة مفضلة لطيور الشنقب اثناء مجراتها . جلست داشا وسيمين سيمينوفيتش على العشب . كان الماء فى وهاد ملتوية صغيرة ، تحت اقدامهما ، يعكس زرقة السماء ، وخضرة الشجر .وكان طائران رماديان صغيران يقفزان فى اجمة غير بعيد عن داشا ، ويسقسقان سقسقة رتيبة . وكان حمام برى يهدل فى شجرة بوحشة هديل من فارقته اليفته . جلست داشا مادة ساقيها ، ملقية يديها على ركبتيها تصغى الى الحمام العاشق المهجور يناغيها من الاغصان بصوت رقيق :

«داريا دميترييفنا ، آه ما الذى دهاك – لِمَ انت حزينة هذا الحزن ، تريدين ان تبكى ؟ لم يحصل شيء بعد ، بينما انت كئيبة ، وكان الحياة قد انتهت انقضت ، توارت . مجرد انك متذمرة بطبعك» .

قال غفيادين :

– اريد ان اكون صريحا معك ، يا داريا دميتريفنا ، فهل تسمحين لى ان القى جانبا بما يسمى بالمتعارف عليه ؟

– تكلم ، فسيان عندى .

اجابت داشا ، وقد استلقت على ظهرها موسدة راسها على يديها لتنظر الى السماء ، لا الى عينى محدثها الصغيرتين الزائغتى النظر . وكان سيمين سيمينوفيتش يختلس النظر الى جوربيها الابيضين .

– انت فتاة ابية جريئة . وانت شابة جميلة تفور الحياة فى اعماق نفسك . . .

قالت داشا : ولنفرض ذلك .

– امعقول انك لم ترغبى مرة فى تحطيم هذه الاخلاق الموروثة من تربيتك ومحيطك ؟ امن المعقول انك باسم هذه الاخلاق المرفوضة من جميع ذوى المكانة مضطرة الى كبت غرائزك الجميلة ؟

– ولنفرض اننى لا اريد ان اكبت غرائزى الجميلة ، فماذا يكون ؟

سالت داشا ، وانتظرت جوابه بفضول كسول . كانت الشمس تدفؤها ، وتجد متعة فى النظر الى السماء ، والى الغبار المشمس ، الذى كان يملأ كل تلك الزرقة المترامية الاطراف ، حتى انها لم تجد رغبة فى التفكير او فى الحركة .

صمت سيمين سيمينوفيتش حافرا الارض باصبعه . كانت داشا تعرف انه متزوج من المولدة ماريا دافيدوفنا . وكانت زوجته تاخذ اطفالها الثلاثة اكثر من مرة فى كل عام ، وتهجره الى امها التى كانت تعيش فى بيت مقابل داره . وكان سيمين سيمينوفيتش يعزى فى البلدية هذه الهجرانات الى طبع زوجته الحساس والمضطرب . بينما عزتها هى فى مستشفى المدينة الى استعداد زوجها فى كل دقيقة الى ان يخونها مع كل امراة ، وهو لا يفكر بغير ذلك . الا انه لايخونها بسبب جبنه وخوره ، وذلك شىء مخجل تماما . وهى لم تعد تحتمل رؤية وجهه الطويل ، الشبيه بوجوه النباتيين . وكان سيمين سيمينوفيتش خلال هذه الخصامات

يعبر الشارع عدة مرات فى اليوم حاسر الراس . ثم يتصافى الزوجان ، وتنتقل الزوجة الى بيته مع الاولاد والوسائد .

– اذا اختلت امراة ورجل فان رغبة طبيعية تتولد لدى المراة فى ان تكون له ، ولدى الرجل فى ان يتملك جسدها – وسعل سيمين سيمينوفيتش ، ثم اردف قائلا – وانا ادعوك لان تكونى صادقة وصريحة . انظرى فى اعماق نفسك فستجدين الرغبة الطبيعية لاحساس سليم تضطرم فيها وسط الاهواء والاكاذيب .

– لا تضطرم اية رغبة فى نفسى الآن ، فما يعنى ذلك ؟

سالت داشا ، وكانت تحس بتسلية وارتخاء . رات نحلة تطوف فوق راسها ، فى الاصفرار الشاحب لزهرة برية ، فى الغبار الاصفر . بينما مضى الحمام العاشق المهجور يهدل فى شجيرة الحور : «داريا دميتريفنا ، داريا دميتريفنا ، العلك عاشقة ؟ عاشقة ، عاشقة ، كلمة شرف . ولذلك انت حزينة» . وشرعت داشا تضحك لدى سماعها ذلك .

– يبدو ان الرمل تسرب الى حذائك . اسمحى لى بنفضه .

قال سيمين سيمينوفيتش بصوت خافت غريب ، وسحبها من كعب حذائها . عندئذ جلست داشا بسرعة ، وانتزعت منه الحذاء ، وضربته به على خده . وقالت :

– يا سفيه . لم اتصور قط انك رجل بهذه الوضاعة .

لبست حذاءها ، ونهضت ، والتقطت المظلة ، وسارت نحو النهر ، دون ان تنظر الى غفيادين .

وفكرت داشا وهى تهبط من العدوة : «حمقاء ، حمقاء . لم تساليه حتى عن عنوانه لتكتبى له . اما هو فى كينيشما واما فى نيجنى . والآن ، اجلسى مع غفيادين . آه يا ربى» . التفتت ، ولمحت غفيادين يسير على المنحدر المعشوشب ، رافعا رجليه كاللقلق ، مديرا بصره الى ناحية . «ساكتب لكاتيا : «تصورى : يبدو اننى مغرمة ، هذا ما يبدو لى» » . ورددت داشا بصوت خافض ، مستمعة الى صوتها : «عزيزى ، عزيزى ، عزيزى ايفان ايليتش» .

وفى تلك اللحظة سمعت على مقربة منها صوتا يقول «لا ادخل ، لا ادخل ، اتركنى ، ستمزق التنورة» . ورات رجلا مسنا عاريا

يخوض فى الماء الى ركبتيه . له لحية قصيرة ، واضلاع مصفرة ، وقد تدلى شريط الصليب الاسود على صدره الغائر . كان مظهره وقحا وكان يسحب نحو الماء امراة كئيبة حانقا صامتا . وكانت المراة تردد : «اتركنى ، ستمزق التنورة» .

عندئذ ركضت داشا بكل قواها بحذاء الشاطئ نحو القارب ، وقد شعرت بتقلص فى حنجرتها من التقزز والعار . وبينما كانت تدفع القارب الى الماء جاء غفيادين راكضا متقطع الانفاس . ودون ان ترد عليه ، وتنظر اليه جلست على مقدمة القارب ، وتظللت بالمظلة ، ولزمت الصمت طوال طريق العودة .

بعد هذه النزهة اخذت داشا بطريقة غريبة غير مفهومة حتى لنفسها تشعر باستياء من تليغين ، وكانما هو الملوم على كل هذا الضيق من هذه البلدة النائية المغبرة المتوهجة بالشمس باسيجتها المنتنة ، وبوّاباتها الكريهة وبيوتها الصغيرة الآجرية الشبيهة بالعلب ، وباعمدة للتلفونات وللترام بدلا من الاشجار ، والقيظ الثقيل عند الظهيرة ، حين تتجول فى الشارع الرمادى الابيض الخالى من الظل امراة كادت تصاب بدوار الشمس ، تعلق حزم السمك المجفف على كتفيها ، وتصرخ ناظرة فى الشبابيك المتربة «سمك مجفف ، سمك» ، الا ان كلبا مصابا بدوار الشمس مثلها ، نصف معتوه يتوقف بالقرب منها ، ويتشمم السمك ، بينما يترامى من فناء بعيد صوت ارغن الشوارع يعزف لحن الفالس القديم المشحون بالسأم .

كان تليغين ملوما على ان داشا تتلقى الآن بحساسية شديدة كل ما يحيط بها من هذا الركود الباطنى لحياة البرجوازية الصغيرة ، والذى لا ينوى ، كما يبدو ، ان يتزحزح من مكانه ابدا ، وحتى ولو خرجت الى الشارع وصرخت بصوت وحشى : اريد ان اعيش ، ان اعيش !» .

وكان تليغين ملوما على انه كان مبالغا فى تواضعه واستحيائه . فليس هى ، اى داشا ، من كان عليه ان يقول «اعلم اننى احبك» . وكان ملوما على انه لم يترك خبرا عنه ، وكانما غاص تحت الارض ، بل ولعله نسى التفكير فيها .

وبالاضافة الى كل هذا السأم ، رأت داشا فى احد الليالى الحالكة اللاهبة كالفرن الحلم الذى رأته فى بطرسبورغ ، حين هبّت من نومها والدموع فى مآقيها ، وقد غاب عن ذاكرتها ايضا مثلما غاب آنذاك كبخار تصاعد من زجاج رطب . الا انه تصورت ان هذا الحلم المعذّب الرهيب ينذر بمصيبة . نصح دميترى ستيبانوفيتش ابنته بان تحقن بالزرنيخ . وفيما بعد جاءت رسالة ثانية من كاتيا . كتبت :

«عزيزتى داشا ! بى حنين شديد اليك ، والى اصحابى ، والى روسيا . وانا اشعر اكثر فاكثر بان الذنب يقع علىّ فى الانفصال عن نيقولاى ايضا . استيقظ ، واقضى اليوم كله يلازمنى هذا الشعور بالذنب ، ونوع من التعفن الروحى . ثم – ولا ادرى هل كتبت لك عن ذلك – ان شخصا يلاحقنى منذ بعض الوقت . اخرج من البيت فاراه قادما من الجهة المقابلة . اصعد فى المصعد الى مخزن عام ، فاراه يقفز اليه اثناء صعوده . بالامس كنت فى اللوفر . وقد تعبت فى المتحف ، وجلست على مصطبة ، وفجاة احس وكان يدا تمر على ظهرى . التفت فاجده يجلس غير بعيد عنى . انه رجل نحيل ، تفشى الشيب فى شعره الاسود ، ولحيته تبدو وكانها مصمغة على خديه . كان يضع يديه على راس عصاه ، وينظر نظرة كالحة ، وعيناه غائرتان . وهو لا يتكلم ، ولا يضايقنى الا اننى اخاف منه . واشعر بانه يحوم حولى . . .» .

اطلعت داشا اباها على الرسالة . وفى الصباح التالى قال دميترى ستيبانوفيتش عرضا ، وهو يطالع صحيفته :

– سافرى الى القرم ، يا قطيطة .

– لماذا ؟

– ابحثى عن نيقولاى ايفانوفيتش هذا ، وقولى له : انه مغفل . دعيه يسافر الى زوجته فى باريس . وعلى العموم . . . حسب ما يريد . . . تلك قضيتهما الشخصية . . .

وظهر الغضب والانفعال على دميترى ستيبانوفيتش رغم انه كان يكره اظهار مشاعره . وفجاة احست داشا بالفرح . فقد كانت تتمثل القرم رحابا زرقاء ساحرة تزخر بالامواج . وتصورت

الظل الطويل لشجرة حور هرمية ، ومسطبة حجرية ، ولفاعا يرف على راسها ، وعينين قلقتين تنظران اليها .

جمعت امتعتها بسرعة ، وسافرت الى يفباتوريا ، حيث كان نيقولاى ايفانوفيتش يستحم فى البحر .

١٢

فى ذلك الصيف كان سيل غير اعتيادى من المصطافين قد جاء الى القرم من الشمال . كان الساحل بأسره يغص بالمتنزهين المسلوخى الانوف من اهالى بطرسبورغ اللاذعين الجالبين معهم نزلاتهم الصدرية والتهاب القصبات ، ومن الموسكوفيين الضاجين المهملى الهندام بكلامهم المتراخى الناغم ، ومن اهالى كييف ذوى العيون السود غير عارفين الفرق بين الواو اللينة والواو المضخمة ، ومن اغنياء سيبيريا المزدرين لهذه الضوضاء الروسية . وكان الجميع يشوون ويلوحون جلودهم فى الشمس حتى الاسوداد : نساء شابات ، فتيان طويلو السيقان ، ورهبان ، وموظفون ، واناس مبجلون ، وازواج مع زوجاتهم يعيشون كلهم برخاوة ، كما كان الجميع يعيشون فى روسيا انذاك ، وكأن اسفل عمودهم الفقرى قد انقصم .

وفى منتصف الصيف ، وبسبب الماء المالح ، والحر وتلويح الشمس فقد هؤلاء الناس الشعور بالحياء ، وبدأت ملابس على طراز ما يلبسه اهل المدن تبدو ابتذالا زائدا عن الحاجة ، وظهرت على الساحل نساء لا تسترهن غير المناشف التترية ، ورجال يشبهون الصور المرسومة على المزهريات الاترورية .

وترنحت اسس العائلة فى هذا الجو غير الاعتيادى من الامواج الزرقاء والرمل الحار ، والاجساد العارية المبثوثة فى كل مكان . وبدا كل شىء هنا سهلا وممكنا . ولا حاجة الى التفكير فى تصفية الحساب ، فيما بعد ، فى الشقة الكئيبة فى الشمال ، حيث المطر يسح وراء النافذة ، والتلفون يدق فى الرواق ، ولكل فرد التزاماته . ماء البحر ينزلق على الساحل بقرقرة ناعمة ، ويمس الاقدام ، فيستشعر

الجسم الممدد على الرمل ، والاذرع المبسوطة ، والاجفان المسبلة بخفة وحرارة ولذة . ان كل الاشياء على الاطلاق ، حتى اخطرها سهلة ولذيذة .

فى هذا الصيف تخطى نزق المصطافين وتحللهم جميع الابعاد ، وكأن كلفا جبارا انفصل عن الشمس المتوقدة فى صباح من صباحات حزيران قد اصاب ذاكرة وتعقل سكان المدن هؤلاء بمئات الوفهم .

لم يكن فى طول هذا الساحل بيت واحد بخير . تقطعت الروابط الوثيقة فجأة . وبدا وكأن الهواء نفسه موقر بهمس الغرام والضحك الناعم ، والهذر الذى لا يوصف ، والمقول على هذه الارض الحارة المبثوثة فيها اطلال المدن القديمة . وعظام الشعوب المندثرة . وكان يبدو وكأن يوما لتصفية الحساب وللدموع المرة سيأتى مع امطار الخريف .

وصلت داشا الى يفباتوريا بعد الظهر . وبينما كانت تقترب من البلدة على الطريق المترب الذى كان يمتد كشريط ابيض فى سهب مستو مرورا بالبطائح الملحية ، واكداس القش لمحت سفينة خشبية كبيرة ازاء الشمس كانت تسير ببطء على بعد نصف ميل ، فتلوح وكأنها تسير فى السهب ، وسط الافسنتين ، واشرعتها السوداء منحرفة وممتدة من فوق السفينة حتى اسفلها . كان منظرا مذهلا انتزع منها آه تعجب . قال الارمنى الذى كان جالسا الى جوارها فى السيارة ، وهو يضحك : «سترين البحر الآن» .

استدارت السيارة مارة بملاحات مربعة الشكل ، وارتقت مرتفعا رمليا ، انفتح البحر من عليه . وبدا وكأنه اكثر ارتفاعا من الارض وكان ذا لون ازرق داكن ومفروشا بجدائل طويلة بيضاء من الزبد . اصفرت ريح مرحة فى الآذان . ضغطت داشا على الحقيبة الجلدية على ركبتيها ، وفكرت مع نفسها : «هذا هو يبدأ» .

فى هذا الوقت كان نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف جالسا فى سرادق اقيم على اعمدة عند البحر ، يحتسى القهوة مع الفنان العاشق . كان المصطافون ياتون الى هنا بعد ان استراحوا من الغداء ، ويجلسون الى موائد صغيرة ، ويتنادون ويتحدثون عن فائدة العلاج باليود ، وعن السباحة فى البحر وعن النساء . وكان

الجو داخل السرادق طريا ، وكانت الريح تحرك حـــوافى المفارش البيضاء . ولفاحات النساء . مر يخت بشراع واحد وتناهت مـــن عليه اصوات مرحة . وجاء الموسكوفيون فى جمع ، واحتلوا مائدة كبيرة ، وجميعهم من ذوى الصيت العالمى . تجهم الفنان العاشق لدى رؤيته لهم ، وتابع حكاية محتوى مسرحية فكرٌ فى كتابتها .

– موضوع المسرحية كله مدروس بعمق ، ولكننى لم اكتب غير الفصل الاول – قال ونظر فى وجه نيقولاى ايفانوفيتش متأمـــلا مهيبا – ان لك راسا رائقا ، وانت تفهم فكرتى يا نيقولاى . امراة شابة جميلة ولكنها ضجرة تتهافت خمولا ، ومحاطة بالتفاهة . ان هؤلاء اناس طيبون ، ولكن الحياة قد امتصتهم امتصاصا ، مشاعر متعفنة ، وسكر . وباختصار ، انت تفهمنى ... وفجأة تقول هذه المرأة : «يجب ان ارحل ، اتخلص من هذه الحياة ، ارحل الى النور ... بينما لها زوج وصديق . . . وكلاهما يعانى . . . افهمنى يـــا نيقولاى ... ان الحياة قد امتصت ... وهى ترحل ولا اشير الى مَنْ . . . لا عشيق لها ، مجرد مزاج . . . ثم نرى الرجلين جالسين فى حانـــة يحتسيان الخمرة صامتين . . . يبتلعان الدموع مـــع الكونياك . والريح تصفر فى مدخنة الموقد ، تنعيهمـــا . . . جو حزين . . . خاو . . . مظلم . . .»

سأل نيقولاى ايفانوفيتش :

– هل تريد ان تعرف رايى ؟

– نعم ، قل لى فقط : «ميشا ، اترك الكتابة» وساتركها .

– مسرحيتك رائعـــة . انها الحياة بعينها – قال نيقـــولاى ايفانوفيتش ، وقد اغمض عينيه ، وراح يهز رأسه – اجل ، يـــا ميشا ، اننا لم نعرف كيف نقدر سعادتنا ، وقد رحلت عنا . وها نحن بلا امل ، ولا عزيمة جالسون نشرب . والريح تعول فـــوق مقبرتنا ... ان مسرحيتك تؤثر فىّ للغاية . .

ارتعش الانتفاخان تحت عينى الفنان العاشق ، رفع جسمه ، وقبل نيقولاى ايفانوفيتش بقوة ، ثم ملأ قدحيهما . قرع الصديقان القدحين ، ووضعا كوعيهما على المائدة ، ومضيا فى حديثهما الحميم .

قال الفنان العاشق ملقيا الى محدثه نظرة ثقيلة :

– نيقولاى ، اتعرف اننى احببت زوجتك ، كالاهة .

– نعم ، هذا ما بدا لى .

– لقد تعذبت ، نيقولاى ولكن كنتَ صديقى ... وكم من مرة هربت مـــن بيتك ، مقسما على الا اتخطى عتبة دارك مـــرة اخرى ... ولكن كنت اعاود الزيـــارة ، وامثل دور المهرج ... ولكن اياك ، يا نيقولاى ، ان تلومها .

ومط شفتيه بضراوة .

– انها تصرفت معى تصرفا فظا ، يا ميشا .

– ربما ... ولكننا جميعا مذنبون ازاءها . آه ، يا نيقولاى ، شىء واحد لا استطيع ان افهمه فيك . كيف وانت تعيش مع مثل هذه المرأة – وارجو المعذرة – كنت على علاقة قريبة فى الوقت ذاته مع تلك الارملة صوفيا ايفانوفنا ؟ لماذا ؟

– تلك مسالة معقدة .

– تكذب . لقد رايتها . انها امراة بسيطة .

– اسمع ، يا ميشا . الآن صار الأمر فى حكم المـــاضى ، بالطبع . لقد كانت صوفيا ايفانوفنا مجرد انسان طيب . وقـــد وهبتنى لحظات من الفرح ، ولم تطلب منى شيئا قط . بينما كان كل شىء فى البيت معقدا للغاية ، عسيرا ، معمقا ... ولم تكن لى القوة الروحية الكافية لأؤثر بها على يكاترينا دميترييفنا ...

– غير معقول ، يا نيقولاى . ها نحن سنعود الى بطرسبورغ وتقام امسية الثلاثاء ، وازوركم بعد العرض ... واجـــد البيت فارغا ... كيف اتحمل ذلك ؟ .. اسمع ... اين زوجتك الآن ؟

– فى باريس .

– وهل تتراسل ؟

– لا .

– سافر الى باريس . لنسافر سوية .

– بلا فائدة ...

– نيقولاى ، لنشرب نخب صحتها .

– لنشرب .

ظهرت الممثلة تشارودييفا فى السرادق ، بين الموائد . كانت ترتدى ثوبا اخضر شفافا ، وقبعة كبيرة . كانت نحيلة كالافعـــى يرتمى ظل ازرق تحت عينيها . ولربما كان عمودها الفقرى معطوبا ،

فقد كانت تتأود وتنحنى . نهض للقائها محرر المجلة الجمالية «جوقة الموزيات» ، وامسك يدها ، ولثم ببطء ثنية المرفق .

قال نيقولاى ايفانوفيتش من خلال أسنانه :

– امرأة مدهشة .

– لا ، يا نيقولاى ، لا ، ان تشارودييفا فطيسة لا غير . هل تريد ان تعرف سببا ؟ . . مجرد انها عاشت مع بيسونوف ثلاثة اشهر ، وتقرأ الاشعار المنحلة فى الحفلات بصوت كالمواء . . . انظر ، انظر . ان فمها يصل الى اذنيها ، والعروق بارزة فى رقبتها . انها ليست امرأة ، بل ضبع .

ومع ذلك فحين اقتربت تشارودييفا من المائدة ، هازة قبعتها شمالا ويمينا ، مبتسمة من فم كبير وشفتين ورديتين نهض الفنان العاشق ببطء ، وكأنه قد صعق وحرك يديه مدهوشا ووضعهما تحت حنكه .

– نينا . . . عزيزتى . . . يا للزينة ! . . لا اتحمل ، لا اتحمل . . . نصحونى بالهدوء التام ، يا حبيبتى . . .

ربتت تشارودييفا على خده بيدها العظمية ، وغضنت انفها .

– وماذا هذرت عنى يوم امس فى المطعم ؟

– هل اغلظت القول عليك ، يوم امس ، فى المطعم ؟ اوه يا نينا .

– نعم ، وبشدة .

– كلمة شرف ، انا المفترى عليه .

وضعت تشارودييفا خنصرها على شفتيه ضاحكة : «انت تعرف اننى لا استطيع ان اغضب عليك طويلا» . ثم التفتت الى نيقولاى ايفانوفيتش وقالت بصوت مختلف تماما ، كأنما تمثل تمثيلية دارجة .

– لقد مررت من توى بغرفتك . يبدو ان احدى قريباتك قد وصلت . فتاة ساحرة .

القى نيقولاى ايفانوفيتش نظرة سريعة على صديقه ، ثم تناول من صحن الفنجان السيغار ، واخذ يمتص الدخان منه مصات قوية ، حتى انتشر الدخان على لحيته كلها . قال :

– هذه مفاجأة . ماذا يمكن ان يعنى ذلك ؟ . . انا ذاهب .

والقى السيغار فى البحر ، واخذ يهبط السلم الى الساحل ، مديرا عصاه الفضية الرأس . وقد دفع قبعته الى مؤخر رأسه ، وعندما وصل الى الفندق كان لاهث الانفاس . . .

– داشا ، لماذا جئت ؟ ما الذى حصل ؟

سأل ، وهو يغلق الباب وراءه . كانت داشا جالسة الى الارض قرب حقيبة مفتوحة ، تخيط جوربا . عندما دخل زوج اختها نهضت متثاقلة ، وعرضت له خدها ليقبلها ، وقالت مشتتة الفكر :

– يسعدنى جدا ان أراك . قررنا ، ابى وانا ، ان تسافر الى باريس . جلبت معى رسالتين من كاتيا . خذهما واقرأهما ارجوك .

اختطف نيقولاى ايفانوفيتش الرسالتين من داشا ، وجلس عند النافذة . ذهبت داشا ، الى غرفة المغسلة ، واخذت تغير ملابسها ، وكانت تسمع زوج اختها يتصفح ورق الرسالتين ، ويزفر . ثم سكن . تنصتت داشا حتى سمعته يسأل فجأة :

– هل تناولت فطورك ؟ اذا كنت جائعة فلنذهب الى السرادق .

عندئذ فكرت مع نفسها : «لم يعد يحبها تماما» . سوّت قبعتها على رأسها بكلتا يديها ، وعزمت على ان ترجئ الحديث عن باريس الى الغد .

فى الطريق الى السرادق لزم نيقولاى ايفانوفيتش الصمت ونكس بصره الى الارض ، ولكن حين سألته داشا «هل انت تسبح؟» رفع بصره بادى المرح ، وقال انهم الفوا هنا «جمعية مناهضة ثياب السباحة» التى ترمى بالدرجة الاولى الى اغراض صحية .

– تصورى ان الجسم يتلقى من اليود خلال شهر من السباحة على هذا البلاج اكثر مما يمكن ان يتناوله باطنيا بطريقة اصطناعية خلال هذه المدة نفسها . وفضلا عن ذلك فانك تمتصين اشعة شمسية ودفئا من الرمل المحمى . ونحن الرجال يمكن ان نحتمل ، فنحن لا نغطى الا ما تحت الخصر . اما النساء فيغطين ثلثى الجسم تقريبا . وقد اخذنا نناهض ذلك بحزم . . . يوم الاحد سالقى محاضرة فى هذا الموضوع .

سارا بمحاذاة الماء على الرمل الاصفر الناعم كالمخمل والمكون من الاصداف الصغيرة المسطحة التى صقلتها امواج المد والجزر .

وهناك ، غير بعيد عنهما ، حيث كانت الامواج الصغيرة تجرى وتنحسر عن الجرف مزبدة ، كانت فتاتان فى طاقتى سباحة حمراوين تتمايلان كالطوافتين .

قال نيقولاى ايفانوفيتش بلهجة جادة :

– من اتباعنا .

كان ينمو فى نفس داشا احساس يزداد قوة بين الاثارة والقلق . وقد ابدا حين رات السفينة ذات الاشرعة السوداء فى السهب .

توقفت داشا لتنظر الى الماء يسيح على الرمل كالغشاء الرقيق ، ثم يعود فيتراجع ، تاركا مسارب صغيرة ، وكان فى تماس الماء بالارض هذا شىء بهيج ازلى ، حتى ان داشا قرفصت ، ومدت يدها اليه . رات سرطانا صغيرا مسطحا يعدو جنبا ، مخلفا غُميمة من الرمل ، واختفى فى الاعماق . وجاءت موجة وبللت ذراعى داشا الى المرفقين .

قال نيقولاى ايفانوفيتش مقلصا عينيه :

– ارى فيك تغيرا . اما انك قد ازددت حسنا ، او نحفت قليلا ، او ان اوان زواجك قد حان .

التفتت داشا ، ونظرت اليه بغرابة ، ونهضت ، وسارت نحو السرادق دون ان تمسح يديها ، ومن هناك كان الفنان العاشق يلوح بقبعته القشية .

اكلت داشا فطائر اللحم واللبن الخاثر ، وشربت الشمبانيا ، وانشغل الفنان العاشق محتفيا بها ، وبين الحين والآخر كان يركس فى حالة جمود ، هامسا وكأنما لنفسه : «يا آلهى ، ما الطفها !» ، ثم جاء ببعض الشبان ليتعرفوا عليها ، وهم طلاب فى الاستوديو المسرحى تحدثوا باصوات مكتومة ، وكانهم فى اعتراف امام كاهن .

وكان نيقولاى ايفانوفيتش مغتبطا بهذا النجاح لقريبته داشا .

احتست داشا النبيذ ، وضحكت ، وكانت تمد يدها لهذا او ذاك ليقبلها ، ولم تصرف بصرها عن البحر المائج المتالق بزرقته . كانت تقول لنفسها : «انها لسعادة» .

بعد الاستحمام والنزهة ذهبوا لتناول عشائهم فى الفندق ، حيث كان الصخب والوضاءة والاناقة . تحدث الفنان العاشق عن

الحب طويلا وبحرارة . وسكر نيقولاى ايفانوفيتش قليلا ، وهو يتفرس فى داشا ، ويغرق فى حزن . بينما كانت داشا تراقب طوال الوقت ومن خلال فتحة فى ستارة النافذة ومضات ضعيفة تظهر وتختفى غير بعيد عنها ، وتختفى ، وتعود ثانية . واخيرا نهضت ، وخرجت الى الساحل . كان البدر المستدير الصافى ، القريب تماما كما فى حكايات شهرزاد يطل على درب حرشفى متلالئ عبر البحر كله . شبكت داشا اصابع يديها ، وفرقعتها .

تناهى اليها صوت نيقولاى ايفانوفيتش فاسرعت مبتعدة بمحاذاة الماء الذى كان يلعق الساحل وسنان . رات داشا شبح امراة جالسة على الرمل ، وبقربها شبحا آخر لرجل يوسد راسه ركبتيها . وكان رأس انسان يعوم سابحا بين الومضات الرجراجة فى الماء الليلقى الداكن . نظرت الى داشا عينان انعكس فيهما نور القمر ، وظلتا تراقبانها طويلا . ثم ابصرت داشا شخصين متلاصقين ، وبعد ان مرت بهما سمعت تنهيدة وقبلة .

«داشا ، داشا !»– سمعت هذا النداء من بعيد . فجلست على الرمل ، وركزت كوعيها على ركبتيها ، واسندت حنكها على يديها . لو جاء تليغين الآن وجلس الى جانبها ، وطوق بذراعه ظهرها ، وسالها بصوت صارم وخافت «هل انت لى» فستجيبه «لك» .

تحرك شبح رمادى كان راقدا وراء تلة رمل ، وقعد متدلى الراس ، ونظر طويلا الى الدرب المتلألئ الذى رسمه القمر على الماء ، وكانما لتسلية الاطفال ، ونهض ، ومر بداشا متهافتا كالميت . وعرفت داشا بقلب واجف هالع انه بيسونوف .

وهكذا بدات بالنسبة لداشا هذه الايام الاخيرة للعالم القديم . ولم تكن كثيرة وهى مشبعة بقيظ صيف آخذ بالهمود ، بهيجة وسعيدة . ولكن الذين تعودوا على ان يفكروا بان يوم الغد واضح كمعالم الجبال البعيدة المزرقة ، وحتى الاذكياء منهم وذوو البصائر لم يستطيعوا ان يروا ، ولا ان يعرفوا ما وراء اللحظة التى يعيشونها . ولقد كان وراء هذه اللحظة الملونة ، المضمخة بالروائح ، والمفعمة بدفق نسغ الحياة بكل الوانه يرقد ظلام دامس . . . ما من نظرة ، ولا شعور ، ولا فكر نفذ قيد شعرة الى

هناك ، لم يكن هناك غير نفر تحسس ما هو قادم ، ربما بشعور مبهم فقط كشعور الحيوان عند دنو العاصفة . وكان هذا الشعور شبيها بقلق غير معروف الهوية . بينما كانت تنزل على الارض فى ذلك الوقت سحابة غير مرئية ، تدور دورانا مجنونا ، لها خطوط منتصرة ضارية هابطة ولم يكن الرمز الوحيد الى ذلك الا شريطا من ظل الشمس ممتدا من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى ماسحا كل الحياة القديمة المرحة الخاطئة على الارض .

١٣

كان بيسونوف يقضى اياما بكاملها منطرحا عند البحر . وكان وهو يتطلع الى الوجوه : النسائية الضاحكة الملوّحة قليلا بالشمس والرجالية النحاسية الحمراء المنفعلة ، يحس فى جزع بان قلبه ليس الا قطعة من الثلج ترقد فى صدره . وكان يفكر ، وهو ينظر الى البحر ، بانه باق كما هو منذ آلاف السنين يضرب الساحل باامواجه . وكان الساحل ، آنذاك ، مقفرا ، بينما هو اليوم ماهول بالناس ، وسيموت الناس ، ويقفر الساحل ثانية ، ويظل البحر يترامى على الرمل كديدنه . وكان بيسونوف ، وهو يفكر ، يقطب ويجمع باصابعه الاصداف فى كومة ، ويحشى فيها عقب سيكارته المنطفئة . ثم يذهب للسباحة . وبعد ذلك يتناول غداءه بتوان ، ثم يذهب لينام .

يوم امس جلست فتاة على الرمل عجلى ، غير بعيد عنه وراحت تحدق طويلا فى ضوء القمر ، وكانت تفوح منها رائحة خفيفة لعطر البنفسج . فرفت ذكرى فى ذهنه الراكد . وتململ بيسونوف ، وقال لنفسه «لا ، لا تلق بشصك عليها . . . الى الشيطان . . . انا ذاهب لانام» ، ونهض وذهب الى الفندق .

وتهيبت داشا بعد هذا اللقاء . خيل اليها ان حياة بطرسبورغ – كل تلك الليالى المضطربة – قد انقضت الى الابد وبيسونوف الذى فتنها ذات مرة بشىء غير مفهوم قد صار فى طى النسيان .

الا ان كل شىء قد استيقظ فيها بقوة جديدة من نظرة واحدة ، من تلك اللحظة التى مر فيها شبحا اسود ازاء ضوء القمر ، ولم يكن ذلك على شكل مشاعر مضطربة مبهمة ، بل هو الآن رغبة اكيدة حارة حرارة الظهيرة . انها متعطشة لتحس هذا الرجل . لا ان تحب ، ولا ان تتعذب ، ولا ان تتردد ، بل ان تحسه فقط .

كررت بصوت واهن وهى جالسة فى فراش ابيض فى غرفة بيضاء مغمورة بضوء قمرى :

– آه ، يا آلهى ، آه ، يا آلهى ، اى شىء هذا ؟

وفى الساعة السادسة صباحا خرجت داشا الى ساحل البحر ، وخلعت ملابسها ، ودخلت فى الماء الى ركبتيها ، وارسلت بصرها . كان البحر شاحب الزرقة ، ناحل اللون ، وهناك فى البعيد فى بعض الامكنة فقط كان يغطى سطحه تموج خفيف كامد . كان الماء يتماوج متماهلا فيرتفع الى ما فوق الركبة تارة ، ويهبط الى اسفلها تارة اخرى . مدت داشا ذراعيها ، وارتمت على هذه الطراوة السماوية ، واخذت تسبح . ثم لفت جسمها فى روبها الموبر ، وقد انتعشت وكسا ملح البحر جسدها ، واستلقت على الرمل وقد سرى دفء فيه .

وفكرت مع نفسها . وقد اسندت خدها على مرفقها الفوّاح بالطراوة : «لا احب غير ايفان ايليتش . احبه ، احبه . وانا معه اشعر بالنقاء والنضارة والفرح . حمدا لله اننى احب ايفان ايليتش . وساتزوجه» .

واغمضت عينيها ، وغفت ، شاعرة بالماء يخفق بالقرب منها ، وكانه يتنفس منتظما مع انفاسها .

وكانت الغفوة هذه لذيذة . وقد لازمها الاحساس بجسمها دافئا خفيفا فى رقدته على الرمل . واغرمت بنفسها فى نومها .

فى الغروب حين كانت الشمس تنزل مثل قرص مسطح فى الوهج البرتقالى الخالى من كل غيمة ، التقت داشا ببيسونوف جالسا على صخرة عند درب يتعرج عبر حقل مسطح من الافسنتين . وكانت داشا قد وصلت الى هناك اثناء نزهتها وتوقفت فى الحال لدى رؤيتها لبيسونوف ، وارادت ان تستدير وتركض الا ان الخفة السابقة قد زايلتها مرة اخرى ، وثقلت رجلاها ، وكانهما

غاصتا فى الارض ، فراحت تنتظر اليه من تحت حاجبيها وهو يتقدم نحوها لا تكاد تظهر عليه الدهشة من اللقاء ، ويخلع قبعة القش ، وينحنى لها بخشوع انحناءة راهب .

– لم تخطئنى عيناى بالامس ، يا داريا دميتريبفنا ، انت التى كنت على ساحل البحر ؟

– نعم ، انا . . .

وصمت منكسا بصره ، ثم نظر الى قلب السهب ساحبا بصره على داشا .

– فى هذا الحقل يحس المرء عند الغروب وكانه فى صحراء . نادرا ما يتجول الناس هنا . فليس حولك غير الافسنتين والصخور وفى الغسق يخيل اليك ان الارض اقفرت من كل انسان .

وضحك بيسونوف كاشفا ببطء عن اسنان بيض ، نظرت داشا اليه نظرة طائر برى . ثم سارت الى جانبه على الدرب . كانت اجمات عالية من الافسنتين قد نمت على الجانبين وفى جنبات الحقل كله فوّاحة برائحة مرة ، وكان القمر يلقى على الارض الجافة عند كل اجمة منها ظلا شاحبا لما يزل . وكان خفاشان يطيران فوق راسيهما محلقين هابطين فى خط غير مستقيم ومصطفقين باجنحتهما ظاهرين بوضوح فى شريط الغروب .

قال بيسونوف :

– اغراءات ، اغراءات لا منجى لك منها . تغرى وتغوى واذا بك مرة اخرى واقعة فى وهم . انظرى باى دهاء قد نظم كل ذلك – واشار بعصاه الى قرص البدر المتدلى على انخفاض – طوال الليل سيحوك الشباك ، وسيدعى الدرب بانه جدول ، وستبدو كل اجمة ماهولة ، وحتى الجثة ستبدو جميلة ، والوجه النسائى غامضا . ولكن قد يكون هذا ما يجب ان يكون حقا : كل الحكمة فى هذا الوهم . . . ما اسعدك ، يا داريا دميتريبفنا ، ما اسعد حظك . . .

قالت داشا باصرار :

– ولم تحسبه وهما ؟ اظن ان ذلك ليس بوهم اطلاقا . مجرد انه بدر ينير .

– بالطبع ، يا داريا دميتريبفنا ، بالطبع . . . «كونى كالاطفال» . ان الوهم فى اننى لا اصدق باى شىء من هذا . ولكن

«كونى ايضا كالافاعى» . ولكن كيف التوفيق بين الاثنين ؟ ماذا يحتاج ذلك ؟ . . يقولون ان الحب هو الموفق ؟ وانت ماذا تظنين؟

– لا اعرف ، لا اظن شيئا .

– من اى اصقاع ياتى الحب ؟ وكيف اغواؤه ؟ باية كلمة يسحر ؟ ان يستلقى المرء فى التراب ويناديه : اوه يا الهى ، يسّر لى حبا ! . .

وضحك ضحكة غير عالية مبديا اسنانه .

قالت داشا :

– لا اسير ابعد من ذلك . اريد ان اذهب الى البحر .

واستدارا ، وراحا يسيران على الافسنتين نحو مرتفع رملى .

وفجاءة قال بيسونوف بصوت ناعم حذر :

– اتذكر الى آخر كلمة كل ما قلته عندما كنت فى بيتى فى بطرسبورغ . لقد افزعتك (سارت داشا بسرعة شديدة ناظرة امامها) . آنئذ كان يهزنى شعور واحد . . . ليس جمالك الفريد ، لا . . . بل الذى اذهلنى ونفذ الى اعماق نفسى موسيقى صوتك التى لا توصف . عندئذ نظرت اليك وفكرت مع نفسى : ذلك هو خلاصى كله – ان اهبك قلبى ، واصير شحاذا خنوعا ، اذوب فى ضيائك . . . لربما اكسب قلبك ؟ ان اصير غنيا غنى لا حد له ؟ فكرى يا داريا دميتريبفنا ، ها قد جئت ، وعلىّ ان افك اللغز .

سبقته داشا . وطلعت على كثيب رمل . كان الدرب العريض الذى يلقيه البدر متلالأ كالحراشف على صدر الماء الثقيل يمتد حتى نهاية البحر مقطوعا بشريط وضاء طويل ، وهناك ، فوق هذا الضوء ينهض الق داكن . وكان قلب داشا يخفق بشدة ، حتى انها اغمضت عينيها ، وفكرت فى سرها «يا آلهى ، انقذنى منه» . غرز بيسونوف عصاه فى الرمل عدة مرات .

– لقد حان الوقت لان تتخذى قرارك ، يا داريا دميتريبفنا . يجب ان يحترق احدنا فى هذه النار ، اما انت واما انا . . . فكرى ، اجيبى . . .

قالت داشا بحدة واقتضاب :

– انا لا افهم .

– عندما تصيرين متسولة فارغة النفس محروقة عندئذ فقط

تبدا لك حياة حقيقية ، يا داريا دميتريبفنا . . . بدون نور القمر هذا وهو اغراء رخيص . وستكون لك حكمة . وهذا لا يحتـــاج الا ان تخلعى عنك طوق العذرة .

تناول بيسونوف يد داشا بيده المتثلجة ، وحدق فى عينيها . فلم تستطع داشا الا ان تقلص عينيها ببطء . وبعد بضع لحظات طويلة من الصمت قال :

– على كل ، من الافضل ان ناوى الى بيوتنـــــا لننام . تحدثنا ، وناقشنا المسالة من جميع الجوانب ، ثم ان الوقت متاخر ايضا . . .

صحب داشا الى الفندق ، وودعها باحترام ، ودفع قبعتـه الى مؤخر راسه ، وسار بمحاذاة الماء ، ناظرا الى اشباح المتنزهين المغبشة . ثم توقف فجاة واستدار ، وتقدم من امراة فارهـــة كانت واقفة بلا حراك ، وقد لفت جسمهـــــا بشال ابيض . القى بيسونوف عصاه عبر كتفه ، وامسك طرفيها ، وقال :

– نينا ، مرحبا .

– مرحبا .

– ماذا تفعلين وحدك على الساحل ؟

– اقف .

– لماذا وحدك ؟

– وحدى ، لانى وحدى . – اجابت تشارودييفـــا بخفوت وغضب .

– اما زلت غاضبة ؟

– لا ، يا عزيزى ، هدات منذ زمان .

– نينا ، تعالى الىّ .

القت راسها الى الخلف . وصمتت طويلا ، ثم اجابت بصوت متهدج غير واضح :

– هل جننت ؟

– وانت ، الم تعرفى هذا ؟

امسك يدها ، الا انهـــا سحبتها بحدة ، وسارت ببطء الى جانبه ، على طول انعكاسات ضوء القمر المنزلقة على الماء الاسـود الزيتى اللون ، مع خطواتهما .

فى صباح اليوم التالى ايقظ نيقولاى ايفانوفيتش داشا بطرق حذر على بابها :

– عزيزتى داشا ، استيقظى . لنذهب لشرب القهوة .

انزلت داشا ساقيها من السرير ، ونظرت الى جوربهــــا وحذائها . كان جميعها مغطى بطبقة من الغبار الرمادى . ان شيئا ما قد حصل . ام لعلها حلمت مرة اخرى بذلك الحلم المرعب ؟ لا لم يكن حلما بل شيئا اسوا منه بكثير . لبست داشا ثيابها على نحو ما ، واسرعت لتستحم فى البحر .

الا ان الماء قد اتعبها ، والشمس ارمضتها . فكرت وهى جالسة وروبها الموبر على كتفيها ، حاضنة ركبتيهـــا العاريتين ، ان ما من شىء طيب يمكن ان يحصل هنا .

«لست ذكية بل جبانة وعاطلة . وخيالى مبالغ . وانا لا اعرف ماذا اريد . فى الصباح اريد شيئا ، وفى المساء شيئا آخر . وهذا هو بالذات الانسان الذى امقته» .

احنت داشا راسها ، وحدقت فى البحر . ان غموضا وحزنا شديدين اسالا الدموع من عينيها .

«يا لهذا الكنز العظيم الذى احرز عليه . ومَنْ له حاجة به ؟ لا احد فى هذه الدنيا . انا لا احب احدا حبا حقيقيا . يعنى انه على حق . من الافضل حرق كل شىء ، واحراق نفسى فيه لاكون شخصا فى صحو من امره . دعانى اليه ، ويجب ان اذهب اليه اليوم ، فى المساء و . . . آوه ، لا !»

انزلت داشا وجهها الى ركبتيها ، وهى تحس بحر شديد . وكان واضحـــا ان من المستحيـــل الاستمرار اطول فى العيش هذه الحياة المزدوجة . لا بد ان ياتى اخيرا الخلاص من العـــذرة التى لا تطاق . ولتكن مصيبة .

وهكذا راحت تتامل وهى فى جزع من امرها :

«لنفرض اننى سافرت من هنا ، الى ابى . الى الغبار والآلام . وابقى هناك حتى مجىء الخريف . وتبدا الدراسة . واصير اشتغل اثنتى عشرة ساعة فى اليوم . وتجف نضارتى ، واصبح هولـــة . واحفظ القانون الدولى عن ظهر قلب . واصير ارتدى التنورات من

الفانيلة : المحامية المحترمة العانس بولافينا . انه لمخرج محترم جدا بالطبع» .

نفضت داشا الرمل الذى علق فى جلدها ، وذهبت الى الفندق . كان نيقولاى ايفانوفيتش مستلقيا فى الشرفة فى بيجامة حريرية يطالع رواية ممنوعة لاناطول فرانس . جلست داشا على ذراع المقعد الهزاز الذى كان يستلقى فيه ، وقالت فى استغراق وهى تهز نعلها فى قدمها .

– اردنا ان نتكلم حول كاتيا .

– نعم ، نعم .

– ترى ، يا نيقولاى ، ان حياة المرأة صعبة بشكل عام . حتى فى سن التاسعة عشرة لا اعرف ماذا افعل بنفسى .

– فى سنك ، ياعزيزتى داشا ، يجب ان يحيا الانسان حياته بكل ما فيه من طاقة ، ودون ان يتردد فى شىء . التفكير الطويل لا يوصلك الى شىء . افكر مع نفسى وانا ناظر اليك ، انك فائقة الجمال .

– هذا ما عرفته ! لا فائدة من الحديث معك يا نيقولاى . انت دائما غير لبق ولا تقول الشىء الذى يجب ان يقال ، ولهذا السبب تركتك كاتيا .

ضحك نيقولاى ايفانوفيتش ، ووضع رواية اناطول فرانس على بطنه ، والقى يديه الممتلئتين وراء راسه .

– ستبدأ الامطار ، ويعود الطائر بنفسه الى البيت . هل تذكرين كيف كانت تنظف ريشها ؟ . . ومع ذلك احب فانا كاتيا كثيرا . فقد صفّى كل واحد منا ديونه للآخر .

– اها ، اذن فانت تتحدث بهذا الشكل الآن ! ولكن لو كنت فى مكان كاتيا لسلكت نفس السلوك معك . . .

وسارت الى سياج الشرفة غاضبة .

– ستكبرين اكثر وسترين ان اخذ امور العيش بجدية مفرطة حماقة ومجلبة للاذى . تلك هى خاصية افراد آل بولافين ، تعقدون كل شىء . . . يجب ان يكون الانسان ابسط ، واقرب الى الطبيعة . . .

وتنهد ، وصمت ناظرا فى اظافره . مر بالشرفة طالب عرق يركب دراجة . وقد جلب البريد من البلدة .

قالت داشا باكتئاب :

– سأذهب للاشتغال معلمة ريفية .

فاستفهمها نيقولاى ايفانوفيتش فى الحال :

– الى اين ؟

غير انها لم تجب ، وذهبت الى غرفتها . حمل البريد رسالتين الى داشا ، احداهما من كاتيا ، والثانية من دميترى ستيبانوفيتش . وقد كتب الاخير فى رسالته :

«ابعث اليك رسالة من كاتيا . وقد قراتها ، ولم تعجبنى . ولكن افعلوا ما يحلو لكم . . . كل شىء عندنا كما هو من قبل . الحر شديد . وبالاضافة الى ذلك يوم امس اعتدى احد الشقاة على سيمين سيمينوفيتش غفيادين بالضرب المبرح فى منتزه المدينة ، ولكنه يخفى الامر . تلك هى كل اخبارنا . ثم وصلتك بطاقة بريدية من شخص يدعى تليغين ، ولكننى اضعتها . يبدو لى انه فى القرم ايضا ، او فى مكان آخر» .

اعادت داشا قراءة السطرين الاخيرين بامعان ، وبدأ قلبها يخفق فجأة خفقانا شديدا . بل وضربت الارض بقدمها بعد ذلك فى حسرة . يا للفرحة «يبدو لى انه فى القرم او فى مكان آخر» . ان اباها رجل مزعج حقا ، غير مبال ، وانانى . دعكت رسالته فى يدها ، وجلست طويلا الى منضدة الكتابة مسندة حنكها على راحة يدها .

وبعد ذلك اخذت تقرأ رسالة كاتيا .

«انت تذكرين ، يا عزيزتى داشا اننى كتبت لك عن الرجل الذى يتعقبنى . يوم امس مساء جلس الى جانبى فى حديقة لوكسمبورغ . تهيبت فى بادىء الامر ، ولكننى بقيت جالسة . عندئذ قال لى : «كنت اتعقبك ، وقد عرفت اسمك ، ومَنْ انت . ولكن فيما بعد حلت بى محنة كبيرة : لقد وقعت فى غرامك» . نظرت اليه . انه يجلس بعظمة ، ووجهه صارم ، داكن وشاحب . «لا داعى الى ان تخافى منى . فانا رجل عجوز ، وحيد ، ومصاب بالذبحة الصدرية ، وقد اموت فى اية لحظة . وفجأة تحدث هذه المحنة» . وسالت الدموع على خده . ثم قال وهو يهز راسه :

«آوه ، ما احلى وجهك ، ما احلاه» . قلت : «كف عن ملاحقتي» . واردت ان انصرف ، الا انني احسست بالشفقة عليه ، وبقيت اتحدث معه ... اصغى هو هازا راسه مغمضا عينيه . تصوري ، يا عزيزتي داشا ، اليوم تلقيت رسالة من امراة ، يبدو انها بوابة البيت الذي كان يعيش فيه ... انها تبلغني «بناء على طلبه» بانه قد توفي ليلا . . . ما ارعب ذلك . . . والآن ايضا ، اتقدم من النافذة ، وارى في الشارع آلاف وآلاف الانوار والعربات تعدو ، والناس يسيرون بين الاشجار . وبعد المطر يخيم الضباب . ويبدو لي كل ذلك يعود الى الماضي ، وان كل شيء قد مات ، وان هؤلاء الناس اموات ، وانني ارى ما فات وانقضى ، وان ما يحدث الآن ، وانا واقفة انظر اليه لا اراه ولكنني اعرف ان كل شيء قد انتهى . ربما انا متوعكة المزاج تماما . احيانا استلقي وانخرط بالبكاء متاسفة على ان الحياة قد ولت . لقد كانت هناك سعادة ، مهما كانت لونها واناس احبهم ولم يبق لذلك اي اثر ... جف قلبي في صدري ، وذبل . وانا اعرف ان المستقبل يضمر محنة كبيرة اخرى ، وكل ذلك جزاء على الحياة السيئة التي عشناها» .

اطلعت داشا نيقولاي ايفانوفيتش على هذه الرسالة .

اخذ يقرؤها متنهدا ، ثم قال انه كان دائما يشعر بذنبه نحو كاتيا .

— كنت اعرف ان حياتنا سيئة ، وان تلك الملذات المستمرة ستنتهي يوما ما بانفجار الياس . ولكن ما كان في وسعي ان اعمل اذا كانت التسلية هي كل الشغل الشاغل لحياتي وحياة كاتيا وكل الذين كانوا يحيطون بنا . احيانا اتطلع الى البحر هنا واقول لنفسي ان هناك روسيا تحرث الارض وترعى الماشية وتستخرج الفحم ، وتنسج ، وتطرق المعادن ، وتبني ، وان هناك اناسا يحملونها على ان تفعل كل ذلك . اما نحن ارستقراطية البلاد الفكرية ، المثقفين ، جماعة ما ثالثة ، ... فلا نمت بصلة لاي من طرفي روسيا هذه . انها تعيلنا . ونحن فراشات . انها لماساة . لو حاولت مثلا ان ازرع خضروات او اقوم بشيء آخر نافع لما اجديت فتيلا . لقد كتب لي حتى آخر ايام ان ارف كالفراشة . بالطبع نحن نكتب كتبا ، ونلقي خطبا ، ونصنع السياسة ، ولكن

كل ذلك لا يخرج عن نطاق تزجية الوقت ، حتى حين نحس بوخز الضمير . ان تلك الملذات المستمرة انتهت عند كاتيا بخراب روحي ، وما كان من الممكن ان يحدث غير ذلك ... آه ، لو كنت تعرفين اية امراة فاتنة رقيقة حنون كانت كاتيا ! وانا الذي افسدها ، حطمها ... نعم انت على حق ، يجب ان اسافر اليها ...

واستقر رايهما على ان يسافرا الى باريس فور حصولهما على جوازي السفر . وبعد الغداء نزل نيقولاي ايفانوفيتش الى البلدة ، بينما شرعت داشا في تحويل قبعتها القشية لتكون صالحة للسفر ، الا انها اتلفتها فقط واهدتها الى مرتبة الغرفة . ثم كتبت رسالة الى ابيها ، وعند حلول الظلام استلقت في الفراش ، بعد ان شعرت باعياء مفاجئ ، ووسدت خدها راحة يدها ، واصغت الى هدير البحر يبدو ابعد فابعد ، واحلى فاحلى .

ثم خيل اليها ان شخصا ينحني عليها ، ويزيح خصلة شعر من على وجهها ، ويقبلها في عينيها ، ووجنتيها ، وطرفي شفتيها ، يلثمها لثما خفيفا كالنَفَس . وسرت حلاوة هذا اللثم في كيانها كله . راحت داشا تستيقظ ببطء . رات في النافذة المفتوحة نجوما قليلة ، وقد اطار النسيم اوراق الرسالة ، وراح يخفق فيها . ثم ظهر من وراء الجدار شبح انسان . وركز كوعيه على افريز النافذة الخارجي وصار يحدق في داشا .

عندئذ استيقظت داشا تماما ، وجلست ، وضمت يديها الى صدرها ، في الموضع الذي كان فستانها فيه غير مزرر .

وسالت في صوت لا يكاد يسمع :

— ماذا تريد ؟

فقال الرجل عند النافذة بصوت بيسونوف :

— كنت انتظرك على الساحل . فلماذا لم تاتي ؟ اتخافين ؟

تريثت داشا قليلا ثم قالت :

— نعم .

عندئذ تسلق الرجل فوق افريز النافذة ، وازاح المنضدة ، وسار نحو السرير .

— قضيت ليلة فظيعة . اردت ان اشنق نفسي . اليست فيك ولو ذرة من الشعور نحوي ؟

هزت داشا راسها ، ولم تحرك شفتيها .

– اسمعى ، يا داريا دميترييفنا ، ان هذا يجب ان يحدث ، ان لم يكن اليوم ، فغدا ، او بعد عام . لن استطيع ان اعيش بدونك . لا تجعلينى افقد صورتى الانسانية . – وكان يتحدث بخفوت وبحة ، ودنا من داشا تماما . فندت منها فجاة زفرة عميقة مقتضبة ، وواصلت تحديقها فى وجهه . – كل ما قلته البارحة كذب . . . انا فى عذاب مبرح . . . وليست لى القوة على محو ذكراك . . . كونى زوجتى .

وانحنى على داشا مستنشقا عبيرها ، واضعا يده وراء رقبتها ، وضغط شفتيه على شفتيها . صدّت داشا صدره بيديها . الا ان يديها انطوتا . عندئذ مرت فكرة هادئة فى وعيها المشدوه ! «هذا ما كنت اخافه واشتهيه ، ولكن ذلك صنو القتل . . .» واشاحت وجهها ، وسمعت بيسونوف يتمتم شيئا فى اذنها مع انفاس الخمرة . وفكرت داشا مع نفسها ! «هذا ما حصل له تماما مع كاتيا» . وعندئذ انكمش جسمها كله من برودة صافية مفيقة ، وصارت رائحة الخمرة اكثر حدة ، والتمتمة اشد قرفا .

– اتركنى .

همست بذلك ، وازاحت بيسونوف بالقوة وهرعت الى الباب ، وزررت اخيرا فتحة فستانها .

عندئذ استولت على بيسونوف نوبة من الجنون . امسك داشا من يدها ، وضغطها على جسمه ، وصار يقبلها فى عنقها . صارعته صامتة مطبقة شفتيها . وحين استطاع ان يرفعها ، ويحملها قالت بهمس سريع :

– لن يكون ذلك ، ولو تموت . . .

ودفعته بقوة ، وحررت نفسها ، ووقفت عند الحائط . انهد بيسونوف على مقعد ، وهو ما يزال يتنفس بصعوبة ، وجلس دون حراك . مسدت داشا يديها فى المواضع التى انطبقت فيها آثار الاصابع .

قال بيسونوف :

– لم تكن هناك حاجة للتسرع .

اجابت :

– انت تشعرنى بالغثيان .

عندئذ القى راسه جنبا على متكأ المقعد . قالت داشا :

– انت مجنون . . . اخرج حالا . . .

وكررت ذلك عدة مرات . ففهم اخيرا ، ونهض ، وتسلق خارج النافذة ثقيلا اهوج الحركة . سدت داشا صفاقة النافذة ، وراحت تذرع الغرفة المظلمة . لقد كانت تلك ليلة مؤرقة .

قرب الصباح تقدم نيقولاى ايفانوفيتش من بابها خافقا بقدميه الحافيتين ، وسأل بصوت ناعس :

– هل توجعك اسنانك ، يا داشا ؟

– لا .

– ولكن ما سبب تلك الحركة فى الليل ؟

– لا اعرف .

تمتم «امر غريب» وانصرف . لم تستطع داشا ان تجلس ولا ان تستلقى ، بل قضت الليلة تذرع الغرفة من النافذة الى الباب جيئة وذهوبا لتخنق من نفسها ذلك القرف الحاد كوجع الاسنان . لو ان بيسونوف اخذها اخذا لكان ذلك افضل ، على ما يبدو . وتذكرت بالم ممض السفينة البيضاء الغارقة بنور الشمس ، وذلك الحمام العاشق المهجور فى حرش الحور يهدل هديله الطويل يناغيها ليزعم لها كذبا انها عاشقة . نظرت داشا الى الفراش الذى ابيض فى الغبش ، والذى كان مكانا رهيبا تحول فيه وجه انسان قبل حين الى بوز شيطان ، واحست ان من المستحيل عليها ان تعيش وهذا الاحساس يلازمها . انها مستعدة لتحمل اى عذاب ما عدا الاحساس بهذا القرف . كان راسها يلتهب ، وكانت تود لو ترفع عن وجهها ورقبتها وجسمها كله شيئا كانت تحسه كنسيج العنكبوت .

واخيرا لاح الضوء المتسرب من خلال صفاقة النافذة ساطعا . وبدات الابواب تصفق فى الدار ، ونادى صوت رنان «ماتريوشا ، اجلبى ماء . . .» استيقظ نيقولاى ايفانوفيتش ، وسمعته وهو ينظف اسنانه خلف الجدار . بللت داشا وجهها بالماء ، وانزلت قبعتها على حاجبيها ، وخرجت الى الساحل . كان البحر ساخنا كالحليب الطازج ، والرمل رطبا . وفى الجو رائحة نباتات بحرية .

انعطفت داشا الى الحقل ، وسارت فى الطريق . كانت عربة من الاغصان المضفورة يجرها حصان واحد قادمة للقائها من الجانب الآخر من الطريق تثير عجلاتها سحابة صغيرة من الغبار ، وقد جلس تترى فى مقعد السائق ، وخلفه رجل عريض الكتفين فى ثياب بيض . نظرت داشا اليه ، وقالت لنفسها كالنائمة (انطبقت عيناها من الشمس ، ومن التعب) «هذا رجل لطيف سعيد آخر ، وليكن كذلك ، لطيفا سعيدا» وانحرفت عن الطريق . وفجأة صدر من العربة صوت مرهوب :

— داريا دميتريفنا !

وقفز شخص الى الارض ، وركض نحوها وجمد قلب داشا ، وارتخت رجلاها من ذلك الصوت . التفتت . فرأت تليغين يجرى نحوها ملوح الوجه ، منفعل الاسارير ازرق العينين محببا الى القلب على نحو مفاجئ حتى ان داشا وضعت يديها على صدره بسرعة ، وضغطت وجهها عليه ، واجهشت تبكى بكاء طفوليا عاليا .

امسك تليغين كتفيها بقوة . وحين حاولت داشا ان تقوم ببعض التوضيح بصوت متقطع قال :

— ارجوك ، يا داريا دميتريفنا ، ارجوك ، فيما بعد . هذا غير مهم . . .

تبلل صدر سترته الكتانية بدموع داشا . وخففت الدموع عنها . سألت :

— هل انت قادم الينا ؟

— نعم جئت لاودعك ، يا داريا دميتريفنا . بالامس فقط عرفت انك هنا ، فاردت ان اودعك .

— تودعنى ؟

— استدعونى للخدمة ، ولا مفر من ذلك .

— استدعوك للخدمة ؟

— الم تسمعى حقا ؟

— لا .

— انها الحرب .

نظرت داشا اليه ، ورمشت ، ولم تكن فاهمة شيئا فى تلك اللحظة .

١٤

كان اجتماع استثنائى لهيئة التحرير يعقد فى مكتب رئيس تحرير الصحيفة الليبرالية الكبيرة «كلمة الشعب» . ولما كانت المشروبات الكحولية قد منعت يوم امس بموجب قانون ، فقد قدم الكونياك والروم مع شاى هيئة التحرير على خلاف العادة .

كان الليبراليون المحنكون الملتحون يجلسون فى مقاعد عميقة وثيرة ، يدخنون التبغ ، ويشعرون بانهم فى حيص بيص . وكان المحررون الشبان يجلسون على افاريز النوافذ ، وعلى اريكة جلدية شهيرة ، هى قلعة المعارضة ، وصفها احد الكتاب المشهورين وصفا غير حذر ، فقال انها مباءة للبق .

كان رئيس التحرير ، وهو رجل اشيب مورد الوجنتين ، انجليزى المنحى يقول بصوت متشدق – كلمة بكلمة – احدى خطبه الشهيرة التى كان عليها ان ترسم – ورسمت بالفعل – خط سلوك الصحافة الليبرالية كلها .

— «. . . التعقيد فى مهمتنا يرجع الى اننا يجب ونحن امام الخطر الذى يهدد سلامة الدولة الروسية ، ان نمد يدنا الى السلطة القيصرية ، دون ان نتراجع عن معارضتها خطوة واحدة . ويجب ان يكون عملنا نزيها وصريحا . ان مسالة لوم الحكومة القيصرية على جرروسيا للحرب ، هى فى اللحظة الراهنة مسالة ثانوية . يجب ان ننتصر اولا ، ومن بعد نحاكم المذنبين . ايها السادة ، بينما نتحدث هنا ، تجرى معركة دموية قرب كراسنوستاف وقد ارسل حرسنا لسد الجبهة المصدوعة . ومصير هذه المعركة غير معروف الآن ، ولكن يجب الا يغيب عن الاذهان ان كييف مهددة . وليس من شك فى ان الحرب لا يمكن ان تستمر اكثر من ثلاثة او اربعة اشهر ، ومهما تكن نتيجتها فاننا سنقول للحكومة القيصرية مرفوعى الرؤوس : اننا كنا معكم فى الساعة الحرجة ، ونحن الآن نطالبكم كشفا بالحساب . . .

لم يتمالك نفسه احد قدامى المحررين ، واسمه بيلوسفيتوف ، وكان يكتب فى شؤون الادارة الذاتية فصاح محتدا :

– الحكومة القيصرية هى التى تحارب ، فلماذا نمد يدنا لها ؟ انا لا افهم ، ولو حطمت راسى . المنطق البسيط يحتم علينا ان نبعد انفسنا عن هذه المغامرة . ومن ورائنا جميع المثقفين . دعوا القياصرة يضرب احدهم عنق الآخر ، فان ذلك لن يكون الا لفائدتنا .

– نعم ، ان مد اليد الى نيقولاى الثانى شىء مقرف ، مهما قلتم فيه يا سادة – تمتم بذلك «الفا» احد كتاب المقالات الافتتاحية ، واختار لنفسه قطعة كعكة من الصحن – ان ذلك يجعل المرء يتصبب عرقا باردا فى نومه . . .

وفى الحال تحدثت عدة اصوات :

– لا توجد ، ولا يمكن ان توجد ظروف تجبرنا على الاتفاق . . .

– ما هذا ؟ استسلام ؟ اريد ان اسأل .

– اهذه نهاية مخزية للحركة التقدمية كلها ؟

– اما انا ايها السادة ، فاريد على كل حال ان يشرح احد لى الغرض من هذه الحرب .

– ستعرف حين يقطع الالمان الرقاب .

– انت ، يا اخ ، تبدو قوميا متعصبا !

– مجرد اننى لا اريد ان أُضرب .

– ولكنهم لايضربونك ، بل يضربون نيقولاى الثانى .

– المعذرة . . . وبولونيا ؟ وفولينيا ؟ وكييف ؟

– كلما ضربونا اكثر دنت الثورة اكثر .

– اما انا فلا ارغب فى ان اتخلى عن كييف فى سبيل اية ثورة .

– اخجل ، يا بيتر بيتروفيتش ، اخجل يا اخ . . .

شرح رئيس التحرير بعد ان اعاد النظام بصعوبة ، ان الرقابة العسكرية ستغلق الجريدة ، وفق احكام قانون الطوارئ* ، على اقل هجوم على الحكومة ، وستسحق براعم حرية الكلمة التى بذلت جهود كبيرة فى النضال فى سبيلها .

– . . . ولهذا اقترح على الاجتماع الموقر التوصل الى وجهة نظر مقبولة . ومن جهتى فانا اجرؤ على ان اعلن رايا قد يكون غريبا ، وهو اننا يجب ان نقبل هذه الحرب بكليتها ، وبكل

عواقبها . ولا تنسوا ان هذه الحرب تحظى بشعبية بالغة بين المجتمع . وقد اعتبرت فى موسكو الحرب الوطنية الثانية . – وهنا ابتسم ابتسامة خفيفة ، وغض بصره – وقد استقبل القيصر فى موسكو استقبالا حارا تقريبا . والتعبئة بين السكان البسطاء تجرى بطريقة لم يتوقعوها ، ولم يجرأوا على ذلك . . .

فهتف بيلوسفيتوف بصوت انقلب حزينا متشكيا :

– هل انت تمزح ، يا فاسيلى فاسيليفيتش ام كيف ؟ ذلك لانك تهدم فلسفة بكاملها . . . تذهب لمساعدة الحكومة ؟ وماذا عن عشرة آلاف روسى من افضل ابناء روسيا ، اولئك الذين يذوون فى سيبيريا منذ زمان ؟ . . والعمال الذين قتلوا رميا بالرصاص ؟ . . والدم بعد لم يجف .

كل هذه الاحاديث كانت بالغة الروعة والنبل ، الا انه صار واضحا لكل انسان ان لا مفر من الاتفاق مع الحكومة ، ولهذا فحين جلبت من المطبعة مسودة تصحيح المقال الافتتاحى الذى كان يبدأ بهذه الكلمات : «يجب ان نرص صفوفنا فى جبهة موحدة امام الزحف الالمانى» نظر المجتمعون الى مسودة التصحيح صامتين ، وارسل احدهم زفرة كظيمة ، بينما قال آخر بكثير من الدلالة «عشنا وشفنا» . وزرر بيلوسفيتوف بعصبية جميع ازرار سترته السوداء المذرورة برماد التبغ ، الا انه لم يخرج ، وجلس فى المقعد ثانية ، وصدر العدد التالى بالعنوان التالى «الوطن فى خطر ، الى السلاح !» .

ومع ذلك فقد كان قلب كل واحد منهم مفعما بالاضطراب والهلع . فكيف تطاير السلم الاوربى الوطيد هباء فى الهواء خلال اربع وعشرين ساعة ، وكيف انقلبت الحضارة الاوربية الانسانية التى كانت «كلمة الشعب» تعير الحكومة بها كل يوم ، وتدعو عامة الشعب اليها ، كيف انقلبت الى بيت من ورق (لقد اخترعت طباعة الكتب والكهرباء ، وحتى الراديوم ، واذا بين عشية وضحاها يظهر من تحت القميص المنشى ذلك المخلوق البدائى المشعر الشبيه بالحيوان وفى يده هراوة) لا ، ان هذا يصعب على هيئة التحرير هضمه والاعتراف به ، فان مرارته لا تطاق .

وانتهى الاجتماع بصمت وكآبة . ذهب الكتاب الاجلاء لتناول الفطور فى مطعم كوبا ، واجتمع الشبان فى مكتب رئيس قسم

الاخبار . وتقرر القيام بتحقيق مفصل عن امزجة اكثر الاوساط والفئات تنوعا وعهد الى انتوشكا ارنولدوف قسم الرقابة العسكرية . وخلال الهرج والمرج حصل على سلفة ، وانطلق ، لا يلوى على شيء ، على عربة سريعة الخيول الى مقر هيئة الاركان فى جادة نيفسكي .

استقبل سولنتسيف رئيس قسم الصحافة وعقيد هيئة الاركان ارنولدوف فى مكتبه ، واستمع اليه بادب ، محدقا فى عينيه بعينين صافيتين مرحتين جاحظتين . وكان ارنولدوف قد اعد نفسه ليلتقى باحد العمالقة – بجنرال مورد الوجه اسديّ التقاطيع – سوط الصحافة الحرة ، ولكنه وجد امامه رجلا انيقا مهذبا لم يبح صوته ، ولم يجار عليه ، ولم يبد ميلا الى تعنت او ضغط او معارضة شيء ما . وكل ذلك لم يكن يلائم الصورة المالوفة عن المأجورين للقيصر .

– آمل ، يا حضرة العقيد ، الا ترفض ان تنير الاسئلة التى ساطرحها برايك الموثوق .

قال ارنولدوف ، ورمق بطرف عينه صورة نيقولاى الاول الداكنة التى تمثله واقفا بطول قامته ينظر بعين بلا رحمة وشفقة الى ممثل الصحافة ، وكانه يريد ان يقول له : «السترة قصيرة ، والحذاء اصفر ، والانف عرق . انه لمنظر مشين . انت خائف يا ابن الكلبة» . وتابع ارنولدوف قوله :

– انا لا اشك ، يا حضرة العقيد ، فى ان القوات الروسية ستكون فى العام القادم فى برلين ، الا ان هيئة التحرير مهتمة بشكل خاص ببعض التفاصيل . . .

قاطعه العقيد سولنتسيف بادب :

– يبدو لى ان الراى العام الروسى لا يتصور بالقدر الكافى نطاق الحرب الحالية . وانا ، بالطبع ، لا يسعنى الا ان احيى امنيتك الجميلة فى ان يصل جيشنا الى برلين ، ولكننى اخشى ان يكون ذلك اصعب مما تتصور . وانا من ناحيتى ارى ان المهمة الاساسية للصحافة فى اللحظة الراهنة اعداد الراى العام الى فكرة وجود خطر جدى جدا محدق بدولتنا ، والتضحيات البالغة التى يجب ان نتحملها جميعا .

انزل ارنولدوف دفتر ملاحظاته ، ونظر الى العقيد بحيرة . تابع سولنتسيف كلامه :

– نحن لم نبحث عن هذه الحرب ، ونحن فى اللحظة الراهنة ندافع عن وطننا فقط . والالمان يتفوقون علينا فى عدد المدافع ، وكثافة شبكات الخطوط الحديدية فى منطقة الحدود . ومع ذلك فنحن نفعل كل ما فى وسعنا لمنع العدو من تخطى حدودنا . والقوات الروسية تنفذ الواجب الملقى على عاتقها . ولكن من المستحسن كليا ان يتشرب المجتمع ، من جانبه ايضا ، بشعور الواجب تجاه الوطن . – وهنا رفع سولنتسيف حاجبيه . – انا ادرك ان شعور الوطنية بين بعض الفئات يشوبه بعض التعقيد . الا ان الخطر على درجة من الجدية تتيح – وانا واثق من ذلك – تأجيل جميع المجادلات والمحاسبات الى وقت افضل . ان الامبراطورية الروسية لم تمر بمثل هذه اللحظة الحرجة حتى فى عام ١٨١٢ * . ذلك كل ما اود ان تاخذه بعين الاعتبار . ثم يجب ان يذاع بين الناس ان المستشفيات العسكرية التى تملكها الحكومة لا تستطيع ان تستوعب كل الجرحى . لهذا ومن هذه الناحية ايضا ، يجب ان يكون المجتمع مستعدا لتقديم مساعدة كبيرة . . .

– اعذرنى ، يا حضرة العقيد ، انا لا افهم اى عدد من الجرحى يمكن ان يكون ؟

ومرة اخرى رفع سولنتسيف حاجبيه عاليا .

– يبدو لى ان من المحتمل توقع ما بين مائتين وخمسين وثلثمائة الف جريح فى الاسابيع القريبة .

بلع انتوشكا ارنولدوف ريقه ، وسجل الرقم ، وسأل بمزيد من الاحترام :

– وفى هذه الحال بكم تقدر عدد القتلى ؟

– فى العادة نقدر ما بين خمسة الى عشرة بالمائة من عدد الجرحى .

---

* المقصود هنا الحرب الوطنية التي خاضتها شعوب روسيا ضد الغزاة الفرنسيين تحت قيادة نابليون الأول ، وانتهت بانتصار روسيا . **(المترجم)** .

– اها ، شكرا لك .

ونهض سولنتسيف . فصافحه ارنولدوف بسرعة ، وحين فتح الباب البلوطى اصطدم باتلانت الذى كان داخلا . انه صحفى مسلول اشعث الشعر كان يرتدى سترة مدعوكة ، ولم يذق طعم الفودكا منذ يوم امس .

قال هذا ، وهو يحاول ان يغطى صدر قميصه القذر بكفه :

– يا حضرة العقيد ، جئت اليك بخصوص الحرب . ما رايك ، هل سنستولى على برلين قريبا ؟

خرج ارنولدوف من مقر هيئة الاركان الى ساحة القصر ، ولبس قبعته ، ووقف برهة مقلصا عينيه .

وتمتم من خلال اسنان مضمومة :

– الحرب حتى النصر . حذار ايها الهرمون سنصفى حسابنا معكم على روحكم الانهزامية .

كانت ارهاط من الفلاحين الملتحين الهوج تملأ بالحركة ارجاء الساحة الهائلة المكنوسة جيدا ، بعمود الكسندر الغرانيتى الثقيل . وكانت تسمع صيحات اوامر قوية . كان الفلاحون يصطفون ويركضون من مكان الى آخر ويستلقون على الارض . وفى احد الاماكن صاح زهاء خمسين رجلا بصوت متنافر ، وهم يصعدون على الرصيف «هورا» وانطلقوا فى عدو متعثر . . . وصاح بهم صوت اجش غطى على صيحاتهم : «قف ، استعداديا اوغاد يا اولاد الكلاب ! . .» وكان يتناهى من مكان آخر : «الحق به ، واطعنه بالحربة فى جسمه ، فاذا انكسرت الحربة فاضرب بالعقب» .

ان هؤلاء هم نفس الفلاحين المخشوشنين ذوى القمصان العريضة والاحذية الليفية وذوى اللحى المستديرة وآثار العرق الجاف الظاهر على دفاتهم ، اولئك الذين جاءوا قبل مائتى عام الى هذه الشطئان المستنقعية ليشيدوا المدينة . والآن قد دعوا مرة اخرى ليسندوا باكتافهم عمود الامبراطورية المتزعزع .

انعطف ارنولدوف الى جادة نيفسكى ، وهو لا يكف عن التفكير فى المقال الذى سيكتبه . كانت سريتان فى كامل عدة المسيرة ، بالحقائب الظهرية والقصعات والارفاش تسيران فى وسط الشارع على انغام المزامير مثل عواء ريح الخريف . كان التعب والغبار

يبدوان على هؤلاء الجنود العراض الوجنات . وكان ضابطهم الصغير ذو القميص الاخضر والاحزمة الجديدة المتصالبة على صدره يرفع جسمه على اطراف اصبعه بين لحظة واخرى . ويلتفت جاحظ العينين ويصيح : «يمين ! يمين !» . ويسمع المرء وكانه يحلم بضجيج جادة نيفسكى ويراها جميلة متالقة بالعربات والزجاج . «يمين ! يمين ! يمين !» . وسار الفلاحون المنقادون الثقال الارجل وراء الضابط الصغير فى ترنح رتيب . لحق بهم حصان عداء اسود فاحم يتطاير الزبد منه . وقد كبحه سائق عريض العجز ليوقف العربة التى يجرها . ونهضت فى العربة سيدة حسناء ونظرت الى الجنود المارين . وبيدها المقفزة بقفاز ابيض رسمت لهم علامة الصليب .

مرّ الجنود ، وحجبهم سيل العربات . وكانت الارصفة حارة ومزدحمة ، وكان الجميع وكانهم ينتظرون شيئا . كان المارة يتوقفون ، ويصغون الى احاديث هنا وصيحات هناك ، ويشقون طريقهم وسط الزحام ويلقون اسئلة ، ثم ينصرفون منفعلين الى تجمعات اخرى .

وبالتدريج تحددت وجهة حركة السير الفالتة ، وتحولت الجموع من جادة نيفسكى الى شارع مورسكايا . وهناك راحت تسير وسط الشارع مباشرة . وتراكض شبان قصار صامتين مهمومين . وعند مفترق الشارع قذف بعض الناس قبعاتهم فى الهواء ، ولوح آخرون بالمظلات ، وطنت فى ارجاء الشارع «هورا ! هورا !» . وصفر الاولاد الصغار صفيرا حادا . واينما وجهت بصرك رأيت عربات غير متحركة وقفت فيها نساء زاهيات الثياب . وتدفقت الجماهير الغفيرة نحو ساحة كاتدرائية اسحاق ، وانتشرت فيها ، وتسلل الناس من خلال قضبان الحديقة . وكانت جميع النوافذ والسطوح ودرجات الكاتدرائية الغرانيتية غاصة بالناس . وكان كل هؤلاء الناس ، بعشرات اولوفهم ، ينظرون الى اعمدة الدخان تتصاعد من النوافذ العليا لمبنى السفارة الالمانية الثقيل الداكن الحمرة . وكان بعض الناس يتراكضون وراء الزجاج المهشم ، ويلقون على الجموع حزما من الورق ، فتتطاير ، وتسقط ببطء . مع كل عمود دخان وكل شىء جديد يقذف من النوافذ كانت موجة من الهدير تسرى فى الحشد . وها هم هؤلاء الشبان المهمومون يظهرون على واجهة

المبنى حيث يقف على الجانبين عملاقان من البرنز يمسكان بمقودى حصانين برونزيين . وهدأ الحشد ، وارتفعت ضربات مطارق على معدن . وترنح احد العملاقين ، وانهبد على الرصيف . وهدر الحشد واندفع نحوه ، وبدأ الازدحام ، وتراكض الناس من كل ناحية . «الى نهر مويكا ، خذوها الى مويكا .. الملاعين !» وسقط التمثال الثانى . امسكت بكتف انتوشكا ارنولدوف سيدة ممتلئة تضع على انفها نظارة انفية ، وهتفت به : «سنغرقها جميعا ، ايها الشاب» . وتحرك الحشد الى مويكا . وسمعت ابواق المطافىء ، ومن بعيد لمعت خوذ نحاسية . وظهرت الشرطة الخيالة من وراء المنعطفات . وفجأة رأى ارنولدوف ، وسط المتراكضين والمتصايحين ، شخصا شديد الامتقاع حاسر الراس له عينان جامدتان زجاجيتان متسعتان . وعرف انه بيسونوف ، فتقدم منه . قال بيسونوف :

— هل كنت هناك ؟ سمعتهم يقتلون .

— احقا كان هناك قتل ؟ ومَنْ قتلوا ؟

— لا اعرف .

واستدار بيسونوف ، وسار فى الساحة فى مشية متخلخلة كمشية الاعمى . والآن كانت فلول الحشد تتراكض جماعات نحو جادة نيفسكى ، حيث بدأ تحطيم مقهى «ريتر» .

فى ذلك المساء وقف انتوشكا ارنولدوف الى منضدة عالية ، فى احدى حجرات التحرير الغاصة بدخان التبغ ، وراح يكتب بسرعة وعلى قطع ورق ضيق :

«. . . اليوم شهدنا الغضب الشعبى بكل نطاقه وجماله . وتجدر الاشارة الى ان ما من زجاجة نبيذ من تلك التى كانت فى اقبية السفارة الالمانية قد شربت ، بل كُسِر كل شىء ، وصب فى نهر مويكا . ان المساومة مستحيلة . وسنحارب حتى النصر ، مهما سنقدم من تضحيات . لقد ظن الالمان انهم سيجدون روسيا تغط فى النوم ، ولكن الشعب هبّ على الكلمات الراعدة «الوطن فى خطر» هبّة رجل واحد . وسيكون غضبه رهيبا . ان الوطن كلمة جبارة ولكننا نسيناها . ومع الطلقة الاولى من مدفع الالمان عادت الى الحياة بكل جمالها الطاهر ، وشرعت تتالق بحروف من نار فى قلب كل فرد منا . . .»

وقلّص انتوشكا عينيه ، واحس بقشعريرة خفيفة تسرى فى ظهره . يا لهذه الكلمات التى وجد نفسه منساقا لكتابتها ! ولكنها ليست كتلك التى كتبها قبل اسبوعين ، حين عهد اليه ان يكتب استعراضا للتسليات الصيفية . وتذكر ذلك الرجل الذى خرج الى خشبة المسرح الهزلى ، على هيئة خنزير وغنى «انا خنزير صغير ، ولا اخجل . انا خنزير صغير وافخر . امى كانت خنزيرة ، وانا اشبهها جدا . . .»

وكتب انتوشكا والحبر يتناثر من ريشته :

«. . . نحن ندخل فى عهد بطولى . قد تعفنا طويلا ونحن احياء . والحرب تطهير لنا» .

وطبعت مقالة ارنولدوف رغم معارضة الانهزاميين بزعامة بيلوسفيتوف . ولكنها قد نشرت فى الصفحة الثالثة ، وتحت عنوان غير مثير هو «فى ايام الحرب» ، وذلك هو التنازل الوحيد عن عادة الصحيفة . واخذت ترد على هيئة التحرير رسائل من القراء فريق يعبر عن الارتياح الحار بالمقالة ، وفريق يعرب عن السخرية المرة . الا ان رسائل الفريق الاول كانت اكثر بكثير . وزيدت اجرة انتوشكا على السطر ، وبعد اسبوع استدعاه فاسيلى فاسيليفيتش رئيس التحرير الى مكتبه ، حيث استقبله الرئيس الاشيب مورد الوجنتين معطرا بماء كولونيا انجليزى ، ودعاه ليجلس فى مقعد ، وقال مهموما :

— عليك ان تسافر الى الريف .

— سمعا .

— ينبغى علينا ان نعرف ماذا يفكر الفلاحون وعمّ يتحدثون — وضرب حزمة كبيرة من الرسائل بباطن كفه وقال — ظهر بين المثقفين اهتمام هائل فى الريف . ويجب ان تقدم فكرة حية مباشرة عن ابى الهول هذا .

— تدل نتائج التعبئة على نهوض وطنى هائل ، يا فاسيلى فاسيليفيتش .

— اعرف ، ولكن يا للغرابة ! من اين جاءهم ذلك ؟ سافر الى حيث تريد ، وتسمّع ، واسال . وحتى يوم السبت انتظر منك خمسمائة سطر عن انطباعاتك حول الريف .

وخرج انتوشكا من هيئة التحرير الى جادة نيفسكى ، حيث اشترى بدلة سفر عسكرية الفصال وطماقين اصفرين ، وقبعة سدارة ، وارتدى كل ذلك ، وذهب ليتناول فطوره فى مطعم دونون ، حيث احتسى لوحده زجاجة شمبانيا فرنسية ، وانتهى الى قرار هو ان ابسط شىء ان يسافر الى قرية خليبى ، حيث كانت يلزافيتا كييفنا تنزل عند اخيها كى كييفيتش . وفى المساء شغل مقعدا فى مقصورة فى عربة قطار دولية واشعل سيغارا ، ونظر الى طماقيه الاصفرين الصارفين بشجاعة وقال لنفسه : «يا لها من حياة رائعة !»

كانت قرية خليبى تقع فى منخفض بين مستنقع والنهير سفينوخا ، وهى تتالف من اكثر من ستين بيتا محاطة بحدائق ينمو فيها عنب الثعلب بكثرة ، وشارعها تتوسطه اشجار زيزفون معمرة ، ومبنى مدرستها الكبير على رابية هو بيت سابق لاحد اصحاب الاطيان . كانت القرية الزراعية صغيرة وفقيرة ، فكان جميع الفلاحين تقريبا يسافرون الى موسكو للبحث عن عمل .

دخل انتوشكا القرية عند المساء على عربة فاذهله سكون فيها لم يعكره الا قاقاة دجاجة حمقاء خربت من تحت اظلاف فرس ، ونباح كلب عجوز تحت شونة ، وصوت مخباط يضرب على غسيل يغسل فى النهير . وكان هناك كبشان يتناطحان وسط الشارع متشابكين بقرونهما .

اعطى انتوشكا الاجرة للعجوز الاصم الذى جلبه من المحطة ، وسار فى درب الى مكان لاحت فيه واجهة المدرسة القديمة المصنوعة من جذوع الشجر من خلال خضرة اشجار البتولا . وعلى درجات المدخل نصف المتاكلة كان يجلس كى كييفيتش المعلم ويلزافيتا كييفنا يتبادلان الحديث ببطء . وفى الاسفل كانت اشجار الصفصاف الضخمة تلقى ظلالا طويلة على المرج . وكانت الزرازير تطير كسحابة داكنة متلالئة . ومن بعيد ترامى صوت زمارة ليجمع القطيع . وخرجت بعض الابقار الحمراء من دغل للقصب ، وخارت واحدة منها بعد ان رفعت راسها . كان كى كييفيتش الذى كان شديد الشبه باخته وذا عينين تبدوان مرسومتين مثل عينيها يقول وهو يقضم قشة :

– وفضلا عن ذلك ، فانت يا ليزا ، غير منظمة مطلقا فى الحياة الجنسية . واشخاص من مثلك هم فى الحقيقة فضلات كريهة للحضارة البرجوازية .

كانت يلزافيتا كييفنا تنظر فى ابتسامة متراخية الى بقعة فى المرج كانت الاعشاب والظلال فيها تكتسى صفرة دافئة فى ضوء الشمس الغاربة .

– حديثك مضجر للغاية ، يا كى ، انك قد استظهرت كل شىء ، وكل شىء عندك واضح وكانه مكتوب فى كتاب .

– ان كل شخص ، ياليزا ، ملزم بالاهتمام فى ترتيب افكاره كلها فى نظام منسق ، لا فى كون هذا الحديث او ذاك مضجرا اوغير مضجر .

– اهتم انت ، كما يحلو لك .

كان المساء هادئا . كانت الاغصان الشفافة لاشجار البتولا المتهدلة ساكنة بلا حراك امام مدخل المدرسة . وكان طائر صفرد يصرصر عند اسفل التل . نظرت يلزافيتا كييفنا حالمة الى الاشجار الذائبة فى النسق الازرق . وظهر بين الاشجار رجل صغير خفيف الحركة يحمل حقيبة . هتف انتوشكا :

– هذه هى ليزا ، مرحبا ، ياست الحسن . . .

بشت يلزافيتا كييفنا به بشاشة هائلة ، فنهضت بحماس ، وعانقته .

سلم كى كييفيتش بجفاف ، ومضى يقضم القشة . استلقى انتوشكا على الدرجات ، واشعل سيغارا .

– جئت اليك طلبا للمعلومات ، يا كى كييفيتش ، حدثنى بالتفصيل ماذا يفكر الناس فى قريتكم عن الحرب وماذا يقولون . . .

ابتسم كى كييفيتش ابتسامة هازئة .

– الشيطان يعرف ماذا يفكرون . . . هم يصمتون . . . الذئاب ايضا تصمت حين تجتمع فى قطيع .

– يعنى لم تكن هناك مقاومة للتعبئة ؟

– لا ، لم تكن هناك مقاومة .

– وهل يعرفون ان العدو المان ؟

– لا ، لا مسالة المان هنا .

– فما هى المسالة اذن ؟
ابتسم كى كييفيتش مرة اخرى ابتسامة هازئة .
– ليست المسالة مسالة المان ، بل بندقية . . . الحصول على بندقية فى ايديهم . . . الانسان ومعه بندقية تتغير نفسيته . سنعيش ، ونرى الى اى اتجاه ينوون تصويب بنادقهم . . . هذا هو الامر . . .
– وهم ، على اية حال ، يتحدثون عن الحرب .
– اذهب الى القرية ، واستمع . . .

عند حلول الظلام ذهب انتوشكا ويلزافيتا كييفنا الى القرية . كانت نجوم آب تتناثر فى ارجاء السماء الآخذة بالبـــرود . وفى منخفض القرية كان الجو ميالا الى الرطوبة عابقا برائحة بقية الغبار التى تتطاير من اقدام القطيع ورائحة حليب طازج . والى جانب البوابات وقفت عربتان بلا خيول . وتحت اشجار الزيزفون التى احلولــك فيهـــا الظلام صرف دولاب بئر ، وزفر حصان ، وكـان يترامى الى الاذن صوت نخيره ، وهو يعب الماء . وفى مكان مكشوف عند شونة خشبية لها سقف من القش جلست ثلاث فتيات على جذوع يغنين بصوت خفيض . تقدمت يلزافيتا كييفنا وانتوشكا وجلسا ايضا فى ناحية . كانت الفتيات يغنين :

خليبى القرية
جميلة فى كل شىء
بمقاعدها وازاهيرها
وفتياتهـــا الجميلات ...

التفتت احداهن الى القادمين ، وقالت بخفوت :
– ما رايكما ، يا صاحبتىّ ، الم يحن وقت النوم ؟
ولكنهن بقين على جلستهن ولم يتحركن . كان شخص ينشغل فى الشونة ، ثم صرّ باب ، وخرج فلاح اصلع فى سترة من فراء الخروف غير مزررة ، وصلصل طويلا ليغلق القفل ، ثم اقبل على الفتيات ، واضعا يديه على اسفل ظهره وابرز لحيته العنزية .
– ماضيات فى غنائكن ، يا شحرورات ؟

– نغنى ، لكننا لا نغنى عنك ، يا عم فيودور .
– ساطردكن من هنا بالمقرعة . . . انها عادة سيئة ان تغنين فى الليل .
– وانت تغار ؟
بينما قالت الاخرى متنهدة :
– لم يبق لنا الا ان نغنى عن قريتنا ، يا عم فيودور .
– نعم ، احوالكن سيئة . يتموكن .
قرفص العم فيودور قرب الفتيات . قالت اقربهن اليه :
– سمعنا نساء قرية كوزمودميا نسكويه يقلن ان رجالا كثيرين اخذوهم للحرب ، نصف العالم تقريبا .
– قريبا سيصلون اليكن ايضا ، يا فتيات .
– سياخذوننا الى الحرب ؟
وتضاحكن ، وسالت الاخيرة ايضا :
– مع مَنْ يتحارب قيصرنا ، يا عم فيودور ؟
– مع قيصر آخر .
وتبادلت الفتيات النظرات . تنهدت واحدة ، وعدّلــت الاخرى المنديل على رأسها ، بينما قالت الاخيرة :
– وهذا ما قالته نساء قرية كوزمودميا نسكويه لنا . مع قيصر آخر .
فى تلك اللحظة برز رأس اجعد من وراء الجذوع وقـــال صاحبه بصوت مبحوح ، وهو يلبس فروته :
– كفاك كذبا ، يا هذا . ليس مع قيصر آخر ، بــل الحرب مع الالمان .
اجاب فيودور :
– كل شىء جائز .
واختفى الراس ثانية . اخرج انتوشكا ارنولدوف علبـــة السيكائر ، وقدم لفيودور سيكارة ، وسأل بحذر :
– ما رايك ، هل خرج الرجال من قريتكـــم الى الحرب راضين ؟
– كثيرون خرجوا راضين ، يا سيد .
– اذن ، كان هناك نهوض ؟

– نعم ، نهضوا ، ولماذا لا ينهضون ؟ على الاقل ليروا كيف تسير الامور هناك . اما اذا قتلوا ، فالأمر سيّان ، لأنهم يموتون هنا ايضا . ان الارض فى قريتنا شحيحة . ونحن لا نجد ما نأكله غير الخبز وماء الخبز . بينما هناك يأكلون اللحم مرتين فى اليوم ، حسب الاقوال ، كما يوجد سكر وشاى وتبغ ، فدخن حسب ما تريد .

– ولكن اليس القتال مخيفا ؟

– وكيف لا ؟ مخيف بالطبع .

١٥

فى الطريق الواسعة المغطاة بوحل سائل كانت تتحرك عربات مكسوة بالمشمعات ، وعجلات تحمل القش والتبن ، وعربات اسعاف ، واحواض طوافات ضخمة مترنحة صارفة . وكان المطر ينهمر بلا انقطاع ، دقيقا مائلا . وكانت الاخاديد المحروثة والسواقى على جانبى الطريق مملوءة بالماء . وكانت الاشجار والادغال تلوح من بعيد مغبشة المعالم .

كانت قوافل الجيش الروسى المهاجم تتحرك كالسيل العرم فى الوحل والمطر وتحت الصيحات والشتائم ، وجلجلة السياط واصطدام محور بآخر . وعلى جانبى الطريق تناثرت خيول فاطسة ومحتضرة ، وعربات مقلوبة وعجلاتها بارزة الى الاعلى . وبين الحين والآخر كانت سيارة عسكرية تشق طريقها فى هذا السيل ، فيبدأ تصاعد الصياح والتاوهات ، وتقف الخيول على قوائمها الخلفية ، وتسقط عربة محملة على المنحدر ، وفى اثرها سواقها .

وحين كان ينقطع سيل العربات كان الجنود يأتون بعده سائرين على الاقدام فى خط طويل منزلقين فى الوحل ، حاملين على ظهورهم الاكياس والمشمعات . وكانت تشق حشدهم غير النظامى عربات الامتعة وعربات اخرى محملة بالبنادق تظهر بارزة من كل الجهات ، وقد جلس فوقها الجنود المرافقون للضباط . وبين الحين والآخر كان يخرج رجل من الطريق راكضا فى الحقل ، ويضع بندقيته على العشب ، ويجلس القرفصاء .

ثم كان يتبع ذلك مزيد من العربات والطوافات ، والعجلات ، وعربات مدنية يجلس فيها اناس مبللون بمعاطف مطر للضباط . وكان هذا السيل الهادر تارة يسقط فى منخفض ، ويتزاحم ، ويزعق ويتعارك رجاله على الاماكن ، وتارة يمتد صاعدا مرتفعا ببطء ، ويختفى وراء القمة . وكانت تصب فيه من الجانبين صفوف جديدة من العربات تحمل القمح والعلف والقذائف . وكانت وحدات صغيرة من الخيالة تاتى متسابقة فى الحقل .

واحيانا كانت تدخل المدافع فى صفوف العربات مقعقعة قعقعة حديدية . وكانت خيول ضخمة عريضة الصدور يمتطيها تتريون ذوو وجوه ملتحية ضارية التقاطيع يسوطون الخيول والناس لتشق هذه الخيول الطريق كالمحراث ساحبة وراءها مدافع فطساء متقافزة . وكان هناك اناس يتراكضون من كل الجهات ، وآخرون واقفون على العربات يلوحون بايديهم . ومرة اخرى كان السيل يتصل ، وينصب فى غابة فواحة برائحة قوية للفطر والاوراق المتفسخة يسرى ضجيج المطر فى ارجائها .

ثم تبرز امام البصر مداخن مواقد من بين اكوام القاذورات والاخشاب المحروقة على جانبى الطريق ، ويتارجح فانوس مهشم ، وتخفق فى الريح ورقة اعلان سينمائى الصقت على جدار آجرى لبيت هدمته القنابل . وهنا ايضا كان يرقد فى عربة بلا عجلتين اماميتين نمساوى جريح بمعطفه الازرق ووجهه ممتقع ، وعيناه كدرتان حزينتان .

وعلى بعد حوالى خمسة وعشرين فرسخا من هذه الاماكن كان دوى المدافع يترامى خافتا فى الافق الداخن . لقد كانت هذه القوات وطوابير العربات تنصب الى تلك المنطقة ليل نهار ، كما تتجه اليها القطارات من جميع انحاء روسيا محملة بالقمح والناس والقنابل . كانت البلاد كلها تهتز على دوى المدافع . لقد انفجر اخيرا كل ما تراكم فيها تحت الكبت والقمع من شر جشع لا يشبع .

وبدا وكأن سكان المدن المتخمين بحياة شائهة فاسدة قد استيقظوا من حلم خانق . لقد كان فى دوى المدافع صوت العاصفة العالمية المثير . وبدت الحياة السابقة غير محتملة بعد هذا . فحيّا السكان الحرب بحماس مشؤوم .

في الريف لم يسأل الناس كثيرا : من نحارب ولاى شيء ؟ فان الامر سيان لديهم . لان الحقد والكراهية قد غشيا العيون منذ زمان بغشاوة دموية . ونضج وقت الاعمال الرهيبة . ترك الفتيان والفلاحون الشبان نساءهم وفتياتهم ، وتزاحموا فى عربات البضائع خفافا متعطشين ، وانطلقوا عبر المدن بصفير واغان فاحشة . لقد انتهت الحياة القديمة ، وبدا وكأن ملعقة هائلة اخذت تقلب روسيا وتعكرها ، وسرى الدبيب والحركة فى كل شيء ، وسكر سكرة الحرب .

كانت طوابير العربات والقوات العسكرية تتدفق وتذوب حين تصل الى منطقة القتال التى يترامى دويها عشرات الفراسخ . هنا كان ينتهى كل شيء حى وانسانى . كان يخصص لكل فرد موضع فى التراب ، فى الخندق ، ينام فيه ويأكل ، ويقصع القمل ، ويطلق من بندقيته على شريط الظلام الماطر الى حد الذهول .

وفى الليل كان الافق كله يلتهب ببطء بنيران الحرائق القرمزية ، وتتخطط السماء بخطوط الشرر المنبعثة من انطلاق الصواريخ وتتناثر كالنجوم وتتلاحق القذائف بعويل مصم ، وتنفجر اعمدة من النار والدخان والغبار .

هنا كانت الاحشاء تتقلص من الرعب المقزز ، ويقشعر الجلد ، وتنعكف الاصابع . وعند منتصف الليل كانت تطلق الاشارات . فيتراكض الضباط وشفاههم ملتوية ، وينهضون الجنود المنتفخين بالنعاس والرطوبة ، شاتمين متصايحين متضاربين . وتركض مجموعات غير نظامية من الناس فى العراء متعثرين متشاتمين عاوين عواء وحشيا ، يستلقون تارة ، ويثبون اخرى ، ويقذفون انفسهم فى خنادق الاعداء مصعوقين مأخوذين فاقدين الذاكرة من الرعب والغيظ .

وبعد ذلك لا يتذكر احد قط ما حصل فى تلك الخنادق ، هناك . وكانوا يضطرون الى التلفيق حين كانوا يريدون التباهى بمآثر بطولية من مثل كيف غرزت الحربة ، وكيف تهشم الراس تحت ضربة من كرنافة البندقية . وكان الهجوم الليلي يخلف جثثا .

وكان يحل نهار جديد ، وتاتى مطابخ الميدان ، ويأكل الجنود المتهالكون المتجمدون ويدخنون . ومن بعد ذلك يبدأون

الحديث عن السناج والنساء ، ويلفقون كثيرا ايضا ويبحثون عن القمل ، وينامون . وكانوا يقضون اياما كاملة نائمين فى منطقة الرعد والموت هذه ، العارية الملوثة بالغائط والدم .

فى مثل هذا الوضع ، فى الوحل والرطوبة ، عاش تليغين ايضا غير خالع ملابسه وحذاءه الطويل اسابيع متتالية . كان الفوج الذى سجل فيه ملازما ثانيا قد خاض معارك هجومية ، وفقد اكثر من نصف ضباطه وجنوده ، ولم يعوض عن خسائره ، وكان الجميع ينتظرون شيئا واحدا : ساعة تحويلهم الى المؤخرة ، وهم اشباه الاموات من التعب ، والممزقو الثياب .

الا ان القيادة العليا كانت تسعى الى عبور جبال الكربات قبل حلول الشتاء ومهما يكن الثمن ، والدخول الى المجر ، وتدميرها . ولم يكونوا يبخلون فى الارواح ، فقد كانت هناك احتياطات كبيرة من النفوس البشرية . وكانوا يتصورون ان مقاومة الجيوش النمساوية المتراجعة بلا نظام ستنهار تحت الضغط الطويل لقتال مستمر دخل شهره الثالث ، وستسقط كراكوفيا وفينا ، وسيتمكن الروس من الخروج من الجناح الايسر الى المؤخرة الالمانية غير المحمية .

وتطبيقا لهذه الخطة كانت القوات الروسية تزحف نحو الغرب بلا انقطاع آسرة عشرات الالوف من الاسرى ، واحتياطات هائلة من المواد الغذائية والقذائف والاسلحة والملابس . فى الحروب الماضية كان جزء فقط من مثل هذه المغانم ، ومعركة واحدة فقط من هذه المعارك الدموية المستمرة التى كانت تسحق فيالق كاملة يمكن ان يقررا مصير الحملة . والآن ، وحتى رغم ان الجيوش النظامية قد تحطمت فى المعارك الاولى فان حدة القتال قد استشرت . لقد خرج الجميع الى الحرب ، من الاطفال حتى الشيوخ – الشعب بأسره . فقد كان فى هذه الحرب شيء فوق الادراك الانسانى . كان يبدو وكان العدو على وشك ان يدحر ، وقد استنزف دمه ، وما هو الا جهد آخر ، ويهل النصر الحاسم . ويبذل الجهد ولكن كانت تطلع مكان جيوش العدو المتفتتة جيوش جديدة كانت تسير للقاء الموت فى جموح قانط ، وتهلك . لم تكن لا جحافل التتار ولا كراديس الفرس تقاتل بتلك القسوة ،

وتموت بالسهولة التى كان يموت فيها الاوربيون الضعاف الاجسام المدللون ، او الفلاحون الروس الماكرون ، الذين راوا انهم ليسوا الا ماشية عجماء – لحوما فى هذه المجزرة التى دبرها السادة .

تخندقت بقايا الفوج الذى يخدم تليغين فيه على شاطئ نهير ضيق عميق . كان الموقع سيئا ، مكشوفا كليا ، والخنادق غير عميقة . وكان الفوج ينتظر بين لحظة واخرى امرا بالهجوم ، ولكن الجميع الآن كانوا مسرورين فى ان تسنح لهم فرصة للنوم ، وتغيير الاحذية ، ونيل شىء من الراحة ، رغم ان نارا حامية كانت تنطلق من الضفة الاخرى للنهير حيث كانت الوحدات النمساوية تتخندق .

وعند المساء ، حين هدأ اطلاق النار حوالى ثلاث ساعات ، كما هى العادة ، ذهب ايفان ايليتش تليغين الى مقرقيادة الفوج ، التى كانت تحتل قلعة مهجورة على بعد زهاء فرسخين من موقع الفوج .

كان ضباب اشعث يرقد على صدر النهير المتلوى بين النباتات الكثيفة ويخيم على الاجمات عند الشاطئ . وكان الجو هادئا رطبا فيه رائحة اوراق اشجار رطبة . وبين الحين والآخر كانت اطلاقة وحيدة تنهبد فى الماء مثل كرة جوفاء .

قفز ايفان ايليتش عبر حفرة الى الطريق العامة وتوقف ، واشعل سيكارة . كانت الاشجار العالية الجرداء على جانبى الطريق تبدو فى الضباب شاهقة الطول على نحو مفزع . وعلى اطرافها كان منخفض مستنقعى يبدو وكانه مملوء بالحليب . وصفرت رصاصة فى السكون صفيرا شاكيا . زفر ايفان ايليتش زفرة عميقة ، وسار على حصى مصلصل ، رافعا راسه الى اشباح الاشجار . لقد استرخى كل ما فى نفسه بسبب هذا الهدوء المحيط به ، ومن كونه يسير ويفكر لوحده . لقد ابتعد ضجيج النهار الصاخب ، الا ان حزنا رقيقا نافذا تسلل الى قلبه . فتنهد ثانية ، والقى السيكارة ، ووضع يديه وراء رقبته ، وسار على هذا الوضع ، وكانه فى عالم

عجيب لم يكن فيه غير اشباح الاشجار ، وقلبه الحى الملتهب بالحب ، وسحر داشا غير المرئى .

كانت داشا معه فى ساعة الراحة والهدوء هذه ، وكان يحس بملامستها كلما هدأ زئير القذائف الحديدى ، وازيز البنادق ، والصيحات ، والسباب – كل هذه الاصوات الغريبة على خليقة الله – وكلما كان من الممكن ان ينزوى فى ركن من المخبأ ، وعندئذ كان السحر يمس قلبه .

وكان يبدو لايفان ايليتش انه ، لو قسم له ان يموت ، فانه سيشعر بسعادة الاتصال هذه الى آخر لحظة فى حياته . ولم يكن يفكر فى الموت ، ولم يهابه . لا شىء بقادر الآن على ان ينتزعه من حالة الحياة المدهشة ولو كان الموت نفسه .

فى الصيف ، حين سافر الى يفباتوريا ليرى داشا لآخر مرة كما خيل له ، غمرته موجة من الحزن ، وقلق ، وفكر فى مختلف الاعتذارات . الا ان لقاءهما فى الطريق ، ودموع داشا المباغتة ، وراسها الاشقر مضغوطا على صدره ، وشعرها ، ويديها ، وكتفيها الفواحة برائحة البحر ، وفمها الطفولى حين نطق ، وقد رفعت اليه وجهها بالرموش المسبلة المبللة : «ايفان ايليتش ، عزيزى ، كم انتظرتك» – كل هذه الاشياء التى لا توصف ، والتى كانها هبطت عليه من السماء ، فى ذلك الطريق عند البحر قد حولت حياة ايفان ايليتش كلها فى بضع دقائق . وقال وهو ينظر الى الوجه الحبيب :

– سأظل احبك ، طيلة حياتى .

وفيما بعد بلغ به الوهم الى حد ان تصور انه لم ينطق بهذه الكلمات ، بل دارت فى ذهنه فقط ، وانها قد فهمت ما فى ذهنه . انزلت داشا يديها من كتفيه ، وقالت :

– عندى اشياء كثيرة ينبغى ان اخبرك بها . فلنذهب .

وسارا ، وجلسا على الرمل عند الماء . ملأت داشا كفها بالحصباء الصغيرة ، واخذت تلقيها فى الماء على مهل .

– المسألة هى هل ستستطيع ان تحسن معاملتى ، حين تعلم بكل شىء . رغم ان ذلك لا يهم ، عاملنى حسب ما تشاء . – وتنهدت . – عشت فى غيابك حياة سيئة يا ايفان ايليتش . فاعذرنى ، اذا كان ذلك فى امكانك .

وحدثته عن كل شيء بصدق وتفصيل . عن سامارا ، وعن مجيئها الى هنا ، وعن لقائها ببيسونوف ، وعن فقدانها الرغبة فى الحياة ، من شدة قرفها ، من ذلك الجو البطرسبورغى الخانق الذى تصاعد مرة اخرى ، وسمم الدم ، والهب الفضول . . .

– الى متى اشمخ بانفى ؟ وراودتنى الرغبة فى ان اغرق نفسى فى الحمأة – لا بأس . ولكننى جبنت فى اللحظة الاخيرة . . . ايفان ايليتش ، عزيزى – وبسطت ذراعيها وقالت – ساعدنى ، لا اريد ، ولا استطيع ان امضى فى بغض نفسى ، ولكن لم يمت كل شيء فىّ . . . انا اريد شيئا مختلفا تماما ، مختلفا كليا . . .

وبعد هذا الحديث صمتت داشا طويلا ، وثبت ايفان ايليتش بصره فى الماء الصقيل الضارب الى الزرقة ، المتلألىء بالشمس . وكانت روحه ، رغم كل شيء ، طافحة بالسعادة .

ولم تدرك داشا ان الحرب قد بدأت ، وان تليغين يجب ان يسافر فى الغد للحاق بفوجه ، الا بعد فترة من الوقت ، حين تبللت قدماها بموجة اهاجتها الريح .

– ايفان ايليتش !

– نعم .

– هل ستحسن معاملتى ؟

– نعم .

– كثيرا ؟

– نعم .

عندئذ زحفت على ركبتيها على الرمل لتقترب منه اكثر ، ووضعت يدها فى يده ، كما فعلت عند ذاك على سطح السفينة .

– ايفان ايليتش ، وانا ايضا سأحسن معاملتك .

وضغطت بشدة على اصابعه المرتعشة ، وسألت بعد برهة من الصمت :

– ماذا قلت لى اذ كنا فى الطريق ؟ – وغضنت جبهتها – اى حرب ؟ مع من ؟

– مع الالمان .

– وانت ؟

– سأسافر غدا .

تأوهت داشا ، وصمتت مرة اخرى . ومن بعيد كان نيقولاى ايفانوفيتش يجرى على الساحل متجها نحوهما ، فى سترته المخططة ، وكأنه قد غادر سريره من توه على ما يبدو . كان يلوح بجريدة ، ويصرخ بشيء ما .

ولم يلق التفاتا الى ايفان ايليتش . عندئذ قالت داشا : «نيقولاى ، هذا اكبر صديق لى» . – امسك نيقولاى ايفانوفيتش تليغين من سترته ، وصرخ فى وجهه :

– هذا ما توصلنا اليه ، ايها الشاب ، ها ؟ ها هى حضارتك ، ها ؟ هذه فظاعة ! هل تفهم ؟ هذا هذيان !

وقضت داشا النهار كله قرب تليغين لا تبارحه ، وديعة مستغرقة . ولاح له هذا اليوم المملوء بنور الشمس المزرق قليلا ، وهدير البحر واسعا لا تستوعبه الظنون . وكل دقيقة فيه تمطت حتى لكأنها استحالت حياة كاملة .

تجول تليغين وداشا على الساحل ، واستلقيا على الرمل ، وجلسا فى الشرفة ، وكانا فى ذهول . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يلاحقهما اينما ذهبا ، ولا ينفك عنهما ، ولا يفتأ يتحدث بأحاديث مطولة عن الحرب وتسلط الالمان .

وقبيل المساء استطاعا الانفلات من نيقولاى ايفانوفيتش . فخرجا وحيدين ، وتوغلا بعيدا بمحاذاة ساحل الخليج المنحدر انحدارا خفيفا . سارا صامتين ، فى خطو متساوق ، وهنا بدأ ايفان ايليتش يفكر بان الواجب يقتضيه ، على اية حال ، ان يقول شيئا ما لداشا . وبالطبع ، انها تنتظر منه بَوْحا حارا ومحددا فى الوقت ذاته . ولكن ماذا فى وسعه ان يتمتم ؟ وهل تستطيع الكلمات ان تفصح عما يملأ جوانحه ؟ لا ، ان ذلك غير قابل للافصاح .

وفكر مع نفسه ، وهو ينظر الى قدميه : «لا ، لا ، لو بحت لها بتلك الكلمات ، فان ذلك سيكون معيبا . انها لا يمكن ان تحبنى ، ولكنها كفتاة شريفة طيبة ستقبل ، اذا طلبت يدها . ولكن هذا سيكون اكراها . وفضلا عن ذلك لا يحق لى ان اقول لاننا نفترق لفترة غير محددة ، فاننى ، فى اغلب الاحتمالات ، لن أعود من الحرب . . .»

وكانت تلك نوبة من نوبات تعذيب النفس . توقفت داشا

فجاة ، وتعلقت بكتفه ، وخلعت نعلها مرددة «يا آلهى ، يا آلهى» واخذت تفرغ الرمل من النعل ثم ارتدته ورفعت قامتها وتنهدت :

– ساشعر بحب شديد لك ، حين ترحل ، يا ايفان ايليتش .

ووضعت يدها على رقبته ، وتفرست فى عينيه بعينيها الصافيتين ، الرماديتين الصارمتين تقريبا ، الخاليتين من كل ظل لبسمة ، وزفرت زفرة اخرى خفيفة .

– سنكون سوية ، هناك ايضا ، ها ؟

جذبها ايفان ايليتش جذبة رقيقة ، وقبل شفتيها الناعمتين المرتعشتين . فاغمضت داشا عينيها . وفيما بعد حين بُهرت منهما الانفاس كليهما تنحت داشا ، وامسكت يد ايفان ايليتش ، وسار الاثنان بمحاذاة الماء الثقيل الداكن اللاعق الساحل بالسنة قرمزية عند اقدامهما .

كان ايفان ايليتش يتذكر كل ذلك فى لحظات الهدوء بانفعال متجدد فى كل مرة . والآن ، وهو يسير فى الضباب ، على الطريق العامة ، بين الاشجار ، ويداه وراء رقبته عادت تتراءى له نظرة داشا المتفرسة ، واحس بقبلتها الطويلة .

– قف ! من القادم !

هتف صوت غليظ فى الضباب .

– من جماعتكم .

اجاب ايفان ايليتش ، وانزل يديه الى جيبى معطفه العسكرى. واتعطف عند اشجار بلوط نحو هيكل قلعة غير واضح المعالم ، حيث كان النور يلوح اصفر فى بعض نوافذها المضاءة . وعلى المدخل ابصر شخص تليغين فرمى سيكارته ، ووقف فى هيئة استعداد . «هل جاء البريد ؟» «لا ، ياحضرة الضابط ، نحن فى انتظاره» . دخل ايفان ايليتش الى الرواق . كانت طنفسة قديمة معلقة فوق درج بلوطى عريض فى آخر الرواق تصور آدم وحواء واقفين وسط الاشجار . كانت هى تمسك فى يدها تفاحة ، وهو غصنا مقطوعا عليه زهور . وكانت شمعة موضوعة فى فم زجاجة فى اسفل الدرج تضىء بضوئها الشاحب وجهيهما الحائلين وجسميهما المزرقين .

وفتح ايفان ايليتش بابا الى اليمين ، ودخل حجرة فارغة لها

سقف منحوت منهار فى احد الاركان من جراء قنبلة سقطت يوم امس على الجدار . كان الملازم الاول الامير بيلسكى والملازم مارتينوف جالسين على سرير قرب موقد مشتعل . سلم ايفان ايليتش ، وسال متى من المتوقع ان تصل السيارة من مقر الاركان ، وجلس على كومة من علب الخراطيش غير بعيد عن الضابطين ، وقلص عينيه من الضوء .

سال مارتينوف :

– اما زال اطلاق النار مستمرا هناك ، عندكم ؟

لم يجب ايفان ايليتش ، وهزّ كتفيه . ومضى الامير بيلسكى متابعا حديثه بصوت خافت :

– والاهم هى هذه الرائحة النتنة . لقد كتبت لاهلى ان الموت لا يخيفنى . فانا مستعد فى سبيل الوطن الى التضحية بحياتى ، ولاجل هذا ، اذا اردت الدقة ، انتقلت الى المشاة ، وها انا جالس فى الخنادق ، ولكن الرائحة النتنة هى التى تقتلنى .

اجاب مارتينوف ، وهو يعدل احدى كتفيتيه :

– الرائحة النتنة شىء تافه ، اذا لا تعجبك فلا تشمها . ولكن خلو المكان من النساء هو الشىء الجوهرى . ان ذلك لا يؤدى الى خير . احكم بنفسك : قائد الجيش هرم ، فاقاموا لنا هنا ديرا ، لا خمرة ، ولا نساء . ايمكن ان تدعو هذا اهتماما بالجيش ؟ اهذه حرب ؟

نهض مارتينوف من السرير ، واخذ يدفع براس حذائه خشبة محترقة . وراح الامير يدخن مستغرقا ناظرا الى النار . وقال :

– خمسة ملايين جندى يروثون . وفضلا عن ذلك تتفسخ الجثث والخيول النافقة . ستظل الحرب طوال حياتى تذكرنى بشىء كريه الرائحة . بررر . . .

سمع هدير محرك سيارة فى الفناء . وصاح صوت منفعل عند الباب :

– يا سادة ، جاء البريد .

خرج الضباط الى مدخل القلعة . كانت شخوص داكنة تتحرك عند السيارة ، وبعض الرجال يتراكضون فى الفناء . وكرر الصوت المبحوح : «يا سادة ، ارجو الا تتخاطفوا من الايدى» .

وجلبت اكياس البريد والطرود الى الرواق ، واخذوا يفكونها على الدرج تحت آدم وحواء . وكانت تحتوى على بريد الشهر كله . وظهر ان تلك الاكياس الجنفاصية القذرة كانت تحتوى على عالم كامل من الحب والحنين – حياة كاملة مهجورة ، رقيقة ، لا تسترد .

– يا سادة ، لا تتخاطفوا من الايدى – بحّ النقيب بابكين ، وهو رجل ضخم احمر الوجه – الملازم الثانى تليغين ست رسائل وطرد . . . الملازم الثانى نيشنى رسالتان . . .

– نيشنى قتل ، يا سادة . . .

– متى ؟

– اليوم صباحا . . .

سار ايفان ايليتش الى الموقد . كانت الرسائل الست كلها من داشا . وكان العنوان على الظروف مكتوبا بخط كبير . وغمر الحنان ايفان ايليتش على تلك اليد الحبيبة التى خطت هذه الحروف الكبيرة . انحنى على النار ، وفضّ الظرف الاول بحـذر . ففاحت منه ذكرى قوية جعلت ايفان ايليتش يغمض عينيه برهة . ثم قرأ :

«سافرنا – نيقولاى ايفانوفيتش وانا – الى سيمفروبـول فى اليوم الذى ودعناك فيه ، وفى المساء ركبنا قطار بطرسبورغ . ونحن الآن فى شقتنا القديمـة . نيقولاى ايفانوفيتش قلق جدا بسبب عدم ورود اى خبر من كاتيـا ، ونحن لا نعرف اين هى الآن . ان ما وقع لنا ، انت وانا ، كان عظيما جدا ومفاجئا جدا حتى اننى ما ازال غير متمالكة حواسى . اننى احبك ، وسيكون حبى لك صادقا وسيزداد قوة . اما الآن فان بلبلة شديدة تجتـاح النفس . القوات تمر فى الشوارع على انغام الموسيقى فتشيع فى الجو حزنا ممضا حتى لكأن السعادة تمضى راحلة مع الابواق ، مع هؤلاء الجنود . انا اعرف لا يجوز لى ان اكتب ذلك ، ولكن يجب ان تكون حذرا فى الحرب ، على اية حال» .

– يا حضرة الضابط ، يا حضرة الضابط .

التفت تليغين بصعوبة فرأى جنديا مراسلا يقف عند الباب .

– برقية تلفونية ، يا حضرة الضـابط . . . يطلبونك فى الفوج .

– مَنْ ؟

– المقدم روزانوف . طلب ان تاتى باسرع ما يمكن .

طوى تليغين الرسالة التى لم يتم قراءتها وحشرها وراء قميصه مع الظروف الاخرى ، وانزل قبعته على عينيه ، وخرج .

كان الضباب قد ازداد كثافـة ، وحجب الاشجار ، والسائر يحس وكأنـه يخوض فى حليب ، ولا يتعرف على الطريق الا من صلصلة الحصباء . اعاد ايفان ايليتش مع نفسه «سيكون حبى لك صادقا ، وسيزداد قـوة» . وفجـأة توقف مرهفا سمعـه . لم يكن يصدر من الضباب صوت ما عدا الصوت الذى يحدثه احيانا سقوط قطرة ثقيلة من شجرة . ثم اخذ يميز ، على مسافة غير بعيدة عنه ، قرقرة وخشخشة خفيفة . وواصل سيره ، فصارت القرقرة اكثر وضوحا . ارتد بقوة ، فانهبدت كتلة الطين التى انخلعت من تحت قدميه ساقطة فى الماء بطرطشة ثقيلة .

كان ذلك ، على ما يبدو ، المكان الذى كانت الطريق العامة تقطعه فوق النهر عند جسر محروق . وعلى الضفة الاخرى من النهر، على بعد زهاء مائة خطوة كانت الخنادق النمساوية تصل الى حافة النهر . وكان ايفان ايليتش يعرف ذلك . وبالفعل ازت رصاصة من الجانب الآخر كالسوط على طرطشة الماء ، ورجع النهر صوتها ، وازت اخرى وثالثة ، ثم اعقبت ذلك صلية طويلة ، مثل تعقعـة حديد ، فردت عليها من كل جانب طلقات عجلى خنق الضبـاب اصواتها . وتوالى الازيز والدوى والزئير على النهر كلـه اقوى فاقوى ، وفى ذلك الضجيج اللعين ، لعلع مدفع رشاش بعجلة ، وسمع صوت انفجار فى الغابة . وجثم الضباب الممزق الهادر على الارض ساترا على هذا الامر الكريه المعتاد .

ولعدة مرات كانت احدى الرصاصات ترتطم بشجرة قرب ايفان ايليتش محدثة صوت قضم ، ويسقط غصن . ترك الطريق العامة الى الحقل ، واتخذ طريقه تلمسا بين الاجمات . هدا التراشق بغتة ، مثلما بدا ، ثم انتهى . خلع ايفان ايليتش قبعته ، ومسح جبينه الرطب . انسدل مرة اخرى سكون اشبـه بالسكون تحت الماء ، ولم يبق الا اصوات القطرات تقطر من الاشجـار . حمدا لله ، اليوم سيقرأ رسائل داشا . وضحك ايفان ايليتش وقفز عبر

حفرة . وفجأة سمع ، على مقربة شديدة منه ، صوت رجل يتثاءب ثم يقول :

– يا فاسيلي اى نوم فى مثل هذه الاحوال ؟ اى نوم ؟

ردّ صوت مهتز :

– انتظر . هناك شخص قادم .

– مَنْ القادم ؟

– من جماعتكم ، من جماعتكم .

اسرع تليغين يقول ، وفى الحال راى المتراس الترابى للخندق ، ووجهين ملتحيين يتطلعان من تحت الارض . سال :

– اية سرية هذه ؟

– الثالثة يا حضرة الضابط ، سريتك . ولماذا تسير على الارض المكشوفة ، يا حضرة الضابط ؟ قد يصيبونك .

قفز تليغين الى الخندق ، وسار فيه الى خندق الاتصال المؤدى الى مخبأ الضباط . كان الجنود الذين ايقظهم اطلاق الرصاص هذا يتحدثون :

– فى مثل هذا الضباب من السهل جدا ان يعبر العدو النهر فى مكان ما .

– انه شىء بسيط .

– فجأة رمى ودوى كثيف . ترى ايريد ان يخيفنا ام هو نفسه خائف ؟

– وانت ، لست خائفا ؟

– انا ، يا صاحبى ؟ انا جبان جدا .

– يا اولاد ، قطعت اصبع لغفريل .

– لو رأيتموه كيف يزعق رافعا اصبعه الى فوق .

– حظوظ ! . . سيرسل الى اهله .

– ابدا ! لو كانت ذراعه كلها قد قطعت لكانت له اجازة ! اما دون اصبع واحدة ، فسيحشرونه ليتعفن فى مكان قريب ثم يعودونه الى السرية ثانية .

– متى ستنتهى هذه الحرب ؟

– اوه ، كفى .

– ستنتهى ، ولكن لن نرى نحن نهايتها .

– على الاقل لو استولينا على فينا .

– وما حاجتك اليها ؟

– لا لشىء ، ولكن احسن .

– حتى اذا لم تنته الحرب فى الربيع ، فان الجميع سيهربون على اية حال . فمن سيزرع الارض ؟ النسوان ؟ الشعب سحق سحقا . كفى ، تشبعنا بالدم بما فيه الكفاية وزيادة ، وسنذهب الى بيوتنا من تلقاء انفسنا .

– ولكن الجنرالات لن يكفوا عن الحرب عن قريب .

– ما هذا الكلام ؟ . . من يقول هذا ؟

– كفى نباحا ، يا عريف . . . انصرف . . .

– لن يكف الجنرالات عن الحرب .

– انه على حق ، يا اولاد . فهم اولا يقبضون رواتب مضاعفة ، واوسمة ونياشين .

لقد قال لى احد الاشخاص ان الانجليز يعطون لجنرالاتنا ثمانية وثلاثين روبلا ونصف على كل مجند .

– اوه ، الاوباش ! كما يبيعون الماشية .

– لا بأس ، سنصبر ، ونرى .

عندما دخل تليغين المخبا راى آمر الكتيبة المقدم روزانوف – وهو رجل بدين ذو نظارة ، وخصل شعر قليلة – جالسا على اغطية خيول موضوعة فى احد الاركان تحت اغصان الصنوبر ، وقد ابتدره قائلا :

– جئت اخيرا يا صاحبى .

– ارجو المعذرة ، يا فيودور كوزميتش ، فقد اضعت طريقى . الضباب كثيف .

– المسألة ، يا صاحبى ، ان هناك عملا ينبغى انجازه فى الليل .

ووضع فى فمه قطعة الخبز التى كان طيلة الوقت يمسكها بيده الوسخة . اطبق تليغين فكيه ببطء .

– الخلاصة ، يا عزيزى ايفان ايليتش ، ان الامر قد صدر الينا بالعبور الى الضفة الاخرى . وسيكون لطيفا لو ننجز ذلك

بشيء من اليسر . اجلس بجانبي . اتريد شيئا من الكونياك ؟ لقد عنت لي هذه الخطة ... اقامة جسر مقابل دغل الصفصاف الكبير تماما ، وتعبير فصيلتين على تلك الضفة ...

١٦

– سوسوف !

– نعم ، يا حضرة الضابط .

– احفر ... على مهلك ، لا تلق التراب فى الماء . يا اولاد تقدموا الى الامام ... زوبتسوف !

– نعم ، يا حضرة الضابط .

– انتظر ... ثبته هنا ... احفر قليلا ... خفّض ... على مهل ...

– على مهل ، يا اولاد ، ستخلعون كتفى ... ادفع ...

– هيا ، ادفع ...

– لا تصرخ ، هدوء ، يا حيوان !

– اسند الطرف الآخر ... يا حضرة الضابط ، هل نرفع ؟

– هل ربطتم الطرفين ؟

– نعم .

– ارفع ...

وارتفع فى غيوم الضباب المشرّب بضـــوء القمر عمودان مرتفعان تربط بينهما عوارض ، وقد صدر صريف من ذلك . انها جسر معلق . كانت اشباح المتطوعين تتحرك على الشاطئ وهى لا تكاد تبين . وكان الكلام والسباب يجريان بهمس عجول .

– هل استقر ؟ ها ؟

– استقر بصورة جيدة .

– خفّض ... بحذر اكثر ...

– برفق ، برفق يا اولاد ...

بعد ان تثبت العمودان بطرفيهما فى ضفة النهر ، فى اضيق موضع فيه ، اخذا يميلان ببطء الى الامام ، وتدليا فوق الماء فى الضباب .

– هل سينوش الضفة الثانية ؟

– خفض على مهل .

– ثقيل جدا .

– قف ، قف ... برفق ! ..

ومع ذلك فقد انطرح الطرف الثانى من الجسر على المـــاء بطرطشة عالية . اشار تليغين بذراعه قائلا :

– استلقوا !

استلقت اشباح المتطوعين على عشب الشاطئ بصوت غير مسموع . شفّ الضباب ، الا ان الظلام صار احلك ، والهواء اثقل عند السحر . وكان الهدوء يسود الضفة الاخرى . نادى تليغين :

– زوبتسوف !

– نعم !

– انزل الى الماء وصفّ الواحا !

نزل المتطوع فاسيلي زوبتسوف بجسمه الركين الناشر رائحة عرق نافذة من الشاطئ الى الماء مارا بتليغين . ورأى ايفـــان ايليتش يده الكبيرة تمسك بالعشب مرتجفة ، وتطلقه ، وتختفى .

– عميق ، – قال زوبتسوف بهمس مرتجف صدر من مكان فى الاسفل واستمر – ناولونى الالواح ، يا اولاد ...

– الالواح ، ناولونى الالواح !

وراحت الالواح تتناقل بين الايدى بسرعة وبلا صوت . وكان من المستحيل تسميرها خوفا من حدوث ضجة . صفّ زوبتسوف الصفوف الاولى ، وخرج من الماء الى الجسر ، وراح يقول بصوت خافت ، واسنانه تصطك :

– اسرع ، ناول بسرعة ... لا تبطئ ...

كان الماء القارس البرودة يرســـل خريره تحت الجسر ، والعمودان يتمايلان . وكان تليغين يميز معالم الاجمات الداكنة على الشاطئ الآخر ، وبالرغم من انها لم تكن تختلف عن الاجمات فى الجانب الروسى ، الا ان منظرها بدا مخيفا . عاد ايفان ايليتش الى الشاطئ حيث كان المتطوعون مستلقين ، وهتف بحدة :

– انهضوا !

وفى الحال نهضت فى الغمـــام المبيض شخوص ممسوحـــة المعالم كبيرة بشكل بالغ .

– واحدا بعد واحد ، اجر ! ..

استدار تليغين نحو الجسر . وفى تلك اللحظة تنورت الالواح الصفر ، وراس زوبتسوف ذو اللحية السوداء الملقى الى الوراء من الرعب ، وكان شعاع شمس اصطدم بغمامة الضباب فجاة . انحرف شعاع المصباح الكاشف جانبا الى الاجمات ، وانتزع من الظلام غصنا معوجا عليه عساليج عارية ، وعاد ثانية ليتمدد على الالواح . ركض تليغين مطبق الاسنــــان عبر الجسر ، وفى تلك اللحظة بدا وكان كل ذلك السكون الاســـود قد انفجر وانعكس كالرعد فى راسه . اخذت نيران البنادق والرشاشات تنهمر على الجسر من الجانب النمساوى . قفز تليغين على الشاطئ ، وقعد على رجليه ، واستدار . كان جندى طويل القامة لم يتعرف عليــــه ، يركض على الجسر حاضنا بندقيته على صدره ، ثم افلتت من يديه، ورفع يديه ، وسقط الى الجانب فى الماء . كان احد الرشاشــــات يصب ناره على الجسر والماء والشاطئ . ركض جندى آخر هو سوسوف ، واستلقى بالقرب من تليغين . . .

– سامزق هؤلاء الاوغاد باسنانى !

وركض ثان ، وثالث ، ورابع ، وترنح آخر ، وزعق متخبطا فى الماء . . .

عبر الجميع الجسر راكضين ، وانطرحوا مكومين بالارفاش قليلا من التراب امامهم . والآن صار الرصاص يرعد على نحو جنونى فوق النهر كله . وكان من المتعذر على المرء ان يرفع راسه . فقد ظل الرشاش يمطر بوابل رصاصه هناك حيث استلقى المتطوعون على الارض . وفجاة ازّ شىء على ارتفاع واطئ مرة ومرتين . . . وست مرات ، ودوّت الى الامام ستة انفجارات خافتة . انهم الروس يقصفون وكر الرشاش .

قفز تليغين وفاسيلى زوبتسوف امامه وركضا حوالى اربعين خطوة ، ثم استلقيـــا . وعاد الرشـــاش الى العمل من الظلام الى اليسار . ولكن كان واضحا ان النار من الجانب الروسى كانت اشد، وان النمساويين يبعدون داخل الارض . استغل المتطوعون فترات

السكون وركضوا نحو المكان ، حيث قد احدثت مدفعية الروس ثغرة فى الاسلاك الشائكة امام الخنادق النمساوية يوم امس .

وكان النمساويون قد بدأوا وصلها من جديد خلال الليل ، فتركوا جثة تتدلى عليها . قطع زوبتسوف الاسلاك ، وسقطت الجثة امام تليغين كالزكيبة . وثب المتطوع لابتيف الى الامام بدون سلاح زاحفا على الاربع سابقا الآخرين ، واستلقى امام المتراس تماما ، فصاح به زوبتسوف :

– انهض ، والق قنبلة !

الا ان لابتيف صمت ولم يتحرك ، ولم يلتفت ، فلا بد ان قلبه جمد من الرعب . اشتد اطلاق النار ، ولم يستطع المتطوعون التحرك ، والتصقوا بالارض ، واندفنوا فيها .

صاح زوبتسوف :

– انهض ، والق قنبلة ، يا ابن الكلبة ! اقذفها !

ومدّ جسمه ممسكا بندقيته من كرنافتها ، ووخز بحربتـــه معطف لابتيف الذى برز كالحدبة . ادار لابتيف وجهه الغاضب ، وفك قنبلة يدوية من حزامه ، وقذفها فجاة ملقيا صـــدره على المتراس ، وقفز الى الخندق بعد انفجارها .

صاح زوبتسوف بصوت غريب عليه :

– اضرب ، اضرب !

نهض زهاء عشرة من المتطوعين ، وهرولوا ، وغيّبتهـــم الارض . وكان لا يسمع غير اصوات الانفجارات الحادة المتقطعة .

تحرك تليغين على المتراس جيئة وذهابا كالاعمى ولم يستطع ان يفك قنبلة ، فقفز اخيرا الى الخندق ، وركض ضاربا الطين اللزج بكتفيه ، متعثرا ، صارخا بملء فمه . . . وراى وجها ابيض كالقناع لرجل منضغط على تجويف فى جدار الخندق ، فامســـك الرجل من كتفيه ، وكان الرجل لايفتأ يهذر وكانه فى النوم . . .

– اسكت ، ايها الشيطان ، لن امسك بسوء .

صرخ تليغين فى الوجه الابيض كالقناع ، وهو يكاد يبكى ، وركض ، قافزا فوق الجثث . الا ان المعركـــة كانت تقترب من نهايتها . وطلع حشد من الناس الرماديين منسلين من الخنادق الى الحقل بعد ان القوا بنادقهم ، فدفعوهم بكرنافات البنادق . وكان

الرشاش ما يزال يلعلع فى وكره المسقوف على بعد زهاء اربعين خطوة ، مصوبا ناره الى معبر النهر . شق ايفان ايليتش طريقه بين المتطوعين والاسرى ، وصاح :

– ماذا تنتظرون ، ماذا تنتظرون ؟ اين زوبتسوف ؟

– انا هنا . . .

– ماذا تنتظر ، ايها الشيطان اللعين ؟

– وكيف استطيع ان اصل اليه ؟

وركضا .

– قف ! . . هذا هو ! . .

كان ممر ضيق فى الخندق يؤدى الى وكر الرشاش . ركض تليغين فيه طاويا جذعه ، وقفز الى مخبأ كان كل شىء فيه يرتج فى الظلمة من الذبذبة التى لا تطاق ، وقبض على شخص من مرفقيه ، وجره واذا بالسكون يسود ، ولم يبق الا فحيح الرجل الذى جره من وراء الرشاش ، وهو يقاوم .

– الوغد ، انه يمانع . . . اسمح لى .

تمتم زوبتسوف بذلك من الخلف ، واشفع ذلك فى الحال بثلاث ضربات بكرنافة البندقية على جمجمة النمساوى فارتجف هذا ، وتوجع ، ثم همد . . . تركه تليغين وخرج من المخبأ . صاح زوبتسوف فى أثره :

– يا حضرة الضابط ، انه موثق .

وبعد قليل انزاح الظلام تماما . وظهرت على الطين الاصفر بقع وخطوط دم ، وتناثرت جلود مسلوخة من عجل ، وعلب تنك ، ومقال ، بينهما جثث آدمية متكورة كالزكائب . وكان المتطوعون المنهكون الخاملون ، منهم من انطرح ارضا ، ومنهم من كان ياكل من معلبات ، ومنهم من كان ينبش فى الحقائب التى رماها النمساويون .

وكان الاسرى قد سيقوا منذ وقت طويل الى ما وراء النهر . وقد عبر الفوج النهر ، واحتل مواقعه ، وكانت المدفعية تقصف خطوط النمساويين الثانية ، فكان هؤلاء يردون عليها بنار ضعيفة . تساقط رذاذ ، وانقشع الضباب . وضع ايفان ايليتش مرفقه على حافة الخندق ، وحدق فى الحقل الذى ركضوا فيه ليلا . انه حقل

كسائر الحقول ، بنى التربة ، رطب تناثرت فيه هنا وهناك قطع من الاسلاك الشائكة ، وآثار سوداء لارض محفورة ، وبعض جثث المتطوعين . والنهر قريب جدا ، ولا وجود للاشجار التى تصورها بالامس جبارة ، ولا لاجمات مخيفة . ولكن ما اكثر الجهود التى بذلت لقطع هذه الخطوات الثلاثمائة !

استمر النمساويون فى تراجعهم ، ولاحقتهم الوحدات الروسية حتى الليل دون ان تنال قسطا من الراحة . وأُمر تليغين بان يحتل مع متطوعيه غابة صغيرة كانت تتراءى مزرقة على قمة تل ، وقد احتلها عند المساء بعد فترة قصيرة من التراشق بالنيران . وتخندقوا على عجل ، ونصبوا نقاط حراسة ، واقاموا اتصالا تلفونيا مع وحدتهم ، واكلوا ما كان فى حقائبهم من طعام ، وغفا الكثيرون تحت الرذاذ وفى الظلام حيث تتصاعد رائحة تفسخ اوراق الاشجار فى الغابة ، رغم ان الامر قد صدر لهم بالاستمرار فى اطلاق النار طول الليل .

اقتعد تليغين قرمة ، واتكأ على جذع شجرة ناعمة مما علق بها من طحلب . وكانت بين الحين والآخر تسقط قطرة وراء ياقته ، وكان ذلك شيئا طيبا ، لانه كان يمنعه من الغفو . وكان اللغط الصباحى قد انقضى منذ وقت طويل ، وزال حتى ذلك الاعياء الرهيب عندما أُمروا بالسير زهاء عشرة فراسخ على الجذامات المنتفخة من المطر ، وتخطى الاسيجة والسواقى ، حين صارت الاقدام المتخشبة تتخبط حيثما اتفق ، والرؤوس متورمة من الالم .

سمع شخص يسير على الاوراق المتساقطة ، وصوت زوبتسوف يقول بخفوت :

– اتريد بقسماطة ؟

– شكرا .

تناول ايفان ايليتش بقسماطة منه ، واخذ يمضغها . كانت حلوة فذابت فى فمه . قرفص زوبتسوف على مقربة منه :

– اتسمح لى بالتدخين ؟

– شرط ان تكون حذرا .

– عندى غليون .

– زوبتسوف ، ما كان لك ان تقتله ، ها ؟

– مَنْ ؟ جندى الرشاش ؟
– نعم .
– بالطبع .
– اتريد ان تنام ؟
– لا يهم . يمكن بدون ذلك .
– هزنى ، اذا غفوت .
كانت القطرات تتساقط ببطء على الاوراق المتفسخة وعلى يده ، وعلى سطح قبعتـــه . كانت هذه القطرات بعـــد الضجيج والصيحات ، واللغط المقرف ، بعد قتل جندى الرشاش تتساقط مثل كرات زجاجية صغيرة . تتساقط فى الظلام ، فى اعماق الغابة ، حيث تتصاعد رائحة الاوراق المتفسخـة . وكان الحفيف يذود النوم عن عينيـــه المنطبقتين . . . لا ، لا يجوز . . . لايجوز . . . وفتح ايفان ايليتش بقوة عينيه المنطبقتين ، ورأى خطوط الاغصان غير الواضحة ، وكانها خطوط مرسومة بفحم . . . ولكن من الحمق ايضا الاستمرار باطلاق النار طوال الليـل . . . دعوا المتطوعين ينالون شيئا من راحة . . . ثمانية قتلى ، واحد عشر جريحا . . . طبعا يجب ان يكون الانسان حذرا فى الحرب . . . آه ، داشا ، داشـــا . والقطرات الزجاجية ستشيع السكينة فى النفس ، وتواسى . . .
– ايفان ايليتش ! . . .
– نعم ، نعم ، زوبتسوف ، لست نائما . . .
– اليس من الخطا قتل الانسان ؟ . . اغلب الظن ان له بيتا، وعائلة مهما تكن ، بينما غرزت الحربة فيه ، وكانمـــا اغرزها فى دمية انسان وقضى الامر . عندما قضيت لاول مرة فى حياتى على انسان ، لم استطع ان اذوق الطعام ، فقد شعرت بالغثيان . . . اما الآن فانا اقضى على العاشر او التاسع . . . شىء رهيب ها ؟ فهل هناك شخص يتحمل الخطيئة ؟
– اية خطيئة ؟
– خطيئتى مثلا . اقول ، ان شخصا يتحمل خطيئتى – جنرالا او شخصا آخر فى بطرسبورغ يتصرف بكل هذه الامور . . .
– واية خطيئة لك ، اذا كنت تدافع عن وطنك ؟
– وليكن . . . ولكن يبدو ان هنـــاك من يتحمل الذنب .

فلنبحث عنـــــه . ان من اطلق هذه الحرب ، هو الذى سيتحمل وزرها . . . وسيحاسب عن هذه الامور بشدة . . .
رن فى الغابة صوت اطلاقة حاد . وجفل تليغين وصدرت عدة اطلاقات اخرى من الجانب الآخر .
وكان الامر يبدو اشد غرابة لان العدو لم يكن على احتكاك معهم منذ المساء . هرع تليغين الى التلفون . اخرج جندى التلفون رأسه من الحفرة .
– الجهاز لا يعمل ، يا حضرة الضابط .
والآن راحت الطلقات تتردد تترى فى الغابة كلها وترتطم الرصاصات فى الاغصان . تراجعت النقاط الامامية واخذت ترد على النار وظهر المتطوع كليموف قرب تليغين ، وقال بصوت وحشى غريب : «انهم يطوقوننا ، يـا حضرة الضابط» وقبض على وجهه ، وجلس على الارض ، ثم انطرح عليهـــا . وصرخ شخص آخر فى الظلام :
– يا اخوان ، انا اموت .
لمح تليغين بين جذوع الاشجار قامات المتطوعين الفارعـــة الساكنة . وكانوا جميعا يتجهون بابصارهم اليه وقد احس بذلك . امر بان ينسلوا كل واحد على حدة الى شمال الغابة ، الجهة التى لم تطوق بعد ، فى اغلب الاحتمال . وسيبقى هو يقـاوم هنا ، فى الخنادق مع من يريد ان يبقى ، قدر ما تمكن المقاومة .
– المطلوب خمسة اشخاص ، فمن يرغب ؟
خرج من الاشجار زوبتسوف ، وسوسوف ، والشـــاب كولوف ، واتجهوا نحوه . التفت زوبتسوف وصاح :
– بقى اثنان ! ريابكين ، تعال .
– حسنا ، يمكننى . . .
– الخامس ، الخامس .
نهض من الارض جندى قصير القامـــة يرتدى فروة خروف وقبعة شعثاء :
– ربما انا ايضا .
واستلقى الستة وبين الواحد والآخر زهاء عشرين خطوة ، وراحوا يطلقون النار . واختفت الاشباح وراء الاشجار . افرغ ايفان

ايليتش بضع علب من الخراطيش وفجاة تراءى له بوضوح بالغ كيف ان الرجال ذوى المعاطف الزرق سيقلبون فى صباح الغد جثته المكشرة على ظهرها ، ويأخذون بتفتيشه ، وتمتد يد قذرة وراء القميص .

وضع بندقيته ، وحفر فى الارض الرطبة ، واخرج رسائل داشا ، وقبلها ، ووضعها فى الحفرة التى حفرها ، وطمرها ، وفرش فوقها اوراقا متفسخة . وفجاة سمع صوت سوسوف الى يساره : «اوى ، اوى ، يا اخوان !» لقد بقيت علبتان من الخراطيش .

زحف ايفان ايليتش نحو سوسوف المطرق براسه واستلقى الى جانبه ، وتناول علبتين من حقيبته . والآن لم يبق احد يطلق النار غير تليغين وشخص آخر الى يمينه واخيرا انتهت الخراطيش .

انتظر ايفان ايليتش ، ونظر فيما حوله ، ونهض ، واخذ ينادى على اسماء المتطوعين . ولم يرد على ندائه الا اسم واحد ، وتقدم كولوف منه معتمدا على بندقيته . سأل ايفان ايليتش :

– هل عندك خراطيش ؟

– لا .

– والآخرون لا يردون ؟

– لا ، لا .

– حسنا ، لنذهب . اركض .

القى كولوف بندقيته على ظهره ، وركض متخفيا وراء الاشجار . اما تليغين ، فما ان خطا عشر خطوات حتى احس بوخزة اصبع حديدية كليلة على كتفه من الخلف .

١٧

وتبين انها عتيقة بالية كل التصورات التى تصور الحرب هجوما جريئا للفرسان ومسيرات غير عادية ، ومآثر بطولية للجنود والضباط .

ان الهجوم الشهير لحرس الفرسان ، حين اجتازت ثلاث سرايا

مترجلة ، حواجز الاسلاك الشائكة دون ان تطلق رصاصة واحدة ، وعلى راسها آمر الفوج الأمير دولغوروكوف الذى كان يتخطى تحت نيران الرشاشات والسيغار فى فمه ، ولسانه يرسل الشتائم باللغة الفرنسية كالعادة ، ان هذا الهجوم قد ادى الى ان يفقد حرس الفرسان نصف عدده ما بين قتيل وجريح ، ليستولى على مدفعين ثقيلين تبين انهما قد عطلا بسبب قدمهما ، وانهما كانا محميين برشاش واحد فقط .

وقد قال ضابط سرية قوزاقية فى هذا الصدد : «لو وُكل الأمر الىّ لأستوليت على هذه النفاية بعشرة من القوزاق» .

واتضح من الشهور الاولى ان لا فائدة من شجاعة الجندى السابق ، اى الرجل البطولى الضخم ذى الشاربين الذى يجيد العدو على الفرس وفلق الهام بالسيف دون ان يهاب الرصاص . فقد صار التكتيك وتنظيم المؤخرة يحتلان الصدارة فى الحرب . وطُلب من الجنود ان يموتوا بصلابة وطاعة فى الاماكن المحددة على الخريطة . ونشأت الحاجة الى عساكر مقتدرين على الاختفاء ، والتخندق فى الارض ، والتلاشى مع لون الغبار . ونُسخت كليا القواعد العاطفية التى وضعها مؤتمر لاهاى حول ما يجوز وما لا يجوز فى القتل . وتشتتت مع هذه الورقة الممزقة بقايا الأصول الخلقية التى لم تعد لأحد حاجة اليها .

وهكذا فان الحرب قامت ، خلال بضعة شهور ، بعمل قرن كامل . وحتى ذلك الحين كان الكثيرون ما يزالون يعتقدون بان الحياة الانسانية تحكمها قوانين الخير السامية . وان الخير منتصر على الشر فى آخر المطاف لا محالة وستبلغ الانسانية الكمال . ولكن لقد كان ذلك من بقايا القرون الوسطى التى اوهنت الارادة ، واعاقت سير الحضارة . والآن ، اصبح واضحا حتى للمثاليين الراسخين فى المثالية ان الخير والشر هما مفهومان فلسفيان محض ، وان العبقرية الانسانية قد دخلت فى خدمة سيد خبيث ...

لقد كان ذلك زمنا اُوحى فيه حتى للاطفال الصغار ان القتل والتدمير والقضاء على امم بكاملها هى افعال شجاعة مقدسة . وكانت الصحف بملايين النسخ تردد ذلك يوميا وتزعق به وتدعوا اليه . وكان خبراء خصوصيون يتنبأون كل صباح بنتائج المعارك . وكانت

الصحف تنشر تنبؤات المتنبئة الشهيرة مدام تيب . وظهر العديد من العرّافات والعرّافين والمنجمين والعارفين بالغيب . ونقصت البضائع ، وارتفعت الاسعار ، وتوقف تصدير الخامات من روسيا . وكانت ثلاثة موانئ فى الشمال والشرق – وهى المنافذ الوحيدة الباقية للبلاد المغلقة والمنعزلة انعزالا تاما – لا تستقبل غير القذائف واسلحة الحرب . واهملت زراعة الحقول . وشاعت المليارات من العملة الورقية فى الريف حتى صار الفلاحون يبيعون القمح بلا رغبة .

فى المؤتمر السرى المنعقد فى استوكهولم لاعضاء العصبة الصوفية السرية لانصار «الحكمة الانسانية» قال مؤسس هذه الجماعة ان الصراع الرهيب الذى يجرى فى الاجواء العليا قد انتقل الى الارض الآن ، وستحدث كارثة عالمية ، وستكون روسيا ضحية للتكفير عن الاوزار . وبالفعل كانت جميع الافكار العقلانية تغرق فى اقيانوس من الدم يغمر خط الجبهة الهائل الممتد ثلاثة آلاف فرسخ والذى يطوق اوربا . وما من عقل كان قادرا على ان يوضح لماذا تدمر الانسانية نفسها فى عناد بالحديد والديناميت والمجاعة . ان دمامل متقيحة تعود الى الزمن الغابر كانت تنفجر . كان الجميع يعانى تركة الماضى . ولكن حتى هذا لم يكن ليوضح شيئا .

وبدأت المجاعة فى اقطار . وتوقفت الحياة فى كل مكان . واخذت الحرب تبدو الفصل الأول فقط من تراجيديا .

وامام هذا المشهد كان الفرد الذى اعتُبر الى فترة وجيزة «عالما صغيرا» وشخصا متضخما ، كان كل فرد يتضاءل ويتحول الى ذرة غبار لا حول لها . وخرجت الجماهير البدائية الى اضواء المسرح التراجيدى لتحل محله .

وكان حظ النساء اثقل الحظوظ . لقد كانت كل واحدة منهن وفق ما خصت به من جمال وسحر وذكاء ، قد نسجت لنفسها شبكة عنكبوتية من خيوط دقيقة متينة بما فيه الكفاية بالنسبة للحياة الاعتيادية . وكان كل من كتب له ان يسقط فيها يطن طنينا مسليا على اية حال .

الا ان هذه الحرب قد هتكت هذه الشبكات ايضا . وكان من المستحيل حتى التفكير فى نسجها من جديد فى ذلك الزمن القاسى .

فلا بد من انتظار ازمان افضل . فظلت النساء ينتظرن بصبر ، وكان الزمن ينقضى ، وأعوام النساء المعدودة تمضى قاحلة حزينة .

اصبح الازواج والعشاق والاخوان والابناء – الذين صاروا الآن مجرد ارقام ، وحدات تجريدية محض – يرقدون تحت حدبات ترابية فى الحقول على مشارف الغابات ، وعند الطرق . وكان من المستحيل على اية جهود ان تزيل الغضون الجديدة المتزايدة من وجوه النساء الشائخة قبل الاوان .

١٨

– قلت لأخى : انك جامد العقيدة . انا اكره الاشتراكيين الديموقراطيين ، سيتعذب الشخص فى حكمكم ، اذا زل فى كلامه . انت انسان نجمى . عندئذ طردنى من البيت . وها انا فى موسكو بلا نقود . انها لقضية مسلية جدا . ارجوك ، يا داريا دميترييفنا ان تطلبى الى نيقولاى ايفانوفيتش ان يجد لى عملا . وسيّان عندى اى عمل ، وافضل كل شىء ، بالطبع ، ان يكون فى قطار الاسعاف .

– حسنا ، سأقول له .

– ليس لى احد من المعارف هنا . هل تذكرين «مجمعنا المركزى ؟ يقولون ان فاسيلى فنيامينوفيتش فاليت قدرحل الى مكان ما ، يبدو فى الصين . . . سابوجكوف فى مكان ما فى الجبهة ، وجيروف فى القفقاس يحاضر عن المستقبلية . وانا لا اعرف اين تليغين . يبدو انك كنت من معارفه المقربين ؟

سارت يلزافيتا كييفنا وداشا ببطء فى شارع جانبى بين اكوام الثلج العالية . وكان الثلج يتساقط ندفا صغيرة ، ويهس تحت الاقدام . اخرج سائق زلاجة واطئة حذاءه اللبادى المتصلب من مقعده ، ومر فى عدو بطىء . وقال :

– اوانس ، حذار من السحق !

فى ذلك الشتاء تساقط الثلج بوفرة كبيرة . وكانت اغصان الزيزفون فى ذلك الشارع تتدلى وهى مغطاة بالثلج . وكانت السماء البيضاء الثلجية بكاملها حافلة بالطيور . وكانت غربان الكنيسة تطير فوق المدينة ناعبة وبأسراب متناثرة ، وتحط على الابراج والقباب ، وتحلق فى العلو الزمهريرى .

توقفت داشا عند منعطف ، وعدّلت لفاعها الابيض . وكان معطفها من جلد عجل البحر وموفة اليدين الفرائية قد تغطيا بالثلج . وكان وجهها قد اصابه نحول ، وعيناها قد اتسعتا وازدادتا صرامة . قالت :

– ايفان ايليتش مفقود . وانا لا اعرف شيئا عنه .

ورفعت داشا عينيها ، ونظرت الى الطيور . لا بد ان الغربان كانت جائعة فى المدينة المكسوة بالثلج .

وقفت يلزافيتا كييفنا وعلى شفتيها الحمراوين جدا ابتسامة متجمدة ، واطرقت براسها المعتمر بقبعة أذنية . وكانت ترتدى معطفا رجاليا ضيقا عليها عند النهدين ، ذا ياقة فرائية مفرطة فى عرضها ، وكمّين قصيرين لا يغطيان يديها المحمرتين . وكانت بعض ندف الثلج تذوب على رقبتها المصفرة قليلا .

قالت داشا :

– ساتحدث هذا اليوم مع نيقولاى ايفانوفيتش .

– انا اقبل باى عمل – قالت يلزافيتا كييفنا ، ونظرت الى قدميها ، وهزت راسها – لقد احببت ايفان ايليتش حبا شديدا ، حبا شديدا جدا – وضحكت ، واغرورقت بالدموع عيناها القصيرتا النظر – اذن ، سآتى غدا . الى اللقاء .

ودّعت ، وانصرفت تخطو خطوات عراضا بحذائها اللبادى ، حاشرة يديها المتجمدتين فى جيبيها كما يفعل الرجال .

نظرت داشا فى اثرها ، ثم قطبت حاجبيها ، واستدارت فى المنعطف ، ودخلت الفيلا الذى تستخدم الآن مستشفى عسكريا للمدينة . هنا ، فى غرف الفيلا العالية السقوف ، المغطاة بخشب البلوط ، الفوّاحة برائحة اليود كان الجرحى الحليقو الرؤوس منطرحين على اسرة او قاعدين ، وقد ارتدوا ثياب المستشفى . وكان اثنان يلعبان الداما عند النافذة . وكان شخص آخر يذرع الغرفة من ركن الى ركن وهو يمس الارض بنعليه مسا رقيقا . وحين ظهرت داشا القى عليها نظرة سريعة وغضّن جبينه المنخفض ، واستلقى على سريره ملقيا يديه وراء راسه .

نادى صوت واهن :

– يا ممرضة !

اقتربت داشا من شاب ضخم منتفخ ذى شفتين سميكتين . فقال هذا متأوها بعد كل كلمة :

– اديرينى على الجنب الايسر ، بحق المسيح .

امسكته داشا ، ورفعته بكل قوتها ، وقلبته كالزكيبة .

– حان وقت قياس حرارتى ، يا ممرضة .

نفضت داشا محرارا ، وحشرته تحت ابطه .

– انا اتقيا ، يا ممرضة . ما ان آكل كسرة خبز حتى افرغ كل شىء . كل هذا فوق طاقتى .

غطته داشا ببطانية ، وانصرفت عنه . لاحت ابتسامات على وجوه المرضى فى الأسرة المجاورة ، وقال أحدهم :

– انه يتظاهر من اجلك ، والا فهو معافى كالثور .

وقال صوت آخر :

– اتركوه يضطرب فهو لا يؤذى احدا . انه شغل للممرضة ومتعة له .

– يا ممرضة ، هذا سيمين يريد ان يسالك عن شىء ولكنه يستحى .

تقدمت داشا من رجل كان قاعدا على سريره له عينان مرحتان مستديرتان كعيون الغربان ، وفم صغير كفم الدب . وقد مشط لحيته الضخمة المستديرة كالمروحة . رفع لحيته ، ومط شفتيه باتجاه داشا .

– انهم يضحكون ، يا ممرضة . انا مرتاح من كل شىء ، ممتن تماما .

ابتسمت داشا . وزايل قلبها الثقل الذى كان يجثم عليه قبل حين . جلست على حافة سرير سيمين . طوت كُمّ الجريح ، واخذت تعاين ضمادته . فراح هذا يصف لها مواضع الالم فيه بالتفصيل .

كانت داشا قد وصلت الى موسكو فى تشرين الاول ، حين دخل نيقولاى ايفانوفيتش فى فرع موسكو من الاتحاد البلدى للدفاع محمولا بدوافع وطنية . وقد اعطى شقته فى بطرسبورغ الى انجليز من البعثة العسكرية ، وعاش مع داشا فى موسكو حياة بسيطة ، فكان يرتدى سترة من الشموا ، ويشتم المثقفين الناعمين ، ويعمل كالحصان ، على حد تعبيره .

وكانت داشا تدرس القانون الجزائى ، وتقوم بشؤون المنزل الصغير ، وتكتب لايفان ايليتش كل يوم . وكانت مطمئنة النفس مستورة . وبدا الماضى بعيدا وكانه يعود الى حياة شخص آخر . كانت وكانها تعيش بنصف وجودها مفعمة بالقلق وانتظار الاخبار ، والحرص على ان تحفظ نفسها لايفان ايليتش فى طهارة وصرامة .

فى بداية تشرين الثانى ، وبينما كانت داشا تقلب صحيفة «الكلمة الروسية» وهى تحتسى قهوتها رات اسم تليغين فى قائمة المفقودين . كانت القائمة تشغل عمودين ببنط صغير . مرّت داشا على اسماء الجرحى ، واسماء القتلى ، ورات اسم تليغين الملازم الثانى فى آخر قائمة المفقودين .

وهكذا كان النبأ الذى سوّد كل حياتها لا يشغل الا سطرا واحدا من البنط الصغير .

وشعرت داشا بان كل هذه الحروف الصغيرة ، والسطور الجافة ، والاعمدة والعناوين تمتلىء بالدم . كانت هذه لحظة من الرعب لا توصف ، فقد تحولت صفحة الجريدة الى الشىء الذى كانت تكتب عنه ، الى كتلة شريرة دامية تفوح بالموت ، وتزار باصوات خفية .

هزّت القشعريرة داشا . وحتى يأسها غرق فى هذا الرعب الحيوانى والغثيان . انطرحت على الاريكة ، وغطت نفسها فى معطفها .

جاء نيقولاى ايفانوفيتش عند الغداء ، وجلس عند قدمى داشا ، ومسد عليهما صامتا ، قائلا :

— انتظرى ، يا داشا ، المهم ان تنتظرى . انه مفقود ، والظاهر انه وقع فى الاسر . وانا اعرف الف حالة مشابهة .

وفى الليل رات فى حلمها رجلا فى قميص جندى جالسا على سرير حديدى فى حجرة فارغة ضيقة يغطى نافذتها نسيج العنكبوت والغبار . وكان وجهه الرمادى يتلوى من الالم . وكان يشد على جمجمته الصلعاء بكلتا يديه ، ويقشرها وكانها بيضة ، وياخذ ما تحت القشرة وياكله ، داسا اصابعه فى فمه .

صرخت داشا فى الليل صرخة جعلت نيقولاى ايفانوفيتش يجد نفسه عند سريرها مغطى ببطانية ، وقضى وقتا طويلا قبل ان يقنعها على ان تقول ما حصل . ثم وضع قطرات الناردين فى قدح ، وقدمه لتشربها داشا ، وشرب هو ايضا .

كانت داشا ، وهى جالسة على سريرها ، تدق صدرها باصابعها المضمومة ، وتقول بخفوت ويأس :

— لا استطيع ان اعيش بعد الآن . افهمنى ، يا نيقولاى ، لا استطيع ، ولا اريد .

كان من الصعب جدا ان تعيش بعد ما حدث ، ومن المستحيل ان تعيش كما كانت تعيش قبل هذا .

مست الحرب داشا باصبعها الحديدية لا غير ، والآن صار كل الموت وكل الدموع من نصيبها . وحين مرّت الايام الاولى من اليأس الحاد اتخذت داشا الشىء الوحيد الذى تستطيع ان تفعله : اجتازت الدورة المستعجلة للممرضات ، واشتغلت فى مستشفى عسكرى .

فى بادىء الامر واجهت صعوبة كبيرة . فقد كان ياتى من الجبهة جرحى لم يغيروا ضماداتهم اياما عديدة ، وكانت ضمادات الشاش ترسل رائحة كريهة تبعث الدوار فى الممرضات . واثناء العمليات كان على داشا ان تمسك بالارجل والايدى المسودة التى كان يتساقط من جراحها قطع متخثرة من الدم والقيح ، وعرفت كيف يكز الرجال الاقوياء على اسنانهم ، وترتعش اجسامهم عاجزة عن تحمل الالم .

وكانت تلك العذابات من الكثرة بحيث لم تكن تكفيها كل الرحمة الموجودة فى هذه الدنيا لتشفق عليها . بدا لداشا انها قد ارتبطت الى الابد بهذه الحياة المشوهة المدماة ، ولا حياة اخرى غيرها . كانت ظليلة المصباح الخضراء تشتعل فى حجرة الخفارة الليلية ، وتترامى من وراء الجدار تمتمة شخص فى هذيانه . وكانت القوارير تصطك على الرف حين تمر سيارة فى الشارع . ويصبح هذا الانسحاق جزءا من الحياة الحقيقية .

وكانت داشا تسترجع الماضى ، وهى جالسة الى منضدة فى حجرة الخفارة ليلا ، فيلوح لها كالحلم فىوضوح متزايد . لقد عاشت ، كما عاش الجميع ، مفتونة بنفسها ، متعالية . واذا بها تجد نفسها تهبط من السحب لتسقط فى الدم ، فى الوحل ، فى هذا المستشفى العسكرى ، حيث رائحة الجسد العليل وحيث يئن الناس فى نومهم انينا ثقيلا ، ويهذرون ويتمتمون . وها هو الجندى التترى يحتضر ، وبعد عشر دقائق سيتعين عليها ان تذهب اليه وتحقنه بالمورفين .

اقلق داشا لقاؤها اليوم مع يلزافيتا كيبفنا . كان اليوم متعبا ، فقد جلبوا من غاليسيا جرحى مثخنين ، حتى اضطروا الى قطع كف احدهم من الرسغ وبتر ذراع آخر من الكتف ، وكان اثنان منهم يهذيان هذيان الاحتضار . وقد تعبت خلال اليوم ، ومع ذلك فقد ظلت ايلزافيتا كيبفنا عالقة فى ذهنها بيديها المحمرتين ، ومعطفها الرجالى ، والابتسامة البائسة ، والعينين الوديعتين .

جلست داشا فى المساء لتستريح ، وحدقت فى الظليلة الخضراء ، وفكرت فى ان تكون تلك المقدرة على البكاء فى منعطف الطريق ، وعلى القول لشخص غريب : «احببت ايفان ايليتش حبا شديدا ، حبا شديدا جدا ...»

قعدت داشا على مقعد كبير مائلة الى جنب تارة ، وضامة رجليها تارة اخرى ، وفتحت كتابا – هو تقرير عن «نشاط الاتحاد البلدى» خلال ثلاثة اشهر – اعمدة من الارقام والكلمات غير المفهومة كليا ، ولكنها لم تجد فى الكتاب سلوى . نظرت الى الساعة وتنهدت ثم مضت الى غرفة الجرحى .

كان الجرحى نائمين ، والهواء خانقا . وكان مصباح شاحب الضوء موضوع داخل طوق الثريا الحديدى ، يشتعل على ارتفاع عال تحت السقف البلوطى . وكان الجندى التترى الشاب الذى بترت ذراعه يهذى مقلبا راسه الحليق على الوسادة . رفعت داشا قارورة الثلج من الارض ، ووضعتها على جبينه الملتهب ، وعدلت بطانيته . ثم طافت على الاسرة كلها وجلست على مقعد منخفض ، طاوية يديها على ركبتيها .

وقالت لنفسها «ان قلبى غير متمرن . تعلم فقط ان يحب الرشيق والجميل . ولم يتعلم ان يشفق ويحب ما لا يحب» . وسمعت صوتا رقيقا يقول : اتريدين ان تنامى يا ممرضة ؟ فالتفتت . كان سيمين ذو اللحية ينظر اليها من سريره .

سالته داشا :

– لماذا غير نائم ؟

– نمت فى النهار .

– هل توجعك يدك ؟

– هدات ... يا ممرضة .

– نعم ؟

– ان وجهك يبدو صغيرا . العلك تريدين النوم ؟ اذهبى لتاخذى غفوة ! وسأراقب انا ، وادعوك اذا دعت الحاجة .

– لا ، لا اريد النوم .

– هل لديك اقارب فى الجبهة ؟

– خطيبى .

– يحفظه الله .

– انه مفقود .

– آى ، آى – وهزّ سيمين لحيته ، وتاوه – اخى الصغير كان مفقودا ، وبعد ذلك تلقينا رسالة منه . انه اسير . وهل خطيبك رجل طيب ؟

– طيب جدا جدا .

– ربما سمعت به . ما اسمه ؟

– ايفان ايليتش تليغين .

– سمعت . انتظرى على مهلك . لقد سمعت انه وقع فى الاسر . فى اى فوج ؟

– فوج قازانسكى .

– انه بالذات اسير ، وحى يرزق . انه انسان طيب ! لا باس ، يا ممرضة ، ما عليك الا ان تنتظرى . ستنتهى الحرب مع اقتراب الربيع . سنتصالح . ستلدين له ابناء . ثقى بى .

استمعت داشا اليه ، والدموع فى حلقومها . وكانت تعرف ان سيمين يلفق كل شىء ، وهو لا يعرف ايفان ايليتش . ومع ذلك كانت ممتنة له . قال سيمين بصوت خفيض .

– آه ، يا مسكينتى ...

ولما عادت الى حجرة الخفارة ، وجلست على المقعد واضعة وجهها على ظهره . احست وكأنهم قد قبلوها معهم فى ود ، وهى الغريبة ، قائلين لها : ابقى معنا . وبدا لها انها الآن تشمل بحنانها كل الجرحى والنائمين . ومع حنانها وتصوراتها تخيلت فجأة وبوضوح شديد ان ايفان ايليتش هو ايضا ينام ويتنفس مثل هؤلاء على سرير ضيق فى مكان ما ...

اخذت داشا تروح وتجئ فى الحجرة .وفجاة رن التلفون وبعث

فى جسمها رعدة قوية . فقد كان رنينه حادا جدا وغليظا فى السكون الغافى . لا بد انهم جلبوا جرحى آخرين فى القطار الليلى .

– نعم .

ردّت داشا ، فسمعت فى السماعة صوتـا نسائيا رقيقـا منفعلا :

– اريد ان اكلم داريا دميترييفنا بولافينا .

– هذه انا – ردّت داشا ، وخفق قلبها خفقانا شديدا – من انت ؟ . . كاتيـا ؟ . . . . كاتيوشـا ؟ اهذه انت ؟ . . . عزيزتى ! . .

١٩

– هـا نحن سويـة من جديد ، يا فتيات – قـال نيقولاى ايفانوفيتش ، ساحبا سترته الشموا على بطنه وامسك خنك يكاترينا دميترييفنا ، وقبلها من خدها قبلـة رنانة قائلا : – صباح الخير ، يا حلوة ، كيف نمت ؟

ومرّ بداشا جالسة على مقعدها ، فقبلها من شعرها .

– انـا وهى الآن على اتم وفاق ، يا كاتيوشا . انهـا فتاة رائعة ، محبة للعمل .

وجلس الى المائدة المغطـاة بمفرش ناصع البياض ، وقرب منه كاس البيضة الصينيـة التى وضعت فيها بيضـة ، واخذ يكسر راسها .

– تصورى ، يا كاتيوشا ، اننى احببت البيض على الطريقة الانجليزيـة مـع الخردل والزبدة ، فانـه لذيذ جدا . انصحك بـان تجربيه . اما فى المانيـا فيعطون لكل فرد بيضة واحدة مرتين فى الشهر ، فما رايك فى ذلك ؟

وفتح فمه الواسع ، وضحك .

– ان هذه البيضة ذاتها ستسبب الخراب لالمانيا . يقولون ان الاطفال اخذوا يلدون عندهـم بلا جلود . كان بسمارك يقول لهؤلاء الحمقى يجب ان يعيشوا مع روسيا فى سلام . ولم يصغوا ، واحتقرونا . والآن تفضلوا ، بيضتان فى الشهر .

قالت يكاترينا دميترييفنا ، وهى تخفض راسها :

– انه لشىء مريع ان يولد الاطفال بلا جلود ، مريع اينما ولد هؤلاء الاطفال ، سواء عندنا او عند الالمان .

– اعذرينى ، يا كاتيوشا ، انت تتكلمين سخافة .

– انا اعرف فقط ان من الفظاعة ان يقتل الناس كل يوم ، فظاعة مريعة تسلبك الرغبة فى ان تستمر فى العيش .

– وما العمل ، ياعزيزتى ؟ ان المرء يضطر الى ان يفهم من معاناته الخاصة ما هى الدولة . كنـا نقرا فقط عند ايلوفايسكى واضرابه من المؤرخين كيف قاتل الفلاحون دفاعا عن اراضيهم فى معارك كوليكوفو * وبورودينو ** . وكنـا ننظر الى الخارطة ، ونقول لانفسنا : «آه ، ما اكبر روسيا !» . والآن علينـا ان نقدم نسبة معينة من الحيوات للحفاظ على سلامـة تلك التى تلون فى الخرائط باللون الاخضر ، وتمتد عبر اوربا كلها وآسيا . انه لشىء مقبض . سأتفق معك اذا قلت ان جهاز الدولة عندنا سيئ . والآن ، حين اخرج لاموت فى سبيل الدولة فانا قبل كل شىء اسأل اولئك الذين يرسلوننى الى الموت : هل انتم ذوو القوة القاهرة لحكمة الدولة . وهل استطيـع ان اريق دمى بارتيـاح فى سبيل الوطن ؟ نعـم ، ياكاتيوشا ، ما تزال الحكومة على عادتها القديمة فى النظر شزرا الى المنظمات الاجتماعية . ولكن اضحى واضحا انهـا لا تستطيع الآن الاستغناء عنا ابدا . نحن نتدخل شيئا فشيئا فى شؤون الدولة . انا متفائل جدا .

ونهض نيقولاى ايفانوفيتش ، وتناول علبة كبريت من رف

---

* معركة كوليكوفو (عام ١٣٨٠) معركة تاريخية انتصرت فيها القوات الروسية بقيادة الامير دميترى دونسكوى على جحافل التتار تحت قيادة خان ماماى انتصارا عظيما (**المترجم**) .

** معركة بورودينو (عام ١٨١٢) من اعظم معارك الحرب الوطنية الروسية بين القوات الروسية تحت قيادة ميخائيل كوتوزوف والقـوات الفرنسية بقيادة نابوليون الاول . وقد وقعت فى ضواحى موسكو واصبحت انعطافا فى سير الحرب لصالح القوات الروسية وحددت حتمية هزيمة جيش نابوليون . (**المترجم**) .

قشرة البيضة . وتابع كلامه قائلا : لن يذهب الدم المراق جزافا . الموقد ، واشعل سيكارته واقفا ، والقى عود الثقاب المنطفىء فى وستنتهى الحرب بان يقف وراء دفة الدولة اخونا ، رجل المجتمع . ستفعل الحرب ما اخفقت عن فعله جماعة «الارض والارادة» ، والثوريون والماركسيون . مع السلامة ، يا فتيات .

وعدّل سترته ، وخرج ، وبدا من ظهره مثل امرأة بدينة متنكرة بلباس رجالى .

تنهدت يكاترينا دميتريفنا ، وجلست عند النافذة مع حياكتها . وجلست داشا الى جانبها على ذراع المقعد ، وطوقت كتفى اختها . كانت كلتاهما فى ثوب اسود عالى الرقبة ، انهما الآن فى جلستهما الصامتة الهادئة هذه متشابهتان جدا . كانت ندف الثلج الصغيرة تتساقط ببطء وراء النافذة ، وكان الضوء الثلجى الصاف ينعكس على جدران الغرفة . ضغطت داشا بخدها على شعر كاتيا المعطر قليلا بعطر غير مألوف لها .

— كاتيوشا ، كيف قضيت تلك المدة ؟ انك لا تحدثيننى بشىء .

— وعم احدثك ، ياقطيطة ؟ لقد كتبت لك .

— ومع ذلك ، فانا لا افهم . انك ، يا كاتيوشا ، جميلة ساحرة ، طيبة . انا لا اعرف امراة اخرى على غرارك . ولكن لماذا لا تبدين سعيدة ؟ وعيناك دائما حزينتان ؟

— اظن ان قلبى تعيس ؟

— لا ، انا اسالك جادة .

— انا نفسى دائمة التفكير فى ذلك ، يا اختى . من المرجح ان الانسان حين يمتلك كل شىء يشعر بتعاسة حقيقية . ان لى زوجا طيبا ، واختا محبوبة ، وحرية ... بينما اعيش وكاننى فى سراب ، واسير كالشبح ... اتذكر اننى قلت لنفسى فى باريس : ليتنى اعيش فى بلدة صغيرة نائية ، واربى الدواجن ، وازرع الحديقة بالخضروات ، وفى المساء التقى بصديقى العزيز وراء النهر ... لا ، يا داشا ، ان حياتى قد انتهت .

— لا تتفوهى حماقة ، يا كاتيوشا .

نظرت كاتيا الى اختها بعينين فارغتين شابتهما دكنة :

— اتعرفين اننى اتحسس ذلك اليوم نفسه . واحيانا يتراءى لى بوضوح تلك الفرشة المخططة ، والمفرش المنزلق ، والحوض المملوء بالصفراء التى تقيأتها ... وانا ارقد ميتة ، صفراء ، شائخة ...

وانزلت يكاترينا دميتريفنا طرة الحياكة الصوفية ، وحدقت فى ندف الثلج المتساقطة فى السكون الراكد . وفى البعيد ، من تحت برج الكرملين المستدق ، من تحت النسر الذهبى المقوس الساقين كانت الغربان تحوم مثل سحابة من الاوراق السوداء .

— اتذكر ، يا داشا ، اننى استيقظت مرة فى ساعة مبكرة جدا من الصباح . وكانت باريس تبدو من الشرفة ملفعة كلها بدخان مزرق ، ومن كل مكان فيها كانت تتصاعد ادخنة بيضاء ورمادية وزرقاء . وكان المطر قد هطل اثناء الليل ، وفى الجو رائحة طراوة وخضرة وفانيليا . وفى الشارع سار اطفال يحملون كتبا ، ونساء مع سلالهن ، وقد فتحت حوانيت الاطعمة ابوابها . وبدا ذلك ثابتا وسرمديا . وراودتنى الرغبة فى ان انزل الى الاسفل ، واختلط بالجمع ، والتقى برجل ذى عينين ودودتين ، واضع يدى على صدره . ولكن عندما نزلت الى الشوارع العريضة ، كان الجنون قد شمل المدينة كلها . كان باعة الصحف يركضون ، وجماهير الناس المضطربة فى كل مكان . والصحف كلها تتشبع برعب وموت وكراهية . لقد بدات الحرب . ومنذ ذلك اليوم لم اسمع غير كلمة .. الموت ، الموت ... فعلام التعويل بعد كل هذا ؟ ..

صمتت داشا قليلا ، ونادت :

— كاتيوشا ...

— ماذا ، يا حبيبتى ؟

— كيف انت مع نيقولاى ايفانوفيتش ؟

— لا اعرف . يبدو ان احدنا صفح للآخر . انظرى لقد مرت ثلاثة ايام ، وهو رقيق جدا معى . لا مكان للحسابات النسائية . ومن يهتم بالمرأة حتى اذا فقدت عقلها مما تعانى من عذاب ؟ صوتى كطنين بعوضة ولا اكاد اسمعه . انا احسد العجائز ، فهن ياخذن كل شىء ببساطة : الموت قريب منهن ، لهذا فهن يتهيأن للقائه .

غيّرت داشا جلستها على ذراع المقعد ، وزفرت زفرات

عميقة ، وانزلت ذراعها عن كتفى كاتيا ، قالت يكاترينا دميتربيفنا برقة :

— عزيزتى داشا ، لقد اخبرنى نيقولاى ايفانوفيتش بانك مخطوبة . صحيح ؟ يا عزيزتى المسكينة ! وتناولت يد داشا ، وقبلتها ، ووضعتها على صدرها ، واخذت تمسدها قائلة : انا اعتقد بان ايفان ايليتش حى . اذا كنت تحبينه جدا ، فانت فى غير حاجة الى شىء آخر فى الدنيا .

صمتت الشقيقتان مرة اخرى محدقتين فى الثلج المتساقط وراء النافذة . مرّت فى الشارع فصيلة من طلاب المدارس العسكرية تتزلق احذيتهم بين اكوام الثلج ، وكان كل واحد منهم يتابط ليفة من اغصان البتولا وتبديلة ثياب داخلية . كانوا ذاهبين الى الحمام وكانوا ينشدون نشيدا بحنجرة فقط يتخلله الصفير :

حلقى ، يا صقور ، كالنسور
كفانا الحزن والكمد ...

بعد غياب عدة ايام عادت داشا مرة اخرى الى العمل فى المستشفى العسكرى . وبقيت يكاترينا دميتربيفنا وحدها فى الشقة التى كان كل شىء فيها غريبا عليها : منظران طبيعيان مملان معلقان على الحائط يصوران كومة دريس ، وماء متخلف من ثلج ذائب يتجمع بين اشجار البتولا الجرداء . وفوق الاريكة فى غرفة الطعام صور فوتوغرافية لاناس لا تعرفهم ، وفى الزاوية حزمة من عشب السهب المغبر .

حاولت يكاترينا دميتربيفنا ان تذهب الى المسرح ، حيث كان الممثلون القدامى يمثلون مسرحيات لاوستروفسكى ، والى معارض الصور والمتاحف ، الا ان كل ذلك بدا لها شاحبا ناصل الالوان ، نصف ميت ، وبدت هى لعينيها شبحا يطوف فى عالم هجره جميع الاحياء منذ زمان .

كانت يكاترينا دميتربيفنا تقضى ساعات بكاملها جالسة عند النافذة بالقرب من انابيب التدفئة المشعة دفئا ، تنظر الى موسكو الثلجية الهادئة ، حيث كان رنين اجارس الكنائس الحزين يتردد فى الهواء الرقيق ، ومن خلال الثلج المتساقط ليعلن عن صلاة

تذكارية ، او عن جناز لقتيل جلب من الجبهة . كان الكتاب يسقط من يديها . فعمّ تقرأ الآن ؟ وبم تحلم ؟ وكم تبدو تافهة الآن جميع الاحلام والافكار السالفة !

وكان الوقت يمضى ما بين جريدة الصباح وجريدة المساء . وكانت يكاترينا دميتربيفنا ترى جميع المحيطين بها يعيشون بالمستقبل وحده ، بايام تخيلية من النصر والسلام . وكان كل ما يعزز هذه التوقعات يستقبل بفرح غامر ، بينما كانت الاخفاقات تُسلم الناس الى الكآبة وتنكيس الرؤوس . وكان الناس كالمجانين فى تسقطهم للاشاعات ، ونتف العبارات ، والانباء غير المحتملة ، وفى التهابهم بما تنشره الصحف .

واخيرا قررت يكاترينا دميتربيفنا ان تتحدث مع زوجها طالبة اليه ان يجد لها عملا . وفى بداية آذار بدأت العمل فى نفس المستشفى الذى كانت داشا تعمل فيه .

وفى الايام الاولى شعرت بما شعرت به داشا من نفور من القذارة والعذاب . الا انها تغلبت على نفسها ، واستأنست بالعمل تدريجيا . وقد بث هذا التغلب على نفسها الفرح فى اعطافها . ولاول مرة احست بدنوها من الحياة المحيطة بها . واحبت العمل القذر المتعب ، واشفقت على الذين تعمل لهم . وذات مرة قالت لداشا :

— لماذا قالوا بوجوب ان نعيش حياة مصفّاة غير اعتيادية ؟ نحن من حيث الجوهر ، امراتان كبقية النساء . وبحاجة الى زوجين اكثر بساطة ، واطفال اكثر ، وعيشة اقرب الى الطبيعة .

فى اسبوع الآلام زارت الشقيقتان كنيسة نيقولا بقرب محطة رجيفسكى . واخذت يكاترينا دميتربيفنا معها طعام عيد الفصح المعد للمستشفى لتباركه فى الكنيسة ، وفطرت مع داشا فى المستشفى . وكان على نيقولاى ايفانوفيتش ان يحضر اجتماعا استثنائيا فى تلك الليلة فجاء فى سيارة بعد الساعة الثانية ليلا لياخذ الشقيقتين من المستشفى . قالت يكاترينا دميتربيفنا انها وداشا لا تشعران بنعاس ، وطلبت ان ياخذهما فى جولة فى السيارة . وكان ذلك غير معقول ، الا انهم قدموا للسائق قدح كونياك ، وذهبوا الى منطقة خودينسكويه بوليه ، فى اطراف موسكو .

كانت فى الجو لذعة من القرس برّدت الوجنات . والسماء خالية من الغيوم ، فيها القليل من النجوم المتلألئة . وكان الجليد يتكسر تحت عجلات السيارة . وكانت كاتيا وداشا تضغط احداهما على الاخرى فى مقعد السيارة العميق ، كانت كلتاهما فى منديل ابيض ، ومعطف فرائى رمادى . التفت نيقولاى ايفانوفيتش اليهما من مقعد الى جانب السائق – كانت كلتاهما سوداء الحاجبين واسعة العينين . فقال بصوت خفيض :

– اوه ، ياربى ، لا اعرف ايكما زوجتى .

اجابت واحدة منهما :

– لن تحزر .

وضحكت كلتاهما .

بدات حواف السماء تخضوضر قليلا فوق الحقل الهائل المغبّش ، وفى البعيد لاحت معالم سوداء للغابة «سيريبريانى بور» .

قالت داشا خافتة الصوت :

– كاتيوشا ، كم اود ان اعشق !

فضغطت يكاترينا دميتريفنا على يدها ضغطة خفيفة . لمعت نجمة كبيرة فوق الغابة ، فى رطوبة الفجر الخضراء ، وتماوج لمعانها ، وكانها تتنفس .

– نسيت ان اقول لك ، يا كاتيوشا – قال نيقولاى ايفانوفيتش ، واستدار على المقعد بكل جسمه . – قبل حين وصل مندوبنا المفوّض تشوماكوف ، وهو يقول ان الوضع فى غاليسيا حرج جدا . الالمان يقذفوننا بنار صاعقة ، حتى انهم يسحقون افواجا كاملة فى ضربة واحدة . ونحن نعانى نقصا فى القذائف . . . اللعنة ! . .

لم تجب كاتيا ، بل رفعت بصرها الى النجوم . وضغطت داشا خدها على كتفها بينما اطلق نيقولاى ايفانوفيتش لعنات اخرى ، وامر السائق بالعودة الى البيت .

فى اليوم الثالث من عيد الفصح شعرت يكاترينا دميتريفنا بتوعك ، ولم تخرج للخفارة ، ولزمت الفراش . وتبين انها مصابة بالتهاب الرئتين ، فلا بد ان بردا قد نفذ عميقا فى اوصالها .

٢٠

– تلك هى اوضاعنا ، بالغة السوء .

– كفاك بحلقة فى النار ، اذهب لتنام .

– تلك هى الاوضاع . . . آه ، يا اخوانى ، ان روسيا تضيع !

كان ثلاثة من الجنود يجلسون قرب نار آخذة بالهمود عند حائط طينى لزريبة مغطاة بسقف من القش مرتفع مثل كديسة تبن . كان احدهم يجفف لفافة ساقيه على اوتاد قرب النار ، ويراقبها لئلا تحترق . وكان الثانى يخيط رقعة على بنطاله ، ويسحب الخيط بحذر . اما الثالث ، وهو مجدر الوجه ، ذو انف كبير ولحية سوداء هزيلة الشعر ، فكان يحدق فى النار بعينين غائرتين ماخوذتين ، وقد طوى ساقيه وحشر يديه عميقا فى جيبى بنطاله . وقال بصوت خفيض :

– الخيانة فى كل مكان ، تلك هى المسالة . ما ان تبدأ قواتنا بالتفوق حتى تؤمر بالانسحاب . نحن لا نعرف الا ان نعلق اليهود على الاشجار ، بينما الخيانة تعشش فى القمة .

قال الجندى الذى كان يجفف لفافة الساقين :

– قرفت من هذه الحرب تماما ، ولكن لا توجد جريدة واحدة تكتب عن ذلك – ووضع عسلوجا على الجمر بحذر وتابع قوله : نزلنا نهاجم ، ثم انسحبنا ، وبعد ذلك عدنا الى الهجوم ، اوه ، اللعنة عليهم جميعا . وها نحن نعود الى موقعنا السابق بنفس الوضع ، بلا نفع ولا جدوى !

وبصق فى النار . وقال الجندى مرقع البنطال بضحكة هازئة دون ان يرفع راسه من عمله :

– قبل حين جاء الملازم الاول جادوف الىّ . لا بأس . ربما من الضجر ضايقته الشياطين . فاخذ بدوره يضايقنى . ماسبب الثقب فى بنطالك ؟ ولماذا تقف بهذا الشكل ؟ فاعتصمت بالصمت . وانتهى حديثنا بطريقة بسيطة جدا ، بلطمة على اسنانى .

ردّ الجندى الذى كان يجفف لفافة الساقين :

– لا بنادق ، ولا عتاد . وفي بطاريتنا لا توجد غير سبع قذائف لكل مدفع . فلا يبقى لهم الا الضرب على الاسنان .

نظر مرقع البنطال اليه مندهشا ، وهزّ راسه بتأييد . وقال الجندي ذو الشعر الاسود والعينين المخيفتين :

– استدعوا جميع الرجال ، وهم الآن يجندون الى سن الثالثة والاربعين . وبمثل هذه القوة يمكن اجتياح العالم كلـه . وهل نحن نرفض ان نقاتل ؟ شرط ان تؤدي واجبك ، مثلما نؤدي واجبنا .

هزّ مرقع البنطال راسه :

– تماما . . .

فقال اسود الشعر :

– لقد رايت حقلا قرب فارسوفيا كان يرقد على ارضه ما بين خمسة الآف الى ستة الآف مقاتل سيبيري . وجميعهم قتلى ، مرتمين مثل احزمة من القش . فلماذا ؟ وما السبب ؟ ساقول لكم السبب . . . حين اخذ المجلس العسكري يقرر هذا وذاك من الامور ، خرج احد الجنرالات من هناك في الحال وبعث برقية سرية الى برلين . فهمت ؟ وخرج الفيلقان السيبيريان من محطة القطار واتجهـا قدما الى ذلك الحقل ، فاذا بهمـا يقعان تحت نيران الرشاشـات المباشرة . وانت تحدثني عن لطمـة اصابت اسنانك . عندمـا كنت لا اركب النير على الحصان بشكـل جيد ، كان ابي ياتي ويصفعني عـلى وجهي ، لكي يجعلني اتعلم العمل احسن واشعر بالخوف . ولكن لاي شيء جندلوا المقاتلين السيبيريين كالخراف ؟ لقد قلت لكم ، يا اصحابي ، ان روسيا قد ضاعت . ونحن قد غدر بنا جميعا . غدر بنا فلاح هو من ابناء قريتي بوكروفسكويـه ، صعلوك متشرد . ولا اريد ان اذكر اسمه . . . انه جاهل ، مشاكس يتصنع اللطافة ، ترك العمل ، واخذ يسرق الخيول ، ويتردد عـلى الاديرة ، وتعلق بالنسـاء وشرب الخمور . . . وهو الآن في بطرسبورغ يعيش كالقيصر يرقص حوله الوزراء والجنرالات ، نحن نقتل هنا بالآلاف ، ونرقد على الارض الرطبة ، بينما هم يسبحون في الكهرباء في بطرسبورغ ، ويشربون ، وياكلون ، وينفجرون سمنة .

وسكت فجاة . كان الصمت والرطوبة يلفان الجو . ثم ترامى من الزريبة صوت خيول تقضم باسنانها ، وارتطام احدها في الجدار

ارتطاما خافتا . هبط طائر ليلي من وراء السقف نحو النار ، واختفى زاعقا زعيقا شاكيا . وفي تلك اللحظة صدر في السمـاء البعيدة ، زئير هادر مقترب ، وكان وحشا كان ينطلق بسرعة لا تصدق ، شاقا الظلام ببوزه ، وارتطم في مكان ما ، وفي البعيد ، وراء الزريبة ، اندلع انفجار هزّ الارض هزا . ضربت الخيول الارض بحوافرها ، ورنت لجاماتها . قال الجندي مرقع البنطال مرتاعا :

– هذه هي الضربة !

– يا له من مدفع !

– انتظر !

رفع الثلاثة رؤوسهم . وصدر في السماء الخالية من النجوم صوت ثان استمر حوالي دقيقتين ، ووقـع الانفجار الثاني في بقعة قريبة جدا وراء الزريبة ، وبرزت اشباح اشجار الشوح المخروطية ، واهتزت الارض مرة اخرى . وفي الحال سمعـوا مسار القنبلـة الثالثة . وكان صوتها متقطعا ثقيلا على السمع يجلب الانتباه ويجعل القلوب تتجمد في الصدور . نهض الجندي ذو الشعر الاسود من الارض ، واخذ يتراجـع . وانقض شيء من الاعلى وانزلق كالبرق الاسود ، واندفع الى الاعلى عمود ناري اسود بفرقعة مدوية .

وحين سقط العمود لم تبق الا حفرة عميقة في المكان الذي كان فيه الجنود والنار . وكان السقف القشي يحترق مرسلا الدخان الاصفر فوق جدار الزريبة المنهار . اندفع حصان طويل العرف من اللهب شاخرا ، منطلقا نحو اشجار صنوبر كانت بارزة من الظلام .

وهناك ، وراء حوافي السهل المسننة اخذت تبرق هالة النيران ، والمدافع تهدر ، وترتفع الصواريخ مثل ديدان طويلـة ، فتضيء نيرانها ، وهي تتساقط ، الارض الرطبة الداكنة . كانت القذائف تثقب السماء صافرة ، هادرة .

٢١

في ذلك المسـاء ، وفي ملجـأ للضباط يقع غير بعيد عن الزريبة ، كان ضباط احدى سرايا فوج اوسولسكي يقيمون حفلة بمناسبة تلقي النقيب تيتكين خبرا عن مولد طفل له . كان قبـو

الملجأ الواطئ منغرزا عميقا فى الارض يحميه سقف ذو طبقات ثلاث ، وتضيؤه شموع مغروزة بزجاجات ، وقد جلس الى مائدة فيه ثمانية ضباط ، وطبيب ، وثلاث ممرضات من مستشفى الميدان .

شربوا كثيرا . وكان الاب السعيد ، النقيب تيتكين نائما ، وقد القى رأسه فى صحن وضعت فيه فضلات الطعام وتدلت كفه القذرة على رأسه الاصلع . وكانت الممرضات يبدون مليحات جدا بسبب انحباس الهواء ، والخمرة ، وضوء الشموع الناعم ، وكن يرتدين اثوابا رمادية ومناديل رمادية . كانت لاحداهن وتدعى موشكا ، عقصتان سوداوان من الشعر عند صدغيها ، وكانت تضحك دون كلل كاشفة عن حنجرة بيضاء . كان جاراها واثنان آخران يجلسان قبالتها يحدقون فيها بنظرات ثقيلة . وكانت الثانية ، ماريا ايفانوفنا ، بدينة تصل حمرة خديها الى حاجبيها ، تجيد اداء الاغانى الغجرية العاطفية بشكل مدهش . فكان المستمعون يخرجون عن اطوارهم ، ويضربون على المائدة ، مرددين : «آه ، اللعنة ، ما كان ابدعها من حياة !» اما ثالثة الجالسات الى المائدة فهى يلزافيتا كييفنا . كانت اضواء الشموع تتفتت فى عينيها الى ذرات نارية صغيرة ، وتشع فيهما فترى الوجوه بيضاء من خلال الدخان ، ووجه جارها الملازم الاول جادوف وحده كان يبدو مخيفا وجميلا . كان رجلا واسع المنكبين ضخما ، حليقا وذا عينين شفافتين . وكان يجلس مستقيم الجذع ، ملفوفا بحزامه لفا قويا ، وقد افرط فى الشراب ، ولم يسكر بل امتقع لونه فقط . وحين كانت موشكا السوداء الشعر تتهافت من الضحك ، وماريا ايفانوفنا تتناول القيثار ، وتمسح وجهها بمنديل مدعوك ، وتغنى بصوت عميق حزين «ميلادى فى سهوب مولدافيا» كان جادوف يبتسم بطرف فمه ابتسامة بطيئة ، ويصب لنفسه مزيدا من الخمرة .

كانت يلزافيتا كييفنا تحدق عن قرب فى وجهه الصافى الخالى من كل تغضن . وكان هو يسليها بحديث لبق وغير جدى . فقد روى لها ، مثلا ، ان نقيبا يدعى مارتينوف كان يخدم فى فوجهم اشتهر بانه كان جبريا يؤمن بالقضاء والقدر ، وبالفعل ، عندما كان يحتسى شيئا من الكونياك كان يخرج ليلا وراء الاسلاك الشائكة ، ويقترب من خنادق العدو ، ويشتم الالمان باربع لغات ، وقبل ايام دفع ثمن

غروره بان أصيب بجرح فى بطنه . تنهدت يلزافيتا كييفنا ، وقالت : يعنى ان النقيب مارتينوف بطل . فضحك جادوف بهزء :

— اعذرينى ، هناك مغرورون ، وهناك حمقى ، ولكن ليس هناك ابطال .

— ولكن اليست بطولة ان تخرجوا فى هجوم ؟

— اولا ، انهم لا يخرجون فى هجوم، بل يجبرون على الخروج ، والذين يخرجون جبناء . بالطبع ، هناك اناس يجازفون بحياتهم دون اكراه ، ولكن هؤلاء فيهم تعطش عضوى الى القتل — وهنا نقر جادوف الطاولة باظافره الصلبة — هؤلاء الناس ، على الارجح ، يقفون على ارفع درجة من الوعى العصرى .

ورفع جسمه قليلا بخفة ، وتناول من طرف المنضدة البعيد علبة كبيرة من حلوى الفواكه ، وقدمها الى يلزافيتا كييفنا .

— لا ، لا اريد — قالت واحست بان قلبها يخفق بشدة وجسمها يضعف — وانت ؟ حدثنى .

غضّن جادوف جلدة جبينه ، وتغطى وجهه بغضون صغيرة مباغتة جعلته يبدو عجوزا . وكرر بحدة :

— وما هذا . . . وانت ؟ بالامس رميت يهوديا وراء الزريبة . اتريدين ان تعرفى اهذا مريح ام لا ؟ اى هراء هذا !

واطبق اسنانه الحادة على سيكارة ، واشعل عود ثقاب . كانت اصبعه المسطحة التى تمسك به قوية الا ان السيكارة لم تقع فى لهب العود على اية حال ، ولم تشتعل .

وقال ، والقى عود الثقاب الذى احترق حتى اظفره :

— نعم ، انا سكران . ارجو المعذرة . لنخرج الى الهواء الطلق .

نهضت يلزافيتا كييفنا ، وكأنما فى نومها ، وسارت خلفه فى الفتحة الضيقة المؤدية الى خارج الملجا . لاحقتها صيحات السكارى المرحة . ضربت ماريا ايفانوفنا على القيثار ، وغنت بصوت عميق : «كان الليل يعبق بنشوة اللذة . . .»

فى الخارج كان الهواء مشبعا برائحة ربيعية قوية للاوراق المتفسخة ، وكان الظلام والسكون يلفان كل شىء . سار جادوف على العشب الرطب بخطوات سريعة بعد ان دس يديه فى جيبيه ،

وسارت يلزافيتا كييفنا متاخرة عنه قليلا ، والبسمة لا تفارق ثغرها . وفجاة توقف جادوف ، وسال بنبرة حادة :

– ها ، ما رايك ؟

كانت اذناها تلتهبان . سيطرت على انقباض فى حلقومها واجابت بصوت لا يكاد يسمع :

– لا ادرى .

– لنذهب .

واوما براسه ناحية سقف الزريبة المسود . وبعد ان خطا عدة خطوات توقف ثانية ، وشدّ بيده المتثلجة على ذراع يلزافيتا كييفنا بقوة . وتحدث بحرارة مباغتة :

– لى بنية كبنية الارباب . استطيع ان اشطر العملة النقدية بيدىّ الى شطرين . وانفذ ببصرى خلال كل شخص ، وكانه من زجاج شفاف. . . انا اكرههم ! – وتلعثم وكانه تذكر شيئا ، وضرب الارض بقدمه – كل هذه القهقهات والاغانى ، والاحاديث الجبانة وضاعة . انهم جميعا مثل ديدان فى روث دافئ . . . اسحقهم . . . اسمعى . . انا لا احبك : لا استطيع ! ولن احبك . . . فلا تخدعى نفسك . . . ولكننى بحاجة اليك . . انا اكره هذا الاحساس بالتبعية . . . يجب ان تفهمى . . . وحشر يديه تحت مرفقى يلزافيتا كييفنا ، وجذبها بقوة ، واطبق على صدغها شفتيه الجافتين الحارتين كالجمر .

واندفعت يلزافيتا كييفنا لتحرر نفسها ، الا انه كان يعصرها بقوة ، حتى ان عظامها قد قرقعت ، فالقت راسها الى الخلف ، وتدلت ثقيلة بين يديه . قال لها :

– لست مثل الاخريات . ساعلمك . . .

وصمت فجاة ، ورف راسه . كان صوت حاد نافذ يتنامى فى الظلمة . قال جادوف من خَلَل اسنانه :

– اوه ، اللعنة !

وفى الحال دوى انفجار على مسافة بعيدة . اندفعت يلزافيتا كييفنا مرة اخرى ، الا ان جادوف كان يعتصرها بقوة اشد . قالت باستماتة :

– اتركنى !

انفجرت قنبلة ثانية . واستمر جادوف يتمتم بشىء ما ، وفجاة تصاعد عمود نارى اسود على مقربة كلية وراء الزريبة ، وارسل دوى الانفجار حزم القش المحترقة عاليا فى الهواء .

افلتت يلزافيتا كييفنا من يدى جادوف ، وعدت نحو الملجا .

كان الضباط يخرجون سراعا من فتحة الملجا ، ويعدون على الارض التى بدت سوداء مخدودة من جراء الضوء المائل ، ملقين نظرات الى الزريبة المحترقة وراءهم . اتجه بعضهم يسارا نحو الغابة ، حيث كانت الخنادق ، واتجه الآخرون يمينا فى ممر الاتصال المؤدى الى تحصينات الجسر . كانت البطاريات الالمانية تهدر وراء النهر ، بعيدا خلف التلال . كان الرمى ياتى من اتجاهين : من اليسار مصوبا نحو الجسر ، ومن اليمين مصوبا نحو المعبر الذى كان يؤدى الى مزرعة كانت قد احتلتها سرية من فوج اوسولسكى قبل فترة فى الضفة الاخرى من النهر . وكان قسم من النار موجها على البطاريات الروسية .

رات يلزافيتا كييفنا النقيب جادوف يسير حاسر الراس ويداه فى جيبيه متجها فى خط مستقيم نحو وكر الرشاش . وفجاة ظهرت دائرة نارية سوداء شعثاء فى المكان الذى كان يقف فيه شخصه الطويل . اغمضت يلزافيتا كييفنا عينيها ، وحين نظرت ثانية رات جادوف يسير اكثر الى اليسار وكوعاه ما زالا منفرجين . صاح النقيب تيتكين غاضبا . كان واقفا قرب يلزافيتا كييفنا ومعه منظار :

– لقد قلت لهم اننا لسنا بحاجة الى هذه المزرعة والآن ، تفضلوا وانظروا . قلبوا المعبر كله . آه خنازير !

ونظر فى المنظار مرة اخرى – آه ، الخنازير يصوبون على المزرعة تماما ! هلكت السرية السادسة . آه ! – واستدار وحك علباءه الجرداء بشدة ، ونادى : شملابكين !

– نعم .

اسرع فى الرد عليه شخص صغير كبير الانف يرتدى قبعة قوزاقية .

– هل اتصلتم بالمزرعة ؟

– الاتصال مقطوع .

– اخبر الكتيبة الثامنة بان ترسل تعزيزات الى المزرعة .

– سمعا .
اجاب شلابكين ، وانزل يده من صدغيه بحركة قوية وابتعد خطوتين وتوقف .

ونادى النقيب ثانية بصوت وحشى :

– ملازم شلابكين .

– نعم .

– نفذ الامر .

– سمعا .

وابتعد شلابكين اكثر ، وانزل راسه ، واخذ يحفر الارض بقصبة . فصرخ النقيب :

– يا ملازم شلابكين !

– نعم .

– اتفهم لغة الانسان ام لا ؟

– نعم ،افهم .

– انقل الامر الى السرية الثامنة . ولك ان تقول لهم باسمك الا ينفذوه . فهم ليس من البلاهة بحيث يرسلون رجالا الى هناك . ليرسلوا زهاء خمسة عشر رجلا الى المعبر لاطلاق النار . وابلغ الفرقة حالا بان السرية الثامنة تجتاز المعبر بضربة بارعة . اما الخسائر فيمكن ان نقتبسها من السرية السادسة . اذهب ، اما انت يا آنسة ، فانصرفى – والتفت الى يلزافيتا كيبفنا – اقلعى من هنا الى الشيطان فان الرمى سيبدأ الآن .

وفى تلك اللحظة انطلقت قذيفة بازيز ، ووقعت وانفجرت فى الجوار .

٢٢

كان جادوف مستلقيا عند فتحة مخبأ الرشاش ، يتابع المعركة من خلال المنظار بلهفة غير صارف بصره عنها . كان المخبأ قد حفر على منحدر تل مشجر يجرى تحته نهر باستدارة خفيفة ، والى اليمين كانت اعمدة الدخان تتصاعد من الجسر الذى احترق قبل حين ، ووراءه ، فى الضفة الاخرى من النهر وفى مستنقع مكسو بالعشب كان

خط الخنادق الملتوى يرى من مخبأ الرشاش ، وكانت السرية الاولى من فوج اوسولسكى تتخندق فيها . والى اليسار من ذلك كان جدول صغير يتلوى فى مجرى ينمو فيه القصب ، ليصب فى النهر ، وابعد من ذلك يسارا ، ووراء الجدول كانت مبانى المزرعة الثلاثة تحترق ، ووراءها كانت السرية السادسة تتخندق فى خنادق تلتقى فى زاوية . وعلى بعد ثلثمائة خطوة تقريبا كانت تبدأ خطوط الالمان التى كانت تتجه بعد ذلك يمينا بعيدا نحو التلال المشجرة .

كانت النهر يبدو احمر متسخا من جراء لهب الحريقين ، وكان ماؤه يفور لكثرة ما تساقط فيه من قذائف ، ويتطاير كالنوافير ، ويتلفع بسحب بنية .

كانت المدفعية تركز اقوى نارها على المزرعة . وكانت انفجارات قذائف الشرابنيل لا تفتاء تتوهج فوق الابنية المحترقة ، وتتصاعد اعمدة سوداء شعثاء على جوانب خط الخنادق الملتقى فى زاوية . وكانت نيران البنادق تومض من وراء النهر فى القصب والعشب وميضا صغيرا .

وكانت انفجارات القنابل الثقيلة تهز الهواء ، وقذائف الشرابنيل ذات الشظايا تتطاير بصوت واهن فوق النهر وفوق المروج ، وفى هذه الضفة من النهر فوق خنادق السرايا الثانية والثالثة والرابعة . وكان هزيم الرعد يترامى من وراء التلال ، حيث كانت اثنتا عشرة بطارية المانية ترسل ومضات خاطفة . وكانت قذائف المدافع الروسية الجوابية تصفر فى الهواء ، منطلقة الى ما وراء هذه التلال . وكان الضجيج يشق الاذان ، ويضغط على الصدور ويفجر الغيظ فى القلب .

واستمرت الحال على هذا المنوال وقتا طويلا . نظر جادوف فى ساعته المضيئة فرآها تشير الى الساعة الثانية والنصف . فالفجر يوشك على الانبلاج ، والهجوم متوقع بين لحظة واخرى .

وبالفعل اشتد قصف المدفعية ، وفار ماء النهر فورانا اشد ، وكانت القذائف تتساقط على المعابر والتلال فى هذه الضفة من النهر . وكانت الارض احيانا تهتز اهتزازا خافتا ، وتتناثر كتل الطين والحصى من جدران المخبأ وسقفه . الا ان ساحة المزرعة المحترقة باتت هادئة . وفجأة تطايرت من البعيد عشرات الصواريخ مثل اشرطة

نارية ، منحرفة نحو النهر وانارت الارض كالشمس . وحين انطفات الانوار خيم ظلام حالك لبضع دقائق . اذن ، فان الالمان نهضوا من الخنادق ، وخرجوا فى هجوم .

وفى الغبش المضبب لمح جادوف اخيرا شخوصا صغيرة متحركة بعيدا فى المروج . كانت تارة تسقط ، وتارة يلاحق بعضها بعضا . ولم تجابهها نار واحدة من المزرعة .

التفت جادوف ، وصاح :

— ذخائر !

ارتج الرشاش وكأنما تملكته ضراوة شيطانية ، وراح يرش الرصاص عجولا ، ويكتم الانفاس بدخان لاذع . وفى الحال عجّلت الشخوص الصغيرة حركتها على المرج وسقط بعضها . الا ان الحقل كله كان مغمورا بنقط المهاجمين . وكانت طلائعهم تركض نحو الخنادق المهدمة للسرية السادسة . فنهض من هناك زهاء عشرين رجلا . وتجمع حشد من الرجال بسرعة حول ذلك المكان .

لم تكن هذه المعركة فى سبيل المزرعة الا جزءا تافها من موقعة هائلة امتدت فى جبهة طولها مئات الفراسخ ، وكبدت الطرفين مئات الالوف من الانفس .

كان الروس قد احتلوا المزرعة قبل اسبوعين ليضمنوا لانفسهم راس جسر فى حالة الهجوم عبر النهر . وقرر الالمان الاستيلاء على المزرعة لوضع نقطة مراقبة فى مكان اقرب الى النهر . وكان هذا الهدف وذاك ضروريين فقط لقادتى الفرقتين – الالمانية والروسية – ومضمنين فى الخطة الاستراتيجية للحملة العسكرية لكلا الطرفين ، تلك الخطة التى ترووا عميقا فى كل دقائقها .

كان قائد الفرقة الروسية الجنرال دوبروف الذى كان له اسم عائلة غير روسى فابدله منذ نصف عام باسمه الحالى بترخيص من المراجع العليا يلعب الورق حين تلقى نبا هجوم الالمان فى قطاع فوج اوسولسكى .

ترك الجنرال الورق . وانتقل مع الضباط الكبار واثنين من المرافقين الى الصالة التى نشرت على منضدة فيها خرائط طوبوغرافية . وكانت قد وردت من الجبهة انباء عن قصف المعبر والجسر . ففهم الجنرال بان الالمان عازمون على الاستيلاء على

المزرعة ، اى بالذات على المكان الذى بنى عليه خطته الشهيرة للهجوم ، والتى وافقت عليهما قيادة الفيلق ، وقدمت الى قائد الجيش للتصديق عليها . الا ان هجوم الالمان على المزرعة افسد الخطة كلها .

كانت الاخبار التلفونية تؤكد هذا الخطر بين لحظة واخرى . انزل الجنرال نظارته الانفية من فوق انفه الكبير ، وقال بهدوء ولكن بحزم ، وهو يلاعبها :

— حسنا ، لن اتراجع قدما واحدة من المواقع التى احتلها .

وارسل امرا تلفونيا على الفور لاتخاذ تدابير مناسبة للدفاع عن المزرعة . وامر فوج كوندرافنسكى الاحتياطى من الدرجة الثالثة بالزحف فى كتيبتين نحو المعبر لتعزيز النقيب تيتكين . وفى تلك اللحظة وصل خبر من قائد المدفعية الثقيلة عن قلة القذائف ، وتحطم احد المدافع ، وانعدام امكانية الرد على نار العدو الصاعقة ردا مناسبا .

الا ان الجنرال دوبروف ردّ على ذلك ، وقد القى نظرة صارمة على الحضور :

— حسنا ، حين تنفد القذائف سنحارب بالسلاح الابيض .

واخرج منديلا ناصع البياض من سترته الرمادية ذات القلبة الحمراء ، ونفضه ، ومسح نظارته الانفية به ، وانحنى على خارطة .

وظهر فى الباب المرافق الاصغر الكونت بوبرويسكى الضابط فى بدلة من الكاكى البنى الداكن منسجمة مع جسمه كالقفاز . وقال وهو يبتسم ابتسامة لا تكاد تلحظ بطرف فمه الصبوى الجميل :

— ياصاحب السيادة ، يقول النقيب تيتكين ان السرية الثامنة تجتاز طريقها الى المعبر بضربة ماهرة ، رغم نار العدو المهلكة .

نظر الجنرال الى الضابط من فوق نظارته الانفية ، وحرك فمه الحليق ، وقال :

— حسن جدا .

ولكن رغم اللهجة المشجعة تواردت من الجبهة انباء مقلقة اكثر فاكثر . وصل فوج كوندرافنسكى الى المعبر وعسكر وتخندق . والسرية الثانية ماضية فى ضرباتها الماهرة ولكنها لم تعبر النهر بعد . ارسل النقيب اسلامبيكوف قائد كتيبة الهاون برقية ذكر فيها

ان مدفعين من مدافعه قد اصيبا ، وان قذائفه قليلة . وابلغ العقيد بوروزدين آمر الكتيبة الاولى من فوج اوسولسكى ان السرايا الثانية والثالثة والرابعة تتكبد خسائر كبيرة فى الرجال من جراء مواقعها المكشوفة ، ولهذا فهو يطلب اذنا اما بالهجوم ودحر العدو الوقح ، واما بالتراجع الى حافة الغابة . ولم ترد انباء من السرية السادسة التى كانت تحتل المزرعة .

وفى الساعة الثانية والنصف من بعد منتصف الليل عقد مجلس عسكرى . وقال الجنرال دوبروف انه سيتقدم بنفسه على رأس القوات الموكلة له ،ولكنه لن يتراجع فترا واحدا عن رأس الجسر المحتل . وفى اثناء ذلك وصل الخبر عن احتلال الالمان للمزرعة ، والقضاء على السرية السادسة الى آخر رجل . دعك الجنرال منديله الكتانى بين اصابعه ، واغمض عينيه . ورفع العقيد سفيتشين رئيس الاركان كتفيه الممتلئتين وامتلأ بالدم وجهه اللحيم الملتحى ، وتكلم ببحة ظاهرة :

– ياصاحب السيادة ،لقد ابلغتكم اكثر من مرة بان من المخاطرة احتلال مواقع فى الضفة اليمنى . اننا سنفقد كتيبتين وحتى ثلاثا واربعا على هذا المعبر ، وحتى لو احتللنا المزرعة مرة اخرى ، فان الاحتفاظ بها سيكلفنا غاليا .

قال الجنرال دوبروف ، وقد تفصد انفه عرقا :

– ان راس الجسر ضرورى لنا ، ويجب ان يكون لنا ، وسيبقى لنا . والمسالة هى اننا لو فقدنا راس الجسر فان خطتى الهجومية ستنهار .

واعترض العقيد سفيتشين وقد ازداد حمرة :

– ياصاحب السيادة ، القوات لا تقوى على عبور النهر تحت نار صاعقة اذا لم تسند بالمدفعية بالشكل المناسب ، وانت تعرف ان المدفعية ليس لها ما تسند به .

رد الجنرال على ذلك :

– حسنا ، فى هذه الحال اخبر القوات بان نياشين القديس غيورغى معلقة على الاسلاك فى الجانب الآخر من النهر . انا اعرف جنودى .

وبعد هذه الكلمات التى سيحفظها التاريخ حتما نهض

الجنرال ، واخذ يتطلع فى النافذة ، وهو يدير نظارته الذهبية فى اصبعه القصيرة وراء ظهره ، فراى شجرة بتولا مبللة تنمو فى المرج وملفوفة بالضباب الصباحى الازرق الرقيق ، وسربا من العصافير يحط على اغصانها الرقيقة اليانعة الخضرة ، ويزغرد فى عجلة وقلق ، وينطلق فجأة ، ويغيب . وكانت اشعة الشمس الذهبية المنحرفة تنير المرج المضبب كله بمعالم الاشجار غير الواضحة عليها .

انتهى القتال عند مطلع الشمس . واحتل الالمان المزرعة ، والضفة اليسارية من الجدول ، ولم يبق بيد الروس من رأس الجسر غير منخفض فى الضفة اليمنى من الجدول حيث كانت السرية الاولى . واستمر تراشق واهن فوق الجدول طوال النهار ، ولكنه كان واضحا ان السرية الاولى تحت خطر التطويق ، وقد انقطع اتصالها المباشر بضفة النهر مع الروس بسبب احتراق الجسر ، وكان اعقل مخرج هو الخروج من المستنقع فى الليلة ذاتها .

الا ان العقيد بوروزدين آمر الكتيبة الاولى تلقى بعد الظهر امرا بالاستعداد لخوض النهر فى تلك الليلة للوصول الى المستنقع لتعزيز موقع السرية الاولى . واوعز الى النقيب تيتكين بتجميع قوى السرية الخامسة والسرية السابعة اسفل المزرعة ، والعبور على جسر عائم . واوعز الى الكتيبة الثالثة الاحتياطية من فوج اوسولسكى باتخاذ موقع هجومى ، والى فوج كوندرافنسكى بعبور النهر من المخاضة عند المعبر المحروق ، والقيام بهجوم جبهوى .

كان الامر جديا ، والترتيب واضحا : تطويق المزرعة بحركة كماشة بواسطة الكتيبة الاولى يمينا ، والكتيبة الثانية يسارا ، على ان يجذب فوج كوندرافنسكى اليه كل انتباه العدو ، وناره . وحدد منتصف الليل للبدء فى الهجوم .

فى الغبش ذهب جادوف للاشراف على وضع الرشاشات عند المعبر ، ونقل رشاش واحد فى زورق ، فى اشد ما تكون الحيطة ، الى جزيرة صغيرة لا تتجاوز مساحتها بضع عشرات من الامتار ، نمت عليها شجيرات الصفصاف . وبقى جادوف هناك .

وجهت البطاريات الروسية طوال النهار نارا ضعيفة على المزرعة ، واعمق منها على المواقع الالمانية المقتربة من النهر . وكانت تنطلق بين الحين والآخر طلقات منفردة من بندقية صوب

النهر . وفى منتصف الليل بدأ عبور النهر فى صمت من ثلاثة مواقع راسا . ولصرف انظار العدو بدأت وحدات فوج بيلوتسركوفسكى الواقعة على بعد زهاء خمسة فراسخ فى اعلى النهر بمناوشات قوية . والتزم الالمان الصمت حذرين .

راقب جادوف المعبر بعد ان ازاح اغصان الصفصاف المغطاة بنسيج العنكبوت . كانت الى يمينه نجمة صفراء متوامضة تتدلى على ارتفاع واطئ فوق التلال المشجرة ، وتنعكس على النهر الاسود شريطا من الضوء الكابى المرتعش اخذت تقطعه اشياء داكنة . وظهرت شخوص راكضة من مكان الى آخر على الجزر الرملية والمنبسط الرملى . وعلى مسافة غير بعيدة عن جادوف كان زهاء عشرة اشخاص يخوضون فى الماء الى صدورهم محدثين طرطشة واطئة ، ممسكين بنادقهم وحقائب العتاد فى اذرعهم المرفوعة . ان هؤلاء كانوا من فوج كوندروفينسكى يعبرون النهر .

وفجأة نشبت نيران سريعة بعيدا فى الضفة الاخرى ، وصفرت القذائف فى طيرانها واخذت قنابل الشرابنيل تتفجر عاليا فوق النهر بقرقعة معدنية . وكان كل توهج يضئ وجوها ملتحية ناهضة من الماء . وكان المنبسط الرملى كله يغص بالرجال الراكضين . وانطلقت نوبة جديدة من النيران ، وصدرت صيحات . وتصاعدت صواريخ وتناثرت فى السماء كلها باضواء باهرة . ورعدت البطاريات الروسية . جرف التيار عند قدمى جادوف رجلا يتخبط ويردد بصوت مكتوم : «راسى ، اصابوا راسى !» وتشبث بالصفصاف . ركض جادوف الى الجانب الآخر من الجزيرة . ورأى ان العوامات الممتلئة بالناس كانت تتحرك عبر النهر على مسافة بعيدة ، والوحدات التى قد عبرت النهر كانت تجرى فى الحقل . وكانت زوبعة النار الصاعقة تهدر فوق النهر والمعابر والتلال كما كانت بالامس مُصِمّةً مُبهِرةً . وكان الماء الفائر يبدو موبوءا بالديدان . فقد كان الجنود يتخبطون وينسلون ويتصايحون من خلال اعمدة الدخان السوداء والصفراء ، وبين النوافير المائية . والذين وصلوا الى الضفة الاخرى اخذوا بالزحف الى الشاطئ . وكانت رشاشات جادوف تلعلع فى المؤخرة ، والقذائف الروسية تتفجر فى المقدم . وكانت سريتا النقيب كلتاهما تضربان

المزرعة بنار متقاطعة . تحولت الوحدات المتقدمة من فوج كوندروفينسكى – التى فقدت نصف رجالها اثناء العبور ، كما تبين فيما بعد – الى هجوم بالحراب . الا انها فشلت ، واستلقت تحت الاسلاك الشائكة . ومن وراء الجدول خرجت الكتيبة الاولى بصفوف كثيفة من خلل القصب . وتدفق الالمان من الخنادق .

كان جادوف يستلقى عند الرشاشة متشبثا بعدة الاطلاق المرتجة ارتجاجا مجنونا ويصب نارا مسفة على رابية معشوشبة وراء خنادق الالمان كان يجرى عليها رجلان تارة ، وثلاثة اخرى ، وجمع من الرجال تارة ثالثة ، وكانوا جميعا وبلا استثناء يتعثرون ، وينكفئون ارضا على وجوههم وجنوبهم .

وعد جادوف : «ثمانية وخمسون ، ستون» . ثم نهض شخص ضئيل الجرم ، وامسك براسه ، وسار مترنحا على الرابية . حول جادوف سبطانة الرشاشة فوقع الشخص على ركبتيه ، وانطرح . «واحد وستون» . وفجأة انبعث امام بصره ضوء محرق لايطاق . واحس جادوف بانه قد رفع فى الهواء وبأن وجعا حادا يشل ذراعه .

احتلت المزرعة وجميع خطوط الخنادق المجاورة لها واسر حوالى مائتى اسير ، وفى الفجر خمدت نار المدفعية فى كلا الجانبين . وبدأ جمع القتلى والجرحى ووجد رجال الاسعاف عند تفتيش الجزر الصغيرة رشاشة مقلوبة فى الصفصاف المحطم ، وبالقرب منها جنديا مدفونا فى الرمل ، وقد شُجّ يافوخه ، وعلى بعد عشرة امتار ، فى الجانب الآخر من الجزيرة رقد جادوف ورجلاه فى الماء . انهضوه فانٌ ، وكانت قطعة من العظم الوردى تبرز من كمه الملطخ بالدم .

وحين جلبوه الى مستشفى الميدان صاح الطبيب على يلزفيتا كييفنا : «جاءوا بفتاك . الى طاولة العمليات راسا» . وكان جادوف فاقد الوعى مستدق الأنف ، اسود الفم . وحين خلعوا قميصه ، رات يلزافيتا كييفنا على صدره الابيض العريض رسما من الوشم

لقردين متشابكين بذيليهما . كز جادوف على اسنانه اثناء العملية ، واعترت التشنجات وجهه .

وبعد ان انتهى التعذيب ، وضُمد الجرح فتح عينيه ، انحنت يلزفيتا كيبفنا عليه فقال :

— واحد وستون .

وظل جادوف يهذى حتى الصباح ، ثم غفا . طلبت يلزافيتا كيبفنا بان يعهدوا اليها بنقله الى المستشفى العسكرى الكبير التابع الى هيئة اركان الفرقة .

٢٣

دخلت داشا الى غرفة الطعام . كان نيقولاى ايفانوفيتش ودميترى ستيبانوفيتش يجلسان صامتين . وكان الاخير قد قدم من سامارا فى اول الامس بناء على برقية مستعجلة . امسكت داشا لفاحها الابيض عند ذقنها ، ونظرت الى وجه ابيها الأحمر والى شعره المنفوش ، كان دميترى ستيبانوفيتش يجلس وقد طوى ساقا واحدة ، ثم حولت داشا بصرها الى نيقولاى ايفانوفيتش المعوج الاسارير الملتهب الجفنين وجلست الى المائدة ايضا ورات وراء النافذة هلالا نحيلا صافيا يتدلى فى الاغبشاش الضارب الى الزرقة .

كان دميترى ستيبانوفيتش يدخن ناثرا الرماد على صداره الموبر . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يجهد ليجمع فتات الخبز فى كومة واحدة على الخوان . وساد الصمت وقتا طويلا .

وفى آخر الامر تكلم نيقولاى ايفانوفيتش بصوت مخنوق :

— لماذا تركناها جميعا ؟ هذا لا يصح .

— اجلس وسأذهب انا — ردت داشا ، ونهضت . لم تعد تشعر بالم ولا بتعب وقالت لأبيها ، وهى تلف اللفاح على فمها : بابا ، اذهب واحقنها بحقنة اخرى .

نشق دميترى ستيبانوفيتش من انفه بشدة ، والقى عقب سيكارته النافذة عبر كتفه . كانت الارض حوله مزروعة كلها باعقاب السيكائر .

— احقنها مرة اخرى يا ابى ، اتوسل اليك .

عندئذ هتف نيقولاى ايفانوفيتش متضايقا وبصوت مصطنع :

— لا يمكن ان تعيش على الكافور وحده . انها تحتضر ، ياداشا .

التفتت داشا نحوه بقوة .

— لا تتجرا على هذا الكلام ! لاتتجرا . انها لن تموت .

اختلج وجه نيقولاى ايفانوفيتش الاصفر . استدار نحو النافذة ، فشاهد ايضا الهلال الرقيق النافذ فى الخواء المزرق . قال :

— اية وحشة لو ترحل . آه ، لا اطيق .

سارت داشا فى غرفة الجلوس على اطراف اصابعها . ونظرت فى النوافذ مرة اخرى ، فاستشعرت بالبرد الزمهريرى الابدى المترامى وراءها . انسلت الى مخدع كاتيا المضاء بمصباح ليلى اضاءة لا تكاد تغالب الظلمة .

هناك ، فى اعماق المخدع كان الوجه الصغير يرقد على الوسائد ، كما كان بلا حراك ، على السرير العريض الواطئ ، وقد دفع شعره الجاف المسود الى فوق ، والى الاسفل من الوجه كف نحيلة . ركعت داشا على ركبتيها امام السرير . كان تَنفّس كاتيا واهنا لا يكاد يسمع . وبعد وقت طويل قالت بصوت خافت متشنج :

— كم الساعة ؟

— الثامنة ، كاتيوشا .

استنشقت كاتيا بعض الانفاس ، وسالت مرة اخرى وفى صوتها نبرة الشكوى :

— كم الساعة ؟

وطوال النهار كانت تعيد هذا السؤال . كان وجهها نصف الشفاف هادئا ، وعيناها مغمضتين . . . ومنذ وقت طويل وهى تسير على البساط الناعم فى الدهليز الطويل الاصفر ، كل شئ اصفر فيه : الجدران والسقف . وعاليا الى اليمين ينصب ضوء أصفر معذب من النوافذ المتربة . والى اليسار عديد من الابواب

المسطحة . ووراءها – اذا ما فتحتها – حافة الارض ، اللاقرار .
وكاتيا تسير ببطء شديد ، كما فى النوم ، مارة بهذه الابواب والنوافذ المتربة . وامامها دهليز طويل سطيح فى ضوء اصفر . والهواء مكتوم ، وكل باب ينشر وحشة الموت . متى ستحل النهاية يارب ؟ لو تتوقف ، وتسمع . . . لا شيء يسمع . . . ووراء الابواب ، فى العتمة يبدأ صوت بطيء خفيض يطن مثل صوت لولب الساعة الحائطية . . . آه ، ما اشد الوحشة ! . . ليتها تفيق . . . ليتها تقول شيئا بسيطا انسانيا . وعندئذ كانت كاتيا تردد بجهد ، وفى صوتها نبرة شكوى :

– كم الساعة ؟

– كاتيوشا ، عم تسالين طوال الوقت ؟

«جميل ان تكون داشا هنا . . .» ومرة اخرى كان بساط الدهليز يمتد تحت قدميها بغثيان ناعم وينصب الضوء الخشن المقبض من النوافذ المتربة . ويدق لولب الساعة من بعيد . . .

«ليتنى لا اسمع ... لا ارى ... لا احس ... استلقى واتدثر ... ليت النهاية قريبة ... ولكن داشا تضايقنى ، لا تدعنى اغيب ... تمسك يدى ، تقبل ، تدمدم ، وتدمدم ... وكان تَنَفّس حياة ينصب منها فى جسدى الفارغ الخفيف . . . ما اضجر ذلك ! . . كيف اشرح لها ان الموت سهل ، اسهل من ان احس بهذا النفس الحى فى كيانى . . . ليتها تتركنى لا» .

– كاتيوشا ، انا احبك ، احبك ، هل تسمعين ؟

«لا تتركنى ، تشفق علىّ . . . يعنى غير ممكن . . . ستبقى الفتاة وحدها ، تتيتم» .

– داشا !

– ماذا ؟

– لا اموت .

يبدو ان اباهما يقترب . فى الجو رائحة تبغ . ينحنى ، يزيح البطانية ، وتنغرز ابرة فى الصدر بالم حاد لذيذ . وتسرى فى الدم طراوة التسكين العذبة وتترنح جدران الدهليز الاصفر ، وتنفرج ، وينتشر برد منعش . وداشا تمسد الذراع المنطرحة فوق البطانية ، وتضغط شفتيها عليها ، وتبث فيها دفا . وبعد

دقيقة اخرى يذوب الجسد فى ظلمة النوم الحلوة . ولكن الشرطات الصفراء الصارمة تتطاير مجددا من الجانبين ومن وراء عينيها . . . وتتكون متباهية ، ومن تلقاء نفسها ، وتتصاعف ، وتقيم دهليزا خانقا ، معذبا .

– داشا ، داشا لا اريد ان ارحل الى هناك .

وتمسك داشا راسها بيديها ، وتستلقى على الوسادة الى جوارها ، وتضغط نفسها عليها وهى حية قوية ، وكانما تنبعث منها قوة الحياة الفظة الحارة !

ولكن الدهليز استطال مرة اخرى ، وكان يجب ان تنهض ، وتجرجر فيه قدميها ، وعلى كل قدم ثقل طن . لا يجوز ان تظل راقدة . وداشا تحتضنها ، وتنهضها ، وتقول لها : تعالى .

وهكذا صارعت كاتيا الموت ثلاثة ايام بلياليها . وكانت تحس فى نفسها دائما بارادة داشا المضطرمة ولولا داشا لخارت منذ زمان ، وارتاحت الى الابد .

فى اليوم الثالث قضت داشا المساء كله والليل عند سرير شقيقتها لا تبارحه . وكان الشقيقتين صارتا كيانا واحدا له الم واحد ، وارادة واحدة . وقبيل الصباح تصببت كاتيا اخيرا بعرق غزير ، وانقلبت على جنبها . وكانت انفاسها لا تكاد تسمع . ارتعبت داشا ، واستدعت اباهما . وقررا الانتظار . وفى الساعة السابعة صباحا زفرت كاتيا ، وانقلبت على جنبها الآخر . ومرت الازمة ، وبدأت العودة الى الحياة .

ولاول مرة خلال تلك الايام غفت داشا ايضا على المقعد الكبير عند الفراش . وعندما علم نيقولاى ايفانوفيتش ان كاتيا قد خلصت من الموت طوق دميترى ستيبانوفيتش من صداره الموبّر ، واجهش باكيا .

وبدأ النهار الجديد بداية سارة ، وكان دافئا مشمسا ، وبدا كل واحد منهم طيبا مع الآخر . وجلبت من حانوت الزهور شجيرة من زهور الليلك الابيض ، ووضعت فى غرفة الجلوس .

واحست داشا بانها قد انتزعت كاتيا بيديها من الحفرة الباردة السوداء المؤدية الى الظلام الابدى . لم يكن على الارض شيء اغلى من الحياة ، وقد ادركت ذلك الآن ادراكا راسخا .

فى نهاية ايار نقل نيقولاى ايفانوفيتش يكاترينا دميتريفنا الى بيت ريفى مبنى من جذوع الشجر قرب موسكو ، له شرفتان كانت احداهما تطل على حرش من اشجار البتولا ينشر ظلا اخضر متحركا دائما تسرح فيه عجول رقشاء ، وتطل الثانية على حقل منحدر متموج .

وفى كل مساء كانت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش ينزلان من قطار الضواحى الى محطة صغيرة ، ويسيران فى المرج المستنقعى . وكان البعوض يحوم حول رأسيهما . ثم كان يتعين عليهما ان يصعدا فى مرتفع . وهنا كان نيقولاى ايفانوفيتش يتوقف عادة بحجة ان يلقى نظرة على الغروب ، ويقول لاهثا :

– يارب ، ما اروع ذلك !

كانت السحائب الليلقية الساكنة العقيمة ، وهى السحائب التى تكون عادة عند الغروب ، تجثم وراء السهب المظلم المزروع فى بعض اجزائه بشرائط من الحبوب ، وفى الاجزاء الاخرى باشجار الجوز اللفاء واياتك البتولا . وكان وهج الغروب السماوى يشع ضوءا كابيا من الفرجات الطويلة فى هذه السحائب ، وقد انعكس شريط برتقالى من السماء على مسافة غير بعيدة الى الاسفل عند خور الجدول . وكانت الضفادع لا تكف عن النقيق ، واكداس الدريس وسقوف القرية تلوح داكنة فى الحقل المنبسط الذى اوقدت نار فى ناحية منه . وهناك ، فى مكان ما وراء السدة والسياج العالى كان معسكر لص توشينو • فى غابر الازمان . ظهر قطار من وراء الغابة يصفر صفيرا طويلا ، ناقلا الجنود الى الغرب ، فى الغروب الخابى .

اقتربت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش من البيت الريفى آخذين طريقهما فى طرف الغابة ، فرأيا من خلال زجاج الشرفة المائدة معدة للعشاء ، ومصباحا على شكل كرة زجاجية مغبشة . ركضت للقائهما كلبة المنزل «شاريك» تنبح بحفاوة ، وحين وصلت اليهما مبصبصة بذيلها ، ابتعدت عنهما حيطة الى الافسنتين ، وراحت تنبح فى ناحية .

نقرت يكاترينا دميتريفنا باصابعها على زجاج الشرفة ، فقد كان ما يزال غير مسموح لها الطلوع الى الخارج بعد حلول الظلام . اغلق نيقولاى ايفانوفيتش باب السياج وراءه ، وقال : «فى رايى انه بيت ريفى فاتن» . وجلسوا الى العشاء . روت يكاترينا دميتريفنا اخبار المنطقة : جاءت كلبة مجنونة من توشينو ، وعضت دجاجتين من دجاجات عائلة كيشكين ؛ عائلة جيلكين انتقلت اليوم الى بيت سيموف الريفى ، واذا بسماورهم يسرق فى نفس اليوم . الطباخة ماتريونا جلدت ابنها مرة اخرى .

تناولت داشا طعامها صامتة ، فقد تعبت فى المدينة تعبا شديدا . اخرج نيقولاى ايفانوفيتش من حقيبته حزمة من الجرائد واخذ يطالعها ، مخللا اسنانه بعود التخليل ، وعندما كان يقع على انباء مؤسفة ، كان يحدث صريفا باسنانه الى ان تقول كاتيا له : نيقولاى ، ارجوك ، لا تصرف باسنانك . خرجت داشا الى مقدمة البيت ، وجلست ، واسندت حنكها على يدها ، وحدقت فى السهل المظلم المرصع بالنيران ، والى النجوم الصيفية الصغيرة المنثورة . كانت تنبعث من الحديقة رائحة احواض زهور مروية . فى الشرفة كان نيقولاى ايفانوفيتش يقول وهو يقلب جرائده .

– لا يمكن ان تستمر الحرب طويلا بعد الآن لسبب واحد هو ان دول الوفاق ونحن – الحلفاء – ندمر انفسنا .

سالت كاتيا :

– اتريد شيئا من اللبن الخاثر ؟

• – كان دميترى الدعى الثانى العوبة المتدخلين البولونيين والفاتيقان . وقد ادعى انه ابن قيصر روسيا ايفان الرابع . وقد دخل روسيا مع القوات البولونية فى سنة ١٦٠٧ وعسكر فى توشينو بالقرب من موسكو . فى عام ١٦١٠ قتله احد انصاره . **(المترجم)** .

– اذا كان باردا فقط . . . فظاعة ، فظاعة ! فقدنا المدينتين : لفوف وليوبلين . يا للعار ! كيف يمكن ان نقاتل اذا كان الخونة يغرزون السكين فى ظهورنا ! مستحيل !

– نيقولاى ، لا تتصرف باسنانك .

– اتركينى وشأنى ! اما اذا فقدنا فرسوفيا فذلك هو العار الاكبر ، وبعده سيتعذر العيش . حقا فى بعض الاحيان يتساءل المرء مع نفسه : اليس من الافضل عقد هدنة من نوع ما ، وتحويل الحراب نحو بطوسبورغ ؟

تناهى صفير قطار من بعيد ، وترددت قرقعة عجلاته على الجسر الملقى فوق الجدول الذى كان الغروب منعكسا عليه قبل حين ويبدو القطار ينقل الجرحى الى موسكو . خشخش نيقولاى ايفانوفيتش بصحفه مرة اخرى وقال :

– القطارات تنقل الجنود الى الجبهة بدون بنادق . وهم يقعدون فى خنادقهم مسلحين بالعصى . وبندقية واحدة لكل خمسة منهم . ويهاجمون بهذه العصى نفسها ، على أمل ان ياخذوا بندقية الجندى المجاور حين يصرع . أوه ، اللعنة ، اللعنة ! . .

نزلت داشا من مدخل البيت ، ووضعت مرفقها على باب الحديقة . كان ضوء الشرفة يسقط على اوراق الارقطيون اللامعة عند السياج ، وفى الطريق . مر بيتيا ، ابن ماتريونا ، منكس الراس بائسا فاتر الهمة يثير الغبار بقدميه الحافيتين . لم يبق امامه الا ان يعود الى المطبخ ويقوم نفسه للجلد ، ويستلقى لينام .

خرجت داشا من باب الحديقة ، وسارت ببطء الى نهر خيمكى .

وهناك وقفت على الجرف فى الظلام وتسمعت . وترامى اليها خرير ينبوع لا يسمع الا فى الليل . دمدمت كتلة من التربة انخلعت من الجرف الجاف ، وتدحرجت عليه ، سقطت فى الماء بطرطشة . وكانت اشباح الاشجار السوداء تنتصب على جانبيها ساكنة . وفجاة بدات اوراقها ترسل حفيفا ناعسا ، ثم عاد السكون . مرة اخرى . وساءلت داشا نفسها بصوت خفيض : متى ، متى ، متى !»
وطقطقت باصابعها .

فى احد الاعياد فى اوائل حزيران استيقظت داشا فى ساعة مبكرة وذهبت لتغتسل فى المطبخ لئلا توقظ كاتيا . رات على المنضدة كومة من الخضار ، وفوقها بطاقة بريدية خضراء يبدو ان بائع الخضار جلبها من البريد مع الجرائد . كان بيتيا ، ابن ماتريونا ، يجلس على العتبة ناشقا ، وقد شد ساق دجاجة الى عصا صغيرة . وكانت ماتريونا تعلق الغسيل على اغصان الاقاصيا .

صبت داشا فى وعاء خزفى ماء فواحا برائحة النهر ونضت قميصها عن كتفيها ، ونظرت مرة أخرى لتعرف ما هذه البطاقة البريدية الغريبة . امسكت طرفها باصبعين مبللتين ، فاذا بها تقرأ : «عزيزتى داشا ، انا قلق لأننى لم اتلق ردا على اية واحدة من رسائلى . أمن المعقول انها فقدت ؟»

اسرعت داشا بالجلوس على المقعد ، فقد غامت الدنيا امام عينيها ، وارتخت رجلاها . . . «جرحى قد اندمل كليا وانا الآن امارس التمارين الرياضية يوميا وعلى العموم امسك زمام نفسى بيدى . بل واتعلم الانجليزية والفرنسية . اعانقك ، يا داشا ، اذا ما زلت تذكريننى . ايفان تليغين» .

سحبت داشا قميصها على كتفيها وقرات الرسالة للمرة الثانية :

«اذا ما زلت تذكريننى ! . .» وثبت واقفة وركضت الى كاتيا فى مخدعها ، وازاحت الستارة القطنية من على النافذة .

– كاتيا ، اقرئى بصوت عال ! . .

وجلست داشا على سرير كاتيا التى بدا عليها الفزع ، ولم تنتظر ان تقرا اختها الرسالة ، واخذت تقراها بنفسها ، ونهضت مسرعة بعد هذا ، رافعة يديها :

– كاتيا ، يا كاتيا . ما افضع ذلك !

– ولكنه حى ، والحمد الله ، ياعزيزتى داشا .

– احبه ! . . يا الهى ، ماذا علىّ ان افعل ؟ . . اجبنى يارب ، متى تنتهى الحرب ؟

اختطفت داشا البطاقة البريدية ، وركضت الى نيقولاى ايفانوفيتش . وبعد ان تلتها عليه طلبت منه ماخوذة ادق جواب عن سؤالها : متى تنتهى الحرب ؟

– ياعزيزتي ، لا احد الآن يعرف هذا .
– فماذا تعمل انت ، اذن ، فى ذلك الاتحاد البلدى الاحمق ؟
لا شيء غير هراء يقوله الجميع من الصباح حتى المساء . ساذهب الى قائد القوات فى موسكو . . . واطلب منه . . .
– ماذا تطلبين منه ؟ . . آه ، يا داشا ، داشا . ينبغى ان تتحلى بالصبر .

وظلت داشا بضعة ايام تلوب على نفسها ولا تستقر فى مكان . ثم هدات ، وكانها انطفات . وكانت فى المساء تأوى الى غرفتها مبكرا ، وتكتب الرسائل لايفان ايليتش ، وتصنع الطرود له وتلفها بالجنفاص . وعندما كانت يكاترينا دميترييفنا تبادرها الحديث عن تليغين كانت داشا تصمت عادة . وتخلت داشا عن نزهة المساء ، وظلت تقضى معظم اوقاتها جالسة مع كاتيا وهى تخيط او تطالع . وكانت تحس ضرورة ان تخفى كل مشاعرها فى اعماق نفسها قدر الامكان ، وتغطى نفسها بجلدة عادية حصينة من الحياة .

اما يكاترينا دميترييفنا فرغم انها ابلَت تماما خلال الصيف الا انها انطفات هى الاخرى مثل داشا . وكانت الشقيقتان غالبا ما تقولان انهما ترزحان مثل كل انسان الآن ، تحت ثقل كحجر الرحى . كانتا تجدان رهقا فى الاستيقاظ ، ورهقا فى السير ورهقا فى التفكير والالتقاء بالناس ، وتتلهفان الى الساعة التى تأديان فيها الى الفراش مرهقتين ، فان النوم والنسيان متعة لا تعادلها متعة . بالامس دعت عائلة جيلكين الضيوف لتذوق المربى التى صنعتها حديثا ، ووصلت الجريدة وهم يحتسون الشاى ، واذا بهم يجدون اخا جيلكين فى قائمة القتلى . لقد صرع فى ساحة المجد . دخل اهل المنزل الى البيت ، ومضى الضيوف على الشرفة فى الظلام بعض الوقت ، ثم انصرفوا صامتين . وهكذا الحال فى كل مكان . كانت تكاليف العيش عالية ، والمستقبل يبدو غامضا ، والياس يخيم على النفوس . وجرى التخلى عن فرسوفيا ، ونسفت بريست-ليتوفسك واستسلمت . وكان الجواسيس يعتقلون فى كل مكان .

وكثر قطاع الطرق فى المنخفض على نهر خيمكى . ولم يخرج

احد الى الغابة اسبوعا كاملا خوفا منهم . ثم طردهم الحراس من المنخفض ، واعتقلوا اثنين منهم ، ونجا ثالث وانسل الى قضاء زفينيغورود كما يقول الناس لينهب الضياع .

ذات صباح وصلت عدوا عربة الى الساحة الصغيرة قرب بيت عائلة سموكوفنيكوف ، وكان السائق واقفا على بسطة العربة . وتراكضت نحوه من كل الجهات النسوة والطباخات والصبيان . ان شيئا ما قد حدث . وخرج بعض المصطافين مستاجرى البيوت الريفية من ابواب حدائقهم . واندفعت ماتريونا عبر الحديقة وهى تمسح يديها . كان السائق يقول احمر ملتهبا وهو واقف على بسطة عربته :

– . . . جروه من الدائرة وهزوه وضربوه على الرصيف ، ثم قذفوه فى نهر موسكو . وكان حوالى خمسة المان مختفين فى المصنع . . . امسكوا ثلاثة ، الا ان الشرطة هربتهم ، والا لكان لهم نفس المصير فى نهر موسكو . . . وفى ساحة لوبيانسكايا كلها يتطاير الحرير والمخمل على الدوام . والنهب يجرى فى المدينة كلها . . . والناس حشود . . .

انزل سوطه بكل قوة على حصانه العداء المنحنى بعض الشىء بين عريشى* العربة المعكوفين ، حاثا اياه وساطه مرة اخرى فانطلق الحصان بالعربة المتخلخلة وثبا فى الشارع ، ناخرا مزبدا وانعطف نحو الخمارة .

كانت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش فى موسكو . وكان عمود اسود من الدخان يتصاعد من هناك والى سديم السماء الرمادى المسفوع بالشمس ، وينتشر كسحابة . وكان الحريق يشاهد جيدا من ساحة القرية حيث تجمهر حشد من سواد اهل الريف . وحين كان المصطافون مستاجرو البيوت الريفية يقتربون كانت الاحاديث تسكت : كانت الانظار التى توجه الى السادة مشوبة بالسخرية او التوقع الغريب . وظهر رجل قوى البدن وحاسر الراس يرتدى قميصا ممزقا ، وصاح وهو يتقدم الى كنيسة صغيرة مبنية بالآجر :

– فى موسكو يذبحون الالمان .

وما كاد ينتهى من صياحه حتى اخذت امراة حبلى تنتحب . وتدافع الناس الى الكنيسة ، وركضت يكاترينا دميتريفنا ايضا الى هناك . واضطرب الحشد ، وضج .

– محطة فرسوفيا فى موسكو تحترق . احرقها الالمان .

– ذبحوا زهاء الفى الماني .

– بل ستة آلاف . والقى الجميع فى النهر .

– بدأوا بالالمان ، ثم مضوا يصفون بالتتابع . يقولون ان حوانيت شارع كوزنيتسكى موست * قد نهبت الى آخرها .

– هذا ما يستحقونه . سمنوا على عرقنا ، هؤلاء الاوغاد !

– من المستحيل ان توقف الشعب .

– فى منتزه بتروفسكى ، وانا لا اكذب قسما بالله ، فقد جاءت اختى لتوها من هناك ، فى هذا المنتزه ، كما يقول الناس ، عثروا على جهاز لاسلكى فى بيت ريفى ووجدوا بالقرب منه جاسوسين متنكرين بلحيتين مستعارتين . وقد فتكوا بهما بالطبع .

– ينبغى ان تفتش جميع البيوت الريفية !

ورأى الناس فيما بعد فتيات قرويات يحملن اكياسا فارغة وهن يركضن هابطات التل نحو السدة التى يسير عليها طريق موسكو . اخذ الناس يصيحون عليهن . فالتفتن ، ولوحن بالاكياس وتضاحكن . سالت يكاترينا دميتريفنا فلاحا هرما محتشم المظهر كان واقفا بالقرب منها يحمل عصا طويلة .

– الى اين هؤلاء الفتيات يركضن ؟

– لينهبن ، ايتها السيدة الكريمة .

واخيرا وبعد الساعة الخامسة وصلت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش من المدينة فى عربة . كان كلاهما مضطربا ، وقد رويا ، واحدهما يقاطع الآخر ان الناس فى موسكو كلها يجتمعون

* شارع فى موسكو حيث كانت تقع حوانيت غالية كان اكثرها يعود الى الاجانب . (المترجم) .

حشودا ، ويحطمون بيوت الالمان والمخازن الالمانية . وقد احرقت عدة بيوت ونهب مخزن الملابس الجاهزة التابع لماندل ، وحطم مستودع بيكر للبيانوهات فى شارع كوزنتسكى موست . ورميت البيانوهات من نوافذ الطابق الثانى ، والقيت فى النار .

وتغطت ساحة لوبيا نسكايا بالادوية والزجاج المهشم . ويقال ان حوادث قتل قد وقعت . وبعد الظهر خرجت الدوريات ، واخذت تفرق الناس . والآن هدأ كل شيء .

قال نيقولاى ايفانوفيتش وهو يرمش بعينيه من الانفعال :

– هذه هجمية ، بالطبع . ولكن تعجبنى هذه الروح الملتهبة ، جبروت الشعب . اذا كانوا اليوم قد نهبوا المخازن الالمانية فغدا سيقيمون المتاريس . والحكومة تهاونت فى هذه الاباحة عن قصد . نعم ، اؤكد لك لتنفس عن شدة غيظ الشعب . ولكن الشعب من خلال هذه الافعال سيطمع فى تذوق شيء اكثر جدية . . .

وفى تلك الليلة نهب قبو عائلة جيلكين ، وسرقت بياضات عائلة سفيتشنيكوف من العليّة . وظل الضوء مشتعلا فى الخمارة حتى الصباح . وبعد اسبوع صار اهل القرية يتهامسون ، وهم ينظرون نظرات مريبة الى المصطافين المتنزهين .

وفى بداية آب انتقلت عائلة سموكوفنيكوف الى المدينة . وعادت يكاترينا دميتريفنا الى عملها فى المستشفى العسكرى . وكانت موسكو فى ذلك الخريف حافلة باللاجئين من بولنده . وكان من المتعذر على المرء ان يشق طريقه فى زحام شارع كوزنيتسكى موست ، وبتروفكا ، وتفيرسكايا . وكانت المخازن والمقاهى والمسارح غاصة بالناس ، وفى كل مكان كانت تسمع عبارة جديدة : «معذور» .

وكان هذا اللغط والترف والمسارح والفنادق المكتظة ، والشوراع المزدحمة السابحة بالضوء الكهربائى محمية عن جميع المخاطر بجدار حى يكوّنه جيش مؤلف من اثنى عشر مليونا من البشر ينزف دما .

واستمرت الاوضاع الحربية فى حالة لا تبعث على الاطمئنان

قط . وكان الناس فى كل مكان من الجبهة والمؤخرة يتحدثون عن تصرفات راسبوتين البغيضة ، وعن الخيانة ، وعن استحالة الاستمرار فى القتال اذا لم ينقذ القديس نيقولا بمعجزة .

وفى خضم اليأس والفساد هذا اوقف الجنرال روزسكى هجوم الجيوش الالمانية بشكل مفاجئ وفى ميدان مكشوف .

٢٤

كانت الريح الشمالية الشرقية تحنى اشجار الحور الجرداء على ساحل البحر فى الغسق الخريفى ، وتهز اطر النوافذ فى البيت القديم القائم على التل ببرجه الخشبى ، وتدمدم فى السقف دمدمة تخيل اليك ان انسانا ثقيل الوزن يتخطى على السطح الحديدى ، وتصفر فى المداخن ، وتحت الابواب ، وفى كل شق .

ومن نوافذ البيت كان فى مستطاع الناظر ان يرى الورود العارية تنحنى من جهة الى اخرى انحناء شديدا على الارض البنية المحروثة ، والسحب الممزقة تعوم فوق البحر المموج الرصاصى اللون . وكان الجو باردا وموحشا .

وكان اركادى جادوف جالسا على اريكة بالية فى الغرفة الماهولة الوحيدة فى الطابق الثانى من البيت . وكان الكم الفارغ من سترته ، التى كانت انيقة يوما ما ، محشورا تحت حزامها . وكان وجهه بجفنيه المنتفخين محلوقا حلاقة جيدة وشعره مصففوفا بعناية ، وعلى وجنتيه عضلتان متحركان .

قلص جادوف عينيه من دخان سيكارته ، واحتسى شيئا من النبيذ الاحمر المتبقى فى براميل موجودة فى قبو بيت ابيه . وكانت يلزافيتا كيبفنا تجلس على الطرف الثانى من الاريكة ، وتحتسى النبيذ ايضا وتدخن مبتسمة ابتسامة رقيقة . وقد عودها جادوف ان تصمت اياما كاملة ، ان تصمت وتصغى ، بعد ان يحتسى زهاء ست زجاجات من نبيذ «كابيرنيه» المعتّق ويبدأ بالتحدث . وقد تراكمت فى نفسه افكار مريرة كثيرة اثناء الحرب

واثناء اقامته جائعا فى «قصر كابيرنيه» نصف المهدم وسط بضعة افدنة من دوالى الكروم – الثروة الوحيدة التى بقيت له بعد وفاة ابيه .

فى ليلة من الليالى التعسة فى المستشفى العسكرى فى المؤخرة قبل ستة اشهر حين كانت ذراعه المبتورة غير الموجودة توجعه وجعا ممضا قال ليلزافيتا كيبفنا بغيظ وحنق وتكدر :

ـ بدلا من ان تبحلقى فىّ بعينيك العاشقتين طوال الليل ، ولا تدعينى انام استدعى القس غدا ليسوى هذه القضية المضجرة .

اُمتقعت يلزافيتا كيبفنا ثم هزت رأسها موافقة . وعقد قرانهما فى المستشفى العسكرى . وفى كانون الاول نقل جادوف الى موسكو ، حيث اجريت له عملية ثانية ، وفى بواكير الربيع سافر مع يلزافيتا كيبفنا الى أنابا ، وسكنا فى «قصر كابيرنيه» . ولم تكن لجادوف اية موارد للعيش ، فكانا يحصلان على ثمن خبزهما ببيع الاثاث القديم والادوات المنزلية . الا ان النبيذ الكابيرنيه كان متوفرا بكثرة والمخمر خلال سنوات الحرب .

وفى هذا البيت الخاوى نصف المهدم ذى البرج الملوث بذرق الطيور بدات البطالة الطويلة الميئوسة . وقد استنفدت الاحاديث كلها منذ زمن طويل . والمستقبل لا ينطوى على شىء وكان الباب اغلق على الزوجين الى الأبد .

حاولت يلزافيتا كيبفنا ان تملأ بوجودها فراغ الايام الطويلة بشكل معذب . ولكنها لم توفق كبير توفيق : فقد كانت رغبتها فى الحظوة بالاعجاب مضحكة وغير متقنة ، وبلا اقتدار . وقد عيرها جادوف على ذلك . فراحت تفكر فى يأس بأنها ، رغم سعة فكرها ، سريعة التأثر كامرأة . ومع ذلك فانها لن تستبدل باية حياة اخرى هذه الحياة المعدمة المملوءة بالاهانات ، المترعة بالسأم ، والخضوع للزوج ، واللحظات النادرة من النشوة المجنونة .

وفى الآونة الاخيرة ، حين اخذ الخريف يصفر على الساحل الأجرد اصبح جادوف متوتر الاعصاب بشكل خاص : فما تكاد تبدى حركة حتى ترتفع شفته فوق اسنانه الحانقة ، ويتفوه باشياء فظيعة من خلال اسنانه مقطعا الكلمات بوضوح . وكانت يلزافيتا

كييفنا فقط ترعد داخليا فى بعض الاحيان ، وتسرى القشعريرة فى جسدها من الاهانة . ومع ذلك كانت تصغى الى هذيانه ساعات طويلة غير صارفة عينيها عن وجهه الجميل الناحل .

وكان يرسلها لتجلب النبيذ من القبو الآجرى المقوس السقف ، مسرح العناكب الكبيرة الراكضة . فكانت تقرفص هناك عند برميل ، وتراقب نبيذ كابيرنيه الاحمر ينزل فى الجرة الخزفية وتطلق العنان لافكارها . وتفكر بمرارة منتشية فى ان اركادى سيقتلها ذات يوم هنا ، فى القبو ، ويدفنها تحت برميل . وستمر ليالى شتائية طويلة وذات ليلة يوقد شمعة ، وينزل الى العناكب هنا . ويجلس امام البرميل ، ويراقب هذا النبيذ النازل كما تراقبه الآن ، وينادى فجاة «ليزا . . .» وما من شىء غير العناكب تركض على الجدران . فيجهش لاول مرة فى حياته من الوحدة ، ومن الوحشة القاتلة . لقد كانت يلزافيتا كييفنا تعوض بمثل هذه الاحلام عن كل الاساءات ، فانها فى آخر المطاف ستكون هى الرابحة لا هو .

اشتدت الريح . واهتز الزجاج من عصفاتها . اعول صوت وحشى من البرج ، وسيظل يعول ، على ما يبدو ، طوال الليل . ولم تتوقد نجمة واحدة فوق البحر .

وكانت يلزافيتا كييفنا قد نزلت ثلاث مرات الى القبو ، وملات الجرة . وبقى جادوف على جلسته الساكنة وعلى صمته . فى هذه الليلة لا بد ان تجرى احاديث من نوع خاص .

وتكلم جادوف فجاة وبصوت عال :

– اليست عندنا بطاطس ، على الاقل ؟ كان فى امكانك ، على ما يبدو ، ان تلاحظى أننى لم اتناول شيئا من الأكل منذ الامس .

وذهلت يلزافيتا كييفنا . بطاطس ، بطاطس . . . انها منذ الصباح كانت مشغولة بافكارها ، بعلاقة اركادى بها حتى ان العشاء لم يخطر على بالها . وثبت من الاريكة . فقال جادوف بصوت متثلج :

– اجلسى ياقذرة . انا اعرف بدونك اننا لا نملك بطاطس . يجب ان اقول لك انك لا تجيدين شيئا فى الحياة خلا التفكير فى مختلف السفاسف .

– سأذهب الى جيراننا ، فقد يبادلوننا النبيذ بشىء من الخبز ومن البطاطس .

– افعلى ذلك حين افرغ من الحديث . اليوم حللت نهائيا مسالة اباحة الجريمة . (وبهذه الكلمات لفت يلزافيتا كييفنا اللفاح عليها ، وانزوت فى طرف الاريكة .) ان هذه المسالة استهوتنى منذ الطفولة . والنساء اللائى التقيت بهن اعتبرننى مجرما ، واستسلمن لى بتعطش كبير . الا اننى لم احل فكرة الجريمة الا فى الاربع والعشرين ساعة الماضية .

ومد يده الى القدح ، وشرب النبيذ بنهم واشعل سيكارة :

– تصوريني جالسا فى الخندق على بعد ثلثمائة خطوة عن العدو . فما الذى يمنعنى من تخطى المتراس ، والذهاب الى خندق العدو ، لاقتل مَنْ ينبغى ان يقتل ، وانهب فلوسهم وبطانياتهم والقهوة والتبغ ؟ لو كنت واثقا من انهم لن يرمونى او يرموننى ولكن لا يصوبوننى فاننى بالطبع لذهبت وقتلت ونهبت ، ونشرت صورتى فى الصحف كبطل . ان ذلك يبدو واضحا ومنطقيا . والآن ، ها انا قاعد على بعد ستة فراسخ من أنابا ، فى «قصر كابيرنيه» وليس فى خندق ، فلماذا لا اذهب ليلا الى المدينة ولا اقتحم مخزن مورافيتشيك للمجوهرات ، واستولى على المجوهرات والذهب ، واذا صادفت مورافيتشيك نفسه ، فاغرز فيه سكينا بكل سرور ، فى هذا الموضع – واشار باصبعه الى بداية الرقبة بحزم – لماذا لا افعل ذلك حتى الآن ؟ هذه المرة ايضا بدافع الخوف فقط . والخوف من الاعتقال ، والمحاكمة ، والاعدام . يبدو اننى اتحدث بمنطق . ها ؟ ان سلطة الدولة هى التى تبت فى مسالة قتل ونهب العدو . اى تبت فيها وفق الاخلاق التى ترسمها الحكومة ، اى بمجموعة القوانين الجنائية والمدنية ، فى المعنى الايجابى . ومعنى ذلك ان المسالة تنحصر فى احساسى الشخصى بِمَنْ اعتبره انا عدوالى .

قالت يلزافيتا كييفنا بصوت لا يكاد يسمع :

– العدو فى الحالة الاولى هو عدو الدولة وفى الحالة الثانية عدوك فقط .

– تهانئ ! حدثينى شيئا ما عن الاشتراكية . هراء ! الاخلاق

قائمة على حق الفرد ، لا المجموع . اعتقد بان التعبئة قد نجحت نجاحا باهرا فى جميع الاقطار والحرب ماضية فى سنتها الثالثة بكل معمعانها ، مهما احتج بابا روما ، فقط لأننا جميعا ، كل فرد منا ، قد تجاوزنا قماط الرضاعة . اننا نريد القتل والنهب ، واذا لا نريد بشكل مباشر فاننا لا نعترض عليهما فى شىء . والدولة تنظم القتل والنهب . والحمقى والقاصرون ماضون فى تسمية القتل والنهب قتلا ونهبا . وانا منذ الآن اسميهما التحقيق الكامل لحق الفرد . النمر ياخذ مايريد . وانا ارفع من النمر . فمن يجرؤ على تحديد حقوقى ؟ مجموعة القوانين ؟ لقد اكلتها الديدان .

وضم جادوف قدميه ، ونهض بخفة ، وراح يذرع الغرفة التى كان يتسلل اليها من خلال الزجاج المغبر خط كاب من الغروب لا يكاد ينيرها .

— ان مليارا من الناس يجدون انفسهم الآن فى حالة حرب . وخمسمائة مليون من الرجال يقاتلون فى الجبهات ، وهم منظمون ومسلحون . ويمثلون فى الوقت الحاضر مجموعتين متعاديتين . ولكن لا شىء يمنعهم من ان يوقفوا القتال فى احد الايام ، ويتحدوا وسيحدث هذا حين سيقول رجل لهذه الخمسمائة مليون من الرجال : «ايها الحمقى ، انكم لا تصوبون الى الهدف الصحيح» . ولا بد ان تنهى الحرب بتمرد ، بثورة ، بحريق يشمل العالم . وتتحول الحراب الى داخل البلاد . وسيكون المجموع سيد الحياة وسيجلسون على العرش فقيرا من الحثالة ويقدمون له فروض الطاعة . وليكن ذاك . ان ذلك سيزيد من اطلاق يدىَّ للنضال . فمن ناحية يوجد قانون الجماهير ، ومن الناحية الثانية يوجد قانون الفرد . انتم الاشتراكية ونحن قانون الغاب ، نحن الفوضوية المقدسة ، المنظمة بانضباط جديدى .

كان قلب يلزافيتا كييفنا يخفق خفقانا مجنونا . انها هذه بالذات تلك «المهاوى» التى كانت تحلم بها حين كانت فى شقة تليغين . ولكنها لم تعد تلك المزحات المرحة المصاغة بالبنود الاثنتى عشرة «للاستفزاز الذاتى» التى علقها نزلاء شقة تليغين على باب ليزا . . . والآن فى الغسق مر بالنوافذ رجل رهيب حقا مثل حيوان الكوجر الامريكى فى قفص . كان يتحدث

لمجرد انه غير طليق . وحين اصغت يلزافيتا كييفنا اليه احست وكأنها رأت عدوا مجنونا لخيول منطلقة ، وسهبا ، ووهجا . . . وتراءى لها انها تسمع صيحات ، وضجيج معركة والزعيق قبل الموت واغانى السهب .

٢٥

فى اوائل الشتاء من عام ١٩١٦ ، ووسط الجزع العام والتوقعات التى لا تحمل املا استولت القوات الروسية فجأة على قلعة ارضروم بالعنوة حافرة انفاقا عميقة خلال الثلوج ، متسلقة منحدرات كساها الجليد . وكان ذلك فى وقت مُنى فيه الانجليز بهزائم عسكرية فى ما بين النهرين وقرب القسطنطينية ، وجرى فيه قتال عنيد فى الجبهة الغربية على بيت المعدّاوى على نهر ايسر ، وكان الاستيلاء على بضعة امتار من الارض المروية بالدماء ريا كثيفا يعتبر نصرا كان برج ايفيل يسرع لاذاعته على جميع العالم .

وفى الجبهة النمساوية تحولت الجيوش الروسية بقيادة الجنرال بروسيلوف الى هجوم حاسم بنفس الفجاءة ايضا .

وحدثت بلبلة عالمية . وصدر فى انجلترا كتاب عن الروح الروسية الملغزة . وبالفعل ، وخلافا للفكر المنطقى ، وبعد سنة ونصف سنة من الحرب ، والهزيمة ، وفقدان ثمانى عشرة ولاية ، وخور العزيمة العام وبعد الخراب الاقتصادى ، والانحطاط السياسى عادت روسيا مندفعة الى الهجوم على طول جبهتها تمتد ثلاثة آلاف فرسخ . وارتفعت موجة معاكسة من القوة النضرة التى تبدو غير مستنفدة .

وسارت صفوف مئات الالوف من الاسرى داخل روسيا . وتلقت النمسا ضربة مميتة ونتيجة لها تهشمت بعد سنتين بسهولة وكأنها وعاء من الفخار . وعرضت المانيا الصلح سرا . وارتفع سعر الروبل . وانبعثت من جديد الآمال بانهاء الحرب العالمية بضربة حربية . وراجت «الروح الروسية» رواجا فائقا بين الناس . وشُحنت بواخر المحيطات بالفرق الروسية . وغنى

فلاحو اوريول ، وتولا ، وريازان اغانى الجنود الروسيـــة فى شوارع سلانيك ، ومارسيليا ، وباريس ، وشنوا هجمات جنونية بالحراب انقاذا للحضارة الاوربية .

واستمر الهجوم طيلة الصيف واستدعى للخدمة رجال من اعمار متزايدة ممن كانوا فى الاحتياط ، وا'نتزع الفلاحون فى سن الثالثة والاربعين من الحقل ، من العمـل . وكان يجرى تشكيـل الوحدات التكميلية فى جميع المدن . واقترب عـدد المعبئين الى اربعة وعشرين مليونا وخيمت على المانيا ، واوربا كلها سحابة الرعب القديم من الجحافل الآسيوية .

وخلال هذا الصيف اقفرت موسكو اقفارا شديدا . فقـد امتصت الحرب الرجال مثل مضخة ماصـة . ورحـل نيقولاى ايفانوفيتش الى الجبهة فى مينسك . وعاشت داشا وكاتيـا فى المدينة عيشة هادئة منعزلة ، وكان العمل كثيرا ، واحيانا كانت تاتى من تليغين بطاقات بريدية مقتضبة حزينة ، فقد حاول كما يظهر ، الهروب من الاسر ، الا انه قبض عليه ، ونقل الى قلعة .

وفى احد الاوقات زار الشقيقتين رجل لطيف جدا هو النقيب روتشين الذى اوفد الى موسكو لتسلم الذخيرة . وكان نيقولاى ايفانوفيتش قد اخذه ذات مرة فى سيارته من الاتحـاد البلدى ليتناول طعام الغداء فى البيت . ومنذ ذلك الحين اخذ روتشين يتردد على البيت .

كان جرس الباب الخارجى يدق عند حلول الظلام من كـل مساء . فتتنهد يكاترينا دميتريفنا على الفور تنهيـدة حذرة ، وتذهب الى الصوان ، وتضع مربى فى سُكرجة او تشرح الليمون شرائح للشاى . ولاحظت داشا ان كاتيا حين يظهر روتشين فى غرفة الطعام ، بعد ان يدق الجرس ، لا تدير رأسها اليه حالا ، بل تتباطأ برهة ، ثم تطل من شفتيها ابتسامتها الرقيقة المعتادة . وكان فاديم بيتروفيتش روتشين ينحنى بتحية صامتة . كان نحيلا ذا عينين داكنتين خاليتين من البهجة ، وراس حليق متناسق . . . وكان يجلس الى المائدة متمهلا ويشرع برواية الانباء الحربية . وكانت كاتيا تشرب الشاى ، وتنظر فى وجهه ، وكان يبدو مـن عينيها بحدقتيها الواسعتين انها تصغى اليه باهتمام خاص . وحين

تلتقى عيناه بعينيها كان يظهر على وجهه عبوس خفيف ويصلصل مهمازاه تحت المائدة . واحيانا يخيم على المائدة صمت طويل ، وفجاة تتنهد كاتيا وتحمر ، وتبتسم عن تقصير . وينهض روتشين فى نحو الساعة الحادية عشرة ويقبل يد كاتيا باحترام ويد داشا بذهول وينصرف ، راجيا الا يرافق الى الرواق . وكانت خطواته القوية تسمع وقتا طويلا فى الشارع الخالى . وكانت كاتيا تمسح الاكواب وتغلق الصوان ، دون ان تنطـق كلمـة واحدة ، وتاوى الى غرفتها ، وتدير المفتاح فى الباب .

ذات مرة كانت داشا تجلس قرب النافذة المفتوحة عند الغروب . كانت الخطاطيف تحلق عاليا فوق الشارع . واستمعت داشا الى اصواتها الرقيقة الرنانة ، وفكرت فى ان يوم غد سيكون حارا صاحيا ، ما دامت الخطاطيف تحلق عاليا . انها طيور سعيدة ما دامت لا تعرف شيئا عن الحرب .

غربت الشمس ، وتلوّن الغبار فوق المدينة بلون ذهبى . وجلس الناس فى الغبش عند البوابات ومداخل البيوت . وشاعت وحشة فى نفسها ، وانتظرت داشا شيئا ما وها هو اورغن الشوارع بدأ عزفه فى مكان غير بعيد مضيفا نغمة عاطفية متكررة مزمنة تعبر عن وحشة المساء . وضعت داشا مرفقها على افريز النافذة . كان صوت نسائى عال يرتفع الى سطوح البيوت نفسها مغنيا : «تغذيت على الخبز اليابس ، وشربت الماء القارس . . .»

تقدمت كاتيا نحو مقعد داشا من الخلف ، ويبدو انها سمعت ايضا ، فقد وقفت بلا حراك .

– انها تغنى جيدا ، يا كاتيوشا .

قالت كاتيا فجاة بصوت واطئ وغريب .

– لاى شىء هذا ؟ لِمَ قدُر لنا ؟ اى ذنب ارتكبنـــا ؟ عندما ينتهى هذا ساصير عجوزا ، هل فهمت ؟ لا اصطبر اكثر من هذا ، لا استطيع ! . .

ووقفت عند الحائط ، قرب الستارة شاحبة متقطعة الانفاس ، وقد ظهرت غضون عند فمها ، تنظر الى داشـــا بعينين جافتين داكنتين . وكررت بخفوت وبحة صوت :

– لا استطيع اكثر ، لا استطيـــــع . ان ذلك لن ينتهى ابدا ! . . نموت . . . ولن نعرف الفرحـــة بعد الآن . . . اتسمعين عويلها ؟ . . انها تدفن احياء .

طوقت داشا اختها ، ومسدت عليها ، وارادت تهدئتها ، الا ان كاتيا رفعت كوعيها حيث ارادت ان تنحيها .

دق الجرس فى الرواق . ابعدت كاتيا اختها ، ونظرت الى الباب . دخل روتشين فى قميص خشن من الجوخ ، وحذاء جديد مدهون . سلم على داشا ببسمة ، ومد يده الى كاتيا ، وفجأة نظر اليها بدهشة وتجهم . انصرفت داشا الى غرفة الطعام فى الحال ومن هناك ، وبينما كانت تضع عدة الشاى على المائدة سمعت كاتيا تسأل روتشين بنفس الصوت الواطىء المبحوح ، ولكن بتحفظ :

– انت مسافر ؟

سعل واجاب بجفاف :

– نعم .

– غدا ؟

– لا ، بعد ساعة وربع .

– الى اين ؟

– الى الجبهة .

وبعد برهة من الصمت ، عاد يقول :

– المسألة ، يا يكاترينا دميتربيفنا ، ان هذا هو لقاؤنـــا الاخير ، على ما يبدو ، ولهذا قررت ان اقول . . .

اسرعت كاتيا لمقاطعته :

– لا ، لا . . . انا اعرف كل شىء . . . وانت تعرف عنى . . .

– يكاترينا دميتربيفنا ، انت . . .

صاحت كاتيا بصوت جنونى :

– نعم ، انت ترى بنفسك ! . . اتوسل اليك ان تنصرف . . .

ارتج الفنجان فى يدى داشا . واللذان كانا فى غرفة الجلوس صمتا . واخيرا تكلمت كاتيا بصوت خافت تماما :

– اذهب ، يا فاديم بيتروفيتش . . .

– وداعا .

وزفر زفرة قصيرة . وصرف حذاءه المدهون وانصفق الباب الخارجى . دخلت كاتيا غرفة الطعام ، وجلست الى المائدة وضغطت يديها على وجهها بكل قوة .

ومنذ ذلك الحين لم تذكر كاتيا الراحل بكلمة واحدة . تحملت الألم بشجاعة ، رغم انها كانت تستيقظ صباحا وعيناها محمرتان ، وفمها منتفخ . ارسل روتشين فى طريقه بطاقة بريدية – تحيـــة للشقيقتين ، ووضعت هذه الرسالة على طوار الموقد حيث لوثها الذباب .

كانت الشقيقتان تذهبان فى كل مساء الى بولفار تفيرسكوى لكى تستمعا الى الموسيقى . وكانتا تجلسان على مسطبة ، وتنظران الى الفتيات والصبايا يتنزهن تحت الاشجار فى اثواب بيضـــاء ووردية ، وكان فى البولفار كثرة من النساء والاطفال ، ونادرا ما يمر عسكرى مرفوع الذراع فى ضمادة ، او مشـــوه حرب على عكازة . وكان فرقة من الآلات النحاسيـــة تعزف فالس «على تلال منشوريا» . وكان صوت الابواق حزينا يتعالى فى السماء المسائية .

وكانت داشا تمسك يد كاتيا الضعيفة النحيلـــة ، وتقول وهى تنظر الى ضوء الغروب المتسرب من بين الاغصان :

– كاتيوشا ، كاتيوشا ، اتذكرين :

ايه يا حبى الذى لم يكتمل ،
فى قلبى يبرد الحنان . . .

اعتقد اننا لو نتجمل بالشجاعة ، فسنرى الوقت الذى يتاح لنا فيه ان نحب ، دون عذاب . . . لأننا نعرف الآن ان الحب اسمى شىء فى الدنيا . انا اتصور احيانا ان ايفان ايليتش سيأتى من الأسر وسيكون مختلفا جدا ، جديدا كل الجدة . انا الآن احبه بينى وبين نفسى ، بالخيال . وسنلتقى وكان احدنا قد احب الآخر فى حياة اخرى غير هذه الحياة .

قالت يكاترينا دميتربيفنا ، وقد مالت الى كتفها :

– اما انا ، يا عزيزتى داشا ، فان قلبى قد شاخ لما فيه من المرارة والعتمـــة . سترين انت اوقاتا سعيدة ، اما انا فلن ارى . . . ذبلت كالزهرة العقيمة .

– من العيب ان تقولى ذلك ، يا كاتيوشا .
– لا ، يا فتاتى ، يجب ان اتحلى بالشجاعة .
وذات مساء من تلك الامسية على المسطبة جلس عسكرى على الطرف الآخر منها . وكانت الفرقة الموسيقية تعزف فالسا قديما . وكانت اضواء المصابيح ترسل ضوءا شاحبا من خلال الاشجار . وكان جارهما على المسطبة يتفرس فيها بشدة حتى ان داشا احست بتوتر فى رقبتها . التفتت ، وندت منها «لا !» فجائية مذعورة خفيفة .
كان بيسونوف يجلس الى جانبها نحيفا رث المظهر فى سترة عسكرية متهدلة كالكيس وقبعة عليها صليب احمر . نهض وسلم صامتا . قالت داشا «مرحبا» ، واطبقت شفتيها . دفعت يكاترينا دميتريفنا بجسها الى ظهر المسطبة ، محتمية بظل قبعة داشا ، واغمضت عينيها . كان بيسونوف رماديا اللون وكانه مسربل بالغبار ، او انه لم يغتسل .
قال لداشا رافعا حاجبيه :
– رايتك فى البولفار يوم امس واول امس ولكننى ترددت فى التقدم منك . . . انا ذاهب لأقاتل . انهم وصلوا الىّ ايضا .
قالت داشا بعصبية مباغتة :
– كيف تذهب لتحارب ، وانت فى الصليب الأحمر ؟
– لنفرض ان الخطر قليل نسبيا – ، بالطبع . ولكن سواء لدى ان اقتل او انجو ، لا ابالى تماما . . . الحياة مضجرة تماما ! يا داريا دميتريفنا – ورفع راسه ، ورمق شفتيها بنظرة كابية – مضجرة من كل هذه الجثث ، ولا شىء غير الجثث . . .
سالت كاتيا دون ان تفتح عينيها :
– هل انت ضجر من هذا ؟
– نعم ، ضجر جدا ، يكاترينا دميتريفنا . فى الماضى كان ثمة شىء من الأمل . . . ولكن ، بعد هذه الجثث والجثث خيم ليل ابدى . . . جثث ، ودم وفوضى . هكذا . . . يا داريا دميتريفنا ، واذا اردت الحقيقة ، فقد جلست اليك راجيا تضحية نصف ساعة من الوقت لى .
– ولاى شىء ؟ – سالت داشا ، ونظرت فى وجه الغريب

والسقيم ، وخيل اليها فجاة وبصفاء ادار راسها انها ترى هذا الرجل لأول مرة .
قال بيسونوف مغضنا وجهه :
– فكرت طويلا فيما جرى فى القرم واود ان اتحادث معك – ودس يده ببطء فى جيب سترته الجانبى ليخرج علبة السيكائر – اود ان ابدد بعض الانطباعات غير الحسنة . . .
قلصت داشا عينيها ، لم تجد اى اثر للسحر فى هذا الوجه الكريه . فقالت بتصميم :
– احسب ان ليس بيننا ما نتحدث عنه – . واشاحت عنه .
– مع السلامة ، يا الكسى الكسييفتش .
تشوه وجه بيسونوف ببسمة معوجة ، ورفع قبعته ، وانصرف . نظرت داشا الى ظهره الواهن ، والى بنطاله العريض جدا وكانه يوشك ان يسقط على حذائه الثقيل الطويل المترب . أمن المعقول ان هذا المخلوق هو بيسونوف حلم لياليها المسهدة ؟
– كاتيوشا ، اجلسى ، وانتظرينى قليلا .
قالت بعجالة ، وركضت وراء بيسونوف الذى استدار فى ممر جانبى . لحقت به لاهثة الانفاس ، وامسكته من كمه . توقف ، واستدار ، وانسبل جفناه على عينيه الشبيهتين بعينى طائر مريض.
– الكسى الكسييفيتش ، لا تغضب منى .
– لست غاضبا ، بل انت لم تريدى ان تتحدثى معى .
– لا ، لا . . . انت لم تفهمنى على الوجه الصحيح . . . انا اقدرك كثيرا ، وارجو لك كل خير . . . ولكن لا داعى لتذكر ما فات . . . لا شىء يبقى من الماضى . . . انا اشعر بالذنب وأحس بالاشفاق عليك . . .
هز كتفيه ، ونظر من خلال داشا الى السابلة ببسمة ساخرة.
– اشكرك على الاشفاق .
تنهدت داشا ، فلو كان بيسونوف غلاما صغيرا لأخذته الى بيتها ، وغسلته بماء دافئ ، واطعمته حلوى . ولكن ماذا تفعل مع هذا الرجل وهو الذى خلق له ما يؤلمه ويعذبه ويكدره .
– اكتب لى كل يوم ، اذا اردت ، يا الكسى الكسييفتش ، وسارد عليك .

قالت له ، ونظرت فى وجهه باكثر ما يمكن من الطيبة . دفع راسه الى الوراء ، وضحك ضحكة باردة .

– شكرا . . . ولكن بى نفــور من الورق والحبر . . . – وتغضن وكانما ابتلع شيئا حامضا – اما انت قديسة ، يا داريا ديميتربيفنا واما معتوهة . . . انت عذاب الجحيم انزل علىّ ، وانا حى ، هل فهمت ؟

وجاهد لينصرف ، ولكن بدا وكانـــه لا يستطيـــع ان ينتزع قدميه . وقفت داشا مطرقة الراس ، فقد كانت تحس بالرثاء ، ولكن قلبها بارد . نظر بيسونوف الى جيدها المحنى والى نهدها الرقيق الفتى البادى من فتحة الفستان الابيض ، وفكر بأن هذه هى النهاية ، الموت .

– كونى رحيمة .

قال بصوت بسيط خفيض انسانى . همست على الفور دون ان ترفع راسها : «نعم ، نعم» وسارت بين الاشجــار . وللمرة الأخيرة بحث بيسونوف ببصره عن راسها الأشقر الشعر بين حشد الناس . لم تبد منها التفاتة . وضـــع يده على شجرة ، تشبثت باصابعه بقشرتها الخضراء . فان الأرض ، ملجاه الأخير ، مادت من تحت قدميه .

٢٦

كان القمر يتدلى مثل كرة شاحبة فوق مستنقعـــات الخث المقفرة . وكان الضباب يتلوى فوق الخنادق المهجورة . وفى كل مكان قرم اشجار مقطوعة ، وهنا وهناك تلوح اشجـــار صنوبر قصيرة وفى الجو رطوبة وسكون . وصف من عربات الاسعاف يسير على درب ضيق مرصوف بجذوع الشجر . وخط الجبهة لا يبعد غير ما يقرب من ثلاثة فراسخ وراء حدود الغابة المسننة ، ولا صوت يترامى من هناك .

فى احدى هذه العربات كان بيسونوف منطرحا على القش ، مغطى بكسوة حصان مشبعة برائحته . كانت الحمى تنتابه كل مساء مع غروب الشمس ، وتصطك اسنانه من القشعريرة ، وكان يبدو ان جسده يجف وتمر فى ذهنه افكار صافية خفيفة ملونـــة

كفوران بارد . كان ذلك احساسا بهيجا بفقدان الوزن الجسدى .

سحب الكسوة الى ذقنه ونظر الى السماء المعتمة المحمومة .

هذه هى نهاية الطريق على الارض : الظلمة ، وضوء القمر ، والعربة المتارجحة كالمهد . وهكذا بعد ان تكتمل حلقة القرون تعود عجلات السكيثيين الى الدوران والصريف . ولكن كل الاشياء لم تكن الا احلاما : اضواء بطرسبورغ ، الأبهة الحادة لمبانيها ، والموسيقى فى صالاتها الدافئة المتالقة ، وفتنة ستارة المسرحية وهى ترتفع ، وسحر الليالى الثلجية ، واذرع النساء المطروحة على الوسائد ، والحدقات الداكنة المجنونة . . . إثارات الشهـــرة . . . سكرة المجد . . . الضوء الهادئ فى المكتب ، القلب الخافق حماســا ، النشوة التى يبعثها خلق الكلمــات . . . الفتــاة ذات الزهور الاصطناعية البيضاء على قبعتها ، مندفعة من الرواق المضاء الى غرفته المظلمة ، الى حياته . . . كل ذلك مجرد احلام . . . والعربة تهتز . . . والى جنبها يسير فلاح بقبعة منكسة على عينيه . ألفان من السنين وهو يسير جنب العربـــة . . . ذلك هو امتداد الزمن اللانهائى المكشوف فى ضوء القمر الكابى . . . ومن ظلام القرون تتحرك الظلال . ويتعالى صريف العربات ، وتشق العالم عجلاتها السود . وهناك ، فى الضباب الشاحب مداخن مواقد ناتئة ، وادخنة الحرائق تتعالى الى السماء ، وصريف العجلات وقعقعتها . ويرتفع الصريف والقعقعة اكثر ، ويزداد اتساعا ، والسماء كلها مملوءة بهدير صاعق يمزق النفس . . .

توقفت العربـــة فجاة . ومن خلال الهدير الذى يملأ الليل الشاحب تبلغ السمع اصوات السواقين المذعورة . رفع بيسونوف جسمه قليلا . فرأى فى ضوء القمر عمودا طويلا متلالئ الحوافى يعوم على ارتفاع واطئ فوق الغابة ، ويستدير ويلتمع ، ويهدر بزئير محركات ، ويخرج من بطنه شعاع من الضوء ابيض نحيل ميال الى الزرقة ، ويندفع فوق المستنقعات ، فوق قرم الاشجـــار ، فوق الاشجار المطروحة ، فوق شجيرات الشوح ، ويستقر على الطريق العامة ، على العربات .

وترامت من خلال الطنين اصوات ضعيفة مثل ضربات سريعة على بندول الايقاع . . . وتناثر الناس من العربات . انحرفت عربة

اسعاف ذات عجلتين نحو المستنقع ، وانقلبت . . . وفى اللحظة التالية توهجت حزمة باهرة من الضوء على الطريق على بعد مائة خطوة من بيسونوف وارتفع حصان وعربة فى الهواء مثل كتلة سوداء ، وتصاعد عمود هائل من الدخان وانقلب طابور العربات كله فى زوبعة من الهدير . عدت الخيول فى المستنقع ساحبة وراءها الاجزاء الامامية من العربات ، وتراكض الناس . وانقذفت العربة التى يرقد بيسونوف عليها ، وهوت ، وتدحرج بيسونوف على منحدر الطريق الى الحفرة ، وانهبد كيس ثقيل على ظهره ، غمره القش .

القى المنطاد الالمانى قنبلة ثانية ، ثم اخذ دوى محركاته يبتعد ، وتلاشى . عندئذ بدأ بيسونوف يزيح القش من فوقه متوجعا ، وخرج بجهد من تحت الامتعة التى وقعت عليه ، ونفض نفسه وصعد الى الطريق . فرأى بعض العربات تقف هناك بجنبها وقد فقدت انصافها الامامية . وكان احد الخيول يرقد فى المستنقع مع عريش عربته ، وراسه ملقى الى الوراء ، يسحب رجله الخلفية آليا .

تحسس بيسونوف وجهه وراسه . مست اصابعه بقعة لزجة عند اذنه . وضع منديله على الخدش ، وسار على الطريق نحو الغابة . كانت ساقاه ترتجفان بشدة من الخوف والسقطة ، فاضطر بعد بضع خطوات ان يجلس على كومة من الحجارة الغليظة . اراد ان يشرب جرعات من الكونياك إلا ان القارورة بقيت مع الامتعة فى الحفرة . اخرج بيسونوف الغليون وعلبة الكبريت من جيبه بصعوبة ، وشرع يدخن . كان دخان التبغ مرا وكريها . ثم تذكر الحمى ، ان حالته سيئة ، ويجب ، مهما يكن من شىء ، ان يصل الى الغابة ، فقد قيل له ان البطارية تعسكر هناك . نهض بيسونوف الا ان رجليه لم تطاوعاه قط ، وكانهما من خشب ، ولا تكاد تتحركان اسفل بطنه . فقعد ثانية على الارض ، واخذ يدلكهما ويمدهما ، ويقرصهما ، حتى اذا احس بالالم يسرى فيهما فنهض وسار .

كان القمر عاليا الآن والطريق يتلوى فى الظلمة عبر المستنقعات المقفرة حتى يبدو بلا نهاية . وضع بيسونوف يديه على حقوه ، وترنح رافعا ومجرجرا لذائيه الثقيلين بصعوبة ، وخاطب نفسه :

«جرجر نفسك ، جرجر حتى تسحقك العجلات . . . نظمت اشعارا ، واغويت حمقاوات . . . والآن قذفوك . . . جرجر نفسك فى اتجاه الافول حتى تنهار . . يمكن ان تحتج ، تفضل احتج ، وازعق . . . حاول ، حاول ، اصرخ بافظع ما تستطيع ، اعول . . .»

والتفت بيسونوف فجأة . انزلق ظل رمادى من الطريق الى الأسفل . . . فسرت البرودة فى ظهره . ابتسم بتهكم ، ورفع صوته بعبارات متقطعة لا معنى لها ، وسار فى وسط الطريق . . ثم القى نظرة حذرة الى الخلف ورأى فى الواقع ان كلبا كبير الراس طويل القوائم كان يتبعه على بعد خمسين خطوة وراءه .

— الشيطان يعرف ماهذا !

غمغم بيسونوف ، واسرع فى سيره ، ثم القى نظرة اخرى عبر كتفه . كان هناك خمسة كلاب تسير خلفه فى صف واحد ، منكسة الابواز ، رمادية ، مرتخية المؤخرات . قذفها بيسونوف بحجر قائلا :

— ساضربكم . . . ابعدوا عنى ، ياقذارة . . .

انحدرت الوحوش الى اسفل ، الى المستنقع صامتة . جمع بيسونوف بعض الحجارة ، واخذ يتوقف بين الحين والاخر ويقذفها . . . ثم واصل سيره ، وصفر ، وصاح «هاى ، هاى . . .» خرجت الوحوش من اسفل الطريق وسارت وراءه ثانية .

بدأت شجيرات شوح صغيرة تظهر على جانبى الطريق . ثم ان بيسونوف لمح امامه ، عند المنعطف ، شبح شخص توقف متفرسا ، وبعد ذلك تراجع فى ظل شجيرات الشوح .

همس بيسونوف «اللعنة !» واختفى فى الظل ايضا ، ووقف طويلا محاولا السيطرة على خفقات قلبه ، توقفت الوحوش ايضا غير بعيد ، وجثم أولها واضعا بوزه على قائمتيه الاماميتين . ولم يتحرك الشخص الذى فى الأمام . راى بيسونوف بوضوح شديد عمامة طويلة بيضاء كالنقاب تبرقع وجه القمر . ثم صدر صوت وانغرز فى دماغه كالابرة ، هو صوت انسحاق غصن تحت قدم ، هى قدم ذلك الشخص بالتأكيد . طلع بيسونوف سريعا الى وسط الطريق ، وسار شادا على قبضتيه بجنون . واخيرا رآه الى

اليمين . كان جنديا مديد القامة ، محدودبا يلقى معطفه على كتفيه ، وكان وجهه بلا حاجبين ، يحاكي وجوه الموتى ، رماديا ، وفمه نصف مفتوح . صرخ بيسونوف :

– أى ، من أى فوج انت ؟

– من البطارية الثانية .

– اوصلني الى البطارية .

صمت الجندى ، ولم يبد حركة ، ونظر الى بيسونوف نظرة كدرة ، ثم ادار راسه الى اليسار :

– ما هذه ؟

اجاب بيسونوف نافد الصبر : كلاب .

– لا ، ليست هذه كلابا .

– لنذهب ، اسرع ، اوصلني .

قال الجندى رافعا صوته :

– لا ، لا اذهب .

– اسمع ، انا مصاب بحمى ، ارجوك ، اوصلني ، وساعطيك نقودا .

قال الجندى رافعا صوته :

– لا ، لن اذهب الى هناك . انا هارب .

– يا احمق ، انهم سيقبضون عليك ، على اية حال .

– كل شيء جائز .

القى بيسونوف نظرة جانبية عبر كتفه فلم ير الوحوش فلعلها اختفت بين اشجار الشوح .

– وهل البطارية بعيدة ؟

لم يجب الجندى . استدار بيسونوف ليذهب ، الا ان الجندى قبض على مرفقه بقبضة قوية كالكماشة .

– لا ، لا ادعك تذهب الى هناك . . .

– اترك يدى .

– لن اتركها ! – ونظر الجندى فى ناحية فوق اشجار الشوح ، دون ان يترك ذراع بيسونوف – منذ يومين وانا لم اتناول طعاما . . . قبل حين كنت غافيا فى الاخدود ، وسمعتهم قادمين . . . قلت لنفسى انهم رجال وحدتى . وبقيت مستلقيا .

انهم كثر يسيرون على الطريق على ايقاع واحد . فما هى الحكاية ؟ ونظرت من الاخدود . فاذا هم يسيرون مكفنين فى خط لا نهاية له . . . كالضباب . . .

صاح بيسونوف بصوت وحشى ، وهو يحاول فك ذراعه :

– ما هذا الذى تقوله لى ؟

– ما قلت الا الصدق ، فصدقنى ، ايها الوغد .

انتزع بيسونوف ذراعه ، وركض وكانه يركض على رجلين قطنيتين ، لا على رجليه الاصليتين . وتبعه الجندى يطبطب بحذائه الثقيل لاهثا وامسكه من كتفه . وقع بيسونوف ، وغطى رقبته وراسه بيديه . انهدّ الجندى عليه آزا بانفه وانشب اصابعه القاسية فى حلقومه ، وضغط . وبعد ذلك جمد وهمد .

همس الجندى من خلال اسنانه بذلك :

– اذن ، هذا انت !

عندما سرت رعشة طويلة فى جسد المطروح ، استطال الجسد ، وارتخى ، وكانما تسطح على التراب . عندئذ فك الجندى قبضته ، ونهض ، وتناول طاقيته . وسار فى الطريق ، دون ان يلتفت الى ما صنعت يداه . ترنح ، وهز راسه ، وجلس ممددا ساقيه على منحدر الاخدود .

وقال الجندى لنفسه :

– ما العمل الآن ؟ الى اين ؟ اوه ، يا منيتى ! تعالوا ، والتهمونى ، يا اوغاد . . .

٢٧

حاول ايفان ايليتش تليغين ان يهرب من معسكر الاعتقال ، الا انه قبض عليه ونقل الى قلعة ، وحبس حبسا انفراديا . وفى القلعة راح يخطط لهروب ثان ، وفى غضون ستة اسابيع انشغل فى قطع قضبان النافذة . وفى اواسط الصيف اخليت القلعة بشكل مفاجىء ، وارسل تليغين الى ماكان يسمى بـ«الجب العفن» كنوع من العقاب الاضافى . وكانت هذه مكانا رهيبا يكرب النفس هو عبارة

عن أربعة عنابر طويلة محاطة بأسلاك شائكة مقامه فى منخفض واسع وسط حقل للفحم النباتى . وعلى مسافة بعيدة فى اسفل التلال ، حيث كانت ترتفع مداخن آجرية ، كان يبدأ خط حديدى ضيق صدئ ممتدا عبر المستنقع كله ، ينتهى على مقربة من العنابر ، عند حفرة عميقة ، كانت موقعا للعمل فى العام الماضى حيث هلك اكثر من خمسة آلاف جندى روسى بالتيفوس والدوسنطاريا . وفى الجانب الآخر من المنبسط البنى-الاصفر كانت ترتفع جبال الكربات بسلسلتها المسننة . والى الشمال من العنابر ، فى اعماق المستنقع كان يلوح للعين عدد كبير من الصلبان الصنوبرية . وفى الأيام الحارة كانت انفاس التبخر تتصاعد فوق المنبسط ، ويطن ذباب الخيل ، وتتدلى الشمس حمراء مغبشة ناشرة التفسخ فى هذا المكان المكرب .

كانت الاعاشة هنا صارمة ، والطعام قليلا . وكان نصف السجناء هنا مصابين بأمراض المعدة والحمى ، والتقيحات ، والطفح الجلدى . ومع ذلك فان معنوية السجناء مرتفعة : فقد كان الجنرال بروسيلوف يتقدم بمعارك قوية ، والفرنسيون يدحرون الالمان فى شمبانيا وعند فيردون ، والاتراك يخلون شبه جزيرة البلقان . وكانت نهاية الحرب تبدو الآن قريبة قربا حقيقيا .

الا ان الصيف انقضى ، وبدأت الامطار ، والجنرال بروسيلوف لم يستول على كراكوفيا ، ولا على لفوف ، وهدأت المعارك الدامية فى الجبهة الفرنسية واخذت دول الحلف الثلاثى ودول الوفاق تلعق جراحها . وكان واضحا ان نهاية الحرب قد تأجلت الى الخريف المقبل .

عندئذ بدأ اليأس يدب فى «الجب العفن» . وكف فيسكوبوينيكوف ، جار تليغين ، عن الحلاقة والاغتسال فجأة . وصار يقضى اياما كاملة مستلقيا على سريره غير المرتب ، لا يرد على سؤال . واحيانا كان ينهض قليلا مكشرا عن انيابه ، ويحك جسمه باظافره فى كراهية ، كانت بعض القرح الوردية تظهر تارة على جسمه ثم تختفى . وذات ليلة ايقظ ايفان ايليتش ، وقال له بصوت كامد :

— تليغين ، هل انت متزوج ؟

— لا .

— اما انا فلى زوجة وابنة فى تفير . يجب ان تزورهما !

— كفى ، نم .

— سأنام نوما عميقا ، يا أخ .

وفى الصباح الباكر ، عند تعداد السجناء لم يرد فيسكوبوينيكوف على اسمه . ووجدوه فى المرحاض مشنوقا بحزام رفيع . واضطرب العنبر كله وتزاحم السجناء بالقرب من جثته المطروحة على الأرض . كان المصباح يضيئ وجهه المجزع بالم مفعم بالكراهية ، وآثار الحك على صدره تحت القيمص الممزق . كان ضوء المصباح كدرا بدت فيه وجوه الاحياء المنحنية على الجثة منتفخة ، صفراء ، مشوهة . التفت احد السجناء ، وهو المقدم ميلشين ، نحو ظلام العنبر ، وقال بصوت عال :

— وهل سنظل ساكتين يارفاق ؟

وسرت دمدمة مخنوقة فى الجمع ، وعلى الأسرة . انصفق الباب ، وظهر ضابط نمساوى ، هو آمر المعسكر ، وانشق الجمع يفسح له الطريق الى الجثة الهامدة ، واذا باصوات عالية ترتفع :

— لن نسكت !

— عذبوا الرجل !

— هذا دابهم !

— انا اتعفن حيا !

— لسنا مجرمين .

— كان يجب ان نضربكم اكثر يا اوغاد . . .

وقف الآمر على اطراف اصابعه وصرخ :

— سكوت ! كل فى مكانه ! خنازير روس !

— ماذا ؟ . خنازير روس ؟!

— نحن خنازير روس ؟!

وفى الحال اندفع نحو الآمر رجل ركين له لحية منفوشة هو النقيب جوكوف . دفع بابهامه الى وجه الضابط النمساوى ، وصاح بصوت مختلج مشيرا اشارة فاحشة .

— يا ابن الكلبة ، هل رأيته ؟

وهز راسه الاشعث ، وامسك الآمر من كتفيه وهزه بضراوة ، وطرحه ارضا ، وانطرح عليه .

وصمت الضباط الذين احاطوا بالمتصارعين بدائرة متماسكة . ولكن سرعان ما تردد صوت خطوات الجنود المتراكضين على الالواح ، وصرخ الآمر «النجدة !» عندئذ نحى تليغين رفاقه قائلا : «لقد جُن ، وسيخنقه !» وامسك جوكوف من كتفيه ، وابعده عن النمساوى . وصرخ الآمر بالالمانية : «انت وغد !» . كان جوكوف لاهثا . قال بصوت خافت «اتركنى ، وساريه ، هذا الخنزير» . الا ان الآمر قد نهض ، ولبس طاقيته المجعدة ، والقى نظرة متفرسة سريعة على وجه جوكوف ، وتليغين ، وميلشين ، واثنين او ثلاثة آخرين واقفين بالقرب منهم ، وكانما يريد ان يحفظهم فى ذاكرته ، وسار خارجا من العنبر مصلصلا بمهمازيه بقوة . وقفل الباب فى الحال ، ووضع الحراس عند المدخل .

فى ذلك الصباح لم يجر تعداد ، ولم يرتفع صوت طبل ، ولم توزع قهوة البلوط . وقبيل الظهر دخل جنود الى العنبر ومعهم نقالة ، وحملوا جثة فيسكوبوينيكوف . واغلق الباب مرة اخرى . وتفرق السجناء الى الأسرة ، واضطجع الكثيرون منهم . وران هدوء كلي على العنبر ، وكان الأمر واضحا : تمرد ، ومحاولة قتل ، ومحاكمة عسكرية .

بدأ ايفان ايليتش ذلك اليوم ، على عادته ، غير مخالف اية قاعدة من القواعد التى وضعها لنفسه ، والذى ظل يراعيها تمام المراعاة منذ اكثر من عام : فى الساعة السادسة ضخ ماء بنى اللون فى جردل ، وبلل جسده ، ودلكه وقام بالمائة تمرين وتمرين من التمارين الرياضية حارصا على ان تطقطق عضلاته ، ولبس ثيابه ، وحلق وجهه ، ولأن القهوة لم توزع اليوم جلس ، على الريق ، يدرس النحو الالمانى .

كانت العطالة الجسدية اصعب الاشياء فى الأسر واكثرها تهديما . وقد ضعضعت الكثيرين . كان احدهم يعمد فجأة الى بودرة وجهه وتزيين عينيه وحاجبيه ، ويظل يتهامس اياما كاملة مع شاب مبودر مثله ، وكان آخر يتحاشى رفاقه ، ويتهافت على السرير ساحبا بطانيته المهلهلة من راسه ، لا يغتسل ولا يحلق ، ويأخذ

ثالث باستعمال فاحش الكلام ويزعج الجميع بحكايات غريبة ، وينتهى اخيرا الى القيام بفعل قبيح جدا حتى ينقل الى مستشفى المعسكر .

وكانت الصرامة هى الخلاص الوحيد من هذا كله . انقلب تليغين خلال فترة الأسر ميالا الى الصمت ، وقد جف جسده الذى كان مدرعا بالعضلات ، وصار حادا فى حركاته ، واكتست عيناه لمعانا باردا عنودا ، وفى لحظة الحنق والتصميم تصيران مرعبتين .

اليوم كرر تليغين بعناية اشد من المعتاد الكلمات الالمانية التى سجلها بالأمس ، وفتح كتاب شبيلهاغين المتهرىء . جاء جوكوف وقعد على حافة سريره ، ولم يلتفت تليغين اليه ، واستمر يقرا بصوت واطىء . زفر جوكوف وقال :

– يا ايفان ايليتش ، اريد ان اقول فى المحكمة اننى مجنون .

نظر تليغين اليه بسرعة . كان وجه جوكوف العريض الأنف ، الأجعد اللحية ، ذو الشفتين الناعمتين الدافئتين الظاهرتين من خلال شاربيه الكثين ، مطرقا يبدو عليه الذنب ، وكانت رموشه الفاتحة ترمش باستمرار .

– لا اعرف ما الذى وسوس لى لأشير له اشارتى الفاحشة تلك ، انا نفسى لا ادرى الآن ماذا كنت اريد ان اثبت له . انا ادرك ، يا ايفان ايليتش ، اننى مذنب ، بالطبع . . . اندفعت وورطت رفاقى . . . هذا ما عزمت عليه : اقول اننى مجنون . . . هل توافقنى ؟

اجاب ايفان ايليتش ، معلما باصبعه على المكان الذى وصل اليه من الكتاب .

– اسمع ، ياجوكوف ، سيرمون عددا منا بالتاكيد . . . اتعرف هذا ؟

– نعم ، افهم .

– اذن ، اليس من الاحسن الا تتباله فى المحكمة ؟ ما رايك ؟ . . .

– انت على حق ، بالطبع .

– لن يلومك احد من رفاقك . . . سوى ان المتعة فى ضرب بوز نمساوى غالية الثمن جدا .

– وحالتى انا مؤلمة جدا لاننى عرضت رفاقى الى المحاكمة !

– وهز جوكوف راسه المنقوش الشعر – ليت اولئك الاوغاد يقضون علىّ وحدى .

وظل يتحدث على هذا المنوال وقتا طويلا ، الا ان تليغين لم يعد يصغى اليه ، وواصل قراءته لكتاب شبيلهاغين ، ثم نهض ، وتمطى ، مفرقعا بعضلاته . وفى تلك اللحظة انفتح الباب الخارجى بعنف ، ودخل اربعة جنود شاكين الحراب فى بنادقهم ، ووقفوا على جانبى الباب ، وقعقعوا بترابيس البنادق ، ودخل الرقيب الأول ، وهو رجل عبوس معصوب العين اجال بصره فى العنبر ، وصرخ بصوت ضار لا رنة فيه :

– النقيب جوكوف ، المقدم ميلشين ، الملازم الثانى تليغين . . .

خرج المدعوون ، وحدق الرقيب الاول فى كل واحد منهم بعناية ، واحاط الجنود بهم ، اقتيدوا من العنبر عبر الفناء الى بيت خشبى صغير هو بيت الآمر . وكانت تقف هناك سيارة عسكرية قد وصلت قبل حين . وازيحت الاسلاك العائقة التى تسد الطريق الى خارج المعسكر . وكان احد الحراس واقفا بلا حراك عند كشك مخطط . وفى داخل السيارة جلس السائق ، وهو صبى ذو عينين منفوختين بعض الشىء ، مائلا على ظهر مقعده امام الدفة . لكز تليغين بكوعه ميليشين الذى كان يسير الى جانبه .

– هل تعرف سياقة سيارة ؟

– اعرف ، ولكن لماذا ؟

– اسكت .

ادخلوا الى مكتب الآمر . كان ثلاثة ضباط نمساويين جدد يجلسون الى طاولة من خشب الصنوبر مغطاة بورق نشاف وردى اللون . وكان احدهم ، وهو رجل مزرقّ الوجه من الحلاقة ، تطفح على خديه الممتلئين بقع حمراء ، يدخن سيغارا . وقد لاحظ تليغين انه لم يرفع بصره الى الداخلين . وكانت يداه مستقرتين على الطاولة واصابعه السميكة المشعرة متشابكة ،

وعينه متقلصة بسبب دخان السيغار ، وياقته تضغط على رقبته . وفكر تليغين : «ان هذا اتخذ قراره مع نفسه» .

وكان الحاكم الآخر ، الذى يراس المحكمة ، رجلا عجوزا اعجف ذا وجه مستطيل كئيب قليل الغضون النظيفة ، له شاربان اشيبان كثان . وكان احد حاجبيه مرفوعا بنظارة من عدسة واحدة . امعن نظره فى المتهمين ، وحوّل الى تليغين عينه الرمادية التى بدت كبيرة من وراء العدسة . كانت عينا صافية ذكية تنم عن رقة . واختلج شارباه .

فكر ايفان ايليتش مع نفسه : «فى منتهى السوء» ونظر الى الحاكم الثالث الذى كان يضع امامه نظارة ذات اطار من قوقعة السلحفاة وورقة صغيرة مكتوبة بخط دقيق . كان رجلا قصيرا ممتلئا ، بشرته صفراء مشربة بلون رمادى ، وشعره خشن مسرح تسريحة قصيرة ، واذناه كبيرتان . وكان واضحا من كل شىء انه واحد من العسكريين الفاشلين .

حين صف المتهمون امام الطاولة لبس هذا نظارته المستديرة بحركة بطيئة . ومرر كفه الجافة على ورقة مكتوبة ، وبدا فجأة يقرأ قرار الاتهام كاشفا عن اسنان صناعية صفراء .

كان الآمر المعتدى عليه يجلس الى ناحية من الطاولة عاقدا حاجبيه ، ضاما شفتيه . ركز تليغين انتباهه ليتابع كلمات الاتهام ، الا ان فكره ، رغم ارادته ، كان يعمل بحدة وداب فى اتجاه آخر .

«. . . عندما ادخلت جثة المنتحر الى العنبر استغل بعض الروس هذه الحادثة لتحريض رفاقهم على العصيان المكشوف للسلطة ، واخذوا يهتفون بشتائم وتعابير فاحشة هازين قبضاتهم مهددين . وكان المقدم ميليشين ، مثلا يحمل بيده مطواة مفتوحة . . .»

شاهد ايفان ايليتش عبر النافذة الصبى السائق يدير اصبعه فى انفه ، ثم انقلب على جنبه فى مقعده ، ودفع على وجهه قبعته الضخمة ، تقدم جنديان قصيران من السيارة ، وقد القيا على كتفيهما معطفين ازرقين ، ووقفا يتطلعان ، فرقص احدهما ، ومس اطار العجلة باصبعه ثم استدار الاثنان – فقد دخلت عربة المطبخ الى الفناء ، والدخان يتصاعد من مدخنتها بوداعة ،

واستدارت نحو العنابر ، حيث اتجه الجنديان ايضا بتكاسل . لم يرفع السائق رأسه ، ولم يلتفت ، فلعله قد غفا . عض تليغين على شفتيه من نفاد الصبر ، وعاد يصغى الى صوت المدعى الصارف :

«. . . النقيب جوكوف المشار اليه سابقا اظهر للسيد الآمر خمس اصابع مطوية مهددا حياته عن عمد ظاهر وسبق اصرار ، بالاضافة الى ان الابهام كان بارزا بين السبابة والوسطى ، وهى اشارة مقيتة كانت تهدف ، فى الظاهر ، الى تحقير شرف البزة الملكية الامبراطورية . . .»

وبعد هذه الكلمات نهض الآمر ، وبدا ، وقد تبقع وجهه ببقع حمر ، يشرح للحاكمين بالتفصيل حكاية اصابع النقيب غير المفهومة كثيرا ، بينما اصغى جوكوف نفسه ، وكان قليل الالمام بالالمانية ، بكل ما لديه من قدرة ، وحاول ان يدس كلمة واحدة ، والتفت الى رفاقه بابتسامة تقصير طيبة ، ولم يضبط نفسه ، فتكلم بالروسية مخاطبا المدعى :

— يا حضرة العقيد ، اسمح لى بالتنويه — انا اقول له لمَ هذا التحامل علينا ، لمَ ؟ انا لا اعرف التعبير بالالمانية ، فلذلك اظهرت له باصابعى .

قال ايفان ايليتش من خلال اسنانه :

— جوكوف ، اسكت .

نقر رئيس المحكمة بالقلم . تابع المدعى مطالعته .

وصف العقيد كيف وبأى موضع امسك جوكوف بالآمر و«طرحه ارضا وضغط بابهامى يديه على حلقومه ، بغية التسبب فى موته» وانتقل الى احرج نقطة فى الاتهام : «. . . كان الروس بتدافعهم وصياحهم يحرضون القاتل على القتل . فان احدهم ، وهو الملازم الثانى يوهان تليغين اندفع الى مكان الحادث ، حين سمع خطوات الجنود المتراكضين ، وابعد جوكوف ولثانية واحدة فقط كانت بين الحياة والموت المحتم لحضرة الآمر» . وهنا توقف المدعى ، وابتسم راضيا عن نفسه — «ولكن فى تلك اللحظة ظهر الخفراء من مراتب اوطأ ، فلم يستطع الملازم الثانى تليغين الا ان يصرخ بضحيته : «يا وغد» .

واعقب ذلك تحليل سيكولوجى منمق لتصرف تليغين «الذى

حاول ، كما هو معروف ، الهروب مرتين من الأسر . . .» ووجه العقيد اتهاما قاطعا لكل من تليغين وجوكوف وميلشين الذى كان يحرض على القتل ملوحا بالمطواة . ولتشديد قوة الاتهام عمد الى تبرئة ايفانوف واوبيكو «اللذين وقعا تحت تاثير حالة الهيجان» .

بعد نهاية المطالعة اكد الآمر ان ذلك كله وقع طبق الصورة المروية تماما . واستجوب الجنود فذكروا ان المتهمين الثلاثة الأوائل مذنبون فعلا ، ولم يعرفوا شيئا عن المتهمين الآخرين . فرك رئيس المحكمة يديه النحيفتين ، واقترح اسقاط التهمة على ايفانوف واوبيكو بسبب عدم توفر الادلة . هز الضابط الأحمر الوجه رأسه بعد ان دخن السيغار حتى وصل الى شفتيه . ووافق المدعى ايضا بعد شىء من التردد . عندئذ تنكب اثنان من الحرس السلاح . وقال تليغين «. . داعا يا رفاق» . نكس ايفانوف رأسه ، وصمت اوبيكو ونظر الى ايفان ايليتش بذعر .

اُخرج المبرآن ، واعطى رئيس المحكمة الكلام بمتهمين . سأل تليغين :

— هل تعتبر نفسك مذنبا فى التحريض على التمرد ، وفى الاعتداء على حياة آمر المعسكر ؟

— لا .

— وماذا تريد ان تقول بالذات فى هذا الخصوص ؟

— الاتهام مختلق من الفه الى يائه .

وثب الآمر مسعورا طالبا الايضاح . فاوقفه الرئيس باشارة .

— اليس لك ما تضيفه الى افادتك هذه ؟

— لا .

ابتعد تليغين عن الطاولة ، وتفرس فى جوكوف . فاحمر هذا ، ونخر من فمه ، واعاد فى اجابته عن الاسئلة ما صرح به تليغين كلمة كلمة . وفعل ميلشين مثله . استمع رئيس المحكمة الى الاجوبة ، واغمض عينيه بتعب . واخيرا نهض الحكام ، اختلوا فى الغرفة المجاورة ، وعند الباب بصق الضابط الاحمر الوجه ، وكان آخرهم ، عقب سيغاره المحترق حتى شفتيه ، ورفع ذراعيه ، وتمطى بتلذذ .

قال تليغين بصوت هامس :

– الرمى . وقد عرفته منذ دخولنا .

وتوجه الى الحارس قائلا :

– اعطنى قدح ماء .

تقدم الجندى من الطاولة مسرعا ، واخذ يصب من القارورة ماء كدرا ، وهو ما يزال ممسكا بندقيته . همس ايفان ايليتش فى اذن ميلشين بسرعة :

– عندما يخرجوننا ، حاول ان تشغل المحرك .

– مفهوم .

بعد دقيقة ظهر الحكام ، واحتلوا اماكنهم السابقة . خلع رئيس المحكمة نظارته الاحادية بتؤدة ، وقرّب من عينيه قصاصة ورق كانت تهتز قليلا ، وقرأ قرار الحكم القصير الذى انزل على تليغين وجوكوف وميلشين عقوبة الاعدام رميا بالرصاص .

ورغم ان ايفان ايليتش كان متيقنا من صدور مثل هذا القرار الا انه لدى سماعه لتلك الكلمات ، احس بأن الدم يغادر قلبه . نكس جوكوف راسه . اما ميلشين القوى العريض المنكبين ذو الانف العقابى فقد لعق شفتيه ببطء .

فرك رئيس المحكمة عينيه المتعبتين . ثم غطاهما بكفه ، وتكلم بوضوح ، ولكن بخفوت :

– يعهد الى السيد الآمر بتنفيذ الحكم على الفور .

نهض الحكام ، وظل الآمر وحده جالسا لبرهة من الوقت منتصب الجذع مخضوضر الوجه . ونهض ، وعدّل سترته النظيفة واوعز للجنديين الباقيين بصوت مبالغ بحدته بان يخرجا المحكومين . عند الباب الضيق تلكأ تليغين ليمكن ميلشين من الخروج اولا . امسك ميلشين بذراع الحارس كمن خارت قواه ، وتمتم بلسان متلعثم :

– لنذهب ، لنذهب ارجوك ، مسافة قليلة . . . بطنى يوجعنى وجعا ممضا . . .

حدق الجندى فيه ذاهلا وقاوم ونظر الى الوراء خائفا وهو لا يعرف كيف يتصرف فى الظرف الطارئ . الا ان ميلشين كان قد سار به حتى مقدمة السيارة ، وقرفص ، وغضن وجهه ، وتوجع ، قابضا باصابعه المرتعشة على ازرار ملابسه تارة ، وعلى مقبض

السيارة اخرى . وظهر على وجه الحارس رثاء واشمئزاز . قال غاضبا :

– اجلس ، اذا كان بطنك يوجعك . اسرع !

الا ان ميلشين ادار مفتاح التشغيل فجأة بقوة ضارية . انحنى الجندى نحوه مذعورا ليبعده . صحا الصبى السائق ، وصاح بشىء ما مغتاظا ، وقفز من السيارة . وكل ما حدث بعد ذلك لم يستغرق غير بضع ثوان . راقب تليغين من تحت حاجبيه حركات ميلشين وهو يحاول ان يقترب من الحارس الثانى قدر الامكان . وتعالى صوت المحرك ، وخفق قلبه مع ذلك الاهتزاز الحاد المذهل.

– جوكوف ، امسك البندقية ! – صاح تليغين ممسكا حرسه من وسطه ، ورفعه فى الهواء وقذفه على الارض بقوة ، وبلغ السيارة ببضع قفزات حيث كان ميلشين يصارع الجندى لينتزع البندقية . هجم ايفان ايليتش على الجندى بضربة سددها على رقبته بقبضته ، فتأوه هذا ، وقعد . اندفع ميلشين الى دفة القيادة ، وحرك المقابض ورأى ايفان ايليتش بوضوح رفيقه جوكوف ينسل الى السيارة ومعه البندقية ، والصبى السائق ينسل على طول الجدار ، ويقفز الى باب مقر الآمر فجأة والوجه المستطيل المشوه بالذعر ذا النظارة الآحادية يلوح فى النافذة ، وقامة الآمر القصيرة عند مدخل البيت ، والمسدس الراقص فى يده . . . وطلقة، واخرى . . . «اخطات ، اخطات ، اخطات» .

وبدا وكأن عجلات السيارة انغرست فى الخث ، الا ان تروس التعشيق زعقت ، واندفعت السيارة . والقى تليغين نفسه على المقعد الجلدى . واشتد هبوب الهواء على وجهه ، وصار الكشك المخطط يقترب بسرعة وكذلك الحارس المصوب بندقيته . دوت طلقة ومرت السيارة به كالزوبعة والى الخلف تراكض الجنود فى الفناء ، وركعوا على ركابهم . طلقة ! طلقة ! ولكن هذه الطلقات اصبحت اصم واصم . التفت جوكوف ، وهدد بقبضته . الا ان مربع العنابر المظلم اخذ يتضاءل وينخفض شيئا فشيئا ، واختفى المعسكر وراء المنعطف . مرقت بهم الاعمدة والاحراش ، والارقام على الاحجار خاطفة متلاحقة .

التفت ميلشين ، وقد تصاعد الدم ملونا جبينه ، وعينه وخده وصاح على تليغين :

– الى الامام ؟

– الى الأمام حتى نعبر الجسر ، ثم يمينا فى الجبال .

٢٨

جبال الكربات مقفرة موحشة فى المساء الخريفى الرياحى . واحس الهاربون بالاضطراب والقلق حين صعدوا الى الممر عبر الطريق المتعرج الابيض المغسول بالامطار حتى السطح الحجرى . كانت ثلاث او اربع اشجار صنوبر تتمايل فوق الهوة . وفى الاسفل غابة لا تكاد تبين فى نقاب الضباب يترامى منها حفيف . والى الاسفل منها فى قعر الهوة كان سيل غزير يخر مندفعا وقالبا الصخور بهدير .

ووراء جذوع الصنوبر بعيدا وراء قمم الجبال الشجراء المنعزلة كان شريط طويل من الغروب يلمع بين الغيوم الرمادية . وكانت الريح شديدة طليقة على هذا الارتفاع تضرب فى جلد غطاء السيارة .

جلس الهاربون صامتين . كان تليغين ينظر فى خارطة ، وميلشين يتطلع صوب الغروب وهو يرتفق دفة القيادة . وكان راسه مضمدا بخرقة .

سال بصوت خفيض :

– ماذا نفعل بالسيارة ؟ وقد نفد البنزين .

اجاب تليغين :

– لا يجوز ترك السيارة هنا ، العياذ بالله .

– ليس امامنا الا ان ندفعها الى الهوة .

قال ميلشين ، وتاوه ، وقفز الى الطريق ، وطبطب بقدميه بقصد تمرينهما ، واخذ يهز جوكوف من كتفه قائلا له :

– هاء ، يا نقيب ، استيقظ . وصلنا !

خرج جوكوف الى الطريق دون ان يفتح عينيه ، وتعثر ،

وقعد على صخرة . سحب ايفان ايليتش من السيارة مماطر جلدية – وسلة طعام كانت قد اعدت لغداء الحكام فى «الجب العفن» . وزعوا الطعام على الجيوب ، ولبسوا المماطر ، وامسكوا برفارف السيارة، ودفعوها الى الهوة . قال ميلشين :

– اديت خدمتك يا عروسة ، والآن على المعاش ! يا لله !

تدلت العجلاتان الاماميتان فوق الهوة ، وبكت السيارة الطويلة المتربة بمقاعدها الجلدية ، واطرها البرونزية طائعة مثل كائن حى ، وجنحت ، ثم هوت الى الأسفل مع نثار من الحجارة وكسر الصخر ، وتعلقت لحظة بنتوء صخرة ، وقرقعت ، وانقلبت ، ودوّت الى الاسفل فى هدير متعاظم من الحجارة وشظايا الحديد المتطايرة حتى استقرت فى السيل . وتردد الصدى ، وترامى بعيدا فى المضايق الضبابية .

تحول الفارون الى غابة ، وساروا بمحاذاة الطريق وكانوا يتكلمون نزرا ، وينطقون همسا . وكان الظلام قد خيم تماما ، واشجار الصنوبر تضج فوق رؤوسهم مهيبة وكان ضجيجها يشبه صوت مياه متساقطة على مبعدة .

كان تليغين ينزل الى الطريق بين الحين والآخر ، وينظر الى ارقام الفراسخ على الاعمدة . وقاموا بدورة كبيرة فى مكان يحتمل ان تكون نقطة عسكرية ، واجتازوا عدة منخفضات ، وتعثروا فى الظلام بالاشجار الساقطة ، والجداول الجبلية ، وتبللوا ، وتمزقت ثيابهم . وسروا فى الليل بكاملها . وذات مرة قبيل الصباح سمعوا صوت سيارة ، فرقدوا فى حفرة ، ومرت السيارة على مقربة منهم ، بل وسمعوا اصواتا فيها .

وفى الصباح اختاروا للاستراحة موضعا على مقربة من جدول فى وهدة شجراء نائية . واكلوا ، واتوا على نصف قارورة من الكونياك ، ثم طلب جوكوف ان يحلقا وجهه بالموسى الصدئة التى وجدها فى السيارة . وحين ازيلت لحيته وشارباه فوجئ رفيقاه بأن له حنك طفل ، وشفتين بارزتين . ضحك تليغين وميلشين طويلا ، مشيرين اليه باصبعيهما . وابتهج جوكوف كثيرا ، كان يخور مثل بقرة ويمط شفتيه ، وتبين انه سكران . نثرا عليه الاوراق ، وطلبا منه ان ينام .

بعد ذلك نشر تليغين وميلشين الخارطة على العشب ، ورسم كل منهما تخطيطا طوبوغرافيا لنفسه . وتقرر ان ينقسموا يوم غد : يذهب ميلشين وجوكوف الى رومانيا ، ويتجه تليغين الى غاليسيا . ودفنوا الخارطة الكبيرة فى الارض . وفرشوا الاوراق الجافة ، ودفنوا انفسهم فيها وغفوا فى الحال .

فى الاعلى ، عند حافة الطريق فوق الوهدة وقف رجل معتمد على بندقيته ، هو حارس الجسر . ساد الصمت حوله فى القفر الغابى تحت قدميه ، ولم يسمع غير زمزمة دجاجة الارض فى طيرانها الثقيل فوق مرجة فى الغابة ، صافقة بجناحيها على شجيرات الحور ، ومسقط ماء يترامى صوته من بعيد . وقف الحارس قليلا ، ثم انصرف متنكبا بندقيته .

عندما فتح ايفان ايليتش عينيه ، كان الليل مخيما . وكانت النجوم الساطعة تلمع بين اغصان الاشجار السوداء الساكنة . بدأ يتذكر اليوم الغائب ، الا ان الاحساس بالجهد النفسى فى المحكمة ، وخلال الهروب كان موجعا جدا بحيث طرد من ذهنه تلك الافكار .

سأل ميلشين بصوت خافت :

— هل انت يقظان ، يا ايفان ايليتش ؟

— منذ زمان . انهض وايقظ جوكوف .

وبعد ساعة كان ايفان ايليتش يسير بمحاذاة الطريق الواضح ببياضه فى الظلمة .

٢٩

فى اليوم العاشر وصل تليغين الى خط الجبهة . وكان طوال هذه المدة يسير ليلا ، ويختفى فى الغابة عند طلوع النهار ، وحين كان يضطر الى النزول فى واد ، كان يختار لمبيته بقعة فى منأى عن الاماكن المأهولة . وكان يقتات على الخضار النيئ الذى كان ينتشله من حدائق الخضروات .

كان الليل باردا ممطرا . وكان ايفان ايليتش ينسل على الطريق العامة بين عربات الاسعاف المتجهة غربا ، والمملوءة بالجرحى وعربات اخرى محملة بالحاجات المنزلية ، وجموع النساء

والشيوخ الحاملين على اذرعهم اطفالا وصررا وادوات منزلية .

وكانت القوافل المحملة بالجنود والامتعة العسكرية تأتى من الاتجاه الاخر ميممة صوب الشرق . وكان من الغريب التصديق بان عام ١٩١٤ وعام ١٩١٥ قد انتهيا وعام ١٩١٦ يدنو من نهايته ، وطوابير العربات ما تزال ، كما كانت من قبل ، تصر عجلاتها على الطرق المخربة ، واهالى القرى المحروقة يضربون فى الأرض فى يأس خانع . لا فرق سوى ان الخيول العسكرية الضخمة لاتكاد الآن تجرجر ارجلها ، وان الجنود ممزقو الملابس ضئيلو الاجسام ، ان جموع المشردين صامتون متبلدو الاحاسيس . وهناك ، فى الشرق من حيث تسوق الريح اللاذعة غيوما واطئة ما زال الناس يقتل بعضهم بعضا دون ان يهلك فريقه الخصم .

كانت كتلة هائلة من الناس والعربات تتحرك فى الظلام على منخفض مستنقعى ، وعبر جسر مقام على نهر منتفخ . وكانت العجلات تقعقع ، والسياط تئز ، والأوامر تصدر باصوات صارخة، واضواء الفوانيس الكثيرة تتحرك ، فكان ضوؤها يسقط على الماء الكدر الملتف بين دعائم الجسر .

وصل ايفان ايليتش الى الجسر منزلقا على منحدر الطريق العامة . وكانت قافلة عسكرية تمر عليه . ولا امل فى العبور الى الجهة الأخرى قبل طلوع النهار .

كانت الخيول عند دخولها الجسر تركع بعرائش عرباتها وتتشبث بحوافرها فى الالواح الرطبة ، ولا تكاد تجر العربات . وعلى الحافة وعند مدخل الجسر كان يقف رجل على فرس والريح تعصف فى مشمعه ، وفى يده فانوس ، وكان يصرخ بصوت مبحوح . وقد تقدم منه عجوز ، ورفع قبعته يطلب منه شيئا ، على ما يبدو . ولكن الفارس ، بدلا من ان يجيبه ، ضربه بالفانوس الحديدى على وجهه ، وسقط العجوز تحت العجلات .

كان الطرف الآخر من الجسر يغيب فى الظلام ، الا ان نقاط الضوء هناك كانت توحى بوجود آلاف من النازحين . استمرت القافلة فى تحركها البطئ . ووقف ايفان ايليتش ملتصقا بعربة ، كانت تجلس فيها امرأة نحيلة متدثرة فى بطانية ، وشعرها متهدل

على عينيها ، وهى تحتضن قفص طيور بذراع ، وتمسك العنان بالذراع الاخرى ، توقفت قافلة العربات فجاة والتفتت المرأة مذعورة . تنامى طنين الاصوات فى الطرف الآخر من الجسر ، وتزايدت اشعة الفوانيس المتحركة . ان شيئا قد حدث . صهل حصان صهيلا وحشيا ضاريا . وصرخ صوت ممطوط باللغة البولندية «انقذ نفسك» . وفى الحال مزقت الهواء طلقة بندقية . واندفعت خيول ، وقعقعت عربات ، وارتفعت اصوات نسوة واطفال فى زعيق وعويل .

وبعيدا الى اليمين ومضت شرارات متفرقة ، وترامت اصوات طلقات جوابية . صعد ايفان ايليتش على عجلة ، وتطلع . ودق قلبه كالمطرقة . كان الرمى كما يبدو ياتى من كل مكان ، على النهر كله . نزلت المرأة مع قفصها من العربة ، وتعلقت تنورتها ، فوقعت وزعقت بصوت عميق : «اوى انقذونى !» وتدحرج القفص بالطائر على منحدر الطريق .

وعادت قافلة العربات تتحرك على الجسر عدوا ، وسط الصيحات والقرقعة . وتعالت على الفور اصوات جنونية : «قف ! قف !» وشاهد ايفان ايليتش عربة كبيرة تجنح على حافة الجسر ، وتنقلب على الدرابزين ، وتسقط فى النهر . عندئذ وثب من العجلة ، وقفز عبر الصرر المرمية حتى بلغ قافلة العربات ، وانبطح على عربة سائرة . وفى الحال نفذت الى رأسه رائحة خبز حلوة . دس يده تحت مشمع ، وقطع نهاية رغيف ، واخذ ياكلها غاصا من النهم .

وصلت قافلة العربات الى الضفة الثانية اخيرا وسط الفوضى واطلاق النار . قفز ايفان ايليتش من العربة ، وتسلل بين عربات النازحين الى الحقل ، وسار بمحاذاة الطريق . عرف من نتف العبارات الملتقطة من الظلام ان اطلاق النار ذاك كان على العدو ، اى على دورية روسية : ومعنى ذلك ان خط الجبهة لا يبعد عن هذه الاماكن اكثر من عشرة فراسخ .

توقف ايفان ايليتش عدة مرات ملتقطا انفاسه . كان المشى عكس الريح والمطر صعبا ، وتعبت رجلاه عند الركبتين ، وتوهج وجهه ، والتهبت عيناه وانتفختا . وفى آخر الأمر جلس على مرتفع

الحفرة ، ووضع رأسه بين يديه . وكانت قطرات المطر الباردة تتساقط تحت رقبته ، وجسمه كله يئن متوجعا .

فى تلك اللحظة بلغ أذنه صوت خافت عميق مثل انهيار ارض على مسافة بعيدة . وبعد برهة زفر الليل مثل تلك الزفرة للمرة الثانية . رفع ايفان ايليتش رأسه ، وتسمع وميز بين تينك الزفرتين العميقتين همهمة جوفاء تخمد تارة وتتنامى أخرى فى ذبذبات غاضبة . لم تكن تلك الاصوات تاتى من الجهة التى كان يسير اليها ، بل من يساره ، من الجهة المعاكسة تقريبا .

جلس على الجانب الآخر من الحفرة . الآن صارت تُرى بوضوح مزق الغيوم الواطئة السارحة فى السماء المتسخة الحديدية . كان ذلك هو الفجر . وكان ذلك هو الشرق . وكانت روسيا هناك .

نهض ايفان ايليتش ، وشد حزامه ، وسار فى تلك الجهة مباعدا بين ساقيه فى الوحل ، متخطيا الجذامات المبللة والاخاديد وخنادق العام الماضى نصف المتهدمة .

وحين تنورت الدنيا تماما رأى تليغين ثانية فى نهاية الحقل طريقا عامة غاصة بالناس والعربات . توقف ، واجال بصره . فرأى فى ناحية مزارا ابيض تحت شجرة هائلة تعرت من نصف اوراقها . كان الباب مخلوعا ، والاوراق الذاوية متناثرة على سطحه المستدير ، وعلى الارض .

قرر ايفان ايليتش ان ينتظر هنا حلول الظلام . فدخل المزار ، واستلقى على الأرض الخضراء من الطحلب . كانت رائحة الاوراق الرقيقة المثيرة برخاءتها تبعث الدوار فى راسه . ترامت اليه من بعيد كركبة عجلات ، وضربات سياط . وكانت هذه الضوضاء تبدو لطيفة على الاذن بشكل مذهل ، وفجاة تلاشت . وكان يحس بما يشبه الاصابع يضغط على عينيه . وشيئا فشيئا ظهرت بقعة حية فى النعاس الثقيل عليه كالرصاص . بدت وكانها تحاول ان تكون حلما ، فلم تقدر . فقد كان الاعياء شديدا جعله يئن ويغرق اكثر فاكثر فى النوم . ولكن البقعة كانت تقلقه . فاخذ نومه يخف ، ومن جديد اخذت تترامى الى سمعه كركبة العجلات من بعيد . وزفرايفان ايليتش ، وقعد .

رأى من خلال الباب سحبا مسطحة سميكة ، وكانت الشمس

تجنح الى الغروب واشعتها العريضة تمتد تحت قاعدتها الرطبة الرمادية الثقيلة . وكانت بقعة خفيفة من الضوء تقـــع على حائط المزار المتداعى ، وتضيىء الايقونة الخشبية الحائلة اللون من تقادم الزمن ، المائلة التى يظهر فيها وجه العذراء فى هالة ذهبية ، والطفل فى ثوب قطنى متهرىء راقد على ركبتيهــــا ، وكانت يد العذراء المباركة مقطوعة من الايقونة .

خرج ايفان ايليتش من المزار فرأى عند عتبته امراة شابة تجلس على الدرجة الحجرية ، وعلى ركبتيها طفل . كانت ترتدى رداء ابيض مبقعا بالوحل وتسند خدها على يد ، وتضع اليد الاخرى على بطانية الطفل الملونة . رفعت راسهـــا ببطء وتطلعت على ايفان ايليتش بنظرة وضيئة غريبة ، ورف وجهها المخضل بالدمع ، وكانها تبتسم ، وقالت بالاوكرانية بصوت خافت :

– مات الصغير .

وعادت تضع خدها على يدها . انحنى تليغين نحوها ، ومسد رأسها ، فارسلت تنهيدة مندفعة . قال برقة :

– لنذهب . سأحمله عنك .

هزت المراة رأسها :

– الى اين اذهب ؟ اذهب وحدك ، ايها السيد الطيب .

وقف ايفان ايليتش برهة اخرى ، ودفع طاقيته فوق عينيه وانصرف . فى تلك اللحظة خرج رجلان من الجندرمة النمساويـــة العسكرية يعدوان على فرسيهما من وراء المزار ، وعليهما معطفان مبللان قذران ولهما وجهان مزرقان مشوربان . وحين مر بايفان ايليتش اوقفا فرسيهمـــــا ، وصاح الذى كان فى المقدمـــة بصوت اجش :

– تقدم !

اقترب ايفان ايليتش ، فانحنى الفارس من على السرج وتفحصه فى عناية بعينيه البنيتين الملتهبتين من الريح والسهر . والتمعـــت عيناه فجاة ، وهتف :

– روسى !

وامسك ايفان ايليتش من ياقته . لم يقاوم تليغين ، بـــل ابتسم ابتسامة مازلة مقهورة .

حُبس تليغين فى زريبة . وكان الليل قد هبط . وكان دوى التراشق بالمدافع يُسمع بوضوح ، ويلوح من خلل الشقوق بين الاخشاب وميض احمر كامد . اكل ايفان ايليتش بقية الخبز الذى اخذه من العربة يوم امس ، وسار على طول الجدران المصنوعة من الواح الخشب عسى ان يعثر على فتحة . تعثر ببالـــة من التبن المضغوط ، وتثاءب ، واستلقى . الا ان النوم لم يراوده . فبعد منتصف الليل اخذت المدافع تقصف على مسافة غير بعيدة ، وكانت التوهجات المحمرة تنفذ من خلال الشقوق بين الالواح . رفع ايفان ايليتش جسمه قليلا وتسمع . تضاءلت الفترات بين الطلقات وصارت جدران الزريبة تهتز ، وفجاة لعلعل رصاص البنادق على مسافـــة دانية جدا .

وكان واضحا ان المعركــــة تقترب . وصدرت اصوات مستثارة ، وبربر محرك سيارة . وتردد وقع اقدام كثيرة وارتطم جسم ثقيل بجدار الزريبة من الخارج . وعندئـــذ فقط لاحظ ان الرصاص يتساقط على جدار الزريبة تساقط البندق على جسم صلب . فتمدد على الارض فى الحال .

نفذت رائحة دخان البارود حتى الى داخل الزريبة . وكان الرمى لا ينقطع ، والظاهر ان الروس كانوا يهجمون بسرعة شديدة . الا ان هذه الزوبعة من الاصوات الرهيبة لم تستمر طويلا . وصدرت ضربات منفجرة ، اى ان القنابل اليدوية كانت تفرقـــع فرقعة الجوز عندما يكسر . نهض ايفان ايليتش مسرعا مـــن الارض وتراكض بمحاذاة الجدار . امن المعقول ان الهجوم يُرد ؟ واخير صدر زئير اجش مجلجل ، وزعيق ودمدمة اقدام . وسكتت الطلقات فى الحال . ولم يسمع فى تلك الثانية الطويلـــة غير صوت ضربات فى شىء لدن وصلصلة حديد . ثم ارتفعت اصوات مذعورة صارخة : «نستسلم ، ايها الروس ! . .» .

خلع ايفان ايليتش كسرة من خشب الباب ، فرأى اشخاصا يركضون ، وقد غطوا رؤوسهم بايديهم . واندفع نحوهم فرسان يلقون ظلالا هائلة ، وشقوا طريقهم فى خضمهـــم . وراحـــوا يجولون . اتجه ثلاثة من المشاة نحو الزريبـــة ، فاندفع فارس

للحاق بهم ، وعباءته تتطاير خلف ظهره ، وفرسه الضخم يشب على رجليه الخلفيتين ثقيلا ناخرا .

كان الفارس يلوح بسيفه كالسكران فاتحا فمه على وسعه . وحين نزل الفرس على رجليه الاماميتين انزل الفارس سيفه بقوة فصفر فى الهواء ، وانغرس حده فى لوح الباب فانكسر .

صرخ تليغين بصوت جنونى ، وهو يقرع الباب :

– اطلقونى .

اوقف الفارس فرسه .

– من الهاتف ؟

– اسير . ضابط روسى .

– دقيقة .

قذف الفارس مقبض سيفه المكسور ، وانحنى ، وسحب المزلاج . وخرج ايفان ايليتش ، فاذا بالذى أطلقه ، وهو ضابط فى الفرقة الوحشية ، يقول بشيء من التهكم :

– ياله من لقاء !

تطلع ايفان ايليتش اليه ، وقال :

– لا يبدو انى اعرفك .

– انا سابوجكوف سيرغى سيرغيفيتش – وانفجر بقهقهة حادة ، وقال : لم تكن تتوقعنى ؟ اللعنة ، انها الحرب !

٣٠

سار القطار فى الساعة الاخيرة قبل وصوله الى موسكو مارا ببيوت ريفية مهجورة صافرا صفيرا ممدودا . ودخانه الابيض يلتف مع اوراق الاشجار الخريفية ، وصفرة اشجار البتولا الشفافة ، واحراش الحور القرمزية الفواحة برائحة الفطر . واحيانا كانت اغصان القيقب الحمراء العريضة تتدلى على سدة القطار تماما . وحين كانت الاحراش تشف كانت تلوح من خلالها هنا وهناك الكرات الزجاجية على احواض الزهور ، والصفاقات المسمرة فى البيوت الريفية ، والاوراق الساقطة على الممرات والدرجات .

مرت محطة صغيرة كان يقف على رصيفها جنديان يضعان على ظهريهما حقيبتين ، وقد نظرا الى نوافذ القطار بلا اكتراث ، بينما كانت سيدة شابة فى معطف ذى مربعات تجلس حزينة معزولة على مسطبة تخطط رسما بطرف مظلتها على الواح الرصيف المبللة . وبعد المنعطف لاح حاجز خشبى من وراء الاشجار وقد رسمت عليه زجاجة كتب عليها : «فودكا شوستوف المطعمة بالغبيراء لا تضارع» . وانتهت الغابة وظهرت الى اليسار واليمين صفوف طويلة من الكرنب الابيض-الاخضر ، وعند تقاطع الخط الحديدى مع طريق وقفت خلف الحاجز عربة محملة بالقش ؛ وامراة فى فروة رجالية تمسك مقود حصان نحيل عنيد . وصار من الممكن الآن ان يلمح البصر فى الافق البعيد اطراف الابراج المستدقة تحت سحابة طويلة ، وقبة كنيسة «المسيح المخلص» تلمع عاليا فوق المدينة .

كان تليغين يجلس عند نافذة العربة مستنشقا هواء ايلول الكثيف ، ورائحة الاوراق والقطر المتفسخ ودخان قش يحرق فى مكان ما ، ورائحة الأرض التى مسها الصقيع عند الفجر .

واحس ايفان ايليتش بأنه قطع دربا من الآلام امتد سنتين ، ونهايته هنا ، فى ساعة الانتظار الطويلة الرائعة هذه . وقد خمن انه سيضغط فى الساعة الثانية والنصف تماما على زر الجرس فى ذلك الباب الوحيد – وكان يتصوره من خشب البلوط الفاتح فوقه شباكان صغيران – الباب الذى كان سيبلغه ولو كان ميتا .

انتهت حدائق الخضار الملحقة بالبيوت ، وظهرت على جانبى الطريق بيوت الضواحى الصغيرة المبقعة بالوحل ، وشوارع مرصوفة رصفا غير متقن تسير عليها عربات مشحونة مكركبة ، واسيجة وراءها حدائق نبتت فيها اشجار زيزفون معمرة تفرش اغصانها حتى منتصف الشوارع الجانبية ، ولافتات ملونة ، وسابلة ذاهبون فى شؤونهم التافهة دون ان يلتفتوا الى القطار الهادر وراكبه – ايفان ايليتش – الجالس عند نافذة احدى عرباته ، وفى الاسفل ، سار نحو داخل الشارع ترام صغير كاللعبة ، وطلعت قبة كنيسة صغيرة من وراء بيت ، ودقت العجلات على المحولات . واخيرا ، اخيرا – بعد سنتين طويلتين – مر بالنوافذ رصيف محطة موسكو الخشبى . وصعد الى العربات شيوخ نظاف لا مبالون فى مآزر

بيضاء . اخرج ايفان ايليتش راسه بعيدا وراء النافذة ، وتطلع . من الحماقة انتظار احد ما : انه لم يبلغ عن وصوله .

خرج ايفان ايليتش من المحطة الى ساحة المحطة ، ولم يضبط نفسه فضحك : فقد كان صف طويل من العربات يقف فى الساحة على بعد زهاء خمسين خطوة . وكان السواقون يصرخون من مقاعدهم ملوّحين بقفازاتهم :

– انا حاضر ! انا حاضر ! انا حاضر !

– تفضل ، يا حضرة السيد ، على الحصان الفاحم !

– عربتى سريعة ، وبعجلات من مطاط !

وكانت الخيول بأعنتها المتوترة تضرب الأرض بحوافرها ، وتحمحم ، وتصهل . وكان الصياح ينتشر فى الساحة كلها . وبدا وكان العربات توشك على اجتياح المحطة .

صعد ايفان ايليتش على عربة عالية جدا ، لها مقعد ضيق . ساله السائق الجميل الصفيق عن العنوان بتساهل لطيف ، ولكى يبهر زبونه جلس بانحراف على مقعده ، ممسكا العنان رخوا بيده اليسرى ، مطلقا حصانه فى عدو سريع . وراحت العجلات المطاطية المنفوخة تنط على حجارة الشارع .

– هل انت قادم من الحرب ، يا حضرة ؟

– هربت من الاسر .

– صحيح ؟ وكيف الحال عندهم ؟ يقولون ليس لهم ما ياكلونه . انت ، يا جدة ، احذرى . معى بطل وطنى . يهرب الكثيرون من هناك . احذر ، يا صاحب العربة . . آه ، المغفل ! . . هل تعرف ايفان تريفونيتش ؟

– من هو ؟

– انه فى شارع رازغولاى ، يتاجر بالاقمشة الجوخ ! . . يوم امس ركب فى عربتى ، دامع العينين . آه ، حكاية ! . . اثرى من الصفقات الحربية ، وهو لا يعرف كيف ينفق فلوسه لكثرتها ، ولكن زوجته هربت مع بولونى قبل يومين . واصحابنا السواقون نشروا الحادث فى طول موسكو وعرضها . وايفان تريفونيتش الآن لا يجرؤ على الخروج الى الشارع . . . ذلك جزاء نهب الناس . . .

– ارجوك ان تسرع ، يا صاحبى .

حثه ايفان ايليتش رغم ان حصانه السريع العالى كان منطلقا فى شارع جانبى كالريح ، ملقيا راسه الغاضب الى الوراء على عادته القبيحة .

– وصلنا ، يا حضرة السيد ، المدخل الثانى . قف ، يا فاسيا ! . .

القى ايفان ايليتش نظرة سريعة منفعلة على النوافذ الست من بيت ابيض ، حيث تدلت ستائر من الدنتلا وادعة نقية ، وقفز عند المدخل . كان الباب قديما منقوشا محلى براس اسد ، وجرسه غير كهربائى ، من النوع القديم . توقف ايفان ايليتش بضع ثوان ، غير قادر على ان يرفع يده الى الجرس ، وقلبه متباطىء الخفقان موجع . «فى واقع الامر اننى لا اعرف شيئا الآن . فقد يكون البيت خاليا من الناس ، وربما لا يستقبلوننى» . فكر بذلك مع نفسه . وضغط المقبض النحاسى وسمع الجرس يدق فى اعماق البيت . «بالطبع لا يوجد احد فى البيت» . ولكنه سرعان ما سمع وقع خطوات إمراة سريعة . فتلفت مشتت اللب . فراى وجه السائق المرح يغمز له . ثم صلصلت سلسلة ، وانفتح الباب ، واطل وجه وصيفة عليه آثار جدرى قليلة . سعل تليغين وسالها :

– هل تسكن داريا دميتربيفنا هنا ؟

ردت الفتاة المجدورة برقة وعذوبة صوت :

– انها فى البيت ، فى البيت ، تفضل . السيدة والآنسة موجودتان فى البيت .

سار ايفان ايليتش كالحالم فى رواق ضيق تنتشر فيه رائحة فراء ، له جدار زجاجى ، وفيه سلال . فتحت الوصيفة الى اليمين بابا ثانيا مبطنا بمشمع اسود ، فوجد ايفان ايليتش نفسه فى ممر صغير علقت فيه معاطف نسائية ، وأمام المرآة قفازات ، ومنديل عليه صليب أحمر ، ولفاح ازغب . وكانت كل هذه الاشياء البريئة تعبق برائحة خفيفة مالوفة لعطور نسائية مذهلة .

ذهبت الوصيفة لتبلغ عن وصول ضيف دون ان تسال عن اسمه . مس ايفان ايليتش باصابعه اللفاح الازغب ، وخامره شعور مفاجىء بأن لا صلة بين هذه الحياة النقية الفاتنة وبينه ، وهو الخارج من الحماة الدامية . سمع صوت الوصيفة آتيا من

اعماق البيت : «يا آنسة ، جاء من يسأل عنك» . اغمض ايفان ايليتش عينيه ، وكأن صاعقة ستنقض عليه من السماء بعد لحظة ، وسمع صوتا عجولا صافيا بث الرجفة من رأسه حتى قدميه :

— هل يسأل احد عنى ؟ من ؟

ترددت خطوات فى الحجرات ، جاءت مندفعة من هاوية السنتين من الانتظار . وظهرت داشا عند باب الممر ، وقد سقط عليها ضوء من النوافذ ، وسرت شقرة فى شعرها الناعم . وبدت اعلى قامة ، واكثر نحافة ، وهى فى بلوزة محاكة ، وتنورة زرقاء .

— هل سألت عنى ؟

وتلجلجت ، وارتعش وجهها ، وارتفع حاجباه ، وانفغر فمها ، الا ان ظل الفزع زايل وجهها فى اللحظة التالية ، وتألقت عيناها بالدهشة والفرح .

— اهذا انت ؟

قالتها بصوت لا يكاد يسمع ، وبسطت ذراعيها وطوقت رقبة ايفان ايليتش بانفعال ، وقبلته بشفتين رقيقتين مرتعشتين . ثم ابتعدت عنه :

— ايفان ايليتش ، تعال الى هنا .

وركضت الى غرفة الجلوس وجلست على مقعد ، وطوت جذعها نحو ركبتيها ، وغطت وجهها بيديها .

— بالطبع ، هذا من الحماقة . . .

همست بذلك ، وهى تمسح عينيها بكل جهدها . ووقف ايفان ايليتش امامها . وفجاة امسكت داشا بذراعى المقعد ، ورفعت رأسها :

— ايفان ايليتش ، هل هربت ؟

— هربت .

— يا ربى وماذا ؟

— وراسا الى هنا .

وجلس فى مقعد قبالتها ، وهو يضم طاقيته بكل قوته .

سألت داشا متلعثمة :

— كيف حدث . . . ذلك ؟

— بشكل اعتيادى ، عموما .

— وهل تعرضت للخطر ؟

— نعم . . . اقصد ليس بذاك الخطر .

وتبادلا كلمات اخرى لبرهة اخرى . وبالتدريج اخذ الحياء يستولى عليهما . غضنت داشا بصرها ، وسألت :

— منذ زمان وأنت فى موسكو ؟

— جئت من محطة القطار راسا .

— ساطلب قهوة الآن . . .

— لا ، لا داعى للكلفة . . . ساذهب الآن الى الفندق .

عندئذ سألت داشا بصوت لا يكاد يسمع :

— هل ستأتى فى المساء ؟

هز ايفان ايليتش رأسه بعد ان اطبق شفتيه . وكان يحس بعسر فى تنفسه .

نهض .

— اذن ، انا ذاهب : وسآتى فى المساء .

مدت داشا يدها له ، فتناولها ناعمة قوية ، ومن هذه الملامسة شعر بتوهج ، وتصاعد الدم الى وجهه . ضغط على اصابعها ، وسار الى الرواق ، الا انه التفت عند بابه . كانت داشا تقف وظهرها الى النور ، ترمقه من تحت حاجبيها .

— هل من الممكن ان اجىء فى نحو الساعة السابعة ، يا داريا دميترييفنا ؟

هزت رأسها بالايجاب . خرج ايفان ايليتش مسرعا من مدخل البيت ، وقال للسائق :

— الى الفندق ، الى فندق جيد ، بل واحسن فندق !

جلس فى العربة متكئا على ظهر مقعدها ، حاشرا يديه فى جيبى معطفه ، وابتسم ابتسامة عريضة . مرت به سريعا ظلال مزرقة — ظلال الناس والاشجار والعربات . وبردت وجهه نسمة قارسة فواحة بنكهة مدينة روسية . رفع ايفان ايليتش الى انفه كفه التى ما تزال ملتهبة من ملامسة داشا ، وضحك قائلا بينه وبين نفسه : «سحر !»

فى تلك اللحظة كانت داشا تقف عند نافذة فى غرفة الجلوس بعد ان ودعت ايفان ايليتش . كان رأسها يطن ، وكانت ، مهما

بذلت من جهد ، لا تستطيع ان تتغلب على الرهبة والانفعال وتفكر بما حدث . اطبقت عينيها بشدة ، واهتّت فجـــاة ، وركضت الى مخدع اختها .

كانت يكاترينا دميتريفنا تجلس عند النافذة تخيط شيئــا وتفكر . وعندما سمعت خطوات داشا سالتها دون ان ترفع راسها اليها :

– من كان عندك ، يا داشا ؟

ونظرت كاتيا ، وسرت رعشة فى وجهها .

– هو . . . الا تفهمين ؟ . . هو . . . ايفان ايليتش .

انزلت كاتيا خياطتها ، وبسطت ذراعيها ببطء . وقالت داشا بصوت خافت :

– افهمينى ، يا كاتيا . انا لست فرحـــة . بل ويتملكنى الخوف .

٣١

ما ان هبط الظلام حتى اخذت داشا تجفل عند كل نأمـــة ، وتركض الى غرفة الجلوس ، وتتسمع . . فتحت عدة مرات كتابا على صفحة لا تتغير «احبت ماروسيا الشوكالاته التى اشتراها لها زوجها من مخزن كرافت . . .» وفى الغسق البارد اضيئت نافذتان فى بيت الممثلة تشارودييفا المقابل لبيتهم ، واخذت خادمة على راسها طاقية تهيئ المائدة ، ثم ظهرت تشارودييفا نحيلة كالهيكل العظمى وقد القت على كتفيها معطفا مخمليا ، وجلست الى المائدة ، وتثاءبت ، وربما نامت على الأريكـــة ، صبت لنفساحساء ، وغرقت فجاة فى تفكير ، وثبتت عينيهـا الجامدتين فى مزهريـة فيهـا وردة ذابلة . كررت داشا من خلال اسنانها : «احبت ماروسيــــا الشوكالاته» . ودق الجرس فجاة . وغاض الدم من قلب داشا . ولكن الطارق لم يكن الا موزع الصحيفة المسائية . وقالت داشا لنفسها : «لا ياتى» وذهبت الى غرفة الطعام ، حيث كان مصباح واحد يضيىء فوق المفرش الابيض ، وحيث الساعة تتكتك ، وكانت

تشير الى السابعة الا خمس دقائق . جلست داشا الى المائدة . «وعلى هذا النحو تمضى الحياة ثانية بعد ثانية . . .»

ودق الباب الخارجى مرة أخرى . تقطعت انفاس داشـــا ، وهبت واقفة ، وركضت الى الرواق . . . كان القادم حارسا من المستشفى العسكرى جلب رزمة من الورق . وايفان ايليتش لن ياتى بالطبع ، وهو على حق . فقد انتظرته سنتين ، وعند اللقاء لم تجد كلمات مناسبة تقولها له .

اخرجت داشا منديلها ، واخذت تعض طرفه . لقد كانــت تتوجس وتعرف ان ذلك سيحدث بالصورة التى حدث بها بالضبط . عامين احبت صورة رجلها الخيالى ، ولما جاءها حيا . . . ذهلت عن امرها .

وقالت داشا لنفسها : «فظاعة ، فظاعة» . ولم تلاحظ الباب يفتح قليلا ، وتظهر ليزا المجدورة .

– يا آنسة ، جاءوا لزيارتك .

زفرت داشا زفرة عميقة ، ومشت الى غرفة الطعام بخفـة ، وكانما لا تمس الأرض . كانت كاتيا اول من رات داشا ، فابتسمت لها . نهض ايفان ايليتش ، ورمش وانتصب واقفا .

كان يلبس قميصا جديدا من الجوخ ، وحزام عتاد جديـدا القاه على كتف واحدة . وكان حليق الوجه باتقان ، قد حلق شعر راسه لتوه . والآن كان واضحا بشكل خاص ارتفاع قامتـــه ، وامتشاقه وسعة كتفيه . وبالطبع ، كان هذا رجلا جديدا اطلاقا . نظرة عينيه الوضاءتين قوية ، وعلى طرفى فمه المستقيم الدقيـــق غضنان ، خطان صغيران . . . وجب قلب داشا ، فقد فهمت انهمـا من اثر الموت والفزع والعذاب . كانت يده قوية باردة .

اخذت داشا مقعدا ، وجلست الى جانب تليغين . فوضع هو يديه على الخوان ، وقبضهما ، واخذ يتحدث عن الأسر والهروب من الأسر ، وهو ينظر اليها نظرات سريعة خاطفـــة . وكانت هى فى جلستها الشديدة القرب منه تتطلع الى وجهه فاغرة الفم .

واحس ايفان ايليتش وهو يروى وكان صوته يرن من مسافة بعيدة ، وليس بصوته ، وان كيانه كله يهتز منفعلا . والى جانبه تجلس مخلوقة تعجز الكلمات عن وصفها ماسة بثوبها ركبته – فتاة

غير مفهومـــة مطلقـــا ، يضوع منهـــا شذى دافىء يديــر الرأس .

ظل ايفان ايليتش يتحدث طوال المساء . وكانت داشـــا تستفهمه وتقاطعه ، وتبسط يديها ، وتلتفت الى اختها :

– كاتيوشا ، هل فهمت ؟ حكمـوا عليهم بالاعدام رميــا بالرصاص !

وحين وصف تليغين الصراع من اجل السيارة ، والثانيــة الفاصلة عن الموت ، وانطلاق السيارة ، والريح الهابة على الوجه – الحرية والحياة ! – لاح شحوب كثير على وجه داشا ، وامسكت يده وقالت :

– لن ندعك تذهب الى اى مكان بعد الآن !

ضحك تليغين :

– سيستدعوننى ثانية ، ولا مفر من ذلك . وكل ما آمله ان يرسلونى الى مصنع حربى .

وضغط على يدها بحذر .. اخذت داشا تحدق فى عينيــه ، وتمعن النظر فيهما ، ولونت خديها حمرة خفيفة . فكت يدهـــا ، وقالت :

– لماذا لا تدخن ؟ ساجلب لك علبة ثقاب .

وخرجت بسرعة ، وعادت فى الحال ومعها علبة ثقاب ، وتوقفت امام ايفان ايليتش ، واخذت تقدح اعواد الثقاب ممسكة اياها من رأسها تماما فتنكسر فى يدها . تلك هى اعواد الثقاب التى تشتريها صاحبتنا ليزا ! واخيرا اشتعل عود ثقاب . رفعته بحذر الى سيكارة ايفــان ايليتش فانار ضوؤه حنكها . امتص تليغين انفاسا من سيكارتــه مقلصا عينيه . ولم يدر بخلده ان من الممكن ان يحس بمثل هذه السعادة من اشعال سيكارة له .

كانت كاتيا طول هذا الوقت تراقب داشا وتليغين صامتــة . وكانت سعيدة كل السعادة لداشا ، ومع ذلك فقــد كانت تحس بحزن شديد . ذلك لان فاديم بتروفيتش روتشين لن يغب عــن ذاكرتها ابدارغم انها كانت تامل ان تنساه . وقد كان يجلس معهما على المائدة ايضا ، وقد جلبت له ايضا علبة ثقاب ذات مرة ، واشعلت له سيكارته ، دون ان تكسر عود ثقاب واحد .

انصرف تليغين عند منتصف الليل . طوقت داشا اختهـا ، وقبلتها بقوة ، واغلقت باب غرفتها . اضطجعت على السرير والقت يديها وراء راسها ، وفكرت بانها قد طلعت اخيرا من الركـــود الكئيب ، ورغم ان كل شىء حولها ما يزال وحشيا فارغا ومرعبا ، الا ان كل هذا زرقة امل ، نفحة من السعادة .

٣٢

تلقى ايفان ايليتش فى اليوم الخامس من وصوله رسالـــة رسمية من بطرسبورغ تبلغه بالحضور فورا الى مصنع البلطيق .

وقد تعاقب كالحلم الفرح بهذه الرسالة ، وبقية النهار التى قضاها مع داشا بهمومهما فى المدينة ، والوداع السريع فى محطـة نيكولايفسكى ، ثم مقصورة الدرجة الثانية بدفئها الجاف ، وطقطقة جهاز التدفئة والظرف الذى عثر عليه فى جيبه فجاة مربوطا بشريط ، وفيه تفاحتان وشوكالاته وكعكات . فك ايفان ايليتش زر ياقـة قميصه الجوخ ، ومد رجليه ، ودون ان يستطيع ان يتخلى عــن ابتسامته الحمقاء نظر الى الجار الجالس قبالته ، وهو عجوز لا يعرفه ضئيل الجسم صارم الهيئة فى نظارة .

سال العجوز :

– هل انت خارج من موسكو ؟

– نعم ، من موسكـــو – ثم تابـــع مـــع نفســه :

– ياللرب ، اية كلمة لطيفة عجيبة هى «موسكو» هذه ! . . شوارع صغيرة مغمورة بشمس الخريف ، واوراق جافة تحــت الاقدام ، وداشا الخفيفة الهيفاء تسير على هذه الاوراق ، وصوتها الصافى الذكى – وهو لم يفهم اية كلمة منها – والشذى الدائمـى لزهور دافئة يشمه حين كان ينحنى نحوها او يقبل يدها .

قال العجوز :

– هرج ومرج وضوضاء فى هذه المدينة . امضيت ثلاثة ايام فى موسكو . . . ورايت ما فيه الكفاية – وباعد بين ساقيه بحذائيهما الطويلين وكالوشين عاليين ، وبصق واكمل : وفى الشوارع تجد اناسا يتراكضـــون هنا وهناك . . . وفى الليل اضواء وصخب ،

ولافتـــات ، وكل شيء يدور . . . وزحام الناس . . . جنـون !!!
نعم ، هذه هي موسكو ... بداية الارض ... بينما لا اجد غير طراد جهنمي مخبول . وانــت ، ايهـــا الشبـاب ، لقـد خضت معارك . فهل جرحت ؟ لقد ادركت ذلك من الوهلة الاولى ... قل لى ، انا العجوز ، أمن المعقول ان دماءنا تسفك هناك فى سبيل هذه الضوضاء اللعينـة ؟ اين الوطن ؟ اين الدين ؟ اين القيصر ؟ دلنى . انا مسافر الى بطرسبورغ لاجلب خيوطا ... ليا خذهـا الشيطان ! تفو ! . . باى شيء سأعود الى تيومن ؟ بخيوط ؟ . . لا لا اعود بخيوط بل اعود واقول : يا ناس ، نحن هالكون جميعا . هذا ما سأعود به ... تذكر قولى ، ايها الشاب . اننا سندفـع الثمن ، سندفع ثمن كل شيء ... سيكون علينا ان نحاسب عـلى هذا الجنون .

واسند العجوز يديه على ركبتيه ، ونهض ، وانزل الستارة الصغيرة على النافذة التى كانت تتطاير وراءها فى الظلام شرارات القطار مثل خطوط ضوئية . وتابع العجوز حديثه :

— نسينا الرب فنسانا ... هذا ما اقوله ، آوه ، سندفع الثمن غاليا جدا ...

فسأل ايفان ايليتش :

— هل تظن ان الالمان سيغلبوننا ؟

— ومن يعرف ؟ من سيرسله الرب لعقابنا فسنتحمل العذاب منه . . لنفرض ان الخدم فى حانوتى بدأوا يتوقحون . سأتحمـل بعض الوقت ، ثم اوجه لأحدهم ضربة على قفاه ، والآخر لطمة على رقبته ، والثالث اطرده شر طردة ... ولكن روسيا ليست حانوتى ، بل هى استثمارة شاسعة . ان الرب رحيم بالعبـاد ، ولكن اذا لوّث الناس الطريق اليه وجب تنظيف الطريق ، ام لا ؟ ذلك مـا ارمى اليه . .. الرب انصرف عن العالم ... ولا يمكن ان يوجـد ارهب من ذلك ...

وضع العجوز يديه على بطنه ، واغمض عينيه والتمعت نظارته لمعانا كالحا حين راح يهتز فى ركن رفه الرمادى . خرج ايفـان ايليتش من المقصورة ، ووقف عند نافذة فى الممر ووجهه يكاد يلامس زجاجها .

كان يتسرب من الفتحة هواء منعش حاد . ووراء النافذة كانت الخطوط النارية تتطاير فى الظلام ، وتتشابك ، وتسقط عـلى الارض . وبين الحين والآخر كانت تمر سحابة رمادية من الدخان . وكانت عجلات القطار تقرع مطواعـة . وصفرت القاطرة صفيرا ممدودا ، وهى تنعطف فى منعطف ، والقت نار حجرة الوقود فيها ضوءا على القمم المخروطية لاشجار الشوح ، وقد برزت هذه من الظلمة ثم اختفت . وقرقعت محولات الخطوط . واهتزت العربـة اهتزازا خفيفا ، وومض قرص اخضر لمصباح ، ومـرة أخرى مرت خطوط نارية طويلة بالنوافذ مثل مطر نارى .

وفيما كان ايفان ايليتش يراقبها امتلأ قلبه بكل ما حدث خلال تلك الايام الخمسة غامرا ايـاه بفرح مفاجيء . ولو كان فى مقدوره ان يكشف هذا الشعور لأحد من الناس لاُعتبر مجنونا . ولكن ذلك بالنسبة له ليس غريبا او بعيدا عن العقل ، ان كل شيء فيه واضح كل الوضوح .

واحس بأن ملايين وملايين من الناس تعيش فى ظلام الليل ، وتتعذب ، وتموت . الا أنها تعيش بالمعنى الرمزى لهذه الكلمة ، وكل ما يحدث على الارض يحدث بهذا المعنى ، وتوهما تقريبا ، وهذا التوهم من القوة بحيث لو بذل ايفان ايليتش اى جهد لتغير كل شيء ، وصار مختلفا . وبين هذا التوهم يوجد صميم حى هـو ايفان ايليتش ، بقامته المنحنية الآن على النافذة . انه مخلـوق محبوب خرج من عالـــم الظـــلال ومنطلق وسط المطر النارى فوق العالم المظلم .

واستمر هذا الشعور غير الاعتيادى لحب نفسه بضع ثوان . وعاد الى المقصورة ، وصعد الى الرف العلوى ، ونظر الى يديـه الكبيرتين ، وهو يخلع ثيابه ، وفطن لاول مرة فى حياته بانهمـا جميلتان . والقاهما خلف رأسه ، واغمض عينيه ، وتراءت داشـا له فى الحال . كانت تحدق فى عينيه با نفعال وعشق (حدث ذلـك اليوم فى غرفة الطعام . لفت داشا بعض الكعك . دار ايفان ايليتش حول المائدة ، وتقدم منها ، وطبع قبلة على كتفهـا الدافئـة . التفتت إلتفاتة سريعة ، فسألها : «داشا ، هل تقبلين ان تكونى زوجتى ؟» فاكتفت بان حدقت فيه .)

اما الآن ، وهو مضطجع على الرف ، يتخيل وجه داشا ، دون ان يشبعه هذا التخيل فقد احس ، ولأول مرة فى حياته ايضا ، بالحبور ، وبنشوة كون داشا تحبه ، تحب الشخص ذا اليدين الكبيرتين الجميلتين .

ذهب ايفان ايليتش الى مصنع البلطيق فى يوم وصوله الى بطرسبورغ ، وعيّن فى احدى الورش ضمن النوبة الليلية .

وكانت تغيرات كثيرة قد حصلت فى المصنع خلال ثلاث سنوات . ازداد عدد العمال ثلاث مرات . كان جزء منهم شبانا ، وجزء آخر نقل من الاورال او من المدن الغربية ، وجزء أخذ من الجيش العامل . وكان العمال يقراون الصحف ، ويلعنون الحرب والقيصر ، والقيصرة ، وراسبوتين ، والجنرالات ، وكانوا ساخطين واثقين جميعا من ان «الثورة ستندلع» بعد الحرب .

وكانوا ساخطين بشكل خاص على خلط الحنطة بالنخالة فى المخابز ، واختفاء اللحم فى الاسواق لعدة ايام متتالية ، واذا وجد فهو منتن ، والبطاطس اضر بها الصقيع ، والسكر قذر ، وعلاوة على ذلك فان الغلاء قد استشرى ، واصحاب الحوانيت ، وهم اغنياء حديثون ومضاربون ، قد اثروا من الصفقات الحربية ، كانوا يشترون علبة الحلوى بخمسين روبلا ، وزجاجة الشمبانيا بمائة روبل ، ولم يريدوا ان يسمعوا ولو كلمة عن الصلح مع الالمان .

اجيز ايفان ايليتش ثلاثة ايام لتدبير شؤونه الخاصة ، فقضى المدة كلها فى التجواب فى ارجاء المدينة بحثا عن شقة . وقد تفقد عشرات البيوت دون ان يعجبه واحد منها . ولكنه فى اليوم الاخير عثر فجأة على ما لاح فى خياله وهو فى عربة القطار : خمس غرف صغيرة ذات نوافذ نظيفة تطل على مغرب الشمس . وكانت هذه الشقة الواقعة فى نهاية جادة كامينواستروفسكى غالية بعض الشىء بالنسبة لايفان ايليتش ، ولكنه استأجرها فى الحال ، وكتب يخبر داشا بذلك .

وذهب الى المصنع فى الليل الرابع . كانت المصابيح مضاءة على الاعمدة العالية فى الفناء المسود من قذارة الفحم ، والدخان

الخارج من المداخن ينزل سافلا نحو الارض بفعل الرطوبة والريح ، والهواء اصفر ثقيل مشبع بذرات السخام . ومن خلال النوافذ نصف الدائرية الهائلة المغبرة فى مبانى المصنع كان الناظر يرى دوران عدد ضخم من البكرات وسيور النقل ، وحركات اجسام المخارط الحديدية وهى تثقب ، وتخرط ، وتصقل الحديد والبرنز . وكانت الاقراص العمودية لمكابس التخريم تدور . وفى الاعلى كانت مقاصير الرافعات تروح وتجىء فى الظلام . وكانت افران الصهر تتوهج بضوء وردى وابيض ، والمطرقة البخارية الجبارة تهز الارض بضرباتها ، واعمدة اللهب تتصاعد من المداخن الواطئة فى ظلام السماء الرمادية . وكانت اشباح الناس تتحرك وسط هذا الطنين وهدير الآلات . . .

دخل ايفان ايليتش الورشة حيث كان المكابس تعمل صانعة اغلفة قنابل الشرابنيل . طاف المهندس ستروكوف به فى انحاء الورشة شارحا له بعض خصائص العمل الجديدة على ايفان ايليتش . وكان هذا المهندس صاحبا قديما له . ثم دخل معه الى مكتب محجوز بالالواح الخشبية فى ركن من الورشة ، حيث اطلعه على الكتب والسجلات ، وسلمه المفاتيح ، وقال له وهو يرتدى معطفه :

– نسبة التلف فى الورشة هى ثلاثة وعشرون بالمائة من انتاجها العام . فحاول ان تتمسك بهذه النسبة .

وجد ايفان ايليتش فى هذه الكلمات ، وفى طريقة تسليمه للورشة عدم اكتراث بالعمل . وقد غمه ذلك ، فقد عرف ستروكوف مهندسا ممتازا ورجلا متحمسا فى الماضى . عندئذ ساله :

– اتحسب من غير الممكن التقليل من نسبة التلف ؟

هز ستروكوف راسه متثائبا ، وسرح طاقيته الى اسفل شعره غير المصفوف ، وعاد الى المخارط مع ايفان ايليتش .

– ابصق على ذلك ، يا صاحبى . ما الذى يهمك فيه ؟ ايهمك اننا سنقتل من الالمان فى الجبهة اقل بنسبة ٢٣ بالمائة ؟ وبالاضافة الى ذلك ليس فى اليد حيلة ، فان الالآت قد استهلكت ، فلتذهب الى الشيطان !

وتوقف عند مكبس . وضع عامل عجوز قصير الساقين فى

منزر جلدى قطعة حديد محمية الى حد الاحمرار تحت المكبس ، وهبط القالب ، ونفذ ذراع المكبس فى الفولاذ الوردى وكأنه ينفذ فى زبدة ، ويتطاير اللهب ، وارتفع القالب ، وسقط غلاف الشرابنيل على الارض الترابية . وفى الحال تناول العجوز قطعة جديدة . وكان عامل آخر شاب مديد القامة اسود الشاربين منشغلا عند فرن الصهر .قال ستروكوف مخاطبا العامل العجوز :

– اذن ، الاغلفة بالتلف ، يا روبليف ؟

ابتسم العجوز ، وادار لحيته الهزيلة الى جانب ، ونظر الى تليغين نظرة ماكرة بطرف عينيه الضيقتين :

– صحيح بالتلف . انظر كيف يعمل ؟ – ووضع يده على عمود صغير مخضر من الزيت كان قالب المكبس ينزلق عليه . – انه يهتز . كان يجب ان يلقى فى كومة المهملات منذ زمان .

ضحك العامل الشاب الواقف عند فرن الصهر ، وهو فاسيلى بن ايفان روبليف وقال :

– هناك اشياء كثيرة يجب ان تقذف من هنا . الآلة ادركها الصدا .

قال ستروكوف بمرح :

– على مهلك ، يا فاسيلى .

– تلك هى المسألة . . .

وهز فاسيلى رأسه بشعره الأجعد . وظهرت تكشيرة خبيثة واثقة على وجهه النحيل العالى الوجنتين قليلا ذى العينين الثاقبتين الغاضبتين والشاربين الاسودين .

قال ستروكوف لايفان ايليتش بصوت خافض وهو يبتعد :

– انهما احسن العمال فى الورشة . الى اللقاء . سأذهب اليوم الى «الاجراس الحمراء» . الم تذهب الى هناك ؟ كازينو ممتاز ، ويقدمون فيها النبيذ .

بدأ تليغين يهتم بروبليف الاب والابن بفضول . فقد اذهلته فى الحديث الاول ذاك لغة الكلام الرمزية تقريبا ، والبسمات والنظرات التى تبادلها ستروكوف معهما ، وكان الثلاثة كانوا يختبرون

تليغين ليكتشفوا أهو من اصحابهم ام عدو لهم . وقد ادرك من البساطة الخاصة التى تحدث بها روبليف الاب والابن معه فى الايام التالية انهما يعتبرانه «من اصحابهم» .

وهذا الانحياز لم يكن يتعلق ، فى اغلب الظن ، بآراء تليغين السياسية التى كانت غير واضحة وغير محددة ، بل كان يتعلق ، على الاكثر ، بذلك الاحساس بالثقة الذى كان يوحيه وجوده لكل انسان . كان لا يتحدث ولا يقوم بشىء يلفت النظر ، ولكن كان واضحا انه رجل نزيه ، رجل فاضل ، صاف الى النهاية ، انه من اصحابهم .

وفى النوبات الليلية كان ايفان ايليتش اذا دنا من الاب والابن يسمعهما يتجادلان فى الغالب .

كان فاسيلى روبليف رجلا مطلعا لا يفتأ يتحدث عن الصراع الطبقى ودكتاتورية البروليتاريا ، وهو الى ذلك يتحدث بلغة الكتب وبطلاقة . وكان روبليف الاب من اتباع الكنيسة القديمة ، ماكرا وشيخا غير متدين البتة . وكان يقول :

– كل شىء مدون فى كتب الاديرة عندنا فى غابات بيرم : هذه الحرب نفسها ، وكيف ستجلب الخراب ، ستدمر ارضنا كلها ، وكم سيبقى من الناس ؟ سيبقى منهم القليل النزر . . وعندئذ سيخرج من الغابات ، من احد الاديرة رجل سيحكم الارض ، يحكم بكلمة الله الرهيبة .

فكان فاسيلى يقول :

– التصوف .

– آه ، ايها الأرعن ، الجلف ، اراك تتبجح بالالفاظ . . . تعتبر نفسك اشتراكيا !.. واى اشتراكى انت ! مجرد قوزاقى ريفى ! كنت مثلك ايام زمان . لا يهمه الا ان يتهافت على الامر : فيدفع قبعته الى اذنه ، ويوسع عينيه ، ويصرخ : «انهضوا للنضال . . .» مع من ، ولاى شىء ؟ احمق !

فيقول فاسيلى مشيرا الى ابيه بابهامه :

– اسمع الى العجوز كيف يتحدث . فوضوى متزمت . لا يفقه شيئا من الاشتراكية ، ولكنه لا يكف عن لومى ليعترض علىّ فقط .

قاطعه ايفان روبليف ، وهو يخرج من فرن الصهر قطعة حديد متطايرة الشرر ورسم بها نصف دائرة فى الهواء ووضعها بخفة تحت ذراع المكبس النازل :

– لا ، لا يا سادة . انتم تقراون الكتب ، ولكنكم لا تطالعون الكتب التى ينبغى ان تطالع . والتواضع ليس بشيمة احد منهم ، ولا يفكرون فيه . . . ولا يفهمون ان كل انسان يجب ان يكون فقيرا فى روحه فى زماننا هذا .

– راسك مشوش ، يا ابى . من الذى صاح قبل حين وجيز : انا ثورى ؟

– نعم ، صحت . . . واذا حدث شىء فساكون اول من يمسك بمذراة للقتال . وما الذى يجعلنى اتمسك بالقيصر ؟ انا فلاح . وهل تعرف كم حرثت من الارض خلال ثلاثين عاما ؟ انا ثورى بالطبع . وهل تحسب اننى لا اهتم بخلاص روحى ؟

كان تليغين يكتب لداشا كل يوم . وكان ردها عليه اندر . كانت رسائلها غريبة ، وكانما قد مسها صقيع ، فكان ايفان ايليتش يحس وهو يقراها بقشعريرة خفيفة . وكان فى العادة يجلس الى النافذة معيدا عدة مرات قراءة رسالة داشا المكتوبة بسطور كبيرة مائلة الى الاسفل . ثم كان ينظر الى الغابة الرمادية الليلقية على الجزر ، والى السماء الغائمة الكدرة كماء القناة ، كان ينظر ويفكر بان هذا ما يجب ان تكون عليه رسائل داشا لا بالرقة التى يودها لقصر رويته .

كتبت له :

«صديقى العزيز . تقول انك استاجرت شقة مؤلفة من خمس غرف . ففكر فى النفقات التى ستثقل كاهلك بها . وحتى ان لم تعش فيها وحدك فان خمس غرف كثيرة . ثم انك ستحتاج الى خادمتين ، وهذا فى ايامنا هذه غال للغاية . حل الخريف عندنا فى موسكو ، والجو بارد . وممطر ، وما من بصيص . . . وعلينا ان ننتظر الربيع . . .»

ومثلما ردت بنظرة على سؤاله يوم سفره : هل تقبلين ان

تكونى زوجتى ؟ لم تشر مباشرة فى رسائلها قط الى القران ، ولا الى حياتهما المقبلة معا . كان يجب انتظار الربيع .

وصار انتظار الربيع هذا ، والأمل المبهم اليائس فى حدوث معجزة يراود الجميع الآن . توقفت الحياة ، ودخل كل الاحياء فى سبات الشتاء مثل سبات دب يمص قائمته . وكان يبدو وكان المرء لم تعد له القوة ليتحمل انتظار ربيع دموى آخر الا فى الحلم .

ذات مرة كتبت داشا :

«. . . لم ارد ان اخبرك ولا ان اكتب لك عن وفاة بيسونوف . ولكننى يوم امس حكوا لى تفاصيل عن مقتله المريع . قبل خروجه الى الجبهة بوقت قصير التقيت به فى بولفار تفيرسكوى . كان بائسا جدا ، يبدو لى اننى لو لم اصده آنذاك لما لاقى حتفه . ولكننى صددته . وما كان لى الا افعل ذلك ، وسافعل الشىء نفسه لو اعيد الماضى» .

قضى تليغين نصف يوم فى الرد على هذه الرسالة . . . «كيف يمكن ان تفكرى باننى لا اتقبل كل ما يخصك» كتب ذلك ببطء شديد حريصا على ان تكون كل كلمة صادقة كل الصدق . «احيانا اختبر نفسى فاتصور انك احببت رجلا آخر ، وهذا افظع ما يمكن ان يحدث لى ، وحتى فى هذا الحال ساقبل بذلك . . . ولا يعنى هذا اننى ساخضع لهذا . لا ، فان شمسى ستنظلم . . . ولكن هل حبى لك فى الفرح فقط ؟ انا اعرف ذلك الاحساس الذى يراود المحب حين يريد ان يضحى بحياته بسبب حبه القوى . . . والظاهر ان بيسونوف احس بذلك الاحساس ، حين خرج الى الجبهة . . . وانت ، ياداشا ، يجب ان تشعرى بأن لك مطلق الحرية . . . وانا لا اسالك شيئا ، حتى الحب . . . وقد ادركت ذلك فى المدة الاخيرة . . .» .

بعد يومين غادر ايفان ايليتش المصنع عند الفجر عائدا الى البيت ، ولدى وصوله اخذ حماما ، واستلقى فى السرير ، ولكنه اوقظ بعد قليل ، وسلم برقية :

«كل شىء بخير . احبك بشدة . داشاك» .

وفى يوم من ايام الآحاد جاء المهندس ستروكوف الى ايفان ايليتش ، واخذه الى كازينو «الاجراس الحمراء» .

كان الكازينو يحتل قبوا رسمت على سقفه المقوس وعلى

جدرانه طيور مبرقشة ، واطفال ذوى وجوه صغيرة منحلة وجعدات كثيرة الدلالة . كان الكازينو صاخبا وكثير الدخان . وعلى المسرح جلس رجل ضئيل الجسم اصلع محمر الخدين يضرب على البيانو . وكان بعض الضباط يشربون «كروشون» * قويا ، ويطلقون الملاحظات بصوت عال على النساء الداخلات . وبعض المحامين المولعين بالفن يصرخون ويتجادلون . وكانت ملكة القبو ، الحسناء السوداء الشعر المنتفخة العينين تقهقه بصوت عال . بينما كان انتوشكا ارنولدوف يكتب رسالة من الجبهة ، وهو يلوى خصلة شعره . وكان مؤسس المستقبلية – وهو طبيب بيطرى مشوه الوجه مسلول المظهر – يهوم متدلى الراس من السكر على منصة قرب الحائط . وكان صاحب القبو – وهو ممثل سابق طويل الشعر وديع عليه خمول الادمان على الخمرة – يظهر بين الحين والآخر عند باب جانبى ناظرا الى الزبائن بعينين مخبولتين ويختفى .

انتشى ستروكوف من «الكروشون» فقال يحدث ايفان ايليتش :

– اتدرى لماذا احب هذا الكازينو ؟ لأنك لن تستطيع ان تجد مثل هذا التعفن فى مكان آخر . متعة ! . . انظر ، الى تلك الزاوية ، هناك تجلس إمراة نحيفة مخيفة لا تستطيع حتى ان تحرك جسمها . هستيريا فى آخر مراحلها ، ولكنها تحظى بنجاح خارق .

وضحك ستروكوف ، وعبّ من «الكروشون» واخذ ، دون ان يمسح شفتيه الناعمتين المظللتين بشارب تترى ، يسمى لايفان ايليتش اسماء الجُلاّس مشيرا باصبعه الى وجوههم المؤرقة السقيمة الشبيهة بوجوه المجانين .

– هؤلاء آخر الموهيقان ** . . . بقايا الصالونات الجمالية . باه ! عفن . باه ! وقد تقوقعوا هنا ، يتظاهرون بأنه لا توجد حرب ، وان كل شىء كما هو فى الماضى .

---

* مزيج لعدة انواع من النبيذ الابيض والكونياك والروم . **(المترجم)** .

** قبيلة منقرضة من الزنوج الحمر فى امريكا الشمالية . **(المترجم)** .

اخذ تليغين يتسمع وينظر . . . وكان كل شىء يبدو لعينيه كالحلم بسبب الحر والدخان والنبيذ ، وكان راسه يدور . . . رأى بعض الاشخاص يلتفتون الى باب المدخل ، والطبيب البيطرى يفتح عينيه المصفرتين ، ووجه صاحب الكازينو المخبول يبرز من وراء الحائط ، والمرأة شبه الميتة الجالسة الى ناحية من ايفان ايليتش ترفع جفنيه الناعسين ، وترتد الحياة الى عينيها فجأة ، وتستقيم قامتها بحيوية غريبة وهى تنظر الى حيث كان الجميع ينظرون . . وران سكون مباغت فى القبو ، ورن قدح عند سقوطه . . .

كان رجل كهل متوسط الطول يقف فى باب المدخل وقد دفع كتفيه الى الامام ، وحشر يديه فى جيبى ردائه الجوخى . كان وجهه الضيق بلحيته السوداء المتدلية يبتسم مرحا بغضنيه العميقين المالوفين ، وشعت فى وجهه عينان ذكيتان نفاذتان متفحصتان ملتهبتان بلون رمادى . وقد استمر ذلك دقيقة . ومن ظلام الباب اقترب منه وجه آخر – وجه موظف – ارتسمت عليه بسمة مقلقة ، وهمس له شيئا فى اذنه . غضّ الرجل انفه الكبير كارها :

– مرة اخرى انت وسخافتك . . . آه ، كم سئمت .

والقى نظرة اخرى الى رواد القبو بمرح اشد ، وهز لحيته ، وقال بصوت عال ممدود :

– وداعا ، يا اصدقائى المرحين .

واختفى فى الحال ، وصفق الباب . وسرى طنين فى انحاء القبو كله . غرز ستروكوف اظافره فى يد ايفان ايليتش ، وقال لاهث الانفاس :

– هل رأيت ؟ رأيت . . . هذا راسبوتين .

٣٣

خرج ايفان ايليتش من المصنع ماشيا فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . كانت ليلة قارسة من ليالى كانون الاول ، ولم يصادف عربة ليستأجرها ، فقد اصبح الآن من الصعب الحصول على واحدة منها فى مثل هذه الساعة حتى فى مركز المدينة . سار تليغين بسرعة فى وسط الشارع المقفر ، متنفسا البخار فى ياقته المرفوعة .

كان الهواء كله يبدو فى ضوء المصابيح النادرة مثقبا بابر الجمد ، وكان الثلج يخشخش تحت قدميه بصوت عال . والى الامام لمحت عيناه ومضات ضاربة الى الحمرة تتراقص فى الواجهة الصفراء المسطحة لاحد البيوت . استدار تليغين فى منعطف ، ورأى لهب نار فى مجمرة مشبكة ، وشخوصا متلفعة متدثرة وسط سحب من البخار . والى مسافة ابعد على الرصيف وقف زهاء مائة شخص بلا حراك فى صف واحد من النساء والشيوخ والغلمان . انه طابور يقف قرب حانوت لبيع الاغذية . وعلى مقربة كان الحارس الليلى يطبطب بحذائه اللبادى ، ويضرب قفازيه احدهما بالآخر .

سار ايفان ايليتش بمحاذاة الطابور ناظرا الى الشخوص المنكمشة الملتصقة على الحائط ، الملتفة بالمناديل ، والبطانيات . وسمع صوتا يقول :

– يوم أمس حطموا ثلاثة حوانيت فى منطقة فيبورغسكايا .

– هذا ما يبقى .

– يوم امس حطموا ثلاثة حوانيت فى منطقة فيبورغسكايا . يكون هناك كيروسين بعد الآن . وبينما انا هناك جاءت طباخة آل ديمينتيف ، واخذت خمس زجاجات بسعر فاحش .

– بكم ؟

– الزجاجة بروبلين ونصف ، يا فتاتى .

– الكيروسين ؟

– لن يفلت صاحب الحانوت من العقاب . سنتذكره اذا دقت الساعة .

– قالت اختى فى اوختا ان الناس امسكوا صاحب حانوت من هذا الصنف ، وحشروا رأسه فى برميل مملوء بالماء المخلل وغرق فيه وهو يتوسل اليهم ان ينقذوه .

– لم يعاقبوه بما فيه الكفاية ، يجب ان يعذب اكثر .

– ونحن نتجمد فى الطابور .

– وهو ينتفخ بالشاى .

سأل صوت مبحوح :

– من الذى ينتفخ بالشاى ؟

– كلهم ينتفخون بالشاى . زوجة الجنرال التى اخدم عندها

تنهض فى الساعة الثانية عشرة ، وتظل تشرب الشاى حتى الليل ، ولا اعرف كيف لا تنفجر هذه البلهاء .

– وتجمد انت ، وامرض بالسل .

– قولك صحيح تماما ، عندى سعال بالفعل .

– اما الفتاة التى اخدم عندها ، يا اعزائى ، فهى محظية . اعود من السوق فاجد الضيوف يملؤون غرفة الطعام فى بيتها ، وجميعهم سكارى . وفى الحال يطالبون بالبيض المقلى ، والخبز والفودكا ، وباختصار بطعام بسيط ومشروب قوى .

وارتفع صوت واثق :

– ينفقون النقود الانجليزية فى شرب الخمرة .

– ما هذا الذى تقوله ؟

– باعوا كل شىء . صدقونى ، فانا اعرف ما اقول . انتم تقفون هنا ، ولا تعرفون شيئا ، بينما هم باعوكم جميعا ولمدة خمسين عاما مقدما . كما باعوا الجيش كله .

– يا إلهى !

ومرة اخرى ارتفع صوت مبحوح ينادى :

– يا حضرة الحارس ، يا حضرة الحارس !

– ماذا حصل ؟

– هل سيباع الملح اليوم ؟

– على اكثر الاحتمالات لا يباع الملح اليوم .

– آه ، الملاعين .

– منذ خمسة ايام والملح غير موجود .

– الاوغاد يمتصون دم الشعب .

قال الحارس بصوت عالى النبرة كثيف :

– كفى كلاما ، يا نساء ، والا فان الحنجرة ستصاب بالبرد .

وخلف تليغين الطابور وراءه . وهدأ لغط الاصوات الغاضب ، ومن جديد خيم القفر والظلام الزمهريرى .

وصل ايفان ايليتش الى الكورنيش ، واستدار الى الجسر ، وحين عبثت الريح باطراف معطفه تذكر ان عليه ان يبحث عن عربة ، على اية حال ، الا انه سرعان ما نسى ذلك . كانت عيون

المصابيح تتوامض على الشاطىء الآخر باهتة لا يكاد البصر يلمحها . وكانت الالتماعات الخافتة من ممر المشاة عبر النهر تنعكس خطا مائلا على الجليد . وكان المتسع العريض المقفر المظلم لنهر النيفا نهبة لريح قارسة تحدث عويلا بالثلج ، وصفيرا شاكيا فى اسلاك خطوط الترام ، وفى فتحات درابزين الجسر الحديدى .

كان ايفان ايليتش يتوقف من حين لآخر ، ويحدق فى تلك القمة الموحشة ، ثم يواصل سيره ، ويفكر ، كدابه الآن فى التفكير فى اتجاه واحد : فى داشا ، وفى نفسه ، وفى تلك اللحظة التى راودته السعادة كالنار ، وهو فى عربة القطار .

كان كل شىء يكتنفه الآن مبهما مضطربا متناقضا معاديا لتلك السعادة . وكان يضطر فى كل مرة ان يبذل جهدا ليقول لنفسه : اننى حى ، سعيد ، وستكون حياتى منيرة رائعة . لقد كان من السهل ان يقول هذا الكلام حين كان عند النافذة وسط شرارات القطار المنطلق ، بينما صار الآن يحتاج الى جهد هائل ليفصل نفسه عن تلك الشخوص المتجمدة تقريبا فى طوابير الانتظار ، عن الوحشة المميتة للريح المعولة فى كانون الاول ، عن الشعور بالخسارة العامة ، والهلاك المعلق فوق الرؤوس .

كان ايفان ايليتش واثقا من شىء واحد : كان يجد خيرا فى اشياء جمة : فى حبه لداشا وفى فتنة داشا ، وفى ذلك الاحساس السار الذى راوده وهو واقف آنذاك عند نافذة العربة وفى حب داشا له . ان معبد الحياة المريح العريق ، المكتظ ربما ، والرائع رغم ذلك ، قد اهتز ، وتصدع بضربات الحرب ، وتمايلت اعمدته ، وظهر صدع على عرض قبته ، وتساقطت الحجارة القديمة ، وهناك وسط الغبار المتطاير ، وهدير المعبد المحطم شخصان : ايفان ايليتش وداشا ، كانا وهما فى حميا الحب البهيجة ، ورغم كل شىء ، يطمحان فى ان يكونا سعيدين . فهل ذلك صحيح ؟

فكر ايفان ايليتش ، وهو يمد بصره فى الظلمة الليلية الموحشة ، ونقاط الاضواء المتوامضة ، ويسمع الريح تصفر كنواح يمزق القلب : «لماذا اغالط نفسى ؟ ان الرغبة فى السعادة اسمى الاشياء . وانا راغب فيها ، وليكن ذلك بالرغم من كل شىء .

فهل استطيع انا القضاء على الطوابير امام الحوانيت ، واطعام الجياع ، وايقاف الحرب ؟ لا . ولكن اذا كنت لا استطيع فهل يتحتم على ايضا ان اتلاشى فى هذا الديجور ، وارفض السعادة ؟ لا ، ليس حتما . ولكن هل استطيع ان اكون سعيدا ؟ هل ساكون سعيدا ؟ . .»

قطع ايفان ايليتش الجسر . وسار على شارع الكورنيش دون ان يلاحظ الطريق الذى يسلكه . كانت المصابيح الكهربائية العالية المهتزة بفعل الريح ترسل ضوءا ساطعا . وكان رذاذ الثلج يتناثر على الرصيف العالى بهسهسة جافة . كانت نوافذ قصر الشتاء مظلمة خاوية . عند كشك الحراسة المخطط فى الثلج المكوم وقف حارس عملاق مرتديا فروة خروف ، ضاغطا البندقية على صدره .

كف ايفان ايليتش عن السير فجاة ، وتطلع الى النوافذ ، ثم حث خطاه مصارعا الريح فى بادىء الأمر ، ثم مدفوعا بها من ظهره . وبدا له انه يستطيع الآن ان يقول للجميع ، لكل الناس قاطبة ، حقيقة بسيطة واضحة ، فيصدقون بها جميعا . يستطيع ان يقول لهم : «انتم ترون ان المضى فى العيش على هذه الطريقة مستحيل . الدول قائمة على البغضاء ، والحدود مخططة بالبغضاء . وكل واحد منكم كتلة من البغضاء ، قلعة مصوبة مدافعها الى كل الجهات والدنيا مكتظة ورهيبة ، والعالم كله مختنق بالكراهية والناس يفتك بعضهم ببعض ، وتسيل انهار الدم . الم يكفكم هذا ؟ الم تدركوا بعد ؟ اتريدون ان يقضى الانسان على الانسان ، هنا ايضا ، فى كل بيت ؟ ثوبوا الى رشدكم ، والقوا السلاح ، وحطموا الحدود ، وافتحوا ابواب الحياة ونوافذها . . . هناك الكثير من الأرض للحبوب ، والكثير من المروج للماشية ، والكثير من المنحدرات للكروم . . وبطون الأرض لا تنضب ، ولكل انسان متسع من الارض . . . أمن المعقول انكم لا ترون انكم ما تزالون فى ظلام القرون الغابرة . . .»

لم تظهر عربة فى هذه الناحية من المدينة . عبر ايفان ايليتش النيفا ثانية ، وتوغل فى الشوارع الصغيرة الملتوية فى منطقة بطرسبورغسكايا . وواصل طريقه وهو غارق تفكيره ومناجاة

نفســـه بصوت مسموع ، فطـــاف على غير هدى فى شوارع مقفرة مهلهلة الظلمة حتى خرج الى كورنيش لقناة .

«يالها من نزهة !» وتوقف ايفان ايليتش ملتقطا انفاسه ، وضحك ، ونظر فى ساعته . وكانت فى تمام الخامسة . خرجت مـن منعطف قريب سيارة كبيرة مكشوفة منطفئة المصابيح يهس الثلج تحت عجلاتها يسوقها ضابط فى معطف عسكرى مفتوح الازرار . كان وجه الضابط الضيق الحليق شاحبا ، وعيناه جامدتين ، مثل عيون المفرطين فى السكر ، والى الخلف منـــه جلس ضابط آخر سرح قبعته على علبائه ، ولم يكن وجهه مرئيا لتليغين ، فقد كان يمسك بكلتا يديه لفة ملفوفة بحصيرة . وكان ثالث ركاب السيـــارة فى ملابس مدنية يرفع ياقة معطفه ويضع على راسه قبعة عالية مـن فرو عجول البحر . رفع جسمه قليلا ، وامسك بكتف السائـــق .

توقفت السيارة غير بعيد عن القنطرة . وراى ايفان ايليتش الثلاثة يقفزون منها الى الثلج ، ويخرجون اللفة ، ويسحبونها لعـــدة خطوات على الثلج ثم يدفعونها بجهد ، ويوصلونها الى منتصـــف القنطرة ويحملونها فوق درابزين القنطرة ، ويسقطونها فى الماء . عاد الضابطان الى السيارة فى الحال ، بينما انحنى المدنى لبعض الوقت مادا بصره الى الاسفل ، ثم انزل ياقته ، وركض لاحقـــا برفيقيه . وانطلقت السيارة باقصى سرعتها ، واختفت .

تمتم ايفان ايليتش فى سره : «اوه ، يـــا للقذارة» . فكان طوال هذا الوقت واقفا حابسا انفاسه . سار الى القنطرة ، ولكنه مهما امعن النظر لم يلتقط بصره شيئا فى الثغرة السوداء الكبيرة فى الجليد تحت الجسر . لا شىء غير بقبقة الماء الدافىء المنتن مـن انبوب تصريف المياه .

«اوه يا للقذارة» – تمتم ايفان ايليتش ثانية وتعبس ، وسار على الرصيف المحاذى للقناة . حصل اخيرا فى زاوية الشارع عـلى زلاجة يجرها حصان غليظ الشفتين ، كان سائق الزلاجة العجوز منكمشا متخشبا من البرد . وحين صعد ايفان ايليتش الى الزلاجة وشد الدثار المتجمد واغمض عينيه ، كان كل جسمه يئن من التعب . وفكر مع نفسه : «انا محب ، وتلك هى الحقيقة . ومهمـا فعلت ، واذا بدافع الحب هذا ، فهو جيد» .

٢٤

كانت اللفة الملفوفة بحصيرة ، والتى القاها الثلاثة من القنطرة فى ثغرة الجليد تحتوى على جثة راسبوتين القتيل . وقد اقتضى قتل هذا الرجل القوى الذى كان يملك حيوية لاانسانية ان يسقى نبيذا مخلوطا بسيانيد البوتاسيوم ثم يطلق عليه الرصاص فى صدره وظهره وقفاه ، ثم يهشم راسه بوصلة مفصلية . ومع ذلك فحين عثر على جثته ، واخرجت من ثغرة الجليد قرر الطبيب ان راسبوتين لم يلفظ نفسه الاخيرة الا تحت الجليد .

كان هذا القتل بمثابة اباحة لكل ما كان قد بدأ بعد شهرين . وقد قال راسبوتين غير مرة ان العرش سينهار بموته ، وتسقط سلالة رومانوف الحاكمة . والظاهر ان هذا الرجل الوحشى الضارى كان يملك حاسية غامضة لتشوف المحنة ، على غرار الحاسية التى تملكها الكلاب قبيل حلول وفاة فى البيت ، وقد مات ، بصعوبة شديدة ، آخر حماة العرش ، الفلاح وسارق الخيول ، والغـــول المتعصب .

وبموته خيم جزع مشؤوم على القصر ، بينما عمت البهجـــة ارجاء البلاد ، وراح الناس يهنىء بعضهم بعضا . وكتب نيقولاى ايفانوفيتش الى كاتيا من مينسك : «فى ليلة وصول النبا اوصى ضباط هيئة الاركان للقائد الأعلى على ثمانى دوزينة من الشمبانيا للمائدة المشتركة . وردد الجنود فى الجبهة كلهـــا هتافـــات التهليل . . .»

وبعد عدة ايام نسى الناس فى روسيا مقتل راسبوتين الا ان القصر لم ينس . فقـــد كان اهلـــه يؤمنون بنبوءتـــه ، واستعدوا لمواجهة الثورة بيأس منحوس . فقسمت بتروغراد سريا الى اقسام ، وطلبت الرشاشات من كبير الامراء سيرغى ميخائيلوفيتش ، ولما رفض تسليمها طلبوها من ارخانغلسك ، وخزنت اربعمائة وعشرون رشاشة فى عليات البيوت ومفارق الشوارع . وزيد الضغط على الصحافة ، وكانت الصحف تصدر وفيها اعمدة غير مكتوبة . وكتبت الامبراطورة الى زوجها رسائل مفعمة باليأس ساعية الى ان تثير فيه العزيمة وصلابة النفس . الا ان القيصر ظل قابعا كالمسحور فى موغيليف

وسط العشرة ملايين من المقاتلين الموالين له – وكان لا يشك فى ولائهم . ولم تكن النســـاء المتمردات ، واللغط فى الطوابير على الطعام فى بتروغراد يهمه اكثر مما كان تهمه جيوش الامبراطوريات الثلاث الضاغطة على الجبهة الروسية . وفى ذلك الوقت وخفية عن القيصر كان الجنرال الكسييف رئيس هيئة الاركان للقائد الاعلى يعد الخطط فى موغيليف لاعتقال القيصرة ، والقضاء على الكتلة الالمانية فى البلاط .

فى كانون الثانى وُقع على قرار الهجوم فى الجبهة الشمالية توقعا للحملة الربيعية . وبدأت المعركة قرب ريغا فى ليلــــة زمهريرية . وارتفعت عاصفة ثلجية مع اطلاق نيران المدفعيـــة . وزحف الجنود فى الثلج العميق وسط عويل العاصفة الثلجية ، ولهب القذائف المنفجرة بغزارة . واشتركت عشرات الطائرات فى المعركة لمساندة الوحدات المهاجمة فجرفتها الريح نحو الارض ، وفى ظلام العاصفة الثلجية راحت تصب نيران رشاشتها على القوات المعادية والقوات الروسية دون تمييز . لقد كانت روسيا تحاول للمرة الاخيرة تحطيم الطوق الحديدى المطبق عليها ، وللمرة الاخيرة كان الفلاحون الروس المرتدون البدلات المموهة البيضاء والريح تدفعهم من ظهورهم يقاتلون فى سبيل الامبراطورية التى كانت تحتل سدس العالم ، وفى سبيل الحكم المطلق الذى استطاع ذات مرة ان يبنى دولة كبرى ويهدد العالم ، والذى لم يعد الآن غير أثر مـــن آثار الماضى كان يجب ان يقبر من زمان ، وسخافة تاريخية ، ومرضا مميتا للبلاد كلها .

واستمرت المعركة الضروس عشرة ايام ، وتناثرت آلاف الجثث تحت اكوام الثلج . واوقف الهجوم وجمد . وخمدت الجبهـــة فى الثلوج .

٣٥

كان ايفان ايليتش قد نوى السفر الى موسكو فى عيد الميلاد ، الا انه بدلا من ذلك اوفد من قبل المصنع الى السويد ، ولم يعد منها الا فى شباط ؛ ولدى وصوله استطاع ان يحصل على اجازة لمـــدة

ثلاثة اسابيع ، وابرق لداشا بانه سيغادر فى السادس والعشرين من الشهر .

وكان عليه قبل السفر ان يعمل اسبوعا كاملا فى الورش . وقد ادهشته التغيرات التى حدثت خلال غيابه : اضحت ادارة المصنع لينة الجانب بادية الاهتمام على غير عادتها ، بينما بلغ الحنق عند العمال حدا كان يخيل اليك معه ان احدهم سيقذف مفتاح الربط على الارض فى اللحظة التالية ، ويصرخ : «اتركوا العمل ، واخرجوا الى الشارع . . .»

وقد اثارتهم فى هذه الايام بشكل خاص محاضر مجلس دوما الدولة حيث كانت تجرى المناقشات حول قضية الطعام . وكان واضحا جدا من تلك المحاضر ان الحكومة التى كانت تحافظ بالكاد على رباطة جاشها وكرامتها تبذل آخر قواها لتقف امام الهجوم ، وان الوزراء القيصريين لم يعودوا يتحدثون كالعمالقة الاسطوريين ، بل بلغة البشر ، وان اقوال الوزراء وما يقـــال فى الدوما مناف للحقيقة ، بينما الحقيقة هى على السنة الجميع : شائعات مشؤومة غامضة عن هلاك شامل موشك الوقوع فى الجبهة والمؤخرة بسبب المجاعة والخراب .

اثناء العمل الاخير لاحظ ايفان ايليتش قلقـــا غير اعتيادى عند العمال . فقد كانوا يتركون المخارط باستمرار ويتشاورون . والظاهر انهم ينتظرون اخبارا معينة . وعندما سأل فاسيلى روبليف فيم يتشاور العمال ، القى فاسيلى سترته المبطنة على كتفه بحنق ، وخرج من الورشة ، وصفق الباب . وقال ايفان روبليف :

– صار فاسيلى سيىء الطبع بشكل فظيع . وقد حصل على مسدس من مكان ما ، وهو يحمله معه .

الا ان فاسيلى عاد بعد وقت قصير ، واحاط به العمـــال فى اقصى الورشة وتقاطروا من جميع المخارط . واخذ فاسيلى يقرأ ورقـــة بيضاء بصوت عال وبتشديد على المقاطع : «بيان قائد قوات منطقة بطرسبورغ الفريق خابالوف . فى الايام الاخيرة كان توزيع الطحين على المخابز ، وخبز الخبز يجريان بنفس الكمية المعتادة مـــن قبل . . .»

واذا بالاصوات تتعالى :

– كذب ، كذب . انهم لا يبيعون الخبز منذ ثلاثة ايام . . .

– «ولا يمكن ان يوجد نقص فى بيع الخبز . . .»

– امر وتصرف ؟

– «واذا كان هناك نقص فى الخبز لدى بعض الحوانيت فان ذلك راجع الى ان الكثيرين راحوا ، تخوفا من نقص فيه ، يشترونه لصنع البقسماط . . .»

وزعق صوت :

– ومن يصنع البقسماط ؟ عسى ان يختنق به .

وصاح فاسيلى بصوت اعلى :

– اسكتوا ، يارفاق . يجب ان نخرج الى الشارع ، يارفاق . . . هناك اربعة آلاف عامل من مصنع اوبوخوفسكى يزحفون على جادة نيفسكى . . . وهناك عمال آخرون قادمون من منطقة فيبورغسكايا . . .

– صحيح ! ليرونا الخبز !

– لن يروكم الخبز ، يارفاق . لا يوجد فى المدينة من الطحين الا ما يكفى لثلاثة ايام ، وبعدها لن يكون هناك لا خبز ولا طحين . القطارات كلها متوقفة وراء الاورال . . . وهناك السايلوات مملوءة بالقمح . . . وفى تشيليابينسك كميات هائلة من اللحوم تتعفن فى محطة القطار . وفى سيبيريا يشحمون العجلات بالزبدة . . .

وهدرت الورشة كلها ، ورفع فاسيلى ذراعه قائلا :

– ايها الرفاق ، لا احد يعطينا الخبز اذا لم ناخذه نحن بايدينا . . . لنخرج مع عمال المصانع الاخرى الى الشارع تحت شعار : «كل السلطة للسوفييتات» . . .

فهتف العمال متراكضين فى الورشة :

– اوقفوا المخارط ! . . اتركوا العمل ! . . اطفئوا افران الصهر ! . .

تقدم فاسيلى روبليف من ايفان ايليتش ، وكان شاربه يرتجفان . وقال بلهجة واضحة :

– انصرف ، انصرف قبل ان تتاذى !

نام ايفان ايليتش بقية تلك الليلة نوما سيئا ، واستيقظ قلقا . كان الصباح غائما وكانت قطرات الماء تتساقط على الافريز

الحديدى فى الخارج . . . بقى ايفان ايليتش مستلقيا يستجمع افكاره . لا ، لم يزايله القلق ، والقطرات تثير اعصابه ، وكانها تسقط فى داخل دماغه . «لا حاجة الى الانتظار حتى السادس والعشرين ، بل يجب ان اسافر غدا» . فكر على هذا النحو وخلع قميصه . ومشى الى الحمام عاريا ، وفتح الدش ، ووقف تحت الرشاش اللاذع البرودة .

كان لديه الكثير من المشاغل قبل السفر . فشرب قهوته على عجل ، وخرج الى الشارع ، وقفز الى ترام غاص بالناس . وهنا ايضا احس باضطراب . كان الركاب يجلسون صامتين متجهمين على عادتهم طاوين ارجلهم ، منتزعين اطراف ثيابهم من تحت من يشاركونهم المقاعد ، كانت ارضية الترام لزجة ، وقطرات الماء تتساقط على نوافذه ، والجرس بالقرب من سائق الترام يدق مثيرا للاعصاب . وكان يجلس قبالته موظف عسكرى له وجه اصفر منتفخ قليلا ، وقد جمدت ابتسامة معوجة على فمه الحليق ، وكانت عيناه تنظران بتساؤل وبحيوية لا تتميزان بهما على ما يبدو . وحين امعن ايفان ايليتش النظر لاحظ ان جميع الركاب ينظر بعضهم الى بعض بنفس النظرة المتسائلة الحيرى .

توقف الترام عند زاوية جادة بولشوى . وتململ الركاب ، واخذوا يجيلون ابصارهم ، وقفز بعضهم من الترام . نزع سائق الترام مفتاح التدوير ، ووضعه فى صدر معطفه الفرائى الازرق ، وفتح الباب الامامى قليلا ، وقال بانفعال غاضب :

– الترام سيتوقف عند هذا الحد .

كانت عربات الترام تقف فى جادة كامينواستروفسكوى ، وجادة بولشوى كلها على امتداد البصر . وكان جمهور من الناس يتحرك على الارصفة كبقع سوداء . وبين الحين والآخر كانت تهبط الصفاقة الحديدية على نافذة احد الحوانيت محدثة دويا . وتساقط ثلج رطب .

صعد على سطح احدى عربات الترام رجل ذو معطف طويل مفتوح ، وانتزع طاقيته ، وراح يصرخ بشىء على ما يبدو . وتعالى بين الجمهور و–و–و– . . . اخذ الرجل يربط حبلا بسطح الترام ، وانتصب ثانية ، وانتزع طاقيته مرة اخرى . وتعالى مرة

اخرى فى الحشد و – و – و ! قفز الرجل الى الرصيف . وماج الحشد متراجعا . وعندئذ تجلت للعين جمهرة كثيفة من الناس تجر الحبل الذى ربط بعربة الترام منزلقة على الثلج الاصفر القذر . وبدات العربة تجنح الى جانب . وتراجع الناس ، وصفر الصبيان . الا ان العربة ترنحت ثم عادت الى وضعها السابق ، وارتفع صوت انطباق عجلاتها على السكة . عندئذ انضم الى الساحبين اناس تقاطروا من مختلف الجهات ، وامسكوا بالحبل باهتمام وصمت . وجنحت العربة مرة اخرى ، وانقلبت فجاة وتهشم زجاج نوافذها . تقدم الناس نحو العربة المقلوبة ، وهم ما زالوا على صمتهم .

– واختلط الحابل بالنابل !

سمع ايفان ايليتش ذلك الموظف العسكرى ذا الوجه الاصفر المنتفخ يقول هذه الجملة من ورائه . وارتفعت فى الحال عدة اصوات متنافرة ممطوطة :

سقطتم صرعى فى النضال الحاسم ...

ورای ايفان ايليتش فى طريقه الى جادة نيفسكى نفس النظرات الحائرة والوجوه المضطربة . كان المستمعون المتعطشون يلتفون حول رواة الاخبار مثل دوامات صغيرة . وعند مداخل البيوت وقف بوابون ممتلئو الاجسام . واطلت خادمة بوجهها تنظر فى الشارع . كان سيد ذو لحية معتنى بها يرتدى معطفا مبطنا بالفراء مفتوح الازرار ، ويحمل محفظة يسال الكناس :

– قل لى ، ياصاحبى ، ما هذا الحشد هناك ؟ ماذا يحدث هناك ؟

– يطالبون بالخبز ، ايها السيد ، ويتمردون .

– واضح !

وعند مفترق الطريق وقفت سيدة شاحبة تحمل كلبا نحيلا راعشا رجلاه الخلفيتان متدليتان مرتعشتان وكانت هذه السيدة تسال كل من مر بها :

– ما هذا الحشد ؟ . ماذا يريدون ؟

هتف السيد ذو المعطف المبطن بالفراء مرحا ، وهو يمر بها :

– فى الجو رائحة ثورة ، ايتها السيدة .

سار عامل على الرصيف وطرفا سترته من فراء الخروف يخفقان بشدة ، واختلج وجهه السقيم . التفت فجاة وصرخ بصوت متقطع باك :

– يارفاق ، هل سيظلون يشربون دمنا زمنا طويلا ؟ . .

اوقف ضابط ممتلىء الخدين صبوى الاسارير العربة التى كان يستقلها ، وامسك بحزام السائق . وحدق فى الناس المضطربين وكانه يحدق فى كسوف الشمس .

وصاح العامل عليه وهو يمر به بصوت ناشج :

– تفرج ، تفرج !

وتعاظم حشد الناس ، وصار يشمل الشارع كله وهدر هديرا منفعلا ، وتحرك باتجاه الجسر . وارتفعت اعلام بيض فى ثلاثة اماكن . وجرف هذا السيل المارة فى طريقه كالقش . عبر ايفان ايليتش الجسر مع الحشد . كان بعض الخيالة يعدون على خيولهم عبر ميدان «مارسوفو بوليه» المضبب المكسو بالثلج المحفور بآثار حوافر . وحين رأوا الحشد اداروا خيولهم ، واقتربوا منه بخطوات وئيدة . ضحك احدهم ، وهو عقيد مورد الوجنتين مشقوق اللحية ، رافعا يده بالتحية . وتعالى فى الحشد غناء ثقيل جزع . وطارت غربان شعثاء من الاغصان العارية الداكنة ، من ظلام الحديقة «ليتنى» ، نفس الغربان التى افزعت ذات مرة قاتلى الامبراطور بافل .

سار ايفان ايليتش فى المقدمة ، وكان يحس بغصة فى حنجرته . تنحنح ليزيلها ، الا ان الانفعال كان يتصاعد من اعماقه مرة بعد اخرى . بلغ حصن اينجينيرنى فاستدار شمالا ، وسار فى جادة ليتيينى .

كان جمهور آخر من الناس ينصب فى جادة ليتيينى قادما من منطقة فيبورغسكايا . وقد امتد الى مسافة طويلة فى الجسر . وكانت بوابات البيوت على طول طريقه غاصة بالفضوليين والوجوه المنفعلة فى جميع النوافذ .

توقف ايفان ايليتش عند بوابة احد البيوت على مقربة من موظف عجوز كانت الرعشة تسرى فى وجنتيه الشبيهتين بوجنتى

كلب . وكان صف من الجنود الجامدين المتكئين على بنادقهم يسد الشارع بعيدا الى اليمين .

اقترب الحشد وتباطأ سيره . وتطايرت اصوات مذعورة متجهة الى وسطه : «قفوا ، قفوا ! . .»

واذا بآلاف من الاصوات النسائية العالية تعول مرددة : «خبز ، خبز ، خبز ! . .»

قال الموظف : «لا يجوز السماح بهذه المشاهد» والقى نظرة صارمة على ايفان ايليتش من فوق نظارته . وفى تلك اللحظة خرج بوابان ضخمان من احدى البوابات وراحا يدفعان الفضوليين بكتفيهما . اهتزت وجنتا الموظف ، وزعقت سيدة شابة ترتدى نظارة انفية : «لا تتجاسر ، ايها الابله !» الا ان البوابة قد اغلقت . واخذت مداخل البيوت والبوابات تغلق فى الشارع كله . وتعالت اصوات مذعورة :

– لا داعى ، لا داعى !

واقترب الحشد الهادر . وطلع فى مقدمته شاب ذو وجه محمر الخدين منفعل يضع على راسه قبعة عريضة الحافة . وترددت اصوات :

– الراية فى المقدمة ، الراية فى المقدمة !

وفى تلك اللحظة ظهر امام صف الجنود ضابط ضخم ضيق الخصر يرتدى قبعة قوزاقية بميلان . وضع يده على قراب المسدس عند خصره ، وصرخ بصوت كان من الممكن ان تفهم منه هذه الكلمات : «صدر امر باطلاق النار . . . لا اريد سفك الدماء . . . تفرقوا ! . .»

فارتفعت اصوات وحشية :

– الخبز ، الخبز ، الخبز !

وزحف الحشد على الجنود . . وبدا الناس يمرون بايفان ايليتش والطيش فى عيونهم . . .

– الخبز ! . . يسقط ! . . اوغاد ! . .

وسقط احدهم . وصرخ مستطار اللب رافعا وجهه المتغضن : «اكرههم . . . اكرههم !»

وفجأة صدر فى الشارع صوت مثل صوت تمزيق قماش خشن . وسكن كل شيء فى الحال . وشد احد الطلاب على طاقيته بين اصابعه ، وغاص فى الحشد . . . ورفع الموظف يده المعقدة ليرسم علامة الصليب . واطلقت طلقة فى الهواء ولم تتبعها طلقة اخرى الا ان الحشد تراجع . بعضه قد تفرق ، والبعض الآخر توجه الى ساحة زنامينسكايا . ومعه الراية . وبقيت قبعات وكالوش ملقاة على الثلج الاصفر فى الشارع . طلع ايفان ايليتش الى جادة نيفسكى فسمع ثانية هدير اصوات كثيرة . انه حشد ثالث كان قد عبر النيفا قادما من جزيرة فاسيليفسكى . وكانت الارصفة مكتظة بالنساء الانيقات ، والعسكريين ، والطلاب ، وغرباء لهم مظهر اجنبى . وكان ضابط انجليزى ذو وجه وردى طفلى يقف كالعمود . وكانت البائعات ذوات الشرائط السوداء فى شعورهن يضغطن وجوههن المبودرة على زجاج ابواب المخازن . بينما سار حشد غاضب من العاملات والعمال فى وسط الشارع متغلغلا فى امتداده الضبابى ، وهو يعول : «الخبز ، الخبز ، الخبز ! . .»

كان سائق زلاجة يقف بمحاذاة الرصيف وقد مال بجنبه نحو جزئها الامامى ، واخذ يحدث بمرح راكبته السيدة ذات الوجه الاحمر المذعور .

– الى اين اذهب ؟ ها انت ترى بنفسك . ذبابة لا يمكن ان تمر من هنا .

– امض فى طريقك ، ايها الاحمق ، ولا تجرؤ على التحدث معى ؟ . .

– لا ، لست احمق منذ اليوم . . . انزلى من الزلاجة . . .

تدافع المارة على الرصيف ، رفعوا رؤوسهم ، وتسمعوا ، وتساءلوا منفعلين :

– قتلوا مائة شخص فى جادة ليتيينى ؟ . .

– كذب . . . اطلقوا النار على حبلى ورجل عجوز . . .

– يارب ! وما ذنب العجوز هذا ؟

– هذه كلها اوامر بروتوبوبوف . وهو مجنون . . .

– اى نبأ هذا ، ياسادة . . . لايصدق ! اضراب عام . . .

– كيف ؟ والماء والكهرباء ؟

– ليت الرب يجعلها انباء صحيحة ، آخر الأمر .
– مرحى للعمال ! . . .
– لا تفرحوا ، سيقمعونهم . . .
– حاذر ان تقمع قبلهم ، وانت بهذه السحنة . . .

مضى ايفان ايليتش الى العناوين التى ينشدها آسفا على تضييعه الوقت الكثير ، غير انه لم يجد احدا ممن قصدهم فى البيت . فعاد يتجول فى جادة نيفسكى غاضبا .

كانت حركة الزلاجات قد عادت الى الشارع ، وخرج البوابون يزيحون الثلج من الارصفة ، وظهر الرجل المهيب ذو المعطف الاسود على مفرق الطرق ورفع فوق الرؤوس المحتدة ، وافكار الناس المضطربة هراوته البيضاء ، عصا النظام السحرية . ولربما فكر عابر سبيل خبيث ، وهو ينظر الى الشرطى عند اجتيازه الشارع قائلا لنفسه : «انتظر ، يا اخى ، وسيأتى وقتك» . ولكن لم يدر فى خلد احد من الناس ان الوقت قد حان فعلا ، وان هذا الشخص المشورب المنتصب كالعمود الحامل للهراوة لم يعد اكثر من شبح وانه سيختفى بين عشية وضحاها من مفرق الشوارع ، من الحياة العامة ، من ذاكرة الناس . . .

– تليغين ، تليغين ! قف ايها الاصم ! . .

وركض المهندس ستروكوف نحو ايفان ايليتش وطاقيته منسرحة على مؤخرة راسه ، وعيناه تلمعان بمرح فياض . . .

– الى اين ذاهب ؟ لندخل الى مقهى . . .

وامسك يد ايفان ايليتش وجره الى مقهى . كان دخان السيغار فى المقهى يلذع العيون . وكان الناس بقبعاتهم المستديرة السوداء وبقبعات من فراء عجول البحر ، وبمعاطفهم غير المزررة يتجادلون ، ويتصايحون ، ويقفزون واقفين . شق ستروكوف طريقه نحو نافذة ، وجلس الى مائدة صغيرة قبالة ايفان ايليتش . وهتف ممسكا المائدة بكلتا يديه .

– الروبل يسقط ، والسندات المالية تذهب الى الجحيم . تلك هى القوة ! . . خبرنى ماذا شاهدت . . .

– كنت فى جادة ليتيينى ، وقد اطلقوا النار هناك ، ولكن فى الهواء ، على ما يبدولى . . .

– وما رايك فى هذا كله ؟

– لا ادرى . اعتقد ان على الحكومة الآن ان تعالج بجدية مسالة نقل الاطعمة .

صاح ستروكوف ، وهو يضرب سطح المائدة الزجاجى :

– فات الوقت ! فات ! . . اكلنا امعاءنا بانفسنا . . . ولتنته الحرب ، فقد لاقينا ما فيه الكفاية ! . . اتدرى ماذا ينادون فى المصانع ؟ ينادون بدعوة سوفييت نواب العمال . بان لا يؤمنوا بغير السوفييتات !

– صحيح ؟

– تلك هى النهاية ، ياعزيزى ! انهار الحكم المطلق . . . فافتح عينيك . ليس هذا تمردا ، بل وليس ثورة . . . انه بداية الفوضى . . . بل الفوضى العظيمة بعينها . . . – وانتفخ عرق على عرض جبين ستروكوف تحت قطرات العرق – وبعد ايام ثلاثة لن تبقى هناك دولة ، ولا جيش ، ولا حكام ، ولا رجال شرطة . . . بل مائة وثمانون مليونا من الناس الشعث البدائيين . وهل تدرى من هو الانسان البدائى الاشعث ؟ النمر ووحيد القرن دميتان للاطفال بالنسبة له . خلية فى جهاز عضوى متفسخ . ذلك هو الانسان البدائى الاشعث . وذلك شىء رهيب جدا . انه بكتيريا تأكل بكتيريا اخرى فى قطرة ماء .

قال تليغين :

– اوه ، ليتخطفك الشيطان ! لا شىء من هذا ، ولن يكون شىء من هذا ! انها ثورة ، وشكرللرب عليها .

– لا ، ان ما رايته اليوم ليس ثورة . انه تحلل المادة . وستأتى الثورة ، فيما بعد ستأتى . . . ولكننا انا وانت لن نراها .

قال ايفان ايليتش وهو ينهض :

– قد يكون ذلك . وان فاسيلى روبليف هو الثورة . اما انت ، ياستروكوف ، فلا . انت كثير الضجيج ، وتتحدث بشكل مبهم . . .

عاد ايفان ايليتش الى شقته فى وقت مبكر ، وآوى الى فراشه فى الحال . ولكن النوم لم يغشه الا برهة قصيرة ، تنهد بعدها ، وانقلب ثقيلا على جنبه ، وفتح عينيه . شم رائحة جلد الحقيبة التى كانت مفتوحة على احد المقاعد . فى هذه الحقيبة التى اشتراها فى استوكهولم محفظة صغيرة من الجلد البديع لأدوات الزينة الفضية ، هدية لداشا . وكان ايفان ايليتش يحس بالرقة نحوها ، فيفك ورقها الناعم كل يوم ، ويعاينها . بل وكان يتخيل مقصورة عربة بنافذة طويلة ، كما هى فى القطارات غير الروسية ، وداشا فى لباس السفر تضع على ركبتيها هذه المحفظة الفواحة بالعطر والجلد رمزا لسياحات رخية مدهشة .

راى ايفان ايليتش السماء الداكنة وراء النافذة تتشبع بانعكاس ضوء المدينة الليلكى الكدر . وادرك بصفاء شعور الكراهية الحزينة الذى لا بد ان يعتمل فى نفوس اولئك الذين كانوا يطالبون بالخبز اليوم ، حين ينظرون الى هذا الضوء . المدينة غير المحبوبة ، الموحشة ، الكريهة . . . دماغ البلاد وارادتها مصابة الآن بداء قتال . . وهى فى احتضار . . .

خرج ايفان ايليتش من البيت فى حوالى الثانية عشرة ، فراى الجادة العريضة الضبابية مقفرة . لاحت من وراء نافذة رطبة لحانوت بيع الزهور مزهرية بلورية فيها باقة بديعة من الورود الحمراء المبللة بقطرات كبيرة من الماء . فرنا ايفان ايليتش اليها برقة من خلال الثلج المتساقط .

ظهرت من شارع جانبى دورية تتالف من خمسة قوزاقيين ، ادار آخرهم فرسه ، وعدا به نحو ثلاثة من الرجال يرتدون الكيبيه كانوا يسيرون على الرصيف وهم منهمكون فى حديث منفعل منخفض . توقف الرجال ، وامسك احدهم ، وهو يتحدث بمرح ، شكيمة فرس القوزاقى . كانت هذه الحركة غير اعتيادية كليا جعلت قلب ايفان ايليتش يثب فى صدره . ولكن القوزاقى ضحك ، ودفع راسه الى الخلف ، ثم اطلق العنان لفرسه الغليظ الرقبة الذى كان يضرب بقوائمه ، ولحق برفاقه ، وانطلق الجميع فى عدو سريع حتى غيبهم ظلام الجادة .

وحين كان يفان ايليتش يقترب من الكورنيش اخذ يلتقى

بزمر من سكان المدينة فى هيجان . والظاهر ان احدا لم يستطع ان يهدأ بعد حدث يوم امس : وهاهم الناس يتداولون الراى ويتناقلون الشائعات والاخبار ، وكان الكثيرون منهم يسيرون نحو النيفا . وكان هناك بضعة آلاف من الفضوليين يتحركون على الثلج بمحاذاة السياج الغرانيتى كجماعات سوداء من النمل . وكانت زمرة من الزاعقين تصرخ عند الجسر على الجنود الذين كانوا يسدون الطريق بوقوفهم فى عرض الجسر ، وعلى طوله حتى نهايته الاخرى التى لم تكد ترى فى الغبش من جراء الثلج المتساقط .

— لماذا سددتم الجسر ؟! اتركونا نمر !

— نريد ان نذهب الى وسط المدينة .

— قلة حياء . يضايقون الاهالى . . .

— الجسور اقيمت لعبور الناس ، وليس لشاكلتكم .

— هل انت روسى ام لا ؟ . . دعونا نعبر !

كان ضابط صف ضخم ذو اربعة نياشين القديس غيورغى يذرع الجسر عرضا من درابزين الى آخر مصلصلا بمهمازيه ، وحين سمع الشتائم تتعالى من الجمع ادار الى المتصايحين وجهه العابس المجدر المصفر . وقال وشارباه المفتولان يهتزان :

— آه ، سادة وتتكلمون على هذا النحو . لا استطيع ان اسمح بعبور الجسر . . . ساضطر الى استخدام السلاح فى حالة عدم الامتثال للأمر . . .

وتصايح الزاعقون من جديد :

— لن يطلق الجنود النار علينا .

— وضعوك هناك ، وانت الكلب ، الشيطان المجدر . . .

استدار ضابط الصف مرة اخرى وراح يتكلم ، ورغم ان صوته كان اجش حادا — عسكريا ، فقد انعكس فى كلماته نفس الحيرة المذعورة التى كانت تعتمل فى نفوس الجميع فى تلك الايام وقد احس الزاعقون بذلك ، وشتموا ، وضغطوا على الحاجز .

وفجاة تكلم رجل طويل نحيل ذو نظارة انفية معوجة ، ورقبة طويلة ملفوفة بلفاح ، وكان صوته عاليا عميقا :

— انهم يضيقون حركة المرور ، والحواجز فى كل مكان ، والجسور قد طوقت . وذلك منتهى التحقير . هل نستطيع التنقل

فى المدينة بحرية ، ام اصبح حتى ذلك متعذرا ؟ ايها المواطنون اقترح عدم الالتفات الى الجنود ، والعبور على الجليد الى الضفة الأخرى . . .

– كلامك صحيح . على الجليد ! هورا ! . .

وعلى الأثر ركض عدة اشخاص على الدرجات الغرانيتية المغطاة بالثلج ، والمؤدية الى النهر . وسار الرجل الطويل ذو اللفاح المتطاير فى الريح بخطوات حازمة على الجليد بمحاذاة الجسر . انحنى الجنود على الدرابزين فى الاعلى وصاحوا :

– ياهؤلاء ، ارجعوا ، والا سنطلق النار . . . ارجع ، ايها الشيطان الطويل ! . .

الا ان الرجل مضى فى سيره دون ان يلتفت ، ومن خلفه سار عدد متزايد من الناس فى صف واحد وفى سير سريع ، وانزلقوا واحدا بعد الآخر على منحدر السدة الى الجليد ، وتراكضت اشباحهم السود على الثلج . صاح الجنود عليهم من فوق الجسر فرد الراكضون عليهم بصياح مثله محيطين افواههم بأيديهم . رفع احد الجنود بندقيته ، الا ان جنديا آخر دفعه من ظهره فاقلع ذاك عن اطلاق النار .

واتضح فيما بعد ان اية خطة محددة لم تكن لاحد من الذين خرجوا الى الشوارع ، ولكن الاهالى حين شاهدوا الحواجز على الجسور ومفارق الطرق تملكهم جميعا الدافع الكامن فى نفوسهم منذ القدم ، ورغبوا فيما محظور الآن : عبور الجسور ، والتجمع فى حشود . وهذا الظرف وهج الخيال المريض توهجا شديدا . وشاعت فى المدينة شائعة تقول ان شخصا يقود كل هذه القلاقل .

فى نهاية اليوم الثانى كمنت وحدات من الفوج بافلوفسكى فى جادة نيفسكى ، واطلقت رشقات طويلة من النار على تجمعات الفضوليين وعلى بعض المارة . واخذ الاهالى يدركون ان شيئا شبيها بالثورة آخذ فى الظهور .

ولكن احدا لم يكن يعرف بؤرتها ، ولا الموجه لها . كما لم يكن يعلم بذلك قائد القوات ، ولا الشرطة ، بَلْهَ بروتوبوبوف

الدكتاتور صاحب الحظوة ، وصاحب معمل اقمشة الجوخ من سيميبرسك ، ذلك الرجل الذى شج له صاحب الاطيان ناؤوموف راسه فى يوم ما فى فندق ترويتسكايا بعد ان شق به الباب ، فسبب له ذلك الضرر فى الجمجمة والدماغ آلاما فى الراس وانهيارا عصبيا ، ثم تخلخلا مستميتا فيما بعد ، حين عهدت اليه ادارة الامبراطورية الروسية . كانت بؤرة الثورة فى كل الانحاء ، فى كل بيت ، وفى راس كل مواطن عادى زاخر بالخيالات والسخط والتذمر . وكانت هذه الاستحالة فى تحديد بؤرة الثورة تنذر بالشؤم . فقد كانت الشرطة تتصيد الاشباح . وكان عليها فى الواقع ان تعتقل مليونين واربعمائة الف ، هم مجموع سكان بتروغراد .

امضى ايفان ايليتش اليوم كله فى الشوارع يخامره ذلك الاحساس الغريب الذى كان يخامر كل فرد ، لا محالة ، الاحساس بدوار دائمى . وكان يتلمس تعاظم الهيجان فى المدينة الى حد يقرب من الجنون . فقد كان جميع الناس يتحللون الى دوار جماعى شامل ، وكان هذا المجموع فى تجواله فى الشوارع وهياجه يبحث ويتوق الى امارة ، الى ومضة تعمى البصر ، وتدمج الجميع فى كتلة واحدة .

لم يرهب الرصاص فى جادة نيفسكى غير قلة من الناس . فقد انثال الناس كما تنثال الوحوش وتجمعوا حول جثتين مطروحتين عند زاوية شارع فلاديميرسكايا احداهما لامراة فى تنورة من القماش الرخيص ، والثانية لعجوز فى معطف من فراء الراكون . . . وحين اشتد اطلاق النار تراكض الناس شتاتا ، ومرة اخرى تسكعوا بمحاذاة الجدران .

هدأ اطلاق النار عند هبوط الظلام . وهبت ريح قارسة ، ونظفت السماء ، وتوهج الغروب بكآبة فى السحب التى تراكمت وراء البحر . وطلع هلال حاد الطرفين ، وتدلى واطئا فوق المدينة فى بقعة سوداء فاحمة من السماء .

ولم تضأ المصابيح فى تلك الليلة . وكانت النوافذ مظلمة ، ومداخل البيوت مسدودة . وامتدت اهرام البنادق المشبكة على طول جادة نيفسكى الخالى المظلم . وكانت اشباح الحراس الضخمة تتراءى على مفارق الطرق . وكان ضوء القمر يلمع بين الحين والآخر

على زجاج نافذة او على شريط سكة الترام ، او على فولاذ حربة .
وخيم الهدوء والسكينة . ولكن سماعات التلفون فى كل بيت كانت
تنقل كلمات جنونية عن الاحداث بصوت مذعور خافت .

وفى صباح ٢٥ شباط غصت ساحة زنامينسكايا بالوحدات
ورجال الشرطة . ووقفت امام فندق «سيفرنايا» خيالة الشرطة على
صهوات خيول صهباء متوثبة دقيقة القوائم . ورابط رجال الشرطة
المشاة بمعاطفهم السوداء حول تمثال الامبراطور الكسندر الثالث ،
وتجمعوا زمرا فى الساحة . ووقف القوزاق عند محطة القطار وقد
علا المرح وجوههم الملتحية ، وقبعاتهم القوزاقية العالية المنسرحة
الى جانب ، وبرزت حزم التبن عند سروجهم . وكانت رجال فوج
بافلوفسكى يلوحون بمعاطفهم بلونها الرمادى المتسخ باتجاه جادة
نيفسكى .

ارتقى ايفان ايليتش النتوء الحجرى لمدخل محطة القطار ،
وفى يده حقيبة صغيرة ، كانت الساحة كلها ترى من هنا بوضوح
جيد .

كان نصب الامبراطور يتوسطها بفرسه المعتلى صخرة من
الغرانيت حمراء بلون الدم ، وقد تدلى راسه البرونزى لثقل راكبه .
وكان الامبراطور يجلس على الصهوة ثقيلا كالجاذبية الارضية ،
وقد كسا الثلج كتفيه الكثيبتين ، وطاقيته المستديرة . كانت
حشود الناس تشق طريقها نحو قاعدة النصب فى الساحة قادمة من
خمسة شوارع ، رافعة اصواتها بالصياح والصفير والسباب .

ومثلما حدث بالامس على الجسر ، كان الجنود ، ولاسيما
القوزاق الذين يتقدمون على صهوات خيولهم ازواجا من الناس الذين
كانوا ينثالون من جميع الجهات ، يتبادلون معهم الشتائم ولواذع
الكلمات . وكان الصمت والبلبلة الواضحة يرينان على زمر رجال
البوليس المتجهمين الضخام الاجسام . وكان ايفان ايليتش يعرف
جيدا ذلك القلق الذى يسود فترات انتظار الأمر بالاشتباك فى
معركة ، حين يكون العدو المهاجم قاب قوسين او أدنى ، وكل
الدلائل تشير الى ما ينبغي القيام به ، ولكن صدور الامر يتأخر ،
وتستطيل الدقائق بشكل مؤلم . صلصل باب المحطة فجاة وانفتح ،
وطلع على السلم ضابط جندرمة شاحب الوجه برتبة عقيد يرتدى معطفا

قصيرا . انتصب بقامته ، وادار عينيه الوضيئتين فى الساحة ،
ومررهما على وجه ايفان ايليتش . . . ثم هبط الدرجات بخفة بين
القوزاق المتراجعين ليفسحوا الطريق له ، واخذ يقول شيئا لضابط
قوزاقى رافعا اليه لحيته ، اصغى الضابط القوزاقى اليه مرتميا على
السرج ، وعلى شفتيه ابتسامة هازئة . اشار العقيد برأسه صوب
جادة ستارى نيفسكى ، وسار على الثلج عبر الساحة بمشية
متوثبة . ركض نحوه ضابط شرطة احكم شد حزامه على بطنه
الضخم ، واهتزت يده تحت طاقيته عندما رفعها لتحيته . تعاظمت
صيحات الحشد المتقدم من ناحية جادة ستارى نيفسكى ، ثم اخذت
الأذن اخيرا تميز غناء . احس ايفان ايليتش بيد تمسك كمه
بقوة ، ورأى رجلا مهتاجا يرفع جسمه بالقرب منه حاسر الراس يمتد
على وجهه القذر خدش احمر .

– ايها الاخوان ، القوزاق !

صاح الرجل بصوت وحشى يهز النفس كالصوت الذى يطلق
قبيل القتل وسفك الدم فيغوص منه القلب ، وتغطى غشاوة الجنون على
العيون : «قتلونى ، يا اخوان . . . تدخلوا . . . انهم يقتلون !»

استدار القوزاق على سروجهم ، ونظروا اليه صامتين . وقد
شحبت وجوههم ، واتسعت حدقات عيونهم .

وفى تلك الاثناء لاحت فى جادة ستارى نيفسكى رؤوس سوداء
كثيفة ، هى رؤوس عمال حاضرة كولبينو الذين كانوا يتقدمون فى
الشارع . ورفرف علم احمر مبلل فى الريح . ابتعد خيالة الشرطة
عن مدخل فندق «سيفرنايا» ، وما هى الا لحظة حتى لمعت فى
ايديهم سيوف عريضة مستلة . ارتفع فى الحشد صياح ضار . ووقع
بصر ايفان ايليتش مرة اخرى على عقيد الجندرمة . انه يركض
ممسكا غلاف مسدسه بيد ، وملوحا للقوزاق بالاخرى .

تطايرت من حشد عمال حاضرة كولبينو قطع من الجليد
والحجارة ، باتجاه العقيد ، وخيالة الشرطة . تواثبت الخيول الصهباء
الدقيقة القوائم اكثر . وترددت طلقات واهنة من مسدسات ،
وارتفع دخان عند قاعدة النصب : لقد كان رجال الشرطة يطلقون
النار على عمال حاضرة كولبينو . وفى تلك اللحظة شب فى صف
القوزاق فرس اصهر افطس من افراس منطقة الدون ، على بعد عشر

خطوات من ايفان ايليتش . انحنى راكبه القوزاقى على رقبتـــه ، ولكزه ، وبعدة وثبات وصل به الى عقيد الجندرمة ، وقد استلّ سيفه اثناء جريه ، وضربه به ضربة قوية صافرة ، ثم عاد فرفع فرسه على رجليه الخلفيتين . وتحرك القوزاق كتلة واحدة نحـــو مكان القتل . شقت حشود الناس الحواجز وتدفقوا على الساحة . . . سمعت طلقات صادرة من مكان ما غطتهـــا صيحة جماعية تهتف : «هورا . . . هورا . .»

– ماذا تعمل هنا ، ياتليغين ؟

– اريد ان اسافر مهما يكن من شىء . ولا يهمنى اذا كان ذلك على قطار بضائع ، او على قاطرة . . .

– اقلع عن ذلك فالسفر مستحيل الآن ، ياصاحبى . انهـا الثورة . . .

كان المتحدث انتوشكا ارنولدوف وهو غير حليق نافر المظهر ، احمر الجفنين ، جاحظ العينين . وقد غمغم كالهاذى غارزا اصابعه فى طية معطف ايفان ايليتش :

– هل رأيت كيف قطعوا رأس عقيد الجندرمة ؟ . . تدحرج مثل كرة القدم . جمال ! . . انت ، ايها الابله ، لا تفهم . انها الثورة !

كان الرجلان واقفين فى ممر محطة القطار مضغوطين فى زحام الناس . وتابع انتوشكا كلامه :

– فى الصباح رفض الفوج الليتوانى وفوج فولينسكـــى اطلاق النار . . . وخرجت سرية من فوج بافلوفسكى الى الشارع ومعها سلاحها . . . والمدينة فى فوضى ، ولا احـد يفهم شيئا . . . والجنود فى جادة نيفسكى كِثار كالذباب ، يتسكعون ، ويخافـون الذهاب الى الثكنات . . .

٣٦

كانت داشا وكاتيا تسيران بخطى سريعة على طبقات الجمـد الرقيقة المتكسرة تحت اقدامها فى شارع مالايا نيكيتسكايا الباهت الاضاءة . كانتا ترتديان معطفين فرائيين ، وتلفان راسيهما بلفاعين

ازغبين . ارتفع فى السماء الباردة الضاربة الى الخضرة هلال مدبب الطرفين صاف . وترامـــى الى السمع نباح كلاب وراء بـــوابة . ضحكت داشا فى زغب لفاعها الرطب ، وهـــى تنصت الى تكسر الجليد .

– كاتيا ، لو ان احدا من الناس اخترع آلة ووضعها هنـا – ووضعت داشا يدها على صدرها – فانها ستسجل اشياء فريدة . وترنمت داشا بصوت خافت . فتناولت كاتيا يدها .

– دعينا نذهب ، هيا !

توقفت داشا ثانية بعد بضع خطوات .

– كاتيا ، اتعتقدين انها الثورة حقا ؟

من بعيد شع فى عيونهما مصباح كهربائى صغير موضوع فوق مدخل نادى الحقوقيين ، حيث دعت كتلة الكاديت ، تحت تـــأثير الشائعات الجنونية القادمة من بتروغراد ، الى اقامة اجتماع عام فى الساعة التاسعة والنصف مساء لتبادل الآراء ، وايجاد قاعـــدة مشتركة للعمل فى هذه الايام الحرجة . صعدت الشقيقتان السلم الى الطابق الثانى ركضا ، ودخلتا القاعة دون ان تخلعا معطفيهما ، بل اكتفتا بفك لفاعيهما . كانت القاعة غاصة بالناس تستمع بتوتر الى سيد بدين مورد الخدين ملتح يحرك يديه الكبيرتين حـركات لطيفة . كان هذا الرجل يقول بصوت جميل متوسط الجهارة :

– . . . الاحداث تتنامى بسرعة تدير الرأس . فى بتروغراد نقلت كل السلطة يوم امس الى الجنرال خابالوف الذى الصق فى انحـاء المدينة كلها هذا الاعلان : «فى الايام الاخيرة حدثت فى بتروغـــراد قلاقل مصحوبة بالعنف والاعتداء على حياة ضباط الجيش والشرطة . امنع كل تجمع فى الشوارع ، وانبه سكان بتروغراد الى اننى اكدت للقوات اللجوء الى السلاح عند الحاجة ، وعدم التوقف امام اى شىء فى سبيل اعادة النظام الى العاصمة . . .»

– جزارون !

رن صوت طالب جهير من جوف القاعة .

– . . . ان هذا الاعلان ، كما كان متوقعا ، قد جعل كأس الصبر تطفح . فانضم الى جـانب المنتفضين خمسة وعشرون الف جندى من حامية بتروغراد يمثلون مختلف اصناف السلاح . . .

وقبل ان ينهى كلامه ضجت القاعة بالتصفيق . وقفز بعض الرجال على مقاعدهم ، وهتفوا ، واوماوا بأيديهم ، وكانهم يوجهون الطعنات الى النظام القديم . نظر الخطيب الى القاعة الهادرة مبتسما ابتسامة عريضة ، ثم رفع ذراعه ، وتابع كلامه :

— وصلت قبل حين برقية تلفونية غاية فى الاهمية — وهنا دس يده فى جيب سترته ذات المربعات ، وبسط ورقة مطوية ، وقال : اليوم ارسل رودزيانكو رئيس مجلس دوما الدولة الى القيصر برقية تلفونية على الخط المباشر : «الوضع ينذر بالخطر . الفوضوية فى العاصمة . الحكومة مشلولة . النقل والتموين والوقود فى انهيار تام . الرصاص يُطلق فى الشواع بلا نظام . القوات تطلق النار بعضها على بعض احيانا . من الضرورى اسناد الوزارة الجديدة الى رجل يتمتع بثقة البلاد . لا يجوز الابطاء . كل ابطاء صنو الموت . ندعو الله الا يوقع المسؤولية على راس العاهل فى هذه الساعة الحرجة» .

انزل السيد ذو الخدين الموردين الورقة ، وادار عينيه البراقتين فى القاعة . لم يذكر الموسكوفيون مثل هذه المسرحية الخلابة . وتابع الخطيب كلامه بصوت ناعم منغّم :

— نحن الآن ، ياسادة ، على عتبة اعظم حدث موشك على الوقوع فى تاريخ بلادنا . ولربما فى هذه اللحظة تحقق هناك — ومد ذراعه مثل تمثال دانتون — مطمح العديد من الاجيال ، وا'خذ الثار لطيوف الديسمبريين المفجوعة . . .

تاوهت امراة ولم تتمالك نفسها .

— آه ، يا إلهى !

— ولربما ستندمج روسيا غدا فى جوقة اخوية فرحة تردد كلمة : الحرية ! . .

فرددت اصوات صارخة :

— عاشت الحرية ! . .

وهبط السيد فى مقعده ، ومرر ظاهر كفه على جبهته . نهض من طرف الطاولة رجل مديد القامة ذو شعر طويل كتانى اللون ، ووجه ضيق ، ولحية صهباء ذابلة . واخذ يتكلم بصوت فيه نبرة هزء دون ان ينظر الى احد .

— منذ لحظة سمعت بعض الرفاق يهتفون : عاشت الحرية . شيء صحيح . واى شيء يمكن ان يكون افضل من اعتقال نيقولاى الثانى فى موغيليف ، ومحاكمة الوزراء ، وطرد حكام الولايات ورجال الشرطة . . . ورفع راية الثورة الحمراء . . . انها بداية صحيحة . . . العملية الثورية ، حسب المعلومات المتوفرة ، قد بدأت بداية صحيحة وبطاقة حيوية . وفى هذه المرة ، على ما يبدو ، ستنجح . ولكن ها أنتم قد سمعتم السيد الفاضل الذى تحدث قبلى يقول كلاما جميلا جدا . فقد اعرب — ان لم تخنى اذنى — عن الرضى التام بالثورة الموشكة الحدوث ، وافترض انه سيندمج بروسيا كلها فى المستقبل القريب جدا فى جوقة اخوية واحدة . . .

اخرج الرجل ذو الشعر الكتانى منديلا ، ووضعه على فمه ، كمن يحاول ان يخفى ضحكة هازئة . الا ان وجنتيه تبقعتا ، وسعل ، ورفع كتفيه العظميتين . سال شخص وراء داشا التى كانت تشارك اختها فى مقعد واحد :

— من المتكلم ؟

همس احدهم فى الاجابة همسا سريعا :

— الرفيق كوزما . كان فى عام ١٩٠٥ عضوا فى سوفييت نواب العمال . قبل مدة قصيرة عاد من المنفى .

وتابع الرفيق كوزما كلامه :

— لوكنت فى مكان الخطيب السابق لتريثت قليلا فى ابداء الغبطة — وفجأة اكتسى وجهه الشمعى موجدة وحزما وهو يقول : ان اثنى عشر مليونا من الفلاحين قد اعدوا للقتال ، وهم ما يزالون فى الجبهات . . .وملايين من العمال يختنقون فى الاقبية ، ويقفون جياعا فى الطوابير امام حوانيت الطعام . فلعلكم تريدون ان تغنوا جوقة اخوية واقفين على ظهور العمال والفلاحين . . .

وصدرت فى القاعة هسهسة ، وصرخ صوت حانق : «هذا استفزاز !» هز السيد ذو الوجنتين المحمرتين كتفيه ، ومس الجرس . وواصل الرفيق كوزما كلامه :

— . . . القى الامبرياليون اوربا فى حرب مريعة ، واعتبرتها الطبقات البرجوازية عاليها وسافلها حربا مقدسة — تلك الحرب من اجل الاسواق العالمية ، من اجل انتصار منقطع النظير للراسمال . . .

اما الخونة ، الاشتراكيون-الديموقراطيون فقد ايدوا السادة متواطئين معهم ، واقروا معهم بأن الحرب وطنية ومقدسة . وسيق الفلاحون والعمال الى المجزرة . . . وانا اريد ان اسأل : من الذى رفع صوته فى هذه الايام الدموية ؟

– ماذا يقول ؟ . . ! اجعلوه يخرس !

ارتفعت اصوات حانقة ، وعلا الضجيج ونهض بعض الناس قافزين من اماكنهم مؤشرين بايديهم .

– . . . الساعة دقت . . . ولهب الثورة سيمتد ، لا محالة ، الى صميم الفلاحين والعمال . . .

وبعد ذلك تعذر تماما ان تلتقط الاذن كلامه ، بسبب الصخب فى القاعة . هرع بعض الاشخاص المرتدين ستر النهار الى الطاولة . ارتد الرفيق كوزما عن المنصة ، وتوارى وراء البـاب . واحتلت مكانه خبيرة مشهورة فى تربية الاطفال .

– ان الكلمة المثيرة للاستياء التى القاها الخطيب السابق . . .

وفى تلك اللحظة همس شخص على مقربة شديدة مـن اذن داشا بصوت منفعل رقيق :

– مرحبا ، يا عزيزتى . . .

نهضت داشا مسرعة حتى دون ان تجد الوقت لتلتفت ، فرأت ايفان ايليتش واقفا عند الباب . نظرت اليه – الى رجلها ، فبدا لها اجمل رجل فى العالم . اما هو فقد اذهله مرة اخرى ، كما حدث له مرارا من قبل ، ان يرى داشا مختلفة تماما عما كان يتصورها فى ذهنه فى غيابها ، ولكنها اكثر جمالا بما لا حد له : شاعت حمـرة حارة فى خديها ، وبدت عيناها الرماديتان الزرقاوان مثل بحيرتين لا قرار لهما . كانت صورتها كاملة ، ولا ينقصها شيء . ردت داشا التحية بصوت خافت ، وتناولت يده ، وخرج الاثنان الى الشارع .

توقفت داشا فى الشارع ورنت الى ايفان ايليتش مبتسمة . ثم تنهدت ، ورفعت ذراعيها الى كتفيه ، وقبلته من شفتيه . وفاحت منها الفتنة الانثوية لعطر فيه بعض المرارة . امسكت داشا يـده ثانية وهى صامتة ، وسار الاثنان على قشرات الجليد المخشخشة ، والملتمعة بضوء الهلال المتدلى منخفضا هناك ، فى اعماق الشارع .

– آه ، كم احبك ، يا ايفان ! كم انتظرتك . . .

– لم استطع القدوم ، انت تعرفين . . .

– لا تغضب اذا كنت قد كتبت لك رسائل سيئة . فانا لا احسن الكتابة .

توقف ايفان ايليتش ، وحدق فى وجهها المرفوع اليه ، الباسم بصمت . كان المنديل المزغب يضفى عليه مسحة خاصة من الحلاوة والبساطة ، ويجعل الحاجبين المخططين تحته اكثر اسودادا . جذبها ايفان ايليتش اليه برفق ، فالتصقت به منقلة قدميها . قبلها مرة اخرى . وعادا يسيران .

– هل ستمكث طويلا ، يا ايفان ؟

– لا اعرف . هذه الاحداث . . .

– نعم ، انها الثورة .

– تصورى ! اننى جئت على قاطرة . . .

– اتعرف ، يا ايفان ان . . .

وسارت معه على خطو واحد ناظرة الى طرفى حذائيها .

– ماذا ؟

– ساذهب هذه المرة معك الى بيتك . . .

لم يرد ايفان ايليتش عليها . ولم تشعـــر داشا الا بأنه يحاول ان يملأ صدره بالهواء عدة مرات . واحست بالحنان والاشفـــاق عليه .

٣٧

كان اليوم التالى رائعا لأنه اثبت مفهوم نسبية الزمن فقد نقلت العربة ايفان ايليتش من فندقـــه فى شارع تفيرسكايا الى شارع اربات بحوالى عام ونصف عـــام . وقد قال الحوذى : «لا ، ياحضرة المحترم فات ذلك الزمان الذى تستطيع ان تستأجر فيـــه عربة بنصف روبل . فى بتروغراد كسب الناس حريتهم وسنفعـــل ذلك فى موسكو فى القريب العاجل . انظر الى ذلك الشرطى الواقف هناك . اود لو اسوق العربة عليه ، والهب وجهه بسوطى . ابـن الكلبة ذاك . انتظر ، يا محترم ، وسنصفى حسابنا مع الجميع» .

استقبلت داشا ايفان ايليتش عند باب غرفة الطعام .

كانت فى روبها البيتى ، وشعرها الاشقر قد صُفّ على عجل ، وعبق الماء الطازج يفوح منها . ودق جرس الزمن ، وتوقف الزمن . وامتلأ كله بكلمات داشا ، وضحكها ، وشعرها الناعم الخفيف المشع فى شمس الصباح . وكان ايفان ايليتش يحس بالاضطراب حتى حين كانت داشا تنتقل الى الطرف الآخر من المائدة . فتحت داشا باب دولاب الاوانى ، ورفعت ذراعيها ، وانحسر كُمّا روبها العريضان . وفكر ايفان ايليتش مع نفسه بان من المستحيل ان يكون للناس مثل هاتين الذراعين ، ولكن الأثرين الابيضين للتطعيم ضد الجدرى فوق المرفق كانا يؤكدان وحدهما بان هاتين الذارعين انسانيتان على الرغم من ذلك . تناولت داشا قدحا ، وادارت راسها الاشقر الشعر ، وقالت شيئا مدهشا ، وضحكت .

جعلت ايفان ايليتش يشرب عدة اقداح من القهوة . كانت تنطق بكلمات ، وايفان ايليتش ينطق باخرى ، ولكن كلمات الناس ، على ما يبدو ، لا يكون لها معنى الا فى الزمن المتحرك بشكل طبيعى . اما اليوم فلم تكن للكمات معان . كانت يكاترينا دميتربيفنا جالسة معهما فى غرفة الطعام تسمعهما يثرثران بالتوافه عن القهوة ، وعن محفظة جلدية لادوات الزينة ، وعن راس قُطع فى بتروغراد ، وعن شعر داشا الذى يبدو اصهب فى الشمس الساطعة – ويالعجب ! وهما فى ذلك ما بين دهشة شديدة ، ونسيان سريع للموضوع .

جلبت الخادمة الصحف . نشرت يكاترينا دميتربيفنا «روسكيه فيدوموستى» ، وتاوهت واخذت تتلو بصوت مسموع بيان الامبراطور عن حل دوما الدولة . اندهشت داشا وتليغين من هذا الخبر اندهاشا كبيرا . الا ان يكاترنيا دميتربيفنا بعد ذلك ، واصلت قراءتها «روسكيه فيدوموستى» فى سرها . قالت داشا لتليغين : «تعال الى غرفتى» وقادته عبر دهليز مظلم صغير الى غرفتها . دخلت داشا الغرفة قبله ، وقالت بعجالة : «انتظر لحظة ، لا تنظر» ، واخفت شيئا ابيض فى جرار الخزانة .

كان ايفان ايليتش يرى غرفة داشا لاول مرة . يرى منضدة الزينة باشيائها العديدة الغريبة عليه ، والسرير الابيض الضيق بوسادتين كبيرة وصغيرة . وكانت داشا تتوسد الاولى فى نومها ،

وترتفق الثانية حين تهوّم ، والمقعد الوثير عند النافذة ، وقد اُلقى على ظهره لفاح مزغب .

طلبت داشا الى تليغين ان يجلس فى ذلك المقعد ، وقربت منه كرسيا بلا ظهر ، وجلست عليه قبالته مسندة مرفقيها على ركبتيها ، موسدة حنكها على يدها ، وحدقت فى وجهه دون ان يرف لها جفن ، طالبة منه ان يقول لها كم يحبها . دق جرس الزمن مرة اخرى .

قال تليغين :

– داشا ، لو وهبونى كل ماهو موجود ، كل الارض لما اسعدنى ذلك . هل تفهمين ؟ – فهزت داشا رأسها . – ما الحاجة الىّ اذا كنت وحيدا فى الدنيا ؟ صحيح ؟ .. وما نفع نفسى لنفسى ؟ – هزت داشا رأسها . – ولاى شىء آكل ، واسير ، وانام ؟ وما نفع هاتين اليدين ، وهاتين القدمين ؟ .. وماذا وراء امتلاكى لثروات اسطورية ؟ .. ولكن أتتصورين اية وحشة اشعر بها وانا وحيد ؟ – هزت داشا رأسها . – ولكن الآن ، حين تجلسين هذه الجلسة بقربى . . . انسى وجود نفسى . . . اشعر فقط بوجودك ، بالسعادة . فانت كل شىء . انظر اليك فيدور رأسى . امن المعقول انك تتنفسين ، وانك حية ، وانك لى . داشا ، اتفهمين شيئا مما اقوله ؟

قالت داشا :

– اتذكر جلوسنا على ظهر السفينة ، وقد هب النسيم ، وتلالأ النبيذ فى الاقداح ، وقد احسست انذاك باننا نمخر نحو السعادة . . .

– وهل تذكرين الظلال الزرق هناك ؟

هزت داشا رأسها ، وخيل اليها على الفور بانها هى ايضا تتذكر ظلالا زرقا رائعة . وطافت فى ذاكرتها طيور النورس التى كانت تطير وراء السفينة ، والشطئان الواطئة ، والدرب المتلالىء الذى القته الشمس بعيدا على الماء ، والذى بدا لها كان نهايته الاخرى تلتقى ببحر السعادة الازرق المتالق . بل وتذكرت داشا الثوب الذى كانت ترتديه ... الا كم من سنين طويلة قد مرت منذ ذلك الحين . . .

في المساء، عادت يكاترينا دميترييفنا راكضة من نادى الحقوقيين وهى منفعلة متهللة ، وروت قائلة :

– فى بروغراد انتقلت كل السلطة الى لجنة الدوما . واعتقل الوزراء ، ولكن شائعات رهيبة تسرى بين الناس تقول ان القيصر غادر مقر القيادة ، وان الجنرال ايفانوف يزحـف على بتروغراد بفيلق كامل ليضع حدا للقلاقل . . . اما هنا فقد حدد يوم غـد لاقتحام الكرملين والترسانة . . . يا ايفان ايليتش ، غدا سنأتى ، انا وداشا ، اليك فى الصباح لنشاهد الثورة . . .

٣٨

كان فى وسع المشاهد ان يرى من نافذة الفندق سيل الناس الاسود يتقدم ببطء فى شارع تفيرسكايا الضيـق ، وتتحرك الرؤوس ، وطاقيات كثيرة العدد ، وقبعات ، ومناديل رأس ، ورقع الوجوه الصفراء . والفضوليون يطلون من جميع النوافذ ، والاولاد على السطوح .

وكانت يكاترينا دميترييفنا واقفة عند النافذة وقد رفعت برقعها حتى حاجبيها . كانت تمسك يد تليغين مرة ، ويد داشا اخرى وتقول :

– ما ارهب ذلك ! . . ما ارهب ذلك !

فكان ايفان ايليتش يقول :

– يكاترينا دميترييفنا ، اؤكد لك ان الشعور السائـد فى المدينة مسالم للغاية . قبل مجيئكما هرعت الى الكريملين ، فعلمت ان المفاوضات جارية هناك . والظاهر انهم سيسلمون الترسانة دون اطلاق رصاصة . . .

– ولكن لماذا هم ذاهبون الى هناك ؟ . . انظر اى عدد ضخم من الناس . . ماذا يريدون ان يفعلوا ؟ . .

كانت داشا تنظر الى سيل الرؤوس المتمـوج والى خطوط السطوح والابراج . كان الصبـاح باهت الضـوء ، خفيف البرد . وكان ثمـة سرب من غربان الزروع يحوم

بعيدا فوق القباب الذهبية لكنائس الكريملين وفوق النسـور المقوسة الارجل فى اعلى الابراج المدببة .

وخيل لداشا ان انهارا عظيمة قد اكتسحت الجليد ، وطفحت على الارض وانها وعزيزها محمولان بهذا التيار ، وليس عليها الآن الا ان تمسك يده بقوة . وخفق قلبها قلقا وفرحا ، مثل قلب طائر يحلق فى اعالى الجو .

قالت كاتيا :

– اريد ان ارى كل شىء ، لنخرج الى الشارع .

كانت الاعلام الحمراء تزين بناية دوما المدينة الاجرية الداكنة اللون – مقر قيادة الثورة – ذات الاعمدة الشبيهـة بالقنانى ، والدرابزينات العديدة ، والشرفات والابـراج . وكانت شرائط القماش الأحمر تلف الاعمدة ، وتتدلى فوق افريز المدخل الرئيسى . وامام المدخل اربعة مدافع رمادية على عجلات عالية رابضة عـلى الرصيف المتجمد . وعلى المدخل جلس جنود الرشاشات متكورين على انفسهم ، وقد زينوا كتافياتهم باشرطة حمراء . وكانت جماهير غفيرة من الناس تنظر بتوجس مرح الى الاعلام الحمراء ، والى نوافذ الدوما المتربة السوداء . حتى اذا ظهر فى الشرفة الصغيرةفوق مدخل البناية شخص صغير الجرم بادى الانفعال ، ولوح بيديه ، وصرخ بشىء غير مسموع . ارتفع من الحشد هدير الفرح .

وكان الناس اذا ملأوا ابصارهم بالنظر الى الاعلام والمدافع انصرفوا سائرين على الثلج الذائب قليلا والقذر عبر اطواق كنيسة ايفرسكايا العميقة خارجين الى الساحة الحمراء ، حيث كانت الوحدات العسكرية الثائرة تجرى مفاوضات عند بوابتى سباسكيـه ونيكولسكيه مع المنتدبين من الفوج الاحتياطى المرابط والمتحصن فى الكريملين .

دفعت الجماهير كاتيا وداشا وتليغين بسيلها الى مدخل الدوما تماما . كان الصباح يترامى متعاليا من شارع تفيرسكايـا حتى ملأ ارجاء الساحة .

– يارفاق ، تنحوا . . . يارفاق راعوا النظام !

ارتفعت بذلك اصوات شابة منفعلة . انشق حشد الناس على مضض ، فاندفع خلاله الى مدخل الدوما اربعة طلاب يلوحون ببنادقهم ، وشابة مليحة الوجه شعثاء الشعر فى يدها سيف . كانوا يسوقون عشرة معتقلين من رجال الشرطة ضخام مشوربين مطرقى الرؤوس عابسين شدت ايديهم وراء ظهورهم . سار فى مقدمتهم ضابط شرطة له رأس حليق مزرق حاسر ، والدم قد تخثر مسودا عند صدغه . مرر عينيه الصهباوين اللامعتين بسرعة على وجوه الحشد المستهزئة . كانت كتافيتا معطفه قد انتزعتا مع قطعة منه .

وتردد اصوات من الحشد :

— جاء ماكان ينتظركم ، يا اصحاب ! لعبتم علينا ، وكفى .

— وحكمتم حكم القياصرة . . .

— عترة ملعونة ! . . .

— امسكوهم ، واجعلوهم يذوقون العذاب . . .

— يا اولاد ، هيا ! . .

صاح الطلبة مبحوحي الاصوات :

— يارفاق ، يارفاق . اتركوهم يمرون . راعوا النظام الثورى !

وصعدوا الى مدخل الدوما راكضين دافعين رجال الشرطة ، وغيبتهم الابواب . وعندئذ تدافع وراءهم بعض الاشخاص ، ومن بينهم كاتيا وداشا وتليغين .

كان بعض جنود الرشاشات يقرفصون عند رشاشاتهم على الارض الرطبة فى دهليز عار عالى السقف باهت الاضاءة . وكان احد الطلبة — وهو فتى ممتلىء الخدين صعقه الصياح والتعب على مايبدو — يصيح بكل داخل .

— لا اريد ان افهم شيئا ! اعطنى الترخيص بالدخول ! . .

وكان بعض الداخلين يبرزون له تراخيصهم ، والبعض الاخر يكتفون بهز اذرعهم عليه ، ويرتقون السلم العريض الى الطابق الثانى ، حيث كان الجنود المتربون النعسى الصموتون مستلقين او قابعين قرب جدران الممرات العريضة غير تاركين بنادقهم . كان بعضهم يمضغ الخبز ، والبعض الآخر يشخر ، وسيقانهم الملفوفة

بلفائفها منطوية تحتهم . وكان المتفرجون يمرون متسكعين ويقراون الاعلانات الغريبة المدبسة على الابواب ويتطلعون الى المفوضين المبحوحين الراكضين من حجرة الى اخرى ، المهتاجين الى آخر حدود الطاقة الانسانية .

امتلأ بصر كاتيا وداشا وتليغين بكل هذه الغرائب ، وشقوا طريقهم الى قاعة ذات علو مزدوج تغطى نوافذها ستائر ارجوانية حائلة اللون ، وتصطف فيها المساطب المبطنة بالارجوان على شكل انصاف دوائر . وكان على الجدار الأمامى اطاران مذهبان فارغان كانا يضمان من قبل صورتى القيصر والقيصرة ويبدوان الآن مثل بقعتين سوداوين ضخمتين . وامام الاطارين تمثال مرمرى للامبراطورة يكاترينا فى روبها البرونزى المتباعد الطرفين . تبتسم منطلقة الاسارير مداهنة شعبها .

وعلى مساطب القاعة جلس اناس مرهقون يسندون رؤوسهم على ايديهم وقد بدت وجوههم مسودة غير حليقة . وكان بعض الرجال نائمين دافنين وجوههم فى لوحة الكتابة امامهم ، والبعض الآخر ينزعون القشرة عن قطع السجق فى غير ما رغبة ، ويأكلون الخبز . وفى الاسفل ، امام تمثال يكاترينا المبتسمة ، جلس شبان ممتقعو الوجوه فى قمصان سود الى منضدة طويلة فرش عليها غطاء من المخمل الاخضر المذهب الحواشى . وبين هؤلاء رجل اصهب اللحية طويل الشعر . . . قالت كاتيا :

— انظرى يا داشا . هذا هو الرفيق كوزما وراء المنضدة .

وفى تلك اللحظة تقدمت من الرفيق كوزما فتاة قصيرة الشعر ، مدببة الأنف ، واخذت تهمس بشىء . اصغى الرجل دون ان يلتفت ثم نهض وقال :

— اعلن غوتشكوف رئيس البلدية للمرة الثانية انه لن يوزع الاسلحة على العمال . اقترح التصويت بدون مناقشة على احتجاج ضد عمل اللجنة الثورية .

واخيرا استطاع تليغين ان يعرف (بعد ان استجوب طالبا قصيرا مستغرقا فى تدخين سيكارة) ان اجتماع سوفييت نواب العمال مستمر هنا فى قاعة يكاترينينسكى هذه لليوم الثانى بلا انقطاع .

فى فترة الغداء رأى جنود الفوج الاحتياطى الموجودون فى

الكريملين دخـــان مطابخ الميدان المتنقلـــة فى الساحة الحمراء فاستسلموا ، وفتحوا البوابة . وعم الصياح الساحة ، وارتفعت القبعات فى الهواء . وارتقى جندى صغير لوبنويه ميستو* الموضع الذى قتل فيه دميترى الدعى** فى زمانه ، فانطرح عاريا تماما ، وقناع خروف على وجهه ، ومزمار البهلول على بطنه ، ذلك المكان الذى كان يعلن فيه تتويج القياصرة وتنحيتهم عن العرش ، وتذاع فيه جميع حريات الشعب الروسى وقيوده ، ارتقى تلك المنصة الواطئة التى كان الارقطيون يتناثر عليها احيانا كثيرة ، ثم يعود الدم المسفوك فيرويها . وكان هذا الجندى الضئيل يرتدى معطفا صلبا ، وبدا يتكلم عن شىء منحنيا للناس ، دافعا طاقيته العالية الى اذنيه بكلتا يديه ، ولم يتبين احد شيئا من كلامه لشدة الصخب.

وكان الجندى ضئيلا جدا ، غربل فى آخر موجة للتجنيد من احدى الاماكن النائية ، ومع ذلك فان سيدة كانت تضع على راسها قبعة بريش مائلة الى جانب قد شقت طريقها اليه ، وقبلته . وبعد ذلك انزله الناس من «لوبنويه ميستو» ، ورفعوه على اذرعهم ، وحملوه هاتفين .

وفى تلك الاثناء صعد شاب من المحتشدين على تمثال الجنرال سكوبليف مقابل دار الحاكم العام فى شارع تفيرسكايا ، وشد قطعة من القماش الاحمر على سيفه . وتعالى الهتاف له . وانسل بعض الاشخاص الغامضين الى قسم البوليس السرى من الزقاق وسمع من هناك صوت زجاج يتكسر ، ثم طلع دخان . وهتف اناس : «هورا» . وعند نصب بوشكين فى بولفار تفير سكوى تحدثت كاتبة مشهورة والدمع يسح من مآقيها عن فجر الحياة الجديدة ، وبعد ذلك وضعت بمساعدة طالب علما احمر صغيرا على يد بوشكين الواقف فى لحظة استغـــراق . وهتف الناس : «هورا» . وكانت المدينة كلهـــا

---

* منصة حجرية مستديرة الشكل كانت تعلن من فوقها مراسيم القياصرة واحكام الاعدام . (المترجم) .

** المدعى الثالث على عرش روسيا ، وقد تسمى باسم دميترى ابن القيصر ايفان الرابع (الرهيب) واعدم سنة ١٦١٣ فى موسكو فى «لوبنويه ميستو» . (المترجم) .

كالسكرى طيلة ذلك اليوم . ولم يعد احد الى بيته حتى ساعة متأخرة من الليل ، وقد تجمهـر النـــاس فى تجمعـات ، وراحوا يتحدثون ، ويبكون من الفرح ، ويتعانقون ، وينتظرون برقيات . فان روح اهالى المدينة تطغى بعد ثلاثة اعوام من الجزع والكراهية والدم .

عادت كاتيـا وداشا وتليغين الى البيت عند هبوط الظلام فعرفوا ان الخادمـــة ليزا قد خرجت الى بولفار بريتشستنسكى لحضور اجتماع ، وان الطباخة قد حبست نفسها فى المطبخ ، وانها تبكى وتطلق صرخات خافتة . افلحت كاتيا بعد لأى فى اجبارها على فتح الباب :

– ماذا حدث لك ، يامارفوشا ؟

– قـ . . . . تــ . . . لوا . . . قيصرنا .

قالت وغطت بيدها فمها الممتلىء ذا الشفتين المنتفختين من البكاء . وكانت رائحة الكحول تفوح منها .

قالت كاتيا منزعجة :

– انت تقولين هراء . ان احدا لم يقتله .

وضعت سخان الشاى على موقد الغاز ، وذهبت لتعد المائدة . استلقت داشا على الاريكة فى غرفة الجلوس وجلس تليغين عند قدميها . قالت داشا :

– ايفان ، ياعزيزى ، اذا اخذتنى غفوة دون ان ادرى ، فايقظنى حين يعد الشاى فانا مشوقة اليه جدا .

وانقلبت ، ووضعت كفيها تحت خدها ، وقالت بصوت ادركه النعاس :

– احبك كثيرا .

فى الشفق كان اللفاح الذى كان تلتف به داشا يلوح ابيض. وكان تنفسها غير مسموع . جلس ايفان بلا حراك ، وقد انفعم قلبه . ظهر ضوء فى شق الباب فى نهاية الغرفة ، ثم انفتح الباب ، ودخلت كاتيا ، وجلست الى جانب ايفان ايليتش على مسند الاريكة وطوقت ركبتيها . وبعد برهة من الصمت سألت بصوت خفيض :

– غفت داشا ؟

– طلبت ان توقظ عند تهيئة الشاى .

– ومارفوشا تبكى فى المطبخ لأن القيصر قتـــــل . ماذا سيحصل ، يا ايفان ايليتش ؟ . . يخامرنى شعور بان جميع السدود قد خرقت . . . وقلبى يوجعنى خوفا على نيقولاى ايفانوفيتش . . . ارجو ، ياعزيزى ، ان ترسل له برقية فى الصباح الباكر غدا . . . قل لى متى تنويان – انت وداشا – السفر الى بتروغراد ؟

لم يجب ايفان ايليتش . ادارت كاتيا له راسها وتفرست فى وجهه بعينيها الواسعتين كعينى داشا تماما ، سوى انهما عينا امراة جديتان ، وابتسمت ، وجذبت ايفان ايليتش ، وقبلته من جبينه .

فى صباح اليوم التالى خرج الناس جميعا الى الشارع . سارت الشاحنات المملوءة بالجنود فى شارع تفيرسكايا وسط زحـــام الناس ، والهتافات المتواصلـــة ، فكان الجنـــود مسلحين بالحراب والسيوف . واعتلى الصبيان متون المدافع المقرقعـــة ووقفت على اكوام الثلج القذرة وعلى الارصفة لحراسة النظام فتيات فى ريعان الشباب شاهرات السيوف متوترات الوجوه وطلاب مدججون بالسلاح لا يعرفون الرحمة . انهم الميلشيـا المتطوعة . صعد اصحاب الحوانيت على السلالم وانزلوا النسور الامبراطورية من لافتاتهم . وسارت فى شارع المدينة فتيات سقيمات المظهر – هن عاملات من معمل التبغ يحملن صورة ليف تولستوى الذى كان ينظر بجهامة من تحت حاجبيه المعقودين الى كل هذه الغرائب . وبدا وكان من المستحيل ان تكون بعد الان حرب او بغضاء ، ولم يبق الا ان ترفع الراية الحمراء على احد ابراج الاجراس العاليـــة حتى يدرك العالم اجمع اننا جميعا اخوة ، وان القوة الوحيدة فى الدنيـــا هى الفرح والحرية والحب ، والحياة . . .

وحين حملت البرقيات النبـــا الصاعق عن تنحيـــة القيصر وانتقال المُلك الى كبير الامراء ميخائيل ، وعن رفضه للعرش القيصرى بدوره ، لم يدهش احد كثيرا ، فقد بدا وكان تلك الأيام حبلى بأعظم من هذه العجائب .

لمعت نجمـة فى السماء الشفافـة اللانهائيـــة العمق ، فوق خطوط السطوح غير المستقيمة ، والشفق البرتقالى . ولاحت اغصان الزيزفون العارية سوداء ساكنة تلبدت الظلمة تحتها تماما ،

وتجمدت البرك على الرصيف وراحت تتكسر تحت الاقدام . توقفت داشا ، ودون ان تفك يديها المتشابكتين اللتين طوقت بهما يد ايفان ايليتش مدت بصرها عبر السياج الواطئ فى الضوء الباهت فى النافذة الصغيرة العميقة فى كنيسة القديس نيقولا .

كانت الكنيســة وفناؤهـــا فى الظل تحت اشجار الزيزفون . ترامى من بعيد صوت انصفاق باب وسار فى الفناء رجل قصير فى معطف طويل يصل الى الارض ، وقبعة معكوفة الحافة . وكان الجليد يتكسر تحت حذائه اللبـادى ، وترامت صلصلة المفاتيح . اخذ الرجل يرتقى برج الجرس على مهل . همست داشا :

– ذهب القندلفت ليدق الجرس .

ورفعت داشا راسها . كان ألَق الغروب يرتمى على ذهب القبة الصغيرة على برج الكنيسة .

دق الجرس الذى يدعو الناس منذ ثلاثمائـة عام الى سكينـة النفس قبل النوم . وقفزت الى ذاكرة ايفان ايليتش فى الحال تلك الكنيسة الصغيرة فى الطريق ، والمراة التى كانت تبكى بصمت على عتبتها وهى بردائها الابيض ، والطفل الميت على ركبتيها . ضغط ايفان ايليتش بكوعه على يد داشا ضغطة قوية . نظرت داشا اليه نظرة تساؤل . وسالته بهمس سريع :

– اتريد ؟ لنذهب . . .

ابتسم ايفان ايليتش ابتسامة عريضة ، فعبست داشـــا وضربت الارض بحذائها .

– ليس فى الامر ما يضحك حين تسير امراة ويدها بيد الشخص الذى تحبه اكثر من اى شىء آخـــر على الارض ، وتبصر ضوءا فى نافذة فيدخلان الكنيسة ، ويعقدان قرانهما . . .

وتناولت داشا يد ايفان ايليتش ثانية ، وسالت :

– هل انت فاهمى ؟

٣٩

– ايها المواطنون ، جنود الجيش الروسى الحـــر منذ الآن فصاعدا . لقد حظيت بشرف نادر ، هو ان اهنئكم بيوم مجيد : ان قيود العبودية قد حطمت ، وقام الشعب الروسى خلال ثلاثة ايام

بأعظم ثورة فى التاريخ دون اراقة قطرة من الدماء . فقد خلع القيصر المتوج عن العرش ، واعتقل الوزراء القيصريون . وتنازل ميخائيل ولى العهد من تلقاء نفسه عن عبء العرش الثقيل . ومنذ اليوم انتقلت السلطة بكامل هيئتها الى الشعب . واصبحت على راس الدولة حكومة مؤقتة لكى تجرى الانتخابات الى الجمعية التاسيسية لعموم روسيا فى اقرب وقت مستطاع ، على اساس التصويت السرى المباشر المتساوى العام . . . فلنهتف منذ اليوم : عاشت الثورة الروسية ، عاشت الجمعية التاسيسية ، عاشت الحكومة المؤقتة ! . . .

تعالى هتاف طويل من آلاف الجنود المحتشدين . اخرج نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف منديلا كبيرا كاكى اللون من جيب سترته الشموا ، ومسح رقبته ووجهه ولحيته . كان يتكلم وهو واقف على منصة مصنوعة بارتجال من الواح خشبية ، يضطر الصاعد اليها الى التسلق على عوارض متقاطعة . وكان يقف وراء ظهره آمر الكتيبة تيتكين الذى رقى قبل حين الى رتبة مقدم ، وقد ارتسم الانتباه المتوتر على وجهه المسفوع بلحيته القصيرة وانفه الممتلئ . وحين تعالى الهتاف رفع يده الى طرف طاقيته بتحية ساهمة . وكان زهاء الفى جندى يقفون امام المنصة فى الحقل المنبسط المرقش ببقع سوداء من الارض والثلج المتسخ . كانوا يقفون فاغرى الافواه معتمرين بالخوذ الحديدية لابسين المعاطف المتجعدة بلا احزمة ، وبلا سلاح ، يصغون الى الكلمات المذهلة الذى كان ينطق بها سيد احمر كالديك الحبشى . وفى المدى البعيد كانت مداخن قرية محروقة تلوح بارزة من خلال الضباب الرمادى . ووراء القرية كانت تبدأ مواقع الالمان .

— ايها الجنود !

تابع نيقولاى ايفانوفيتش خطابه ، وقد مد الى الامام يده منفرجة الاصابع ، وتدفق الدم الى رقبته :

— بالامس فقط كنتم اناسا من درجة واطئة ، قطيعا اعجم كانت القيادة العليا القيصرية ترسله الى المذبحة . ولم يكونوا يسألونكم ما الذى يجب ان تموتوا من اجله . كانوا يجلدونكم على اقل ذنب ، ويرمونكم بالرصاص دون محكمة . (سعل المقدم

تيتكين ، ورفع قدما ووضع اخرى ، الا انه صمت ، وانزل راسه ثانية ، وعاد الى اصغائه) . لقد عينتنى الحكومة المؤقتة مفوضا لجيوش الجبهة الغربية – وهنا شد نيقولاى ايفانوفيتش على اصابعه كمن يمسك بعنان – واصرح لكم انه منذ اليوم لا توجد رتب واطئة ، ولا القاب . وانتم الجنود ، منذ اليوم ، مواطنون متساوون للدولة الروسية ولا يوجد الان فرق بين الجنود وقائد الجيش . وقد الغيت القاب صاحب السيادة ، صاحب المعالى ، صاحب الفخامة . منذ اليوم ستقولون «مرحبا ايها السيد الجنرال» و«لا ، ايها السيد الجنرال» و«نعم ، ايها السيد الجنرال» . وصيغ الجواب المهينة مثل «بالأمر والخدمة ، يا صاحب السيادة» قد الغيت كما الغى اداء الجندى التحية العسكرية لكل ضابط مهما تكن رتبته . وفى امكانكم ان تصافحوا الجنرال اذا شئتم ذلك . . .

ها – ها – ها –

سرت هذه الوهوهة مرحة فى حشد الجنود . وابتسم تيتكين ايضا ، ورفت رموشه خوفا .

— واخيرا ناتى الى الشىء الأهم : ايها الجنود ، من قبل كانت الحكومة القيصرية هى التى تخوض الحرب ، ومنذ اليوم سيخوضها الشعب ، انتم انفسكم . ولهذا تقترح الحكومة المؤقتة عليكم تشكيل لجان الجنود فى جميع الجيوش – لجان السرايا والكتائب والافواج صعودا حتى لجان الجيوش . . . ارسلوا الى هذه اللجان الرفاق الذين تثقون بهم ! . . ومنذ اليوم سيتحرك اصبع الجندى على الخارطة العسكرية الى جانب قلم القائد الاعلى . . . ايها الجنود ، اهنئكم بمكسب الثورة الرئيسى ! . .

وضجت الهتافات فى الحقل مرة اخرى . وقف تيتكين بهيئة استعداد ، وادى التحية العسكرية . واكتسى وجهه لونا رماديا . واخذت الصيحات ترتفع من الجنود المحتشدين :

— هل سنعقد الصلح مع الالمان عن قريب ؟

— كم سيخصصون من الصابون للفرد الواحد ؟

— وماذا بخصوص الاجازات ؟ ماهى التعليمات ؟

— ايها السيد المفوض . ماذا سيكون عندنا الآن ؟ هل سننتخب ملكا ؟ ومَن سيحارب ؟

ولكى يرد على الاسئلة على نحو افضل نزل نيقولاى ايفانوفيتش من المنصة ، فاحاطه الجنود الهتاجون فى الحال . اسند المقدم تيتكين مرفقه على درابزين المنصة ، وراقب راس المفوض الحربى الحليق الحسير وقفاه الممتلئ وهو يتحرك وسط الخوذ الحديدية ، ويدور ويبتعد . امسك جندى احمر الشعر يلوح عليه المرح والغضب يضع معطفه على كتفيه (كان تيتكين يعرفه جيدا ، من سرية المخابرة) امسك نيقولاى ايفانوفيتش من حزام سترته ، وراح يسائله مطوفا بصره فيما حوله :

– ايها السيد المفوض الحربى ، انت تحدثت لنا حديثا مشوقا ، ونحن اصغينا اليه بشوق ... والآن اجبنى على هذا السؤال .

ضج الجنود فرحين ، واشتد تزاحمهم . تعبس المقدم تيتكين ، ونزل من المنصة واجما .

قال الجندى وهو يكاد يمس انف نيقولاى ايفانوفيتش باظفره الاسود :

– اطرح عليك هذا السؤال . تلقيت من قريتى رسالة تخبرنى بان البقرة التى كانت فى بيتى قد فطست ، وانا لا املك حصانا ، زوجتى راحت تطوف فى الارض مع اولادنا تستجدى الناس كسر الخبز ... اريد ان اسأل : ايحق لك الآن ان ترمينى بالرصاص اذا حاولت الهرب ؟

– اذا كانت سلامتك الشخصية اغلى عندك من الحرية ، ففى وسعك ان تخونها ، تخونها كيهوذا . عندئذ ستقول روسيا لك فى وجهك : لا تستحق ان تكون جنديا فى الجيش الثورى ... اذهب الى بيتك !

صرخ نيقولاى ايفانوفيتش بحدة ، فقال الجندى :

– لا تصرخ على !

– ومن انت لتصرخ علينا !

– ايها الجنود – ورفع نيقولاى ايفانوفيتش جسمه على اطراف اصابعه – هنا يجرى سوء تفاهم ... ان الوصية الاولى للثورة هى الاخلاص لحلفائنا ... وعلى الجيش الروسى الثورى الحر ان يهاجم بقوة جديدة عدو الحرية الالد ، المانيا الامبريالية ...

فارتفع صوت غليظ :

– وانت هل سبق لك ان غذيت القمل من دمك فى الخنادق ؟

– انه لم ير قملة واحدة منذ ولادته ...

– اهد له ثلاثا للتكاثر ...

– لا تحدثنا عن الحرية . حدثنا عن الحرب . نحن نحارب منذ ثلاث سنوات ... انت فى طيب مقام فى المؤخرة ، تغذى لك كرشا اما نحن فيجب ان نعرف كيف ننهى الحرب ...

صاح نيقولاى ايفانوفيتش مرة اخرى :

– ايها الجنود ، ان راية الثورة قد رفعت . الحرية والحرب حتى النصر الاخير ...

– اوه ، ابله ملعون لا فائدة منه ...

– نحن نحارب منذ ثلاث سنوات ، ولم نجد نصرا ...

– ولماذا اذن خلعوا القيصر ؟ ..

– خلعوا القيصر عن قصد . كان يعرقل عليهم تطويل الحرب ...

– انه مأجور ، يا رفاق ...

شق المقدم تيتكين طريقه الى نيقولاى ايفانوفيتش دافعا الجنود بكوعه ، وشاهد مدفعيا ضخما مكور الكتفين اسود الشعر يمسك المفوض من صدره ، ويهزه ويصرخ فى وجهه :

– لماذا جئت الى هنا ؟ قل : لماذا جئت الينا ؟ جئت لبيعنا ، يا ابن الكلبة ...

وغار قفا المفوض المستدير فى رقبته ، واهتزت لحيته الشائلة الى فوق ، الشبيهة بلحية مستعارة . دفع الجندى ، ومزق باصابع مرتجفة ياقة قميصه . تعبس الجندى وخلع خوذته الحديدية ، وضرب بها رأس نيقولاى ايفانوفيتش ووجهه عدة ضربات قوية ...

٤٠

جلس حارس ليلى ورجل من رجال الميليشيا عند باب مخزن المجوهراتى مورافييتشيك يتبادلان الحديث بخفوت . وكان الشارع خاليا ، والمخازن مغلقة ، وريح آذار الخفيفة تصفر فى اشجار الحور

التى لم تكتس اوراقا بعد ، وتخشخش فى اعلان «قرض الحرية» الملصق على سياج ، والقمر الوضاء كقمر الجنوب ، الحى ، مثل قنديل البحر يتدلى عاليا فوق المدينة .

وكان الحارس الليلى يتحدث ببطء :

– وكان هو يصطاف فى منزله على الساحل البحرى فى يالطا . وكان قد خرج الى التنزه فى سروال ابيض ، حسب الاصول ، بكل نياشينه . واذا بهم يسلمونه برقية فى الشارع عن خلع صاحب الجلالة الامبراطور . ويقرا البرقية ، وتنفجر الدموع من عينيه امام الناس جميعا .

ردد رجل الميليشيا متعجبا :

– اى ، اى ، اى .

– وبعد اسبوع اُقيل .

– والسبب ؟

– لانه حاكم ، والحاكم غير مقبول فى هذه الايام .

– اى ، اى ، اى ..

كرر رجل الميليشيا تعجبه ، ناظرا الى قط ضاو كان ماضيا فى شؤونه بحذر فى ظل القمر تحت شجيرات الاقاسيا .

– . . . وكان جلالة الامبراطور يعيش فى ذلك الوقت فى موغيليف بين قواته وحياته رخية مطمئنة . فى النهار يشبع من النوم ، وفى الليل يطالع التقارير عن المعارك الحاصلة . . .

قال رجل الميليشيا :

– الملعون عطشان بالتاكيد ، وذاهب لشرب الماء :

– عمن تتحدث ؟

– عن قط مخزن سينوبلى للدخان . خرج يتمشى .

– حسنا . وفجاة يتصلون بجلالة الامبراطور بالخط المباشر ، ويبلغونه بكذا وكيت ، ويقولون ان شعب بتروغراد ثائر ، والجنود لا يريدون التصدى للشعب ، بل يبتغون العودة الى بيوتهم . ولكن صاحب الجلالة لا يظن ذلك بالأمر الخطير . ويستدعى جميع الجنرالات ، ويلبس النياشين والوشائح ، ويخرج اليهم ليقول : «الشعب ثائر فى بتروغراد ، والجنود لا يريدون التصدى للشعب بل يبتغون العودة الى بيوتهم . فماذا يجب ان

افعل ؟ ادلوا لى برأيكم . وماذا تحسبون ؟ نظر جلالته الى الجنرالات ، ولكن هؤلاء ، يا صاحبى ، لم يقولوا رايهم ، بل اداروا وجوههم جميعا . . .

– اى ، اى ، اى ، مصيبة !

– واحد منهم فقط لم يدر وجهه عن الامبراطور ، وهو جنرال عجوز سكير . قال له : «يا صاحب الجلالة ، مرنى اضح رقبتى لك» . هز صاحب الجلالة راسه ، وابتسم بمرارة ، وقال : «من بين جميع رعاياى الاحباء لم يبق الا واحد مخلص ، وحتى هذا تجده سكران كل يوم منذ الصباح . والظاهر ان ملكى قد انتهى . ناولونى ورقة فيها شعار الدولة لأوقع على تنازلى عن العرش» .

– ووقع بالفعل ؟

– وقع ، وذرف دموعا مريرة .

– اى ، اى ، اى ، مصيبة . . .

وفى تلك الاثناء مر بالمخزن رجل طويل يلبس كيبيه ذات راس مدبب كبير غاطسة حتى حاجبيه . وكان ردن سترته الفارغ محشورا فى حزامه . ادار وجهه نحو الرجلين الجالسين عند المخزن ، ولمعت اسنانه بوضوح . قال الحارس خافت الصوت :

– هذا الرجل يمر للمرة الرابعة .

– انه لص بالتاكيد .

– هذه الحرب هى التى ولدتهم بهذه الكثرة ياصاحبى . ظهرو فى اماكن لم تعرفهم من قبل . فنانون فى صنعتهم .

دقت الساعة على برج الجرس ثلاث دقات من مسافة بعيدة ، واعقبها صياح ديكة الفجر . وظهر ذو الذراع الواحدة فى الشارع مرة اخرى . وقد اتجه هذه المرة الى الحارسين تماما ، نحو المخزن . صمت الرجلان وراحا يتطلعان اليه . وفجاة قال الحارس بهمس متسارع :

– وقعنا فى داهية ، يا ايفان . اطلق صفارتك .

اخذ رجل الميليشيا يخرج صفارته الا ان ذا الذراع الواحدة وثب عليه ، وضربه بقدمه على صدره ، وفى نفس اللحظة ضرب الحارس الليلى بمقبض المسدس على راسه . وفى تلك البرهة ركض رجل ثان نحو المدخل : كان قصيرا بارز الشاربين فى معطف جندى ،

وقد انقض على رجل الميليشيا ، ولوى ذراعيه وراء ظهره بحركة سريعة قوية .

واخذ ذو الذراع الوحدة والقصير يعالجان القفل صامتين حتى فلاّه ، ودخلا مخزن مورافييشيك ساحبين الى داخلـــه الحارس المصعـوق ورجل الميليشيـــا المشدود الذراعين ، وسدا الباب وراءهما .

وانتهى كل شيء فى بضع دقائق . شدت الاحجار الكريمـــة والذهب فى صرتين . وبعد ذلك قال القصير :

– وهذان ؟

ورفس بحذائه رجل الميليشيا الذى كان منطرحا على الارض قرب البسطة .

تمتم رجل الميليشيا بصوت ضعيف :

– ياعزيزى ، لا داعى للقتل لا تفعلاه ايها الطيبان . .

قال ذو الذراع الواحدة بحدة :

– لنذهب .

– اقول لك انهما سيبلغان عنا .

– لنذهب ، يا سافل !

وامسك اركادى جادوف الصرة باسنانـــه ، ووجه مسدسه «الموزر» على شريكه . فضحك هذا بتهكم ، وسار نحو الباب .

وكان الشارع ما يزال خاليا . خرج الاثنان بهدوء ، وانعطفا فى ركن الشارع ، وسارا نحو «قصر كابرنيه» . قال جادوف للرجل القصير اثناء سيره :

– سافل ، قاتل ، وغد . تجنب ذلك ، اذا كنت تريد العمل معى . فهمت ؟

– فهمت .

– والآن ، اعطنى الصرة . واذهب فى الحال واعد القارب . سأذهب انا لاحضار زوجتى . يجب ان نكون فى البحر عند الفجر .

– نذهب الى يالطا ؟

– ليس هذا شانك . الى يالطا او الى القسطنطينية . . .

انا صاحب الأمر .

سافر تليغين وداشا الى بتروغراد ، وبقيت كاتيا وحيدة . وقد رافقتهما الى محطة القطار – كانا فى حالة من شرود الذهن ، وكانهما فى حلم – وعادت الى البيت وحدها عند حلول الظلام .

كان البيت خاليا . فقد خرجت مارفوشـا وليزا الى اجتماع خدام البيوت . كانت غرفة الطعام ما تزال عابقـــة برائحة تبغ وزهور ، وشجيرة الكرز المزهرة ماتزال واقفة فى موضعها بين اوانى الطعام غير المرفوعة . سقت كاتيا الشجيرة بدورق المـاء ، وجمعت اوانى الطعام وجلست على مقعد دون ان تشعل الضوء ، ووجهها الى النافذة فرات السماء وراءها مظلمة ملفعة بالسحب . دقت ساعة الحائط فى غرفة الطعام . وستمضى فى دقاتها ، حتى لو تمزق القلب حزنا وكمدا . ظلت كاتيا جالسة فى سكون وقتـــا طويلا ، ثم تناولت لفاحا ازغب من على الكرسى الوثير ، والقته على كتفيها ، وذهبت الى غرفة داشا .

كان الفراش المخطط على السرير العارى يلوح فى الظلمة . وعلى احد المقاعد علبة كرتونية فارغة من علب القبعـــات ، وعلى الأرض تناثرت اوراق ومزق . وبعد ان عرفت كاتيا ان داشا اخذت معها كل حاجياتها ، ولم تبق او تنس شيئا . فكدرها ذلك عظيـــم التكـدر حتى تندت عيناهـــــا . جلست على السرير ، على الفراش المخطط ، ساكنة ايضا وبلا حراك كما كانت فى غرفة الطعام .

دقت ساعة غرفة الطعام العاشرة دقات رنانة . عدلت كاتيا اللفاح على كتفيهـــا ، وذهبت الى المطبخ ووقفت هناك برهة ، وارهفت سمعها ، ثم رفعت جسمها على اطراف اصابعها ، وتناولت من الرف دفتر المطبخ ، انتزعت منه ورقة بيضاء ، وكتبت بقلم رصاص : «ليزا ومارفوشا . كان يجب ان تخجلا على ترككما البيت طوال النهار وحتى الليل» . ونزلت دمعة على الورقة . وضعت كاتيا الورقة على طاولة المطبخ ، وذهبت الى مخدعها . فخلعت ملابسها على عجل ، وانسلت الى سريرها ، وهدأت .

فى منتصف الليل صفق باب المطبخ ، ودخلت ليزا ومارفوشا تطبطبان باقدامهما وتتحدثان بصوت عال ، وراحتا وجاءتـــا فى

المطبخ ، ثم هدأت حركتهما . وبعد ذلك ارتفع ضحكها فجأة ، بعد ان قرأتا الورقة . طرفت كاتيا بعينيها ، ولم تبد حراكا .

ساد السكون فى المطبخ فى آخر الأمر . ودقت الساعة معلنة الواحد بعد منتصف الليل . وترامت هذه الدقة رنانة ومؤرقة . انقلبت كاتيا على ظهرها ، وأزاحت البطانية عنها بضربة من قدمها ، وتنهدت بصعوبة عدة مرات ، وكأنها لا تجد الكفاية من الهواء ، وقفزت من السرير ، واضاءت المصباح الكهربائى ، وقلصت عينيها من ضوئه المفاجىء واقتربت من المرآة الكبيرة القائمة . كان قميص النوم الخفيف لا يصل الى ركبتيها . نظرت كاتيا الى صورتها فى المرآة بسرعة وسهوم ، الى صورة تبدو جد اليفة لها ، وارتعش حنكها . دنت من المرآة كثيرا ، ورفعت شعرها من الجانب الايمن . «نعم ، نعم ، بالطبع . هذا ثم هذا . . . - وتمعنت فى وجهها كله - نعم ، نعم ، طبعا . . . وبعد عام سيشتعل رأسى شيبا ، ثم تدركنى الشيخوخة» . اطفأت الكهرباء ، واستلقت على السرير ثانية ، وغطت عينيها بكوعها . «لم اذق لحظة من الهناء طوال حياتى . والان انتهى كل شىء . . . لن يطوقنى احد بذراعيه ، ولا يعتصرنى ، ولا احد يقول لى : ياعزيزتى ، يا حبيبتى ، يا فرحتى . . .»

ومن بين الافكار المرة والتأسفات طاف فى ذاكرة كاتيا فجأة درب رملى رطب عبر مرج من الارض مزرورق من المطر ، واشجار زيزفون كبيرة . . . وهى نفسها - كاتيا - تسير فى هذا الدرب فى ثوب بنى ومؤزر اسود ، والرمل يهسهس تحت نعليها ، وهى تحس بخفتها ، ورشاقتها ، والنسيم يداعب شعرها ، والطالب اليوشا يقود دراجته على العشب الرطب ، لا على الدرب ، ولكن على العشب المبلل . وانقلبت كاتيا لتمنع نفسها من الضحك . . . واليوشا يقول بصوت اجوف : «انا اعرف - انا لاآمل بان تبادلينى شعورى . وقد جئت لغاية واحدة فقط ، هى ان افضى ذلك لك . سأنهى حياتى يوما ما فى محطة قطار نائية ، فوداعا . . .» ويمتطى دراجته ويسير عبر المرج ، مخلفا وراءه اثرا ازرق على العشب . . . ظهره مكور فى سترته الرمادية ، وطاقيته البيضاء تختفى ورا الخضرة . وتصرخ كاتيا : «اليوشا ، عد !»

. . . احقا ان هذه التى يعذبها الارق الآن ، كانت واقفة آنئذ فى ذلك الدرب الرطب ، والنسيم الصيفى العبق برائحة المطر يداعب مئزرها الاسود ؟ قعدت كاتيا فى السرير ، ووضعت رأسها بين يديها ، واسندت كوعيها على ركبتيها العاريتين ، ولاحت فى خيالها اضواء مصابيح شاحبة ، ورذاذ ثلجى ، وريح تدوى فى اشجار جرداء ، وصرير زلاجة زاعق موحش قانط ، وعينا بيسونوف الجليدتان قريبتين من عينيها . . . حلاوة الخور وشلل الارادة . . . رعشة الفضول المقززة . . .

اضطجعت كاتيا مرة اخرى . ورن الجرس بحدة فى سكون البيت . سرت البرودة فى جسد كاتيا . ورن الجرس للمرة الثانية . سارت ليزا فى الدهليز حافية نصف نائمة ترسل زفرات غاضبة ، وصلصل مزلاج الباب الخارجى ، وبعد دقيقة سمعت كاتيا طرقا على باب مخدعها : «جاءت برقية لك ، ياسيدة» .

تناولت كاتيا الظرف الضيق متغضنة الاسارير ، وفضت الختم ، ونشرت الورقة ، واذا ببصرها يغيم .

- ليزا - قالت وهى تنظر الى الفتاة التى اخذت شفتاها ترتجفان من الذعر - مات نيقولاى ايفانوفيتش .

صرخت ليزا ، وانفجرت بالبكاء . طلبت كاتيا اليها ان تنصرف . ثم اعادت قراءة الحروف الشنيعة على شريط البرقية للمرة الثانية : «توفى نيقولاى ايفانوفيتش متأثرا بجراح بليغة اصابته اثناء تادية واجبه النبيل نقطة سينقل جثمانه الى موسكو على نفقة الاتحاد . . .»

احست كاتيا بثقل الغثيان تحت نهدها ، وغشاوة وسوداء امام عينيها ، مدت جسمها الى الوسادة ، وفقدت الوعى . . .

فى اليوم التالى جاء لزيارة كاتيا ذلك السيد الملتحى المورد الوجنتين الذى سمعته فى اليوم الاول للثورة يتحدث فى نادى الحقوقيين - وهو شخصية اجتماعية شهيرة ورجل ليبرالى يدعى الامير كابوستين - اونجسكى - وقد اخذ يديها بيديه ، وضغطهما على صداره الموبر ، وراح يقول انه باسم المنظمة التى كان يعمل فيها مع الفقيد نيقولاى ايفانوفيتش ، وباسم مدينة موسكو الذى هو الآن مساعد مفوضها ، وباسم روسيا والثورة ينقل الى كاتيا

التعازى والاسف على فقد مناضل مجيد فى سبيل الفكرة تخطفه الردى قبل الاوان .

كان الامير كابوستين – اونجسكى بطبعه مفعما بالسعادة والعافية والمرح ، وصادقا فى اظهار اساه وتفوح من لحيته وصداره رائحة سيغار مهدئة حتى ان كاتيا احست لبرهة من الوقت بان انقباض نفسها يتراخى . فرفعت اليه عينيها اللامعتين من السهاد وباعدت شفتيها الجافتين :

– شكرا على ما قلته عن نيقولاى ايفانوفيتش . . .

اخرج الامير منديلا كبيرا ومسح عينيه . انه قد ادى واجبا ثقيلا وانصرف . زعقت سيارته فى الشارع الجانبى بصوت كصوت الغول . وعادت كاتيا تطوف فى الحجرة . توقفت امام الصورة الفوتوغرافية لجنرال لا تعرفه له وجه اسد ، وتناولت البوما للصور ، وكتابا ، وعلبة من صنع الصين رسم على غطائها مالك الحزين ممسكا بضفدعة . ثم تمشت من جديد ، ناظرة الى ورق الحائط ، الى الستائر . . . ولم تمس طعام الغداء . قالت الخادمة ليزا : «على الاقل لو اكلت مهلبية الفواكه» . هزت كاتيا راسها رفضا دون ان تحرك شفتيها . كتبت لداشا رسالة قصيرة ، ولكن مزقتها فى الحال .

كانت تود لو ترقد وتنام . ولكن الرقود فى السرير كالرقود فى التابوت – رهيب بعد الليلة البارحة . . . وكان اشد ما يوجعها هو اسفها اليائس على نيقولاى ايفانوفيتش ، فقد كان انسانا طيبا رقيق القلب مشوش الفكر . . . كان يجب ان تحبه على ما هو عليه . . . اما هى فعذبته ! فشاب قبل الاوان . نظرت كاتيا فى النافذة الى السماء الكئيبة الحائلة اللون . ولوت اصابعها حتى فرقعت .

وفى اليوم التالى اقيم قداس تذكارى لنيقولاى ايفانوفيتش . وبعد يوم دفن رفاته . وقيلت كلمات جميلة على قبره ، فشبه الفقيد بقادوس بحرى هلك فى اعماق اليم ، وبرجل حمل المشعل الملتهب طوال حياته المجيدة . وحضر الدفن رجل قصير القامة يلبس نظارة هو احد الاشتراكيين-الثوريين المشهورين ، وقد جاء متاخرا ، وقال لكاتيا بدمدمة غاضبة : «تنحى ، يا مواطنة» . وشق

طريقه حتى حافة القبر ، واخذ يتكلم قائلا ان موت نيقولاى ايفانوفيتش يؤكد مرة اخرى صحة سياسة حزبه حول مسالة الارض . وكانت التربة تتفتت تحت حذائه القبيح المظهر ، وتسقط مرتطمة بالتابوت . شعرت كاتيا بنوبة غثيان تصك حلقومها ، فانسلت من الجمع خلسة ، وعادت الى البيت .

كانت تراودها رغبة واحدة : ان تغتسل ، وتنام . ولكن حين دخلت البيت استولى عليها الرعب : اذ وقع بصرها على ورق الحائط المخطط ، والصور الفوتوغرافية والعلبة بمالكها الحزين ، والخوان المدعوك فى غرفة الطعام والنوافذ المتربة . فاى وحشة كانت تنبعث من هذه الاشياء ! طلبت كاتيا ان يملأ حوض الحمام ، واستلقت فى الماء الدافئ وهى تئن . فان جسمها كله قد احس اخيرا بتعب قاتل . ثم جرجرت نفسها الى مخدعها بجهد شديد ، وغفت دون ان ترفع غطاء الفراش الخارجى . وهجست لها فى نومها رنات جرس ، ووقع خطوات، واصوات ، وطرق على الباب ولم ترد عليها .

استيقظت كاتيا حين خيم الظلام التام ، وقلبها منقبض موجع . وتساءلت مذعورة شاكية «ماذا ؟ ماذا ؟» ورفعت جسمها فى السرير قليلا ، وللحظة املت ان يكون كل ذلك مجرد حلم مرعب تراءى لها . . . ثم شعرت ، وللحظة ايضا ، بالغبن واللاانصاف . فعلام تتعذب ؟ وعادت الى عالم اليقظة تماما ، وعدلت شعرها ، ولبست خفيها على قدمين عاريتين ، وقالت لنفسها بوضوح وهدوء : «لا اريد ان اتحمل اكثر من ذلك» .

فتحت كاتيا ، على مهل ، باب صندوق الأدوية البيتى المعلق على الحائط ، واخذت تقرأ الاوراق الملصقة على القوارير . فتحت قارورة المورفين الصغيرة ، وشمتها وضمت عليها راحتها ، وذهبت لتخرج قدحا من غرفة الطعام ، الا انها توقفت فى الطريق اليها اذ رات ضوءا فى غرفة الجلوس . وسالت بخفوت : «اهذا انت يا ليزا ؟» وفتحت باب الغرفة قليلا ، ورات رجلا ضخما فى قميص عسكرى يجلس على الاريكة وراسه الحليق مضمد بعصابة سوداء . نهض بسرعة حين رآها . اخذت ركبتا كاتيا ترتعشان ، واحست بخواء تحت قلبها . حدق الرجل فيها بعينين مخيفتين متسعتين ، زاما شفتيه المستقيمتين . لقد رات امامها فاديم بتروفيتش روتشين . وضعت

كاتيا كلتا يديها على صدرها . وقال روتشين ببطء وعزم دون ان يصرف بصره عنها :

– جئت لاقدم لك احتراماتى . ان خادمتك اخبرتنى بمصابك . وقد بقيت لاننى رايت من الواجب ان اخبرك بان فى وسعك ان تضعينى انا وحياتى كلها تحت تصرفك .

وارتعش صوته حين قال الكلمات الاخيرة ، وامتلأ وجهه النحيل بحمرة داكنة . ضغطت كاتيا يديها على صدرها بكل قوتها . وقرأ روتشين فى عينيها الحاجة الى ان يدنو منها ويعينها . وحين اقترب قالت واسنانها تصطك :

– اهلا بك ، يا فاديم بتروفيتش ...

وبحركة لاارادية رفع ذراعيه ، وهو يهم بتطويقها ، فقد بدت متهافتة تعيسة ، وهى تضم قبضتها على القارورة بتشنج ، الا انه احجم فى اللحظة التالية ، وانزل ذراعيه وتقطب . ادركت كاتيا فجأة بفطرة المرأة انها ، وهى المرأة التعيسة الصغيرة ، الخاطئة ، العاجزة بكل دموعها التى لم تذرف بعد ، وبقارورة المورفين البائسة اصبحت ضرورية وعزيزة على هذا الرجل المتاهب بصمت وتجهم الى ان يمزج روحها بروحه . حبست كاتيا دموعها غير قادرة على ان تقول شيئا وان تفك اسنانها ، وانحنت على يد فاديم بتروفيتش ، وضغطتها على شفتيها ، وعلى وجهها .

٤٢

وضعت داشا كوعيها على القاعدة المرمرية ، ونظرت فى النافذة . كان الشفق يملأ نصف السماء وراء الغابات الداكنة فى نهاية جادة كامينو اوستروفسكى . وكانت السماء مسرحا تصنع فيه عجائب . كان ايفان ايليتش يجلس جنب داشا يحدق فيها بلا حراك ، رغم انه كان يستطيع ان يتحرك على هواه ، فان داشا لن تغادر الان غرفتها التى انعكس الشفق القانى على جدارها الابيض . قالت داشا :

– ما اشجى الجو ، وما اعذبه ! كاننا نطير فى سفينة جوية ...

هز ايفان ايليتش راسه موافقا . رفعت داشا يديها من قاعدة النافذة وقالت :

– يعذبنى شوق طاغ الى الموسيقى . فكم مضى من الوقت دون ان اعزف ؟ منذ ان بدات الحرب ... تصور وما تزال الحرب قائمة ... ونحن ...

تحرك ايفان ايليتش ، ومضت تقول :

– حين تنتهى الحرب سنهتم بالموسيقى ... اتتذكر يا ايفان كيف استلقينا على الرمل ، وقد جرى البحر على الرمل تماما ؟ انت تذكر اى لون كان للبحر ؟ ازرق فاتح ... واتصور اننى قد احببتك طوال حياتى .

وتحرك ايفان ايليتش ثانية ، وهم ان يقول شيئا ، الا ان داشا سبقته قائلة :

– السخان يغلى !

وخرجت من الحجرة راكضة ، الا انها توقفت عند الباب . وكان لا يرى فى الظلام الوليد غير وجهها ، ويدها الممسكة بالستارة ، وقدمها فى جورب رمادى . اختفت داشا ، والقى ايفان ايليتش ذراعيه وراء رأسه ، واغمض عينيه .

كان تليغين وداشا قد وصلا اليوم فى الساعة الثانية بعد الظهر . وكانا قد اضطرا الى قضاء الليل كله جالسين على الحقائب فى ممر العربة المكتظة . وعند وصولهما مباشرة شرعت داشا فى فك امتعتهما والنظر فى جميع الاركان ، ومسح الغبار . اعجبت بالشقة ، وعزمت ان تعيد ترتيب كل شىء فيها . وكان يجب القيام بذلك فورا . استدعى البواب من الاسفل ، وتعاون مع ايفان ايليتش لنقل الاصونة والارائك من غرفة الى اخرى . وحين تم تغيير وضع الاثاث طلبت داشا من ايفان ايليتش ان يفتح جميع نوافذ التهوية الصغيرة فى اعالى الشبابيك ، وذهبت هى لتستحم . وظلت وقتا طويلا تسكب الماء على جسدها ، وصنعت شيئا لوجهها ولشعرها ، ومنعت ايفان ايليتش من دخول هذه الغرفة مرة وتلك الغرفة اخرى ، رغم ان ايفان ايليتش كان يمنى النفس طوال اليوم بان يلتقى بداشا كل لحظة ويطيل النظر فيها .

ومع هبوط الظلام هدات داشا اخيرا . دخل ايفان ايليتش غرفة

الجلوس وقد اغتسل وحلق ، وجلس الى جانب داشا . وكانا يختليان فى سكون للمرة الاولى بعد مفارقتهما موسكو . جاهدت داشا ان تملأ الوقت بالحديث وكانها كانت تخاف من هذا السكون . فقد ارهبها ، كما اعترفت لايفان ايليتش فيما بعد ، ان يقول لها بصوت «خاص» : «اذن ، يا داشا . . .»

ذهبت لتنظر فى امر السخان . وجلس ايفان ايليتش مغمض العينين . انصرفت ، والهواء ما يزال مملوءا بانفاسها . ودق كعباها على ارض المطبخ بفتنة لا توصف . وفجأة رن شيء يتهشم هناك ، وتناهى صوت داشا الشاكى : «كوب !» وانفعم قلب ايفان ايليتش بفرح حار قائلا لنفسه : «حين استيقظ غدا سارى صباحا غير اعتيادى ، سأجد داشا معى» . ونهض مسرعا وظهرت داشا عند الباب .

— كسرت كوبا . . . ايفان ، اتريد شايا حقا ؟

— لا . . .

وتقدمت منه ، ولما كانت الغرفة غارقة فى ظلام . فقد وضعت ذراعيها على كتفيه وسالت بخفوت :

— فيم كنت تفكر ؟

— فيك .

— اعرف . وماذا كنت تظن فى ؟

وبدا وجهها المغبش فى الظلمة عبوسا ، بينما كانت تبتسم فى الواقع . وكان صدرها يرتفع وينخفض منتظم الانفاس .

— فكرت فى ان ذهنى غير قادر على ان يتصورك كزوجتى . ثم فهمت فجاة ، وجئت اليك لأخبرك . اما الآن فلا اتذكر شيئا .

قالت داشا :

— آى ، آى . اجلس ، ودعنى اجلس جنبك .

وجلس ايفان ايليتش على الكرسى وجلست داشا جنبه على ذراع الكرسى وقالت :

— وفيم فكرت ايضا ؟

— جلست هنا عندما كنت فى المطبخ ، قلت لنفسى : «حلت فى البيت مخلوقة مدهشة . . .» اهذا سيئ ؟

اجابت داشا مفكرة :

— نعم ، هذا سيئ جدا .

— هل تحبينني يا داشا ؟

— اوه — وحركت راسها من الاسفل الى الاعلى — احبك حتى شجرة البتولا .

— حتى شجرة البتولا ؟

— احقا انك لا تعرف ان لكل امرئ فى نهاية عمره حدبة من الارض تظللها شجرة بتولا باكية ؟

امسك ايفان ايليتش داشا من كتفيها . فاستجابت لعناقه برقة . وتبادلا قبلة طويلة مثلما فعلا منذ زمن بعيد على ساحل البحر . وتقطعت انفاسهما . قالت داشا : «آه ، ايفان» وطوقت عنقه ، وسمعت قلبه يدق دقات ثقيلة فاشفقت عليه . تنهدت ، ونهضت من ذراع المقعد ، وقالت ببساطة :

— ايفان ، لنذهب .

تلقت داشا رسالة من شقيقتها فى اليوم الخامس من وصولها تخبرها كاتيا فيها بوفاة نيقولاى ايفانوفيتش .

«. . . مررت بفترة من الشقاء واليأس . وشعرت فى وضوح باننى ساظل وحيدة الى ابد الدهر . اوه ، ما ارهب ذلك ! . . ولرهبته عزمت على ان اتخلص منه باسرع وقت . . . اتفهمين ؟ . . وانقذتنى معجزة . . . وربما مصادفة . . . لا ، لا ، كانت معجزة حقيقية . . . ولا يمكننى ان اكتب عن ذلك . . . سأخبرك به حين نلتقى . . .»

وصعقت داشا بنعى نيقولاى ايفانوفيتش وبرسالة كاتيا ، فعزمت على السفر الى موسكو فى الحال ، الا انها تلقت فى اليوم التالى رسالة اخرى من كاتيا تخبرها فيها بان تتهيأ للسفر الى بتروغراد ، وتسالها ان تبحث لها عن غرفة غير غالية الايجار . وقد احتوت الرسالة على ملاحظة تقول فيها : «سيزوركما فاديم بتروفيتش روتشين وسيروى لكما كل شىء بالتفصيل . فهو لى اخ واب وصديق العمر» .

كان تليغين وداشا يتمشيان فى شارع معرش فى يوم احد من نيسان . كانت قطع مهلهلة من السحاب الذائب من الشمس تطوف فى السماء الزرقاء زرقة ربيعية وفى الجو برودة . وكان ضوء الشمس

ينفذ خلال الشارع المعرش ، وكأنه ينفذ من خلال ماء . ويرتمى على ثوب داشا الابيض وكانت جذوع الصنوبر الجافة الضاربة الى الحمرة تقترب منهما بينما كانت الريح تضج فى اعاليها ، وتحرك اوراقها . رنت داشا الى ايفان ايليتش الذى كان قد خلع قبعته ، وعقد حاجبيه مبتسما . كان يغمرها احساس بالسكينة والامتلاء – بسحر النهار والبهجة لانها تتنفس بيسر ، وتسير خفيفة مستسلمة كليا الى هذا النهار والى هذا الرجل السائر بجانبها .

– ايفان .

نادت داشا مفترة الثغر ، فتساءل ايفان فى بسمة :

– ماذا ، يا داشا ؟

– لا . . . فكرت بشىء ما .

– عم ؟

– مجرد فكرة .

– عم ؟

– فيما بعد .

– انا اعرف عم .

التفت داشا التفاتة سريعة .

– اقسم على انك لا تعرف . . .

وصلا الى شجرة صنوبرة كبيرة . نزع ايفان ايليتش قطعة من القشرة مغطاة بقطرات ناعمة من الصمغ ، وكسرها بين اصابعه والقى على داشا نظرة حانية من تحت حاجبيه :

– كلا ، اعرف .

ارتجفت يد داشا وقالت هامسة :

– احس وكأن كيانى كله يجب ان ينصب فى فرح اشد واعظم . . . كل كيانى ممتلئ . . .

هز ايفان ايليتش راسه . وكانا قد خرجا الى فرجة بين اشجار مكسوة بعشب اخضر ناعم ، وشقائق صفر تهتز بالريح . وكان ثوب داشا يخفق فى الريح بين حين وآخر ، فكانت تنحنى فى كل مرة ساهمة ، وتعدل تنورتها ، وتقول :

– هذه الريح عقاب ! . .

فى نهاية الفرجة امتد سياج مشبك عال لاحد القصور ، تقشر

الطلاء المذهب عن رؤوس قضبانه بفعل الزمن . دخلت حصاة صغيرة فى حذاء داشا . قعد ايفان ايليتش ، وخلع الحذاء من قدم داشا الدافئة المكسوة بجورب ابيض ، وقبل القدم قرب اصابعها . لبست داشها حذاءها وطبطبت بقدمها ، وقالت :

– اريد ان يكون لى ولد منك . . . هذا ماكنت افكر فيه . . .

٤٣

اقامت يكاترينا دميترييفنا فى بيت خشبى غير بعيد عن شقة داشا تديره امرأتان عجوزتان ، كانت احداهما تدعى كلافديا ايفانوفنا – مغنية فى سالف الايام ، والاخرى – وتدعى سوفوتشكا – مرافقة لها . كانت كلافديا ايفانوفنا تخطط حاجبيها منذ الصباح ، وتضع على راسها لمة مستعارة فاحمة السواد ، وتجلس لتلعب لعبة الحظ والتمنى فى الورق . بينما كانت سوفوتشكا ذات الصوت الرجولى الخشن تقوم بتدبير شؤون البيت . وكان البيت نظيفا مكتظا على الطراز القديم بالعديد من افرشة المائدة الصغيرة والسدائل ، والصور المصفرة لعهد الشباب الغابر . وفى الصباح كانت الحجرات تمتلئ برائحة القهوة الشذية ، وعند اعداد الغداء كانت كلافديا ايفانوفنا تشم الملح لأنها لا تطيق رائحة الطبخ ، وكانت سوفوتشكا تصيح بصوتها الرجولى من المطبخ : «اين اذهب بهذه الرائحة المقززة لك ، فأنا لا استطيع ان اقلى البطاطس بماء الكولونيا» . وفى المساء كانت توقد مصابيح الكيروسين ذات الزجاجات المغبشة الكروية الشكل . وكانت العجوزتان تحيطان كاتيا بالرعاية .

كانت كاتيا تعيش حياة هادئة فى هذا المأوى القديم الطراز ، السالم من عوادى الزمن . كانت تستيقظ فى الصباح الباكر وترتب الحجرة بنفسها ، وتجلس قرب النافذة ترتق الثياب ، وترفأ الجوارب ، او تصنع من فساتينها الانيقة القديمة لباسا ابسط . وبعد الفطور كانت تخرج فى العادة الى الجزر وتتجول ومعها كتاب او صرة تطريز ، وتجلس على مسطبة فى المكان المفضل لها بالقرب

من البحيرة الصغيرة ، وتراقب الاطفال يلعبون عند تليلة الرمل ، وتطالع ، وتطرز وتفكر . وتعود فى نحو السادسة لتناول الغداء عند داشا . وفى الساعة الحادية عشرة كانت داشا وتليغين يوصلانها الى البيت . كانت الشقيقتان تسيران فى المقدمة وذراعاهما متشابكتان ، بينما كان ايفان ايليتش يسير وراءهما مسرحا قبعته على علبائه صافرا وبمثابة «غطاء للمؤخرة» ، لان الخروج فى المساء لم يعد مامونا فى تلك الأيام .

كانت كاتيا تكتب لفاديم بتروفيتش روتشين كل يوم ، وكان روتشين طيلة هذه المدة موفدا فى مهمة الى الجبهة . وكانت كاتيا تروى فى رسائلها بعناية وصدق كل ما فعلته وفكرت فيه خلال ذلك اليوم . وكان روتشين يسالها ذلك ، ويؤكد لها فى رسائله الجوابية : «كم كان عزيزا على ان تكتبى لى ، يكاترينا دميتريفنا ، ان المطر قد بدأ يرذ رذاذا حين عبرت جسر يلاغين اليوم ، ولم تكن لديك مظلة فاحتميت تحت الاشجار ريثما يتوقف المطر ! ان كل دقائق حياتك عزيزة على ، واريد ان اعرفها حتى لم يعد فى وسعى الآن ان اعيش بدونها» .

كانت كاتيا تعرف ان روتشين يبالغ ، وان فى وسعه بالطبع ان يعيش بدون ان يعرف دقائق حياتها ، ولكن التفكير فى ان تظل وحيدة مع نفسها كان يفزعها اشد الفزع حتى انها كانت تحاول الا تتشكك ، بل تصدق بان حياتها كلها لازمة لفاديم بتروفيتش وعزيزة عليه . ولهذا فان كل ما كانت تفعله الان يتخذ مغزى خاصا . اضاعت الكشتبان وبحثت عنه ساعة بكاملها ، واخيرا وجدته فى اصبعها . ولعل فاديم بتروفيتش سيضحك من ذهولها الشديد هذا . والان كانت كاتيا تنظر الى نفسها كما تنظر الى شىء غريب عنها تماما . ذات مرة ، حين كانت تعمل عند النافذة وتفكر لاحظت ان اصابعها ترتجف . رفعت راسها ، وغرزت الابرة فى تنورتها عند الركبة وحدقت الى الامام طويلا . واخيرا ميز بصرها وجها نحيلا امامها فى المكان الذى كانت فيه مرآة الصوان ، وجها نحيلا له عينان واسعتان حزينتان ، وشعر بسيط التصفيف ، مضموم فى عقدة الى الخلف . . . وتساءلت كاتيا مع نفسها : «امعقول ان هذه انا ؟» وغضت بصرها ، وتابعت خياطتها ، الا ان قلبها وجب فى صدرها ،

ووخزت اصبعها بالابرة ، فرفعت الاصبع الى فمها ، وعادت تنظر الى المرآة ، ولكنها رات صورتها فى المرآة هذه المرة ، اقبح من الصورة التى راتها فى المرة الاولى . . . وفى تلك الليلة كتبت لفاديم بتروفيتش : «فكرت فيك طوال هذا اليوم وقد اشتقت اليك ، يا صديقى العزيز . اجلس عند النافذة وانتظر . ان ما يحدث فى نفسى الآن يشبه شيئا قد نسيته منذ زمان طويل . . . مشاعر فتاة . . .»

وحتى داشا الشاردة الفكر ، الغارقة فى علاقاتها مع ايفان ايليتش ، تلك العلاقات المعقدة التى لم يشهد العالم مثيلا لها منذ بدء الخليقة ، حسب ظنها ، لاحظت تغيرا طرأ على كاتيا ، وفى احد الامسيات اثناء شرب الشاى ، راحت تبرهن طويلا على ان كاتيا ينبغى ان ترتدى الآن ، والى الابد ، ثيابا سوداء تغطى العنق . وانشأت تقول : «اؤكد لك انك لا ترين نفسك يا كاتيوشا ، ان مظهرك مظهر فتاة فى التاسعة عشرة . . . حقا يا ايفان ، الا تراها تبدو اصغر منى ؟»

— نعم ، اقصد ، ليس تماما ، ولكن اظن . . .

قالت داشا :

— آه . انت لا تفهم شيئا . شباب المراة ليس له علاقة بالعمر ، بل باسباب اخرى ، ليس للعمر اية اهمية هنا . . .

واوشكت على النفاد النقود القليلة التى تركها نيقولاى ايفانوفيتش لكاتيا . فاشار تليغين عليها بان تبيع شقتها القديمة فى شارع بانتيليمونوفسكايا . الفارغة منذ شهر آذار . فوافقت كاتيا ، وذهبت مع داشا الى الشقة لتاخذ منها بعض الاشياء العزيزة لارتباطها بالذكريات .

حين صعدت كاتيا الى الطابق الثانى ، ووقع بصرها على الباب البلوطى ذى الرقعة النحاسية التى تحمل اسم «ن . ى . سموكوفنيكوف» شعرت بان الحياة توشك على اتمام دورتها . خلع البواب قبعته تحية ، وفتح باب الشقة بمفتاحه . انه نفس البواب العجوز المالوف لكاتيا ، الذى كان يفتح الباب الخارجى بعد منتصف الليل ناخرا من انفه بغضب ، والنعاس عالق فى اجفانه ، وعنقه ملفوف بياقة معطفه الملقى على كتفيه ، وكان

دائما يطفئ الضوء الكهربائى قبل ان تلحق كاتيا بان تصعد الى شقتها ، اما الان فقد جعل كاتيا وداشا تدخلان قبله ، وقال مطمئنا :

– تاكدى ، يكاترينا دميتريبفنا ، من ان اى قلامة لم تضع من شقتك . كنت اراقب المستاجرين ليل نهار . ابنهم قتل فى الجبهة والا لظلوا ساكنين فيها حتى الان ، فقد كانوا راضين عن الشقة ...

كان الرواق مظلما ليست فى هوائه رائحة انفاس حية . وكانت الستائر مسدلة فى جميع الغرف . ذهبت كاتيا الى غرفة الطعام ، وادارت مفتاح الضوء . شعت الثريا البلورية بنور ساطع فوق المائدة المغطاة بمفرش من الجوخ الرمادى ، وكانت سلة الزهور الخزفية ما تزال فى وسطها ، وفيها غصن الميموزا الذابل منذ زمان . وكانت الكراسى ذات الظهور العالية والبطون الجلدية – الشهود اللامبالون على الحياة المرحة العاصفة التى فاتت – تقف فى اماكنها على طول الجدران . وكانت احد ابواب صوان الاوانى المنحوت الضخم كالبيانو مفتوحا تلوح الاقداح المقلوبة من خلال فتحته . وكان الغبار يغطى المرآة الفينيسية البيضوية ، والصبى الذهبى ما يزال راقدا فوقها مادا يده الى خصلة ذهبية .

وقفت كاتيا عند الباب بلا حراك ، وقالت لداشا بخفوت :

– داشا ، انت تذكرين الوضع ! .. تصورى ، والان لا وجود لاحد ...

ثم ذهبت الى غرفة الجلوس ، واشعلت الثريا الكبيرة واجالت بصرها ، ثم هزت كتفيها . كانت اللوحات التكعيبية ، والمستقبلية التى كانت تبدو فى وقت ما متحدية ومخيفة تتدلى على الجدران بائسة كابية ، وكانها ، زينات كرنفالية مهملة بعد ان انتفت الحاجة اليها .

– وهل تذكرين هذه ، يا كاتيوشا ؟

قالت داشا ، واشارت الى لوحة «فينوس الحديثة» القابعة فى ركن اصفر مع زهورها ، واكملت قولها :

– انذاك بدت لى وكانها علة كل المصائب .

وضحكت داشا وشرعت بتصفح النوتات . ذهبت كاتيا الى مخدعها السابق . كان كل شىء فيه على حالته تماما كما كان منذ ثلاثة

اعوام ، يوم ارتدت ثياب السفر والبرقع وهرعت الى هذه الغرفة للمرة الاخيرة لتاخذ قفازها من طاولة الزينة .

والان كان كل شىء كابيا وبدا اصغر حجما مما كان من قبل . فتحت كاتيا الدولاب المملوء بفضلات المخرمات والحرير وفضلات القماش والجوارب والاخفاف البيتية . وكانت رائحة عطر خفيفة ما تزال تفوح من هذه الاشياء التى كانت تبدو لها فيما مضى ضرورية . اخذت كاتيا تقلبها دون غاية ، فقد كان كل غرض منها مرتبطا بذكرى الحياة التى ذهبت بلا رجعة ...

وفجاة تحطم السكون الذى كان يخيم على البيت كله وملات انغام الموسيقى جنباته ، حين اخذت داشا تعزف السوناتة التى كانت تتدرب عليها اثناء تحضيرها للامتحانات قبل ثلاثة اعوام . سدت كاتيا باب الدولاب ، وذهبت الى غرفة الجلوس وجلست بالقرب من شقيقتها .

استدارت داشا نصف استدارة ، وقالت :

– اليس ذلك رائعا ، يا كاتيا ؟

وعزفت بعض الفواصل الاخرى وتناولت كراسة اخرى من الارض . قالت كاتيا :

– لنخرج . بدات اشعر بصداع .

– والحاجيات ؟

– لا اريد ان اخذ شيئا من هنا . سأنقل البيانو وحده الى شقتك . اما سائر الاشياء فلا حاجة اليها ...

جاءت كاتيا الى الغداء منتعشة من المشى السريع ، مرحة ، فى قبعة جديدة ، وبرقع سماوى اللون . قالت ، وهى تلثم خد داشا بشفتيها الدافئتين :

– وصلت بالكاد قبل ان يهطل المطر الغزير . وحذائى قد تبلل على اية حال . اعطينى نعالا استبدله به .

وسارت نحو النافذة فى غرفة الجلوس ، وهى تخلع قفازها . كان المطر الذى راح يكر ويفر عدة مرات يهطل الان سيولا رمادية ويدور فى خفقات الريح ، ويضج فى انابيب التصريف . رأت كاتيا بعيدا فى الاسفل مظلات تجرى راكضة . وخرق ضوء ابيض الهواء

المعتم امام النوافذ ، وسرت فرقعة جعلت نفس داشا يتقطع فى صدرها . سالت كاتيا وقد افتر فمها عن ابتسامة :

– اتدرين من سيزوركما مساء اليوم ؟

سالت داشا :

– من ؟

الا ان الجرس رن فى الرواق ، فركضت داشا لتفتح الباب وترددت ضحكة ايفان ايليتش ، وحفيف قدميه على بساط الرواق ثم مر وداشا الى غرفة نومهما وهما يتحادثان بصوت عال ويضحكان . خلعت كاتيا قفازيها ، وقبعتها وعدلت شعرها ، والابتسامة المتكتمة الناعمة ما تزال ترف على شفتيها .

جلس ايفان ايليتش الى المائدة مرحا موردا مبلل الشعر وروى لهما الاخبار . العمال فى مصنع البلطيق مضطربون مثل جميع العمال الان فى المصانع والمعامل الاخرى . والسوفييتات تؤيد مطاليبهم باستمرار . والمشروعات الخاصة اخذت تغلق ابوابها شيئا فشيئا ، والمشروعات الحكومية تعمل بخسارة ، ولكن لا احد يهتم بان تجنى الارباح الآن والحرب والثورة قائمتان . واليوم عقد فى المصنع اجتماع حاشد اخر خطب فيه بلاشفة ، قالوا جميعا كلاما واحدا : «يجب انهاء الحرب ، ولا تنازلات ، ايا كانت ، للحكومة البرجوازية ، ولا اتفاقيات مع اصحاب المشاريع ، وكل السلطة للسوفييتات التى ستتكلف بالنظام ! . .»

– وانا ايضا صعدت لاخطب . ولكنهم سحبونى من المنصة . وجاء فاسيلى روبليف ليقول : «انا اعرف انك لست لنا عدوا فلماذا تقول سخافات . ان راسك محشو بالسفاسف» . فقلت له : «فاسيلى ، بعد ستة اشهر ستتوقف المصانع ولا يجد الناس شيئا ياكلونه» . فرد على قائلا : «يارفيق ، قبل ان يهل العام الجديد ستنتقل الارض كلها ، والمصانع جميعا الى الشغيلة . ولن نترك برجوازيا واحدا فى الجمهورية ولو للمتحف . ولن يكون للنقود وجود . اشتغل وعش وكل شىء لك . انها الثورة الاجتماعية ، فافهمنى !» وعد ان يكون كل ذلك فى العام الجديد .

وضحك ايفان ايليتش ضحكة متزنة الا انه هز راسه ، واخذ يجمع الفتات على الخوان باصبعه . وتنهدت داشا :

– قلبى يخبرنى بأن بلايا كبيرة ستحصل .

قال ايفان ايليتش :

– نعم . ان الحرب لم تنته ، وفى ذلك علة الأمر . ما الذى تغير منذ شباط ؟ اطاحوا بالقيصر ، ولكن الفوضى استفحلت . هناك حفنة من المحامين واساتذة الجامعات وهم اناس مثقفون دون ريب يؤكدون للامة كلها قائلين : اصبروا ، حاربوا وسياتى زمن نعطيكم فيه دستورا انجليزيا ، بل واحسن منه بكثير . ان هؤلاء الاساتذة لا يعرفون روسيا ، ولم يطلعوا على التاريخ الروسى بشكل جيد . ان الشعب الروسى ليس كماً مجرداً . ان الشعب الروسى شعب فياض الشعور موهوب قوى . فلا عجب ان يشق الفلاح الروسى طريقه الى المحيط الهادى وهو بحذائه الليفى . اما الالمانى فيبقى فى مكانه ويسعى الى بغيته خلال مائة عام ويصبر . بينما الروسى غير صبور . ومن الممكن ان يحفزه الحلم بالاستيلاء على الكون فيسير فى سرواله المصنوع يدويا ، وحذائه الليفى ، وفاسه فى حزامه . . . اما الاساتذة فيريدون ان يحضروا خضم الشعب الهدار فى اطار دستور وقور . نعم ، يبدو اننا سنشهد احداثا خطيرة جدا .

كانت داشا واقفة عند المائدة تصب القهوة فى اقداح . فاذا بها تترك ركوة القهوة فجاة ، وتضغط وجهها الى صدر ايفان ايليتش . فقال ايفان ايليتش وهو يمسد شعرها :

– لا ، لا ، لا حاجة الى القلق يا داشا . لم يحدث شىء فظيع حتى الان . . . حدث ان وقعنا فى مآزق اسوأ . . . فانا اذكر – اسمعينى – اذكر اننا وقعنا فى «الجب العفن» . . .

واخذ يتذكر المشاق العسكرية التى صادفته . رفعت كاتيا بصرها الى الساعة الحائطية ، وخرجت من غرفة الطعام . نظرت داشا الى وجه زوجها الهادئ القوى الملامح والى عينيه الرماديتين الضاحكتين ، وهدات شيئا فشيئا : ان المراة تشعر بالاطمئنان فى صحبة هذا الرجل . حين فرغت من سماع قصته «الجب العفن» ذهبت الى المخدع لتبودر وجهها . فرات كاتيا جالسة امام منضدة الزينة هناك تفعل شيئا لوجهها . قالت لها بصوت ناعم :

– عزيزتى داشا ، الم يبق لديك شىء من ذلك العطر الباريسى ؟ انت تذكرينه ؟

جلست داشا على الارض امام اختها ، وحدقت فيهـا بدهشة بالغة ثم سالت همسا :

– اراك تنفشى ريشك ، يا كاتيوشا ؟

احمرت كاتيا وهزت رأسها :

– ماذا بك اليوم ، يا كاتيوشا ؟

– اردت ان اخبرك ، ولكنك لـم تسمعى كلامى الى آخره . سيصل فاديم بتروفيتش مسـاء اليوم ، وسيأتى الى شقتكمـا من محطة القطار مباشرة ... ليس من اللائق ان استقبلـه فى بيتى لان الساعة متأخرة ...

دق جرس الباب فى الساعة التاسعة والنصف . هرعت كاتيا وداشا وتليغين الى الرواق . فتح تليغين الباب فدخل روتشين وعلى كتفيه معطف عسكرى مدعوك وطاقيته نازلة على جبينه . واذ وقع بصره على كاتيا رقت ملامح وجهه النحيل الكئيب الملوح حين افتر عن ابتسامة . نظرت كاتيا اليه مرتبكة فرحة . القى روتشين معطفه وطاقيته على مقعد وسلم قائلا بصوت قوى فيه بحة : «اعذرونى على دخولى فى هذه الساعة المتاخرة . رغبت ان اراك هذه الليلة ، انت يا يكاترينا دميتريفنا ، وانت ، يا داريا دميتريفنا» فتالقت عينا كاتيا نورا وقالت :

– انا مسرورة لوصولك ، يا فاديم بتروفيتش .

وحين انحنى ليقبل يدها لثمت راسه بشفتيها المرتعشتين .

قال ايفان ايليتش :

– كـان يجب ان تجلب امتعتك معك . اننـا لن نتركك تغادرنا ، ستبات عندنا ...

قالت داشا :

– على الاريكة التركية فى غرفة الجلوس ، واذا كانت قصيرة فسنضع كراسى فى طرفها .

سمع روتشين ما يقولـه هؤلاء الناس العطوفون الانيقون ، وكانه فى حلم . وكان قد جاء اليهم وهو ما يزال وعقا ، بعد ليالى السفر المؤرقة ، والتسلل فى النهار من نوافذ العربة بحثا عن الطعـام ، والكفاح المستمر فى سبيل مكان من ستة افتار فى مقصورة وسط سباب يثقب الاذان . وكان ما يزال يستشعر الغرابة من ان يفرح

بوجوده هؤلاء الثلاثة المتنعمون بهذا القدر غير المعقول من الجمال والنظافة ، والعبقون بروائح زكية ، والواقفون على ارض صقيلـة كالمرآة ... يفرحون به هو ، روتشين ... وحدق كالنائم فى عينى كاتيا البهيتين المرددتين مسرورة ، مسرورة ، مسرورة ...

عدل نطاقه ، وسوى كتفيه ، وارسل زفرة عميقة ، وقال :

– شكرا ، دلونى اين اتوجه ؟

دلوه على الحمام ليغتسل ، ثم دعوه الى غرفة الطعام وقدموا الطعام له . اكل وهو لا يميز ما كان يقدم له ، وشبع سريعا ووضع الماعون جانبا ، واشعل سيكارة ، ولان وجهه النحيل الحليق الصارم الذى اخاف كاتيا حين راته فى الرواق وبدا اكثر تعبا . وحين اشعل عود الثقـاب ارتعشت يداه الكبيرتان الملونتان بضوء المصبـاح بظليلته البرتقالية . كانت كاتيا تجلس فى ظل الظليلة ، فراحت من هناك تطيل النظر فى فاديم بتروفيتش ، وتشعر بانها تحب كل شعرة فى يده ، وكل زر فى سترته البنية الداكنة المدعوكة . وقد لاحظت انه كان يطبق فكيه احيانا وهو يتحدث ، وينطق من بين اسنانه . كانت عباراته متقطعة مشوشـة . والظاهر انه كان يتحسس بنفسـه ، ويحاول ان يكبت فى نفسـه شعورا بالحنق يعتمل فيـه منذ زمن طويل ... تبادلت داشا النظرات مع اختها وزوجها فسالت روتشين عما اذا كـان يريد ان يستريح بعد تعب السفر ؟ توهج ، وجلس منتصبا على الكرسى .

– لم اجئ هنا لاجد مكانا انام فيه ... لا ، على الاطلاق ...

وخرج الى الشرفة ، ووقف تحت المطر الليلى الدقيق . اشارت داشا بعينيها الى الشرفة ، وهزت رأسها . وجاء صوت روتشين من هناك :

– اعذرينى ، يا داريـا دميتريفنـا ، بحق الرب ... تلك نتيجة تلك الليالى الاربع المؤرقة ...

وعاد من الشرفة ، ومسد الشعر على قمة رأسه وجلس فى مكانه . وقال :

– جئت اليكم من مقر القيادة العليا مباشرة احمل الى وزير الحربية اخبارا مقلقة جدا ... وحين رايتكـم احسست بالألم ...

فاسمحوا لى بان اقص عليكم كل شيء . ليس لى فى الدنيا شخص هو اقرب الى منك ، يا يكاترينا دميتريفنا .

شحبت كاتيا . وقف ايفان ايليتش عند الحائط وذراعه وراء ظهره ، وحدقت داشا فى روتشين بعينين مرتعبتين . سعل روتشين ، وقال :

— ان لم تحدث معجزة فاننا سنهلك ... لم يعد للجيش وجود ... والجنود يفرون من الجبهة ويرحلون على سطوح العربات . . . وما من امكانية انسانية لايقاف انهيار الجبهة . . . ذلك مثل مد البحر . . . لم يعد الجندى الروسى يعرف من اجل اى شيء يحارب ، وفقد الاحترام للحرب . فقد الاحترام لكل مايتصل بهذه الحرب — احترامه للدولة ، ولروسيا . يعتقد الجنود بان الحرب ستنتهى فى نفس اليوم الذى ترتفع فيه صرخة تنادى بـ«السلام»... ونحن وحدنا الاسياد لا نريد السلام . . . ان الجندى الان يبصق على المكان الذى خدع فيه خلال ثلاثة اعوام ، ويرمى بندقيته ، ولا يمكن بعد الان اجباره على ان يحارب . . . وفى الخريف او نحوه ، حين تفر الملايين العشرة كلها ... سينتهى وجود روسيا كدولة ذات سيادة . . .

وصك فكيه بقوة حتى ارتفعت عضلات على وجنتيه . واستمر فى كلامه بصوت عديم الرنين .

— انا احمل خطة الى وزير الحربية وضعها بعض السادة الجنرالات لانقاذ الجبهة . . . خطة اصيلة . . . وعلى كل حال سيكون من المتعذر على الحلفاء لوم جنرالاتنا على عدم الرغبة فى القتال . ومعنى الخطة : اعلان التسريح التام للجيش فى اسرع وقت ، اى تنظيم الهروب من الجيش والحفاظ بهذه الطريقة على سلامة السكك الحديدية ، والمدفعية واحتياطات التموين والعتاد . التاكيد لحلفائنا عن عزمنا على المضى فى الحرب . وفى الوقت نفسه نقيم فى منطقة نهر الفولغا حاجزا من الوحدات الموثوقة — ومثل هذه الوحدات موجودة — ونبدأ بتكوين جيش جديد كليا فيما وراء نهر الفولغا ، على ان تكون نواته من وحدات المتطوعين ونقوم فى الوقت ذاته بتشكيل ودعم وحدات للانصار . . . ونبدأ الحرب من جديد معتمدين على مصانع الاورال وفحم سيبيريا وقمحها . . .

صاح تليغين :

— يعنى فتح الجبهة للالمان . . . وكشف وطننا للنهب !

— لم يعد لنا وطن ، بل مكان كان فيه وطننا — وضم روتشين يديه المطروحتين على مفرش المائدة — لم تعد روسيا العظيمة قائمة منذ اللحظة التى القى فيها الشعب سلاحه . . . يبدو انك لا تريد ان تفهم ما بدأ بالفعل . . . هل يستطيع القديس نيقولا ان يعينكم الان ؟ لقد نسيتم ان تصلوا له . . . ان روسيا العظيمة الان مجرد روث لتسميد الارض ... يجب ان يعاد بناء كل شيء من جديد : القوات ، الدولة ، ويجب ان تصب فينا روح جديدة . . .

واستنشق الهواء بقوة من خلال منخريه ، واوقع رأسه على يديه الموضوعتين على المائدة ، واجهش باكيا بصوت عميق خافت كصوت الكلاب . . .

فى تلك الليلة لم تخرج كاتيا لتنام فى حجرتها . ارقدتها داشا معها فى سريرها ، وفرشت لايفان ايليتش فى غرفة المكتب . وخرج روتشين الى الشرفة بعد ذلك المشهد المقبض للجميع ، وبعد ان بلله المطر عاد الى غرفة الطعام واعتذر ؛ وبالفعل كان الرقاد احسن مخرج . وقد غفا ما ان خلع ملابسه . وحين سار ايفان ايليتش على رؤوس اصابعه ليطفئ الضوء رآه نائما على ظهره وقد طوى ذراعيه على صدره واضعا راحتيها احداهما على الاخرى ، وكان وجهه النحيل ذو العينين المغمضتين بقوة ، والغضون التى رسمها ضوء الفجر المزرورق وجه رجل يكبت الما فى صدره .

ظلت داشا وكاتيا تتحادثان همسا لوقت طويل ، وهما تحت غطاء واحد . وكانت داشا ترهف سمعها بين الحين والاخر . مازال ايفان ايليتش غير قادر على ان يهجع فى مكتبه . قالت داشا : «ما يزال يذرع المكتب ، بينما عليه ان يخرج الى المصنع فى الساعة السابعة . . .» وانسلت من تحت الغطاء ، وهرولت حافية الى زوجها . كان ايفان ايليتش يجلس على الاريكة المفروشة يطالع

فى كتاب ضخم وضعه على ركبتيه ، وقد انزل حمالة البنطلون . نظر اليها بعينين براقتين لا تريان ، وسأل :

– اذن لم تنامى حتى الان ؟ . . اجلسى . . . لقد وجدت شيئا . . . اسمعى . . .

وقلب الصفحة ، واخذ يقرأ بصوت خافت :

«قبل ثلثمائة عام كانت الريح تسرح طليقة فى الغابات والسهول السهبية ، وفى المقبرة الهائلة المسماة الارض الروسية . كانت هناك اسوار محروقة لمدن مندثرة ، ورماد فى اماكن ماهولة ، وصلبان وعظام عند طرق غطاها العشب ، وعصائب الغربان ثم عواء الذئاب فى الليالى . وكانت اخر عصابات اللصوص التى كانت قد انفقت على الشراب ونهبت منذ وقت طويل الفراء الغالية والاقداح من المعادن الثمينة ، والاطر اللؤلؤية للايقونات تجوب فى بعض دروب الغاب . كان كل شىء فى روسيا قد نهب وقضى عليه .

شاع الدمار فى روسيا واقوت من اهلها . وحتى تتر القرم كفوا عن اجتياح السهب الخالى ، اذ لم يبق لهم ما ينهبونه . وخلال السنين العشر من «الاضطراب الكبير» قطع الادعياء واللصوص والفرسان البولونيون الارض الروسية كلها بالسيف والنار صقعا صقعا ، وتفشت المجاعة الشديدة ، فاكل الناس روث الخيول ، واللحم البشرى المملح . وسرى الوباء الاسود . ونزح الباقون الى الشمال ، الى البحر الابيض ، والاورال ، وسيبيريا .

وكان البطريق قد اشار على افراد الفئة العليا الذين اصابهم الفقر ، والتجار الوافدين بعد كساد بضائعهم والفلاحين الصارمين من بقاع الشمال والفولغا – ، بان يختاروا صبيا عينه لهم ليكون قيصرا على موسكو . فجاءوا به مرعوبا فى تلك الايام العصيبة على زلاجة ماضين به خلال طرق الربيع الموحلة الى الاسوار المحروقة المحيطة بموسكو ، المقفرة المدمرة الى اخرها ، بعد ان حررت من المغيرين البولونيين بجهود جبارة ، جاءوا به نحو موسكو المحروقة التى لم تكن الا اكواما من الرماد . وكان القيصر الجديد لا يحسن غير البكاء والصلاة . فظل يبكى ويصلى ناظرا من نافذة الزلاجة بجزع الى حشود الروس المهلهلى الثياب المتوحشين الذين طلعوا لاستقباله وراء

بوابات موسكو . ولم تكن للروس ثقة كبيرة بالقيصر الجديد . ولكن كان يجب ان يعيشوا ، وبداوا يعيشون . اقترضوا النقود من تجار ستروغانوف . وشرع سكان المدينة يشيدون ، والفلاحون يحرثون الارض القفراء . وارسل الطيبون من الناس على الخيول وعلى الاقدام لتنظيف الطرق من اللصوص . عاش الناس فى فقر وشظف ، وقدموا آيات الاجلال للقرم ، والليتوانيين والسويديين . وحافظوا على ايمانهم ، وعرفوا ان هناك قوة واحدة هى الشعب القوى الحاذق النشيط المقتدر . واملوا ان يتغلبوا على المصاعب ، فتغلبوا عليها . ومن جديد بدأ العمران يشيع فى الارض الخراب . . .»

صفق ايفان ايليتش الكتاب :

– ها انت ترين . . . لن نهلك الان . . . لن تهلك روسيا العظيمة بينما احفاد اولئك الفلاحين المهلهلين الذين هبوا والرماح بايديهم لينقذوا موسكو ، دحروا كارل الثانى عشر ونابليون . . اما حفيد ذلك الصبى الذى جلبوه الى موسكو على زلاجة بالقوة فشيد بطرسبورغ . . . لن تهلك روسيا العظيمة ! . . وقضاء واحد يكفى لأن تعيد الارض الروسية . . .

ونخر ، وراح يتطلع فى النافذة التى تنور وراءها صباح رطب . اسندت داشا رأسها الى كتفه ، فاخذ هو يمسده ، وقبلها من شعرها .

– اذهبى للنوم ، يا خايفة . . .

ضحكت داشا ، وودعته وذهبت . وعند الباب التفتت وقالت :

– ايفان ، ان كاتيا متيمة به . . .

– حسن ، انه رجل رائع . . .

كان المساء حارا ساكن الريح . والهواء يفوح برائحة بنزين محروق وقطران الارصفة الخشبية . وكانت حشود الناس تسير فى جادة نيفسكى مبرقشة اللباس وبلا نظام وسط الابخرة ودخان السيكائر . وكانت سيارات الحكومة تنطلق باعلامها المرفرفة مقوقعة زاعقة . وكانت اصوات الصبيان الحادة ، باعة الجرائد تصرخ

بالانباء المثيرة التى لم يعد احد يصدق بها . وكان باعة السيكائر وعلب الكبريت والاشياء المسروقة يتسللون شاقين طريقهم عبر حشود الناس . وفى حدائق الساحات العامة كان الجنود يستلقون على العشب وسط احواض الزهور يقضمون حبوب عباد الشمس .

خرجت كاتيا وحدها من جادة نيفسكى . كان روتشين قد اتفق معها على ان يكون بانتظارها فى حوالى الساعة الثامنة فى رصيف النهر . انعطفت كاتيا نحو ساحة القصر . كانت مصابيح صفراء تشع من النوافذ السوداء فى الطابق الثانى من هذا القصر القانى الحمرة الجهم الذى كانت بعض السيارات تقف عند مدخله ، والجنود والسواق يروحون ويجيئون ضاحكين . مرت دراجة بخارية مقرقعة يسوقها ساع صبى وضع على راسه قبعة سائق وقد قبب الهواء قميصه وراء ظهره .

وفى شرفة فى ركن وقف رجل عجوز ذو لحية طويلة بيضاء مرتفقا على الدرابزين ساكن الحركة . التفتت كاتيا وراءها وهى تستدير حول القصر فرات الخيول البرونزية الخفيفة تحت طاق مقر هيئة الاركان العامة ما تزال تشب على قوائمها الخلفية باتجاه مغرب الشمس . عبرت كاتيا الرصيف وجلست على مسطبة غرانيتية قرب النهر . كانت معالم الجسور الشفافة الضاربة الى الزرقة تتدلى فوق النيفا الجارى بونى . وكان البرج المستدق لكاتدرائية بطرس وبولس ينعكس فى النهر كالذهب الابريز . وفى النهر كان زورق بائس المظهر يتحرك خلال الانعكاسات المتلالئة . ووراء منطقة بطرسبورغسكايا ، وراء السطوح والادخنة كان قرص الشمس المنطفئ يغوص فى وهج برتقالى اللون .

وضعت كاتيا يديها على ركبتيها ، وراحت تحدق بهدوء فى هذا الافول ، وتنتظر فاديم بيتروفيتش وادعة صابرة .وقد جاء فاديم بتروفيتش من الخلف دون ان تلحظه ، اسند مرفقيه على السدة الغرانيتية ورنا اليها من عل . احست كاتيا به ، فالتفتت ، ونهضت وعلى ثغرها ابتسامة . كان ينظر اليها نظرة غريبة ذاهلة . صعدت السلم الى رصيف النهر ، وامسكت يد روتشين . وسار الاثنان . سالته كاتيا بخفوت :

— ماذا ؟

22*

تلوت شفتاه ، هز كتفيه ولم يجب . عبرا جسر ترويتسكى ، وفى بداية جادة كامينواوستروفسكى اوما روتشين براسه الى دارة * كبيرة كسيت جدرانها الخارجية بالبلاط البنى . كانت النوافذ الواسعة لحديقة الشتاء تطفح بضوء ساطع . وعند المدخل وقفت بعض الدراجات البخارية .

ان هذه الدارة العائدة لراقصة باليه مشهورة تحولت الان الى مقر رئيسى للبلاشفة . كانت دقات الآلآت الكاتبة تسمع منها ليل نهار . وكان جمهور غفير من العمال والجنود العائدين من الجبهة والبحارة يحتشد كل يوم امامها فيطل من الشرفة زعيم حزب البلاشفة ويتحدث عن ضرورة اخذ العمال والفلاحين للسلطة بالقوة ، وانهاء الحرب فورا ، واقامة نظام جديد عادل فى بلادهم وفى العالم اجمع .

قال روتشين من خلال اسنانه :

— قبل حين كنت واقفا هنا مع الحشد فسمعت من هذه الشرفة كلمات نارية لاهبة . والناس يستمعون ... ليتك شاهدت كيف كانوا يصغون !.. انا لا اعرف الان : من الغرباء فى هذه المدينة : نحن ام هم ؟ (واوما الى شرفة الدارة) انهم لم يعودوا يصغون الينا ... نحن نتمتم بكلمات فارغة من المعنى ...عندما جئت الى هنا كنت اعرف اننى روسى ... اما هنا فانا غريب ... انا لا افهم ، لا افهم ...

وتوغلا فى جادة كامينواوستروفسكى . لحق بهم شخص فى معطف رث وقبعة من القش . كان يحمل دلوا فى احدى يديه ، وحزمة من اعلانات فى الاخرى ...

قال روتشين بصوت اجوف ، واستدار لكيلا ترى كاتيا وجهه العابس :

— انا افهم شيئا واحدا ، هو ان البقعة الحية المشعة فى هذه الفوضى هى قلبك ، يا كاتيا ... انا وانت يجب الا نفترق ...

اجابت كاتيا بخفوت :

— لم اجرؤ ان اقول ذلك لك ... ولكن كيف لنا ان نفترق ، يا صديقى العزيز ...

---

* استعملت هذه اللفظة عوضا عن الفيلا **(المترجم)** .

وصلا الى المكان الذى الصق فيه الرجل حامل الدلو من توه اعلانا ابيض غير كبير على الحائط . ولان كليهما كان متاثرا فقد توقفا لبرهة . وفى ضوء مصباح الشارع كان من الممكن ان يقرا فى الاعلان : «الى الجميع ! الى الجميع ! الى الجميع ! الثورة فى خطر ! . . .»

— يكاترينا دميترييفنا !

نادى روتشين وتناول يد كاتيا النحيلة ، وتابع سيره البطىء فى الجادة الواسعة التى ركنت الى الهدوء مع هبوط الظلام ، بينما الشفق المسائى لم يهمد بعد فى طرفه القصى .

— ستمر سنون ، وتزول الحروب ، وتهدأ الثورات ، ويبقى شىء واحد غير خامد هو قلبك الحبيب الوديع الرقيق . . .

ومن خلال النوافذ المفتوحة فى البيوت الكبيرة تناهت اليهما اصوات مرحة ، ونقاشات ، وانغام موسيقى . ومرة اخرى سبقهما الرجل المحنى الظهر يحمل دلوه ، والتفت وهو يلصق اعلانا آخر . ومن تحت قبعة القش المهلهلة تفرست بهما عيناه المتقدتان بالكراهية .

آب ١٩٢١

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ٢١

موسكو ـ الاتحاد السوفييتى

22—2290